

الدبلوماسية



هنري كيسنجر

تقديم : محمد عبد المنعم

ترجمة : فوزى وفاء

الجزء الأول



اهداءات ٢٠٠٣
أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني
الإسكندرية

الدبلوماسية

الكتاب الذهبى

مؤسسة روز اليوسف

◆

رئيس التحرير : **محمد عبد المنعم**

الكتاب : **الدبلوماسية**

الكاتب : **هنرى كيسنجر**

المترجم : **فوزى وفاء**

◆

الغلاف : **محمد الصباغ**

الإخراج : **أحمد رزق**

◆

رقم الإيداع : ٩٠٠٧/ ٢٠٠١

الترقيم الدولى : 977-201-053-4

◆

النسخة الإنجليزية من هذا الكتاب

صادرة عن دار نشر (ناشيونال بيست سيلر)

◆

المراسلات باسم : **محمد عبد المنعم**

رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير روز اليوسف

٨٩ أ شارع قصر العينى ـ القاهرة

ت ـ ٧٩٢٠٥٤٠/ ٧٩٢٠٥٣٩/٧٩٢٠٥٣٨/٧٩٢٠٥٣٧

فاكسميلى : روز اليوسف ٧٩٥٦٤١٣

E-mail-rosa

rosa @gega.net





تقديم : محمد عبد المنعم

ترجمة : فوزى وفاء

الجزء الاول

الناشر
الكتاب الذهبى
مؤسسة روز اليوسف



تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

المحتويات




تليجرام : هنا سور الازبكية
أكبر مكتبة رقمية

تقــديم

لفت نظرى إلى هذا الكتاب صديق عزيز هو المهندس عبدالمنعم منتصر الذى لمس أهمية ما يحتويه هذا الكتاب من معلومات هائلة بالغة الأهمية.. ينبغى أن يلم بها أى إنسان عصرى يهتم بالشئون السياسية والأحداث العالمية.

الغريب أن هذا الصديق لم يكن قد قرأ الكتاب باللغة الإنجليزية. لكن قرأه من خلال ترجمة عربية فشعر بحسه العميق أن الترجمة كانت غير دقيقة ومن ثم لم تنقل المعانى العميقة والقيمة الحقيقية لتلك المعلومات التى جاءت فى الكتاب الأصلى، وكان رجاء صديقى أن تتولى «روزاليوسف» ترجمة هذا الكتاب القيم ترجمة دقيقة تتيح للقارئ معرفة أساسية وضرورية لكل ما يجرى حولنا إلى يومنا هذا، ومن هذا المنطلق، وهو ضرورة الأمانة الشديدة، وتوخى الدقة عند الترجمة، ونظرا لأهمية هذا الكتاب القيم.. كان الموقف بالنسبة لنا نوعا من التحدى، خاصة بعدما قمت بقراءة الكتاب باللغة الإنجليزية ووجدت أنه لا يحتاج فقط إلى مجرد ترجمة واعية وأمينة، بل يجب أن يعهد بهذا العمل إلى مترجم من طراز خاص، لابد أن يكون متمتعا بثقافة ودراية واسعة، ومعرفة وثيقة بالثقافة الغربية وبتاريخ العالم الغربى بشكل عام. ومن ثم كان اختيارنا بإسناد هذه المهمة إلى الصديق والزميل القدير فوزى وفاء ليقوم بترجمة هذا الكتاب المهم.. فهو يتمتع بدراية

واسعة - أولا - باللغة الإنجليزية وثانيا: بالثقافة الغربية، وثالثا: بكم هائل من المعلومات العامة جعلت منه شخصية شديدة الخصوصية.

نعم، لقد مثل لنا هذا الكتاب نوعا من التحدى.. ليس فقط فى التقديم الأمين والدقيق لما ورد به من معلومات ووقائع.. لكن أيضا كان هناك تحدٍ آخر، نقدم من خلاله مقارنة حية لإمكاناتنا فى الترجمة التى تمثل وسيلة عظيمة من وسائل نقل المعرفة، بل وتعتبر شريانا حيويا للتواصل والحوار والتقارب بين الثقافات والشعوب والحضارات المختلفة. فلولا الترجمة لما استمرت شعلة الحضارة تنتقل من أمة إلى أخرى، ومن قارة إلى قارة على مدار قرون طويلة مضت.

وإذا كان المثل الدارج يقول «إن المترجم خائن» لأنه ليس هناك من يستطيع أن ينقل الفكر والمعنى وروح النص كما جاء فى لغته الأصلية إلى لغة أخرى. فإذا كان هذا المثل صحيحا، فإنه صحيح أيضا أن هناك من المترجمين من هم ليسوا بخونة للأمانة الأدبية على الإطلاق، بل نجدهم أمناء إلى أقصى حد فى نقل كافة تفاصيل الفكرة والمعلومة والقصة والحدث وأيضا التركيبة اللغوية، يفعلون هذا بأمانة شديدة وصبر بالغ ودقة متناهية بعد أن يتحدوا مع عقل المفكر الأصلي ويعايشوه كما لو كانوا صورة مستنسخة عقليا ووجدانيا من الكاتب أو المفكر أو العالم الأصلى، وبذلك يقدمون خدمة جليلة لمجتمعهم عن طريق اطلاع شعوبهم على ما يدور في عقول الآخرين.. وهم فى الوقت نفسه يشعرون بمتعة شديدة لكونهم أداة تواصل واتصال بين مجتمعين قد يكونان متباينين، لكن تظل تجمع بينهما الإمكانات والقدرات البشرية وحلم التواصل الإنسانى

بين شعوب الحضارات والمناطق الجغرافية المختلفة.

لعل أهمية هذا الكتاب ترجع أيضا إلى شخصية كاتبه وهو داهية الدبلوماسية فى القرن العشرين الدكتور هنرى كيسنجر الذى كان وزيرا للخارجية الأمريكية فى عهدى ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد، والحاصل أيضا على جائزة نوبل.. حيث يسرد كيسنجر في هذا الكتاب تاريخ الدبلوماسية فى العالم منذ أن بدأ العمل بها بين الدول والشعوب.

إن هذا الكتاب يعتبر وثيقة من أهم الوثائق التاريخية والسياسية والدبلوماسية عن تاريخ العالم من خلال نظريات وتحركات كبار السياسيين والدبلوماسيين الذين تحكموا فى توجهات دول العالم قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها.. وفى الحرب العالمية الثانية، والحرب الكورية، وحرب فيتنام وحرب أكتوبر ٧٣ وغيرها من الحروب التى تجتاح العالم من آن لآخر ، ويتحدث عن النظريات الخطيرة فى المجال السياسى التى تبنتها وطبقتها تلك الشخصيات وحققت أحيانا النصر أو باءت بالفشل والهزيمة فى أحيان أخرى.

ويشير كيسنجر إلى سياسة القوة التى وضع أسسها الفيلسوف السياسى ورجل الدولة الإيطالى «ميكافيللى» والتى كان هدفها الأول هو كيفية توفير الوسائل اللازمة للدولة حتى يصبح فى قدرتها توفير الحماية لنفسها من العدوان الخارجي، ثم أساليب الحكم الملائمة لتحقيق الهدف، وكيف يمكن للحاكم أو «الأمير» أن يحتفظ بسلطته السياسية ويمارسها، وقد جعل كل ذلك «ميكافيللى» اسما يرتبط بالدهاء والبعد عن الأخلاق وأن الغاية تبرر الوسيلة، وكان الرجل بذلك هو واضع نظرية سياسة القوة منذ القرنين

الخامس عشر والسادس عشر، ولاشك أن هناك دولا فى شتى قارات العالم مازالت تتبع هذه السياسة حتى الآن.

يناقش الكتاب أيضا نظرية ميزان القوى التى اعتنقها كثير من الدول فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومازالت تطبق حتى الآن فى القرن الواحد والعشرين، ولعل رؤساء مصر كلهم أدركوا هذه النظرية وعملوا بها، غير أن ما لحق بمصر من هزيمة عام ١٩٦٧ كان أحد أسبابه سوء تقدير شديد لموازين القوى فى ذلك الوقت. ولعل نصر أكتوبر المجيد قد جاء فى توقيته المناسب تماما لكى تبدأ بعد ذلك جهود الدبلوماسية والاتجاه إلى الحل السلمى، وهى الجهود التى كللت كلها بالنجاح لاسترداد الأرض المصرية بكامل مساحتها وترابها الوطنى.

ويتطرق كيسنجر بعد ذلك لنظريات ما بعد الحرب العالمية الأولى والتى لم تنظر إلى الحرب على أنها الأداة المنطقية لتحقق الدول مصالحها الوطنية والاقتصادية، فلا ينبغى أن تلجأ الدولة للحرب إلا إذا تطورت الأمور بما يهدد مصالحها الحيوية بصفة مباشرة تماما، ولعل بريطانيا كانت الأكثر التزاما بهذا المبدأ فى وقت ما عندما اتبعت سياسة العزلة وعدم التورط فى مشاكل أوروبا البعيدة عنها، وهو ما فعلته أيضا الولايات المتحدة قبل الحربين العالميتين الأولى والثانية.

وقد كان لقيام الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ دور كبير فى تغيير مناهج الفكر السياسى والدبلوماسى، وتغيرت نظريات التعامل بين الدول.. ليبدأ ما يسمى بالتعايش السلمى، ثم انتهاجها سياسة الوفاق.

الآن نحن نعيش عالما آخر، حدثت فيه تطورات كثيرة وانهار

المعسكر الشيوعى، واختلفت مفاهيم السياسات والدبلوماسية اختلافا كبيرا عن ذى قبل.

إن الدبلوماسية ليست فنا من فنون الاستعراض أو اعتلاء مسرح السلطة لكنها علم وفن وخبرة وقدرة على التكيف والمرونة والمناورة.... إلخ، وذلك لإدارة العلاقات الدولية، وبشكل أساسى عن طريق المفاوضات والحوار.. وهذا أمر بالغ الصعوبة، لأنه يعتمد على قدرة إنسان ما على تغيير مسرح الأحداث، بما يتناسب مع رؤيته ومصالح وطنه.. حيث يقوم الدبلوماسيون بتحديد الأهداف والاستراتيجيات التى يجب اتباعها لتحقيق هذه الأهداف والحفاظ على مصالح الدولة فى علاقاتها بالدول الأخرى، وهم - الدبلوماسيون - فى ذلك ينفردون فى وقت السلم بالحفاظ على المصالح العليا للدولة وفى حالة نجاحهم فى تحقيق هذا الهدف بكفاءة يظل العسكريون فى منأى عن الحرب التى بلغت الآن - بسبب الابتكارات الحديثة - أبعادا مخيفة، أما عندما يتحدث الدبلوماسيون أو يلجأون إلى خيار القتال والعمليات العسكرية، فمعنى ذلك أنهم فشلوا تماما فى أداء مهامهم الأساسية، وبالتالى قاموا بإلقاء الكرة الملتهبة فى ملعب العسكريين.

لكل هذه المعانى والمفاهيم المهمة.. أخذنا على عاتقنا مهمة خروج هذا الكتاب للنور فى طبعة عربية دقيقة تراعى كافة جوانب هذا العمل الذى نحن فى حاجة ماسة لإضافته لمكتبتنا العربية حتى يشع منها إلى عقل وفكر كل واحد منا.. يقبله أو يلفظه، ولكن فى جميع الحالات فإنه سيضيف شيئا هاما وجديدا إلى أسلوب حياته وتفكيره، وفهمه لما يجرى فى هذا العالم الكبير.

محمد عبدالمنعم



■ الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون يلقي خطابا في مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس - ٢٥ يناير ١٩١٩

الفصل الأول

النظام العالمي الجديد

يبدو أن هناك على وجه التقريب قانونا طبيعيا ، يجعل في كل قرن من الزمان بلدا لديه القوة، والإرادة ، والدافع الفكري والمعنوي لتشكيل النظام الدولي وفقا لقيم هذا البلد الخاصة. ففي القرن السابع عشر استخدمت فرنسا في عهد الكاردينال ريشيليو Richelieu منهجا جديدا في العلاقات الدولية كان يقوم على أساس الدولة القومية (دولة مكونة من قومية واحدة لا من قوميات متعددة) التي يكون دافعها وهدفها النهائي هو تحقيق المصالح القومية . وفي القرن الثامن عشر طورت بريطانيا مفهوم ميزان القوى الذي سيطر على الدبلوماسية الأوروبية طيلة مائتي عام . وفي القرن التاسع عشر أعاد النمساوي ميترنيخ Metternich تشكيل الحلف الأوروبي (اتفاق الدول الأوروبية خلال القرن التاسع عشر) وقام بسمارك Bismark في ألمانيا بحل ذلك الحلف وأضفي على الدبلوماسية الأوروبية شكلا جديدا وحولها إلى مباراة وحشية تستخدم فيها سياسة القوة .

وفي القرن التاسع عشر ، لم يكن هناك أي بلد له تأثير في العلاقات الدولية بطريقة حاسمة وغامضة مثل الولايات المتحدة . فلم يحدث أن كان هناك مجتمع غير الولايات المتحدة أصر بإصرار وحزم على عدم السماح بالتدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى أو أكد بحماس شديد أن قيمه الخاصة يمكن أن تطبق في العالم كله . ولم تكن هناك أمة غير الولايات المتحدة تتمسك بقدر كبير بالناحية العملية في الإدارة اليومية لدبلوماسيتها ، أو تتمسك بمذهبها الأيديولوجي عند اتباع ما اقتنعت به تاريخيا من الناحية الأخلاقية . ولم يكن هناك كذلك بلد أكثر معارضة للزج بنفسه في الخارج حتى في حالة التعهد بأحلاف والتزامات ذات امتداد ونطاق غير مسبوقين.

إن صفات العظمة المميزة التي أضفتها أمريكا على نفسها طوال تاريخها أسفرت عن اتجاهين متعارضين إزاء السياسة الخارجية . الاتجاه الأول هو أن تخدم أمريكا قيمها

بأفضل الوسائل عن طريق تحقيق الديمقراطية على أصح وجه في الداخل ، وبذلك تصبح منارة لباقي العالم . والاتجاه الثاني هو أن قيم أمريكا تفرض عليها التزاما بأن تحارب من أجل هذه القيم في العالم أجمع . وفي الحيرة بين الحنين إلى ماض قديم محتفظ بنقائه وبين تحقيق مستقبل مثالي ، تأرجح الفكر الأمريكي بين الانعزالية والالتزام رغم أنه منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية سادت ظاهرة حقيقية وهي ضرورة اعتماد كل بلد على الآخر. إن كلا مدرستي الفكر هاتين – أمريكا كمنارة وأمريكا كمحارب صليبي –تتصوران أنه من الطبيعي أن يكون هناك نظام عالمي دولي يقوم على أساس الديمقراطية ، وحرية التجارة ، والقانون الدولي . ولما لم يكن لهذا النظام وجود من قبل فقد كانت المجتمعات الأخرى تتصور أنه نظام مثالي (يوتوبيا) من ناحية وقد يكون نظاما يتسم بالسذاجة من ناحية أخرى . ورغم ذلك فإن جنوح الأجنبي إلى الشك لم يكن أبدا سببا في التقليل من وضوح مثالية الرئيس وودرو ويلسون أو رونالد ريجان أو حقيقة كل الرؤساء الأمريكيين في القرن العشرين . وقد عززت تلك الأفكار من إيمان أمريكا بأن التاريخ يمكن التغلب عليه وأنه إذا كان العالم يريد السلام حقا فإنه يحتاج إلى تطبيق «وصفة» الأخلاق الأمريكية .

لقد كانت مدرستا الفكر هاتان نتاجا للتجربة الأمريكية . ورغم أن جمهوريات أخرى وجدت في العالم إلا أن أحدا منها لم ينشأ بهدف تأكيد فكرة الحرية . فلم يحدث أن اختار شعب أي بلد آخر أن يتجه إلى قارة جديدة وأن يهذب قفورها باسم تحقيق الحرية والرخاء للجميع . وهكذا فإن المدرستين الانعزالية والتبشيرية رغم تعارضهما الشديد سطحيا إلا أنهما كانتا انعكاسا لإيمان كامن عام : وهو أن الولايات المتحدة لديها أفضل نظام حكومي، وأن بقية العالم يمكنها أن تحقق السلام والرخاء بالتخلي عن الدبلوماسية التقليدية وتبني الاحترام الأمريكي للقانون الدولي وللديمقراطية .

لقد كانت رحلة أمريكا في دروب السياسات الدولية انتصارا للإيمان على التجربة . ومنذ أن دخلت أمريكا حلبة السياسات الدولية في عام ١٩١٧ كانت متفوقة في القوة ومقتنعة اقتناعا شديدا بصحة مثلها العليا حتى أن اتفاقيات هذا البلد الدولية كانت تجسيدا للقيم الأمريكية ابتداء من عصبة الأمم واتفاق كيلوج برياند في Kilog Briand لميثاق الأمم المتحدة واتفاق هلسنكي الختامي . إن انهيار الشيوعية السوفيتية كان علامة على الإثبات النابع من الفكر للمثل العليا الأمريكية ومن دواعي السخرية أن ذلك وضع أمريكا وجها لوجه أمام نوع العالم الذي كانت تسعى إلى تجنبه طوال تاريخها . وفي النظام الدولي الآخذ في النشوء فإن القومية حصلت على رخصة جديدة للحياة . ولقد راحت الدول تعمل على تحقيق مصالحها الذاتية بدرجة أكبر من العمل على تحقيق المبادئ العليا وتنافست معا أكثر مما تعاونت معا . وليست هناك أدلة كافية تثبت أن هذا الأسلوب القديم في السلوك قد تغير أو

من المرجح أن يتغير في العقود القادمة .

والجديد في النظام الدولي الآخذ في الظهور هو أنه للمرة الأولي لا تستطيع الولايات المتحدة سواء الانسحاب من العالم أو السيطرة عليه . فأمريكا لا يمكنها أن تغير الطريق الذي سارت فيه وفقا لدورها طوال تاريخها بل هي لا تريد ذلك . وعندما دخلت أمريكا الساحة الدولية كانت صغيرة وقوية وكانت لديها القوة كي تجعل العالم يتكيف مع تصورها للعلاقات الدولية . وفي نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ كانت الولايات المتحدة في غاية القوة (ففي وقت من الأوقات كان ٣٣ في المائة من إنتاج العالم أمريكيا) لدرجة أنه كان يبدو أن قدر الولايات المتحدة هو أن تحدد شكل العالم وفقا لأفضلياتها .

ففي عام ١٩٦١ أعلن جون كنيدى بثقة شديدة أن أمريكا بلغت من القوة درجة تمكنها من دفع أي ثمن وتحمل أي عبء لضمان نجاح الحرية . وبعد ذلك بثلاثة عقود وجدت الولايات المتحدة نفسها في موقف لا يتيح لها أن تصر على تحقيق كل رغباتها فورا . فقد نمت دول أخرى وأصبحت دولا كبرى . وأصبحت الولايات المتحدة الآن تواجه تحدى تحقيق أهدافها على مراحل ، كل مرحلة منها مزيج من القيم الأمريكية وضروريات الجغرافيا السياسية . وإحدى تلك الضروريات الجديدة هي أن العالم الذي يتكون من عدة دول ذات قوة متقاربة ينبغي أن يتأسس نظامه على نوع من مفهوم التوازن – وهي فكرة لم تشعر الولايات المتحدة بارتياح لها إطلاقا .

فعندما تصادم الفكر الأمريكي المتعلق بالسياسة الخارجية مع التقاليد الدبلوماسية الأوروبية في مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٩ اتضحت بشكل كبير الفوارق بين التجارب التاريخية للجانبين . فقد حاول القادة الأوروبيون تجديد وصقل النظام القائم وفقا لطرق مألوفة ؛ وكان صانعو السلام الأمريكيون يعتقدون أن الحرب الكبرى لم تكن نتاجا لنزاعات جغرافية سياسية صعبت تسويتها بل كانت نتيجة ممارسات أوروبية خرقاء . وقد قال وودرو ويلسون للأوروبيين في نقاطه الأربعة عشرة الشهيرة أنه منذ الآن يجب أن يقوم النظام الدولي ليس على أساس توازن القوى بل على أساس تقرير المصير العرقي وأن أمنهم (أي الأوروبيين) لا ينبغي أن يعتمد على الأحلاف العسكرية بل على الأمن الجماعي ، وأن دبلوماسيتهم لا ينبغي أن تدار سرا بواسطة خبراء بل ينبغي أن تدار على أساس اتفاقيات يتم التوصل إليها علنا. ومن الواضح أن ويلسون لم يقترب كثيرا من مناقشة شروط إنهاء حرب ما أو استعادة النظام الدولي القائم لأنه كان عليه أن يعيد تشكيل نظام بأكمله للعلاقات الدولية إذ أن هذا النظام ظل يمارس طيلة ثلاثة قرون تقريبا .

وطالما أن الأمريكيين كانوا يمعنون الفكر في السياسة الخارجية فقد أرجعوا المشقة

التي عانتها أوروبا إلى نظام ميزان القوى . ومنذ الوقت الذي بدأت فيه أوروبا الاهتمام بالسياسة الخارجية الأمريكية فإن زعماءها كانوا ينظرون بارتياب إلى المهمة التي حددتها أمريكا لنفسها وهي إصلاح العالم . وقد تصرف كل جانب وكأن الجانب الآخر قد اختار بحرية طريقة سلوكه الدبلوماسي وأنه كان يمكنه إذا كان اكثر حكمة أو أقل عدوانية أن يختار طريقا آخر مقبولا بقدر أكبر .

والحقيقة ، أن الاتجاه الذي سار فيه كل من الأمريكيين والأوروبيين في السياسة الخارجية كان نتيجة لظروفهم الاستثنائية الخاصة . فقد عاش الأمريكيون في قارة خالية تقريبا يحميها من قوى النهب محيطان شاسعان وجيران من الدول الضعيفة . ولما لم تواجه أمريكا أي قوة تحتاج إلى التوازن معها فكان من الصعب أن تشغل نفسها بتحديات التوازن حتى لو كان قادتها قد استولت عليهم الفكرة الغريبة الخاصة بتقليد الظروف الأوروبية بين شعب ولى ظهره لأوروبا .

ولم تمس أمريكا مشكلات الأمن المزعجة التي عذبت أوروبا طيلة ١٥٠ عاما .وعندما بدأت هذه المشكلات تمسها اشتركت أمريكا مرتين في الحربين العالميتين التي كانت الأمم الأوروبية هي البادئة بهما . وفي كل مرحلة ، كانت أمريكا ما تكاد تتورط في المشاكل حتى يكون العمل وفقا لميزان القوي قد باء بالفشل وأسفر عن تلك مفارقة : وهي أن ميزان القوى الذي احتقره معظم الأمريكيين ضمن في الواقع أمن أمريكا طالما أنه كان يمارس وفقا لتصميمه ، وأن انهيار هذا الميزان هو الذي زج بأمريكا في مجال السياسات الدولية .

إن دول أوروبا لم تختر ميزان القوى كوسيلة لتنظيم علاقاتها بدافع من رغبة طبيعية كامنة في المشاكسة أو حب مثل حب العالم القديم للمؤامرات . وإذا كان التوكيد على القانون الدولي والديمقراطية هو نتيجة لإحساس أمريكا الفريد بالأمن فإن الدبلوماسية الأوروبية قد صيغت في مدرسة الضربات العنيفة .

لقد ألقي بأوروبا في سياسات ميزان القوى عندما انهار خيارها الأول وهو حلم العصور الوسطي في إقامة إمبراطورية عالمية . ونهضت من رماد هذا الأمل القديم عدة دول ذات قوة متكافئة تقريبا . وعندما تتعامل عدة دول بهذا التكوين بعضها مع بعض فلن تكون هناك سوى نتيجتين محتملتين لذلك : فإما أن تصبح دولة واحدة منها قوية إلى درجة أن تسيطر على جميع الدول الأخرى وتقيم إمبراطورية ، أو لا تصبح هناك أبدا دولة قوية بدرجة تتمكن معها من تحقيق هذا الهدف . وفي الحالة الأخيرة فإن طموحات أكثر الأعضاء عدوانية في المجتمع الدولي يكبحها تكاتف الدول الأخرى ضدها أو بمعنى آخر يكبحها العمل بتوازن القوى .

لم يكن هناك أي ادعاء بأن نظام ميزان القوى ينطوي على وسيلة لتجنب الحروب أو حتى الأزمات . فعندما يمارس هذا النظام على الوجه السليم يكون المقصود منه الحد من قدرة الدول على السيطرة على الآخرين والحد من نطاق المنازعات . أما هدفه فليس تحقيق السلام بقدر ما هو تحقيق الاستقرار والاعتدال . ووفقا لهذا النظام فإن أي ترتيب لميزان القوى لا يمكن أن يرضي كل عضو في النظام الدولي رضاء تاما ؛ وهذا الترتيب يعمل بأفضل طريقة عندما يبقي على مشاعر الاستياء دون المستوى الذي يدفع الطرف المظلوم إلى محاولة الإطاحة بالنظام الدولي .

وأصحاب نظريات ميزان القوى كثيرا ما يخلفون الانطباع بأن ميزان القوى هو الشكل الطبيعي للعلاقات الدولية . والواقع أن نظم ميزان القوى لم توجد إلا نادرا في تاريخ البشرية. فنصف الكرة الغربي لم يعرف أيا من تلك النظم إطلاقا ، ولم تعرفها أيضا منطقة الصين المعاصرة منذ نهاية فترة الدول المتحاربة قبل ألفي سنة . وبالنسبة للجزء الأكبر من البشرية ولأطول فترات التاريخ كانت الإمبراطورية هي الشكل النموذجي للحكم . فالإمبراطوريات لا تهتم بأن تدير شئونها في إطار نظام دولي ، فهي تطمح إلى أن تكون هي ذاتها النظام الدولي. والإمبراطوريات ليست في حاجة إلى ميزان للقوى . هكذا مارست الولايات المتحدة سياستها الخارجية في الأمريكيتين وفي الصين طوال معظم تاريخها في آسيا .

وفي الغرب ، فإن الأمثلة الوحيدة لنظم موازين القوى التي مورست بنجاح كانت بين المدن في اليونان القديمة وفي إيطاليا في عصر النهضة وفي نظام الدول الأوروبية الذي انبثق من صلح ويستفاليا عام ١٦٤٨ . والسمة المميزة لتلك النظم هي إبراز حقيقة من حقائق الحياة –وجعلها مبدأ يسترشد به النظام العالمي– وهذه الحقيقة هي أنه يوجد دائما عدد من الدول تتمتع واقعيا بقوة متساوية فعلا .

ومن الناحية الفكرية، فإن مفهوم ميزان القوى كان انعكاسا لإيمان كل كبار المفكرين السياسيين بحركة التنوير الفلسفية التي ظهرت في القرن العشرين . فمن رأي هؤلاء المفكرين أن العالم ، بما فيه المجال السياسي يعمل وفقا لمبادئ منطقية فيها توازن بين بعضها البعض . والأعمال التي تبدو ظاهريا أنها أعمال عشوائية لرجال عقلاء تتجه في مجموعها إلى تحقيق الخير العام ، رغم أن إثبات هذا الافتراض كان أمرا مراوغا في قرن المنازعات المستمرة الذي أعقب حرب الثلاثين عاما.

وقد ذكر آدام سميث Adam Smith في كتابه ثروة الأمم The Wealth of Nations أن ثمة يدا خفية تستقطر الخير الاقتصادي العام من أعمال اقتصادية تتسم بالفردية والأنانية . وفي الأوراق الفيدرالية The Federalist Papers قال ماديسون MADISON

أن الأحزاب السياسية المختلفة التي تسعى ، في جمهورية كبيرة نسبيا ، بأنانية لتحقيق مصالحها الخاصة تحقق بنوع من الآلية الأوتوماتيكية توافقا محليا حقيقيا . إن مفاهيم الفصل بين السلطات والمراقبة والموازنة كما عبر عنها مونتسكييه Montesquie وكما وردت في الدستور الأمريكي عكست الرأي ذاته .وكان الهدف من الفصل بين السلطات هو تجنب الاستبداد وعدم وجود حكومة متجانسة ؛ فكل فرع من فروع الحكومة سيعمل من خلال تحقيقه لمصلحته على الحد من التبذير وبالتالي يخدم الصالح العام . وقد طبقت نفس المبادئ في مجال الشئون الدولية. فكان من المفترض أن كل ولاية ستسهم وهي تحقق مصالحها الأنانية الخاصة في تحقيق التقدم ، وكأن هناك يدا خفية كانت تضمن أن حرية الاختيار لكل ولاية تؤكد سلامة كيان الولايات جميعا .

ويبدو أن هذا الأمر المتوقع تحقق طيلة قرن من الزمان . فبعد تغير الأوضاع بسبب الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، عاد قادة أوروبا إلى العمل بميزان القوى في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ وخففوا من الاعتماد الوحشي على القوة بمحاولة مراعاة الاعتدال في السلوك الدولي عن طريق إقامة روابط أخلاقية وقانونية . ورغم ذلك فبنهاية القرن التاسع عشر عاد نظام ميزان القوى الأوروبي إلى انتهاج مبادئ سياسات القوة وفي بيئة خلت من التسامح إلى حد كبير .

وأصبح الأسلوب القياسي للدبلوماسية هو مواجهة الخصم بجسارة مما أفضى إلى حدوث اختبارات للقوة واحد بعد الآخر . وأخيرا في عام ١٩١٤ نشبت أزمة لم ينج منها أحد . فلم تستعِد أوروبا بصورة كاملة قيادتها للعالم بعد كارثة الحرب العالمية الأولى . وظهرت الولايات المتحدة كلاعب له الغلبة، غير أن الرئيس وودرو ويلسون سرعان ما أوضح أن بلده يرفض أن يتبع في سياسته القواعد الأوروبية .

ولم يحدث في أي وقت في تاريخ أمريكا أن اشتركت في نظام لميزان القوى . فقبل الحربين العالميتين استفادت أمريكا من سريان ميزان القوى بدون أن تتورط في مناوراته واستمتعت في الوقت نفسه بترف إدانته كلما عن لها ذلك . وفي أثناء الحرب الباردة اشتركت أمريكا في صراع أيديولوجي وسياسي واستراتيجي مع الاتحاد السوفيتي سلكت فيه أكبر دولتين في العالم وفقا لمبادئ تختلف تماما عن مبادئ نظام ميزان القوى . فلا يمكن في عالم ذي دولتين كبيرتين ، التظاهر بأن الصراع سيؤدى إلى الخير العام : فأي مكسب يحققه طرف في الصراع هو خسارة للجانب الآخر . والواقع أن النصر بلا حرب هو ما حققته أمريكا في الحرب الباردة وهو نصر اضطرها أن تواجه المعضلة التي وصفها برنارد شو عندما قال: إن هناك مأساتين في الحياة إحداهما ألا تتحقق والأخرى أن تتحقق.

لقد اتبع قادة أمريكا ما أملته عليهم قيمهم كأمر مسلم به تماما حتى أنهم نادرا ما أدركوا أن هذه القيم يمكن أن تكون في نظر الآخرين قيما ثورية مثيرة للمتاعب .فلم يحدث أن أكد أي مجتمع آخر أن مبادئ السلوك الأخلاقي تنطبق على السلوك الدولي بنفس الطريقة التي تنطبق بها على سلوك الفرد – وهذا مفهوم يتناقض تماما مع ما أسماه ريشيليو Richelieu مصلحة الدولة العليا. لقد أكدت أمريكا أن منع نشوب الحرب هو تحد قانوني بمثل ما هو تحد دبلوماسي وأن ما تقاومه أمريكا ليس هو التغيير في حد ذاته ولكن الطريقة التي تتبع لإحداث هذا التغيير وخاصة باستخدام القوة . لو كان بسمارك أو دزرائيلي موجودين لسخرا من تلك المقولة التي تزعم أن السياسة الخارجية تتعلق بالأسلوب وليس بالجوهر . ولم يحدث أن فرضت أمة على نفسها المتطلبات الأخلاقية مثلما فعلت أمريكا . ولم يحدث أن عذبت أمة نفسها بسبب الفجوة بين قيمها الأخلاقية –وهي قيم جوهرية ثابتة كما هو واضح من تعريفها – وبين العيب المتأصل في المواقف الواقعية التي يجب أن تطبق فيها تلك القيم الأخلاقية .

وأثناء الحرب الباردة تناسب الاتجاه الأمريكي الفريد للسياسة الخارجية تناسبا رائعا مع التحدي الذي واجهته أمريكا في فترة تلك الحرب .فقد كان هناك صراع أيديولوجي معقد، ولم يكن هناك سوى بلد واحد – الولايات المتحدة – هو الذي في حوزته درع كامل من الوسائل – السياسية والاقتصادية والعسكرية – لتنظيم الدفاع عن العالم غير الشيوعي . وفي إمكان أمة في مثل هذا الموقف أن تصر على آرائها وكثيرا ما يمكنها أن تتجنب المشكلة التي يواجهها القادة السياسيون في مجتمعات أقل حظوة من المجتمع الأمريكي : وهي أن وسائلهم تضطرهم إلى محاولة تحقيق أهداف أقل طموحا من آمالهم وأن ظروفهم تتطلب منهم حتى أن يحققوا تلك الأهداف على مراحل .

وفي عالم الحرب الباردة تحطمت المفاهيم التقليدية للقوة . وقد كشفت معظم التطورات التاريخية عن وجود تركيبة من القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية ثبت بصفة عامة أنها تركيبة متناسقة . وفي فترة الحرب الباردة أصبحت العناصر المختلفة للقوة مميزة تماما . كان الاتحاد السوفيتي السابق قوة عسكرية عظمى غير أنه كان في الوقت نفسه قزما اقتصاديا قميئا .وكان من الممكن لبلد ما أن يصبح عملاقا اقتصاديا ولكن من الناحية العسكرية يكون غير ذي قيمة كما كان الحال مع اليابان .

ومن الممكن في عالم ما بعد الحرب الباردة أن تزداد العناصر المختلفة للقوة تجانسا وتناسقا. وأن تنهار القوة العسكرية النسبية للولايات المتحدة بالتدريج . ويتسبب عدم وجود عدو واضح تمام الوضوح في حدوث ضغط داخلي لتحويل الموارد من الدفاع إلى أولويات

أخرى – وهذه عملية بدأت بالفعل . وعندما لا يعود هناك أى تهديد ويدرك كل بلد مخاوفه من وجهة نظره الوطنية الخاصة ، فإن تلك المجتمعات التي استكانت تحت حماية الولايات المتحدة سوف تشعر بأنها أصبحت مضطرة لتحمل مسئولية أكبر من حيث المحافظة على أمنها . وبذلك فإن العمل بالنظام الدولي الجديد سوف يتجه إلى تحقيق التوازن حتى في الميدان العسكري رغم أن الأمر قد يستغرق عدة عقود للوصول إلى تلك المرحلة . وسيزداد وضوح تلك الاتجاهات في مجال الاقتصاد وهو المجال الذي انحسرت عنه السيطرة الأمريكية بالفعل، حيث أصبح تحدى الولايات المتحدة آمنا عن ذي قبل .

وسوف يكون التناقض الظاهري من العلامات المميزة للنظام الدولي في القرن الحادي والعشرين؛ فمن ناحية ستري التجزؤ ومن ناحية أخرى سترى تزايد العولمة . ومن حيث مستوى العلاقات بين الدول، فإن النظام الجديد سوف يشبه نظام الدول الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أكثر مما يشبه الأنماط الجامدة للحرب الباردة .وسوف يضم هذا النظام على الأقل ست دول كبرى – الولايات المتحدة وأوروبا والصين واليابان وروسيا ومن المحتمل الهند – وكذلك عددا وافرا من الدول الصغيرة والدول متوسطة الحجم . وفي الوقت نفسه ستكون العلاقات الدولية قد أصبحت عالمية حقا لأول مرة . فالاتصالات تتم في لحظتها ؛ والاقتصاد العالمي يطبق في جميع القارات في وقت واحد. وستكون قد ظهرت مجموعة كاملة من القضايا لا يمكن تسويتها إلا على أساس عالمي ، مثل قضايا الانتشار النووي والبيئة والانفجار السكاني واعتماد الدول اقتصاديا بعضها على بعض .

وبالنسبة لأمريكا فإن التوفيق بين القيم المختلفة والتجارب التاريخية شديدة الاختلاف بين دول ذات أهمية متقاربة سيكون تجربة جديدة وابتعادا كبيرا، إما عن عزلة القرن الماضي أو الهيمنة الواقعية في الحرب الباردة ، بطرق يحاول هذا الكتاب توضيحها . وبالمثل فإن اللاعبين الكبار الآخرين سيواجهون صعوبات في التأقلم مع النظام العالمي الجديد .

وقد اخترعت أوروبا – وهي الجزء الوحيد في العالم الحديث الذي عمل بنظام الدول المتعددة – مفهوم الدولة القومية (دولة ذات قومية واحدة)، ومفهوم السيادة ، وتوازن القوى. وقد سيطرت هذه الأفكار على الشئون الدولية طيلة الجزء الأكبر من ثلاثة قرون . غير أنه ليس هناك الآن من الممارسين السابقين في أوروبا لنظرية داعي المصلحة العليا (حجة تبرر بها الدولة ارتكابها لعمل يكون غير قانوني في أغلب الأحوال) من لديهم القوة الكافية ليقوموا بدور رئيسي في النظام الدولي الجديد الآخذ في الظهور . إنهم يحاولون تعويض هذا الضعف النسبي عن طريق تكوين أوروبا الموحدة ، وهو جهد يستنفد كثيرا من طاقاتهم . ولكن حتى

لو فرض أن نجحوا فلن تكون هناك خطوط إرشادية أوتوماتيكية جاهزة لسلوك أوروبا الموحدة على المسرح الدولي ، لأن هذا الكيان السياسي لم يوجد أبدا من قبل .

وقد كانت روسيا طوال تاريخها حالة خاصة . فقد وصلت متأخرة إلى مسرح الأحداث الأوروبي – بعد اندماج فرنسا وبريطانيا العظمى بفترة طويلة ولم يكن يبدو أن أيا من المبادئ التقليدية للدبلوماسية الأوروبية ينطبق عليها . وحيث أنها تتاخم ثلاث مناطق ثقافية مختلفة – أوروبا ، وآسيا ، والعالم الإسلامي – فقد ضمت روسيا سكانا من كل تلك المناطق وبهذا لم تكن دولة قومية بالمعنى الأوروبي . وكانت روسيا تغير شكلها بصفة مستمرة إذ كان حكامها يضمون إليها أراضى مجاورة ولهذا كانت روسيا إمبراطورية غير عادية بالمقارنة بأي من البلدان الأوروبية . وبالإضافة إلى ذلك فإن شخصية الدولة كانت تتغير مع كل غزو جديد إذ أنها كانت تضم إليها جماعة عرقية ليست روسية جديدة ومتململة تماما . وقد كان هذا أحد الأسباب التي اضطرت روسيا إلى الاحتفاظ بجيش ضخم لا علاقة لحجمه بأي تهديد ظاهري معقول لأمنها الخارجي .

ولما كانت الإمبراطورية الروسية ممزقة بين الحفاظ على الأمن الذي يستحوذ عليها بشكل مفرط وبين الحماس الشديد لحشد المؤيدين لها ؛ وبين متطلبات أوروبا وإغراءات آسيا فقد كان لها دور في تحقيق التوازن الأوروبي ولكنها لم تكن من الناحية العاطفية جزءا من هذا التوازن . وقد اندمجت متطلبات الغزو والأمن في أذهان القادة الروس . ومنذ مؤتمر فينا راحت الإمبراطورية الروسية تضع قواتها العسكرية في أراض أجنبية أكثر من أي دولة عظمى أخرى .والتحليلات كثيرا ما توضح أن نزعة التوسع الروسي منبعها إحساس بانعدام الأمن . غير أن الكتاب الروس كثيرا ما برروا اندفاع روسيا إلى الخارج وقالوا أنه يرجع إلى أن لدى روسيا مهمة خلاص مسيحية . ونادرا ما أظهرت روسيا في غزواتها إحساسا بأن هناك حدودا يجب أن تتوقف عندها ولما كانت مخططاتها تحبط ويكبح جماحها كانت تميل إلى الانسحاب تجتاحها مشاعر الاستياء الحزينة . لقد كانت روسيا في معظم تاريخها سببا يبحث عن فرصة .

وجدت روسيا ما بعد الشيوعية نفسها وسط حدود ليست لها سابقة في التاريخ . فعليها مثلما كان على أوروبا أن تكرس كثيرا من جهدها وطاقتها لإعادة تحديد هويتها . هل تحاول العودة إلى إيقاعها التاريخي وتستعيد الإمبراطورية المفقودة ؟ هل تنقل مركز ثقلها إلى الشرق وتصبح مشاركا أكثر فعالية في الدبلوماسية الآسيوية ؟ وبأي مبادئ وأساليب ستتصرف إزاء الاضطرابات التي تقع عند حدودها خاصة في منطقة الشرق الأوسط الملتهبة؟ سوف تظل روسيا دائما بلدا أساسيا بالنسبة للنظام العالمي وسوف تظل كذلك مصدر تهديد

ممكن لهذا النظام عندما يحدث الاضطراب الذي لا مفر منه المرتبط بالإجابة عن تلك الأسئلة.

والصين أيضا ، تواجه نظاما عالميا جديدا عليها . لقد ظلت الإمبراطورية الصينية طيلة ٢٠٠٠ عام توحد عالمها تحت حكم إمبراطوري واحد . ولا شك أن هذا الحكم ترنح في أوقات ما . فقد نشبت الحروب بكثرة في الصين بشكل لا يقل عن نشوبها في أوروبا . غير أنه لما كانت تلك الحروب تنشب بصفة عامة بين أطراف متنازعة على السلطة الإمبراطورية فقد كانت في طبيعتها أقرب إلى الحروب الأهلية منها إلى الحروب الدولية وسرعان ما كانت تؤدي ـ إن آجلا أم عاجلا ـ إلى ظهور سلطة مركزية جديدة .

وقبل القرن التاسع عشر ، لم يكن لدى الصين جار يستطيع منافستها في وضعها الرفيع، ولم تتصور الصين أبدا أن مثل هذا الجار يمكن أن يوجد . وجاء الغزاة من الخارج وأطاحوا بالأسر الحاكمة الصينية لكي تستوعبهم الثقافة الصينية إلى حد أنهم استمروا في اتباع تقاليد المملكة الوسطى . ولم توجد في الصين فكرة المساواة في السيادة بين الولايات ، أما الأجانب فكانوا يعتبرون همجا برابرة وكانوا يوضعون في مرتبة أدنى – وهكذا استقبل أول مبعوث بريطاني إلى بكين في القرن الثامن عشر . وقد ترفعت الصين عن إيفاد مبعوثين لها في الخارج ولكنها لم تمتنع عن استخدام الهمج البعيدين عنها للتغلب على الهمج القريبين منها . ومع ذلك فقد كانت تلك استراتيجية طوارئ ولم تكن نظام عمل يتغير وفقا لم يحدث بين يوم وآخر على غرار نظام ميزان القوى الأوروبي ، ولم ينجح هذا النظام في إنشاء مؤسسة دبلوماسية دائمة مثلما فعلت أوروبا . وبعد أن أصبحت الصين رعية ممتهنة خاضعة للاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر ، لم تعد إلى الظهور إلا أخيرا – منذ الحرب العالمية الثانية – كمجتمع متعدد الأقطاب لم يسبق له مثيل في تاريخها .

واليابان أيضا عزلت نفسها عن كل اتصال بالعالم الخارجي . ولم تتنازل اليابان طيلة ٥٠٠ عام قبل أن يفتحها بالقوة القائد ماثيو بيرى Commodore Matthew Pery في عام ١٨٥٤ وتوفق بين الهمج البرابرة بعضهم وبعض أو تجعل علاقتهم معها علاقات تبعية كما فعل الصينيون.

وعندما أغلقت اليابان نفسها عن العالم الخارجي ، راحت تعتز بأعرافها الفريدة وراحت ترضي تقاليدها الحربية بالدخول في حروب أهلية وأقامت بنيتها الداخلية على أساس الاقتناع بأن ثقافتها الفريدة غير قابلة لأن تتعرض لأي مؤثر خارجي لأنها أسمى من هذا المؤثر وهي في النهاية لن تستوعبه بل ستهزمه .

وفي الحرب الباردة ، عندما كان الاتحاد السوفيتي أكثر مصدر يهدد الأمن، استطاعت

اليابان أن تجعل سياستها الخارجية تماثل سياسة أمريكا التي تقع على بعد آلاف الأميال منها . ومن المؤكد تقريبا أن النظام العالمي الجديد ، بتعدد تحدياته ، سيرغم بلدا مثل اليابان –له هذا الماضي الذي يفخر به فخرا شديدا – على إعادة النظر في اعتماده على حليف واحد. ومن المحتم أن تصبح اليابان أكثر حساسية لميزان القوى الآسيوي من الولايات المتحدة التي تقع في نصف كرة آخر وتواجه ثلاثة اتجاهات – عبر الأطلنطي ، وعبر المحيط الهادئ ونحو أمريكا الجنوبية . وسوف يصبح للصين وكوريا وجنوب شرقي آسيا أهمية مختلفة جدا بالنسبة لليابان عنها بالنسبة للولايات المتحدة ، وسوف تضع اليابان سياسة خارجية يابانية أكثر استقلالا وأكثر اعتمادا على الذات .

أما بالنسبة للهند ، التي تبزغ الآن بوصفها الدولة الكبرى في جنوب آسيا ، فإن سياستها الخارجية في كثير من الأوجه هي آخر آثار الاستعمار الأوروبي في ذروته ، مضافا إليها خميرة تقاليد ثقافة قديمة . وقبل وصول البريطانيين إلى الهند كانت قد مرت آلاف السنين على شبه القارة الهندية دون أن تحكم كوحدة سياسية واحدة . وقد تم الاستعمار البريطاني بقوات عسكرية صغيرة لأن السكان المحليين في البداية رأوا أن البريطانيين ما هم إلا جماعة من الغزاة حلت محل جماعة أخرى من الغزاة أيضا . غير أنه بعد أن أقامت الهند الحكم الموحد تقوضت الإمبراطورية البريطانية على صخرة نفس القيم الخاصة بضرورة وجود حكومة شعبية وثقافة وطنية، وهي القيم التي قامت بريطانيا بغرسها في الهند . ومع ذلك فإن الهند كدولة قومية تعتبر وافدا جديدا . وأثناء الحرب الباردة وبينما كانت الهند مستغرقة في توفير الغذاء لسكانها انضمت على نطاق ضيق إلى حركة عدم الانحياز . غير أنه كان عليها بعد ذلك أن تقوم بدور يتناسب مع حجمها على المسرح السياسي الدولي .

وهكذا ، وفي الواقع ، فلم يكن لدى أي من أهم الدول التي يجب أن تقيم نظاما عالميا جديدا أي خبرة تتعلق بنظام تعدد الدول الآخذ في الظهور . ولم يحدث أبدا من قبل أنه كان من الضروري لإقامة نظام عالمي جديد تجميعه من مفاهيم كثيرة مختلفة أشد الاختلاف أو إقامته على مثل هذا النطاق العالمي . ولم يحدث أيضا من قبل أنه كان لابد لنظام سابق أن يضم كل خصائص نظم موازين القوى التاريخية والرأي الديمقراطي العالمي والتكنولوجيا المتفجرة للفترة المعاصرة .

وبإلقاء نظرة على الماضي ، يتضح أن كل النظم الدولية فيها تناسق حتمي . فعندما تقام هذه النظم يصبح من الصعب أن نتصور كيف كان يمكن أن يمضي التاريخ في مسيرته لو وقع الاختيار على نظم مغايرة أو هل كان يمكن الوقوع على أي خيارات أخرى . فعندما يوجد نظام دولي لأول مرة قد تنفتح أمامه في أول الأمر خيارات كثيرة . غير أن كل خيار منها يقيد

وجود مجموع الخيارات الباقية . ولأن التعقيد يقضي على المرونة فإن الخيارات الأولي تكون خيارات مهمة وحاسمة بصفة خاصة . وسواء كان النظام الدولي مستقرا نسبيا ، مثل النظام الذي ظهر في أعقاب مؤتمر فيينا ، أو كان نظاما متقلبا مثل النظم التي جاءت في أعقاب صلح ويستفاليا ومعاهدة فرساي فهذا يتوقف على الدرجة التي يصل إليها النظام في التوفيق بين ما يجعل الجماعات التأسيسية تشعر أنها آمنة وبين ما تعتبره هذه الجماعات عدلا .

والنظامان الدوليان اللذان كانا أكثر استقرارا – نظام مؤتمر فيينا والنظام الذي سيطرت عليه الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية – كانت لهما ميزة وهي أن المفاهيم المتعلقة بهما كانت متماثلة . فقد كان رجال الدولة في فيينا من الأرستقراطيين الذين كانت نظرتهم إلى الأمور غير الملموسة واحدة وكان بينهم اتفاق حول الأمور الأساسية ؛ أما القادة الأمريكيون الذين شكلوا عالم ما بعد الحرب فقد جاءوا من بيئة فكرية ذات تماسك وحيوية غير عاديين .

والنظام الآخذ في الظهور الآن لابد أن يقيمه قادة سياسيون يمثلون ثقافات بينها اختلافات كبيرة . فهم يديرون بيروقراطيات بالغة التعقيد لدرجة أن قوة هؤلاء القادة السياسيين غالبا ما تستنفد في خدمة الآلة الإدارية بدلا من أن تستنفد في تحديد غاية لهم. وهم يصعدون إلى قمة الشهرة بسبب صفات لديهم لا تكون بالضرورة هي الصفات اللازمة للحكم ولا تكون حتى صفات مناسبة تؤهلهم لإقامة نظام دولي . والنموذج الوحيد المتاح لنظام متعدد الدول هو النظام الذي أقامته المجتمعات الغربية والذي قد يرفضه كثيرون من الذين يشاركون فيه .

ومع ذلك فإن قيام وسقوط نظم دولية سابقة أقيمت على أساس دول متعددة – ابتداء من صلح ويستفاليا حتى وقتنا الراهن – هو التجربة الوحيدة التي يمكن أن يعتمد المرء عليها في محاولة فهم التحديات التي تواجه القادة السياسيين المعاصرين . إن دراسة التاريخ لا تجعل في الإمكان وضع كتيب تعليمات يمكن تطبيق ما يرد به أوتوماتيكيا ؛ فالتاريخ يعلم الناس عن طريق القياس ويلقي الضوء على النتائج المحتملة للمواقف المتشابهة . ولكن على كل جيل أن يحدد لنفسه أي المواقف هي التي تتشابه مع بعضها.

المفكرون يحللون عمل النظم الدولية ورجال الدولة أو القادة السياسيون يقومون بإنشاء تلك النظم . وهناك فارق شاسع بين منظور المحلل ومنظور القائد السياسي . فالمحلل يمكنه أن يختار المشكلة التي يريد دراستها بينما رجل الدولة تفرض عليه المشاكل فرضا . والمحلل يمكنه أن يكرس من الوقت ما يراه ضروريا لكي يصل إلى نتيجة واضحة ؛ أما التحدي

الصارخ أمام رجل الدولة فهو الضغط الناجم عن ضيق الوقت . والمحلل لا يواجه أي مخاطر، فإذا ثبت خطأ ما توصل إليه من نتائج فيمكنه أن يكتب بحثا آخر للمشكلة . أما رجل الدولة فلا يسمح له إلا بتخمين واحد وأخطاؤه لا يمكن الرجوع فيها . والمحلل تتاح له كل الحقائق ويحكم عليه بناء على قدراته الفكرية . أما رجل الدولة فيجب أن يتصرف بناء على تقديرات لا يمكن إثبات صحتها في الوقت الذي يضعها فيه ؛ وسوف يحكم عليه التاريخ على أساس حكمته في معالجة التغيير الحتمي، وقبل كل شيء على أساس كيفية محافظته على السلام . ولهذا فإن النظر في كيفية معالجة رجال الدولة لمشاكل النظام العالمي – ماذا نجح من جهودهم وماذا فشل ولماذا – ليس هو نهاية فهم الدبلوماسية المعاصرة رغم أنه قد يكون بدايته .



■ تيودور روزفلت

الفصل الثانى

العامل الحاسم

تيودور روزفلت أو وودرو ويلسون

حتى وقت مبكر من هذا القرن ، ساد الميل إلى الانعزالية في السياسة الخارجية الأمريكية . ثم حدث أن كان هناك عاملان دفعا بأمريكا إلى مجال الشئون العالمية : قوتها التي ازدادت على وجه السرعة، والانهيار التدريجي للنظام العالمي الذي تركز في أوروبا . وهناك رئاستان فاصلتان كانتا علامة على هذا التعاقب في تلك التطورات: رئاسة الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت Theodore Roosevelt والرئيس وودرو ويلسون Woodrow Wilson. هذان الرجلان أمسكا بعنان الحكومة عندما كانت الشئون العالمية تسحب أمه عاجزة عن اتخاذ أي قرار إلى دوامتها . وقد قدر الرجلان أن أمريكا عليها دور حاسم يجب أن تقوم به في مجال الشئون العالمية رغم أنهما بررا خروجها من العزلة بفلسفات تتعارض مع تقديرهما .

كان روزفلت محللا عميقا لميزان القوى .وقد أصر على أن يكون لأمريكا دور دولي لأن مصلحتها القومية تتطلب هذا الدور ولأنه كان يرى أنه لا يمكن تصور تحقيق ميزان عالمي للقوى بدون اشتراك أمريكا فيه . أما بالنسبة لويلسون فقد كانت مبرراته لأن يكون لأمريكا دور دولي في ميزان القوى ذو صبغة مسيحية : فأمريكا عليها التزام ليس إزاء ميزان القوى إنما إزاء نشر مبادئها في شتى أنحاء العالم . وأثناء إدارة ويلسون ظهرت أمريكا كلاعب أساسي في مجال الشئون العالمية ونادت بمبادئ رغم تعبيرها عن الحقيقة البديهية للفكر الأمريكي إلا أنها كانت رغم ذلك تمثل انحرافا ثوريا عن الطريق المعهود بالنسبة لدبلوماسيي العالم القديم . وفحوى تلك المبادئ أن السلام يعتمد على انتشار الديموقراطية، وأن الدول يجب أن يحكم عليها بنفس المعايير الأخلاقية التي يحكم بها على الأفراد ، وأن المصلحة القومية تتوقف على الالتزام بنظام قانوني دولي .

وبالنسبة للمتمرسين المتشددين في الدبلوماسية الأوروبية القائمة على أساس ميزان

القوى كانت آراء ويلسون عن الأساس الأخلاقي للسياسة الخارجية آراء غريبة بل وحتى تتسم بالنفاق . ورغم ذلك فقد عاشت الويلسونية(فلسفة ويلسون) بينما تخطى التاريخ تحفظات المعاصرين له . وكان ويلسون هو مؤسس فكرة إقامة منظمة دولية عالمية ، عصبة الأمم ، يكون من مهامها المحافظة على السلام عن طريق الأمن الجماعي بدلا من المحافظة عليه عن طريق الأحلاف . ورغم أن ويلسون لم يستطع أن يقنع بلده بجدوى فلسفته إلا أن أفكاره كتب لها أن تعيش . والأمر يرجع قبل كل شئ إلى قرع الطبول التي تردد عن مثالية ويلسون التي أسفرت عن مضي السياسة الخارجية الأمريكية في مسيرتها منذ رئاسته التي تشكل حدا فاصلا في طريق السياسة الخارجية الأمريكية ، ومازالت ماضية في مسيرتها حتى اليوم .

ولم يتبلور أسلوب أمريكا الفريد في معالجة الشئون الدولية فجأة، أو كنتيجة لوحي فردي. ففي السنوات الأولي للجمهورية ، كانت السياسة الخارجية الأمريكية في الواقع انعكاسا متطورا للمصلحة القومية الأمريكية ، والتي لم تكن سوى دعم للاستقلال الجديد للأمة . ولما لم تكن هناك دولة أوروبية قادرة على أن تشكل تهديدا فعليا لأمريكا طالما أن تلك الدولة منهمكة في النزاع مع أنداد لها . وقد بين الآباء المؤسسون لأمريكا أنهم على استعداد لاستخدام ميزان القوى الكريه عندما يناسب ذلك احتياجاتهم : والواقع أنه كان في مقدورهم أن يكونوا في غاية المهارة بصورة غير عادية في المناورة بين فرنسا وبريطانيا العظمى ليس فقط للمحافظة على استقلال أمريكا بل للتوسع في حدودها . ولأنهم كانوا لا يريدون لأى من الجانبين أن يحرز نصرا حاسما في حروب الثورة الفرنسية ، فقد أعلنوا الحياد . وقد وصف جيفرسون حروب نابليون بأنها صراع بين الطاغية في الأرض (فرنسا) والطاغية في المحيط (إنجلترا) أي أن طرفي الصراع الأوروبي كانا متكافئين افتراضيا . وبممارستها نوعا بدائيا من سياسة عدم الانحياز ، اكتشفت الأمة الجديدة فائدة الحياد كأداة للمساومة ، تماما كما اكتشفت دول كثيرة ناشئة منذ ذلك الوقت .

وفي الوقت نفسه فإن الولايات المتحدة لم تتماد في رفضها لطرق العالم القديم إلى درجة الامتناع عن التوسع الإقليمي . بل على العكس ، فقد واصلت الولايات المتحدة منذ البداية التوسع في الأمريكتين لغرض فردي غير عادي . فبعد عام ١٧٩٤ كان من شأن عقد سلسلة من المعاهدات أن أعيد رسم الحدود مع كندا وفلوريدا لصالح أمريكا وفتح نهر المسيسيبي أمام التجارة الأمريكية ، وبدأت إقامة مشروع تجاري أمريكي في جزر الهند الغربية البريطانية . وانتهي الأمر بعملية شراء لويزيانا عام ١٨٠٣ من فرنسا التي أضافت إلى البلد الصغير أرضا شاسعة لا حدود لها غرب نهر المسيسيبي هذا إلى جانب دعاوى المطالبة بالأرض الإسبانية في فلوريدا وتكساس.. وهذا هو الأساس الذي تطورت منه لتكون دولة كبرى .

وقد قدم القائد الفرنسي الذي أتم صفقة البيع ، نابليون بونابرت ، تبريرا ينتمي إلى العالم القديم لتلك الصفقة أحادية الجانب : إن ضم الأرض هذه يؤكد إلى الأبد قوة الولايات المتحدة، وبهذه الصفقة فإني جعلت إنجلترا تواجه غريما بحريا سرعان إن آجلا أو عاجلا ما سيمرغ بكبريائها الأرض . ولم يعبأ القادة السياسيون الأمريكيون بالمبررات التي استخدمها الفرنسيون لبيع الأرض . وبالنسبة لهم لم يبد أن إدانة سياسة القوة التي كان يتبعها العالم القديم تتعارض مع التوسع الإقليمي الأمريكي في أمريكا الشمالية . ذلك لأنهم كانوا يعتبرون التوسع الأمريكي غربا شأناً من شئون أمريكا الداخلية وليس أمرا من أمور السياسة الخارجية .

وبهذه الروح ، أدان جيمس ماديسون ُيلفد ًمفد الحرب وقال أنها جرثومة الشرور كلها، وهي نذير بالضرائب الثقيلة والجيوش وغيرها من الأدوات التي يمكن بها أن توضع الكثرة تحت سيطرة القلة، أما خليفته جيمس مونرو فلم ير أن هناك أي تناقض في الدفاع عن التوسع ناحية الغرب على أساس هو أن هذا التوسع ضروري لكي تصبح أمريكا دولة كبرى:

يجب أن يكون واضحا للجميع أنه كلما ازداد التوسع ، بشرط ألا يتعدى الحدود العادلة، كلما ازدادت حرية التصرف لكل من الحكومتين (حكومة الولاية والحكومة الفيدرالية)وكلما أصبح أمنهم تاما ؛ وفي كل النواحي الأخرى سيعود أفضل الأثر على الشعب الأمريكي كله . إن امتداد الأرض سواء كان صغيرا أم كبيرا يكسب الأمة كثيرا من المميزات . فهو علامة على مدى اتساع مواردها ، وسكانها ، وقوتها المادية . وهو باختصار دليل على الفارق بين الدول الصغيرة والدول الكبيرة.

ورغم ذلك ، فبينما كان هناك استخدام أحيانا لأساليب سياسات القوة الأوروبية فإن قادة الأمة الجديدة ظلوا ملتزمين بالمبادئ التي جعلت من بلدهم بلدا ممتازا عن غيره من البلدان. لقد خاضت الدول الأوروبية حروبا لا حصر لها لمنع الدول التي لديها إمكانية السيطرة على الآخرين من النهوض والارتفاع . وفي أمريكا فإن المزيج المكون من قوة أمريكا وبعدها الشاسع عن الآخرين بث في الأمة ثقة بأن أي تحدٍ يمكن التغلب عليه بعد أن يظهر. وقد أقامت الأمم الأوروبية التي لا يتوافر لها إلا هامش أضيق للبقاء ائتلافات ضد إمكانية التغيير وكانت أمريكا بعيدة بعدا كافيا يجعلها لا تقيم سياستها على أساس مقاومة واقع التغيير الفعلي.

. وكان هذا هو الأساس الجغرافي السياسي للتحذير الذي صدر عن جورج واشنطن من الأحلاف الدائمة التي تقوم لأي سبب كان . وقال: «إنه ليس من الحكمة أن نورط أنفسنا ، بسبب عقد روابط متكلفة ، في التقلبات العادية لسياساتها (سياسات الدول الأوروبية) أو

التجمعات أو المصادمات العادية بين أصدقائها أو أعدائها . إن موقعنا الجغرافي البعيد يدعونا إلى اتباع طريق مختلف تماما ويجعل في إمكاننا أن نفعل ذلك».

ولم تنظر الأمة الجديدة إلى نصيحة جورج واشنطن على أنها حكم عملي ، صدر انطلاقا من اعتبارات جغرافية سياسية بل نظرت إليها على أنها قاعدة أخلاقية . وقد وجدت أمريكا، بوصفها الداعية لمبدأ الحرية ، أنه شيء طبيعي أن تفسر الأمن الذي وفرته لها المحيطات الكبيرة على أنه دليل على نعمة إلهية ، وأن تنسب تصرفاتها إلى بصيرة أخلاقية سامية وليس إلى حد أمان لا تشاركها فيه أي أمة أخرى .

وكانت هناك ركيزة أساسية للسياسة الخارجية للجمهورية في أوقاتها المبكرة وهي الاقتناع بأن حروب أوروبا المستمرة كانت نتيجة لأساليب معيبة في فن إدارة شئون الدولة. ولما كان القادة الأوروبيون قد أقاموا نظامهم الدولي على أساس الاعتقاد بأن التوافق يمكن أن يستقطر من المنافسة بين المصالح الأنانية ، فإن رفاقهم الأمريكيين كانوا قد تصوروا عالما يمكن أن تعمل فيه الولايات معا كشركاء متعاونين وليس كمتنافسين لا يثق بعضهم في بعض . لقد رفض القادة الأمريكيون الفكرة الأوروبية التي تقول أن أخلاقيات الدول يجب أن يحكم عليها بمعيار مخالف لأخلاقيات الفرد . وطبقا لما قاله جيفرسون فلا يوجد إلا نظام واحد للأخلاق للرجال وللأمم، وهذا النظام هو أن نقر بالجميل وأن نحترم كل الارتباطات تحت كل الظروف ، وأن نكون صرحاء وكراما، وبذلك نعزز على المدى البعيد حتى مصالح كلا الطرفين.

وقد بين التبرير الأخلاقي الذي انطوى عليه الأسلوب الأمريكي – والذي كان أحيانا يثير دهشة الأجانب أن أمريكا قد تمردت في الواقع ، ليس فقط على الروابط القانونية التي كانت قد ربطتها بالبلد القديم ، بل على نظم أوروبا وقيمها. لقد أرجعت أمريكا تكرار الحروب الأوروبية إلى تفشي المؤسسات الأوروبية التي تنكرت لقيم الحرية والكرامة الإنسانية .وقد كتب توماس بينThomas Paine يقول: لما كانت الحرب هي أسلوب حكومة قامت على أساس البناء القديم ، فإن العداوة التي تتداولها الأمم فيما بينها ليست أكثر مما تثيره سياسة حكوماتهم من مشاعر للمحافظة على روح النظام.

فالإنسان لا يصبح عدوا للإنسان إلا عن طريق نظام حكومة زائف.

فالفكرة القائلة أن السلام يعتمد قبل كل شئ على تعزيز المؤسسات الديموقراطية ظلت ولا تزال أساسا للفكر الأمريكي حتى يومنا هذا . وتقول الحكمة التقليدية الأمريكية أن الديموقراطيات لا تشن الحروب ضد بعضها البعض . وهناك ألكسندر هاملتون هو أحد الذين عارضوا الفرض القائل أن الجمهوريات هي أساسا أشكال سلمية للحكومات أكثر من أشكال

الحكومات الأخرى :

لقد كانت إسبرطة ، وأثينا ، وروما وقرطاج كلها جمهوريات ، اثنان منها ـ أثينا وقرطاج ـ جمهوريتين تجاريتين. ومع ذلك فكثيرا ما خاضت الحروب ،حروبا هجومية ودفاعية ، مثل جيرانهما من الملكيات في ذلك الوقت ... وفي حكومة بريطانيا يشكل ممثلو الشعب فرعا واحدا من فروع الهيئة التشريعية القومية . وقد ظلت التجارة لأزمان طويلة هي الاهتمام الرئيسي لهذا البلد . ومع ذلك فلم يشترك في حروب كثيرة سوى قلة من الأمم.

وعلى أية حال فإن هاملتون ، كان يمثل أقلية ضئيلة . وقد ظلت الأغلبية الكبرى من القادة الأمريكيين مقتنعين آنذاك ، كما هم مقتنعون الآن ، بأن أمريكا عليها مسئولية خاصة وهي أن تنشر قيمها كإسهام منها في السلام العالمي . وكانت الخلافات عندئذ ، كما هي الآن ترجع إلى المنهج والنظام . فهل يجب على أمريكا أن تعمل بنشاط على تشجيع انتشار المؤسسات الحرة كهدف أساسي لسياستها الخارجية ؟ أو هل تعتمد على تأثير المثال الذي تتبعه على الآخرين؟

كان الرأي السائد في الأيام الأولى للجمهورية هو أن الأمة الأمريكية الوليدة يمكنها أن تقدم أحسن خدمة لقضية الديموقراطية بأن تعمل على تطبيق قيمها في الداخل . وقد قال توماس جيفرسون أن حكومة عادلة موثوقاً بها في أمريكا سوف تكون معلما مهماً ومثالا لجميع شعوب العالم. وبعد عام عاد جيفرسون إلى نغمة أمريكا التي تعمل في الواقع من أجل البشر جميعا.

...إن الظروف التي حرم منها الآخرون وتمتعنا نحن بها ، فرضت علينا واجبا وهو أن نحدد درجة الحرية والحكم الذاتي التي قد يغامر مجتمع ما بترك أفراده فيها.

وقد أفضى الاهتمام الذي أولاه قادة أمريكا للأساسيات الأخلاقية للسلوك الأمريكي ولأهمية ذلك كرمز للحرية ، إلى رفض الحقائق البديهية للدبلوماسية الأوروبية وهي : أن ميزان القوى أسفر عن وجود توافق جوهري وذلك بسبب تنافس المصالح الأنانية : وأن اعتبارات الأمن علت على مبادئ القانون المدني ؛ وبمعنى آخر أن أهداف الدولة بررت وسائلها.

هذه الأفكار الفريدة ظهرت في بلد كان مزدهرا في القرن التاسع عشر، فقد كانت مؤسساته تعمل بنظام جيد وكانت قيمه تحترم . ولم يحدث أن شهدت أمريكا صراعا بين الالتزام بالمبادئ السامية وبين ضروريات البقاء . وبمرور الوقت أسفرت الدعوة إلى الالتزام بالأخلاقيات كوسيلة لحل المنازعات الدولية ، عن نوع فريد من التضارب الفكري ونوع من

الأسى الأمريكي الخاص . ولو أن الأمريكيين كانوا مضطرين إلى أن يزينوا سياستهم الخارجية بنفس النزاهة الأخلاقية التي زينوا بها حياتهم الشخصية فكيف كان يمكن تفسير عناصر الأمن : وفي الواقع ، وإذا وصلنا إلى أبعد الحدود فهل يعني ذلك أن البقاء يخضع للأخلاق ؟ أو هل حب أمريكا الشديد للمؤسسات الحرة يضفي هالة أوتوماتيكية من الأخلاقيات حتى على التصرفات التي تبدو أنها تخدم المصلحة الذاتية ؟ ولو كان هذا صحيحا ، فكيف اختلف ذلك عن المفهوم الأوروبي المتعلق بمصلحة الدولة العليا ، الذي أكد أن تصرفات الدولة لا يمكن أن يحكم عليها إلا بنجاحها ؟

وقد حلل الأستاذان روبرت Robert Tucker ودافيد هندريكسون David Hendrickson بذكاء شديد هذا التضارب في الفكر الأمريكي :

إن معضلة جيفرسون الكبرى في إدارته لشئون الحكم هي رفضه الواضح للوسائل التي اعتمدت عليها الدول اعتمادا دائما وأساسيا لضمان أمنها وتحقيق طموحاتها ، وعدم رغبته في الوقت نفسه في رفض الطموح الذي أدى طبيعيا إلى استخدام هذه الوسائل . كان بمعنى آخر يتمنى أن تضرب أمريكا عصفورين بحجر واحد – فتستمتع بثمار القوة دون أن تقع فريسة للنتائج الطبيعية لممارسة هذه القوة.

وحتى اليوم ، فإن الشد والجذب لهذين الاتجاهين كان واحدا من الموضوعات الرئيسية للسياسة الخارجية الأمريكية . ففي عام ١٨٢٠ وجدت الولايات المتحدة حلا وسطا بين هذين الاتجاهين مما مكنها أن تسلك طريقين في السياسة الخارجية حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية . فقد واصلت انتقاد ما يحدث فيما وراء البحار على انه نتيجة مؤسفة لسياسات ميزان القوى في الوقت الذي كانت تنظر فيه إلى توسعها في أمريكا الشمالية على أنه قدر واضح.

وحتى بداية القرن العشرين كانت السياسة الخارجية للولايات المتحدة في غاية البساطة: وهي الاستسلام لتحقيق القدر الواضح للبلد ، وأن يظل البلد بعيدا عن التورط في أية مشاكل فيما وراء البحار . لقد فضلت أمريكا الحكومات الديموقراطية حيثما وجدت ، ولكنها تجنبت اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيق ما كانت تفضله . وفي عام ١٨٢١ لخص جون كوينسي آدامز John Quincy Adams وكان وزيرا للخارجية حينئذ هذا الاتجاه قائلا :

في أي مكان ظهر أو سيظهر فيه معيار الحرية والاستقلال جليا للعيان فسيوجد هناك قلبها (قلب أمريكا) وكذلك ستحل في هذا المكان بركاتها وصلواتها . ولكنها لن تبحث خارج حدودها عن وحوش للقضاء عليها . فهي التي تتمنى الحرية والاستقلال للجميع. هي البطل الذي يصون أمريكا فقط.

وقد كان الوجه الآخر لسياسة ضبط النفس الأمريكية هو القرار الخاص باستبعاد سياسات القوة الأوروبية من نصف الكرة الغربي بأن تستخدم ، إذا اقتضت الضرورة، بعض طرق الدبلوماسية الأوروبية . فقد نشأ مبدأ مونرو ، الذي نادى بتلك السياسة من محاولة الحلف المقدس ـ الذي كان أعضاؤه الرئيسيون هم بروسيا وروسيا والنمسا ـ قمع الثورة في إسبانيا في عشرينيات القرن التاسع عشر . ولما كانت بريطانيا العظمى تعارض من حيث المبدأ التدخل في الشئون الداخلية للدول ، فلم تكن بالمثل على استعداد لتأييد الحلف المقدس في نصف الكرة الغربي.

وقد اقترح وزير خارجية بريطانيا جورج كانينج George Canning على الولايات المتحدة أن يتخذا معا إجراء مشتركا لكي تظل المستعمرات الإسبانية في الإمريكتين بعيدة عن سيطرة الحلف المقدس . كان يريد أن يتأكد أنه بصرف النظر عما حدث في إسبانيا فلن تسيطر أي دولة أوروبية على أمريكا اللاتينية . واعتقد كانينج أنه إذا حرمت إسبانيا من مستعمراتها فلن تكون لها قيمة، وأن هذا سوف يثبط الرغبة في التدخل أو يجعله غير ذي معنى .

وقد فهم جون كوينسى آدامز النظرية البريطانية غير أنه لم يثق في دوافع بريطانيا . وفي عام ١٨١٢ بعد احتلال بريطانيا لواشنطن لم يكن الأوان قد آن كي تقرر أمريكا الانحياز إلى البلد الأم السابق . ولذلك فقد حث آدامز الرئيس مونرو على ألا يجعل أي قرار بشأن الاستعمار الأوروبي في الأمريكتين قراراً تتخذه أمريكا من جانب واحد.

ومبدأ مونرو الذي أعلن في عام ١٨٢٣ جعل من المحيط الذي يفصل بين أمريكا وأوروبا خندقا مائيا . وحتى ذلك الوقت كانت القاعدة الأساسية في السياسة الخارجية الأمريكية هي ألا تتورط الولايات المتحدة في الصراعات الأوروبية من أجل القوة . وانتقل مبدأ مونرو إلى الخطوة التالية بأن أعلن أن أوروبا لا ينبغي أن تتدخل في الشئون الأمريكية . كانت فكرة مونرو عما يشكل الشئون الأمريكية–كل نصف الكرة الغربي – فكرة فسيحة رحبة حقا.

وبالإضافة إلى ذلك فإن مبدأ مونرو لم يقتصر على إعلانات المبادئ. فقد حذر بجرأة، الدول الأوروبية من أن الأمة الجديدة سوف تحارب حتى لا تنتهك حرمة نصف الكرة الغربي. وأعلن المبدأ أيضا أن الولايات المتحدة سوف تعتبر أي امتداد للقوة الأوروبية إلى أي جزء من نصف الكرة الغربي أمرا بالغ الخطورة لسلم الولايات المتحدة وأمنها.

وأخيرا في لهجة أقل بلاغة ولكن أكثر وضوحا عما قاله وزير خارجيته قبل عامين أشار الرئيس مونرو إلى أن أمريكا تحاشت التدخل في الخلافات الأوروبية وقال: «لم يكن لنا في حروب الدول الأوروبية ، وفي الأمور الخاصة بهم ، دور أبدا ولم يكن يتناسب مع سياستنا

أبدا أن يكون لنا دور في تلك الأمور».

لقد أدارت أمريكا في وقت ما ظهرها لأوروبا ، وحررت يديها لكي تتوسع في نصف الكرة الغربي ، وتحت مظلة مبدأ مونرو ، كان يمكن لأمريكا أن تتبع سياسات لم تختلف إطلاقا عن أحلام أي ملك أوروبي – التوسع في تجارتها ونفوذها وضم أراض جديدة إليها – وباختصار ، تحيل نفسها إلى دولة كبرى دون أن يتطلب منها ذلك ممارسة سياسات القوة . ولم يحدث أي تصادم إطلاقا بين رَغبة أمريكا في التوسع وبين اعتقادها أنها أكثر نقاوة وتمسكا بالمبادئ من أي دولة في أوروبا . وأمريكا لم تنظر إلى توسعها على أنه أمر يتعلق بسياستها الخارجية فلذلك استطاعت أن تستغل قوتها لكي تنتصر على الهنود وعلى المكسيك وفي تكساس، وأن تفعل ذلك وهي مرتاحة الضمير . وباختصار فقد كانت السياسة الخارجية للولايات المتحدة هي ألا تكون لها سياسة خارجية .

وعلى غرار نابليون فيما يتعلق بصفقة شراء لويزيانا ، فقد كان لكانينج أن يفخر بأنه خرج بالعالم الجديد إلى الوجود لتعديل ميزان العالم القديم ، لأن بريطانيا العظمي أشارت إلى أنها سوف تدعم مبدأ مونرو بالأسطول الملكي البريطاني . وكان على أمريكا مع ذلك أن تقوم بتعديل ميزان القوى الأوروبي إلى الحد الذي تبقي فيه فقط الحلف المقدس خارج نصف الكرة الغربي.

أما بالنسبة لباقي القرن فكان على الدول الأوروبية أن تحافظ على توازنها بدون اشتراك أمريكا في ذلك .

وفي الفترة الباقية من القرن ، كان الموضوع الرئيسي في سياسة أمريكا الخارجية هو التوسع في تطبيق مبدأ مونرو . ففي عام ١٨٢٣ حذر مبدأ مونرو الدول الأوروبية من الاقتراب من نصف الكرة الغربي . وبعد مرور مائة سنة على مبدأ مونرو فإن معناه اتسع بالتدريج ليبرر السيطرة الأمريكية في نصف الكرة الغربي . وفي عام ١٨٤٥ أكد الرئيس بولك Polk ضرورة ضم تكساس إلى الولايات المتحدة وقال: إن هذا الأمر ضروري لمنع دولة مستقلة من أن تصبح حليفا أو تابعا لأمة أجنبية أقوى منها وبذلك تشكل هذه الأمة تهديدا للأمن الأمريكي. وبمعنى آخر فإن مبدأ مونرو برر التدخل الأمريكي ليس فقط ضد تهديد قائم بل أيضا ضد تعرض الولايات المتحدة لاحتمالات أي تحد علني سافر.. مثلما فعل ميزان القوى الأوروبي.

وقد اعترضت الحرب الأهلية لفترة قصيرة انهماك أمريكا في التوسع الإقليمي . فقد أصبح اهتمام السياسة الخارجية لواشنطن في ذلك الوقت هو منع اعتراف الدول الأوروبية بالاتحاد الكونفيدرالي (الولايات الإحدى عشرة التي انفصلت عن الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من عام ١٨٦٠حتى عام ١٨٦١) حتى لا يظهر نظام الدول المتعددة على أرض

أمريكا الشمالية وتظهر معه سياسات ميزان القوى الذي اتبعته الدبلوماسية الأوروبية . غير أنه بحلول عام ١٨٦٨ عاد الرئيس أندرو جونسون Andrew Johnson إلى الموقف القديم الذي يبرر التوسع الإقليمي وفقا لمبدأ مونرو وقد تمثل هذا التوسع في شراء ألاسكا.

إن الملكية الأجنبية أو السيطرة على تلك الجماعات أسفرت حتى الآن عن عرقلة نمو الولايات المتحدة والإضرار بنفوذها . وسوف تكون الثورة المتواصلة هناك والفوضى مؤذية كذلك للولايات المتحدة.

كان هناك شئ أساسي أكثر من التوسع في القارة الأمريكية يحدث في ذلك الوقت رغم أنه مر دون أن تلحظه أي من الدول التي كانت تسمي الدول الكبرى – فقد كان هناك عضو جديد في طريقه للانضمام إلى ناديهم عندما أصبحت الولايات المتحدة أقوى دولة في العالم . ففي عام ١٨٨٥ تفوقت الولايات المتحدة في الإنتاج الصناعي على بريطانيا العظمى التي كانت تعتبر الدولة الصناعية الكبرى في ذلك الوقت . وعندما تغير القرن كانت الولايات المتحدة تستهلك من الطاقة أكثر مما تستهلكه ألمانيا ، وفرنسا ، والمجر، والنمسا ، وروسيا ، واليابان ، وإيطاليا مجتمعين. وفي الفترة بين الحرب الأهلية ونهاية القرن ارتفع إنتاج الفحم الأمريكي بنسبة ٨٠٠ في المائة وارتفع إنتاج قضبان الصلب بنسبة ٥٢٣ في المائة وزادت خطوط السكك الحديدية بنسبة ٥٦٧ في المائة وزاد إنتاج القمح بنسبة ٢٥٦ في المائة . وساهمت الهجرة في مضاعفة تعداد السكان الأمريكيين وتسارعت بذلك عملية النمو .

ولم يحدث أن شهدت أمة مثل الولايات المتحدة الزيادة في قوتها دون أن تسعى إلى أن تترجم هذه الزيادة إلى نفوذ عالمي . وكان هذا إغراء قائما أمام القادة الأمريكيين . وراودت سيوارد وزير خارجية الرئيس أندرو جونسون أحلاما بتكوين إمبراطورية أمريكية تضم كندا وجزء كبيرا من المكسيك وتمتد بعمق إلى المحيط الهادئ . ولقد أرادت إدارة جرانت ضم جمهورية الدومينيكان وراودتها فكرة ضم كوبا . كانت هذه هي أنواع المبادرات التي كان يمكن أن يفهمها ويوافق عليها قادة أوروبيون معاصرون من أمثال دزرائيلي أو بسمارك .

غير أن مجلس الشيوخ الأمريكي ظل يركز اهتمامه على الأولويات الداخلية وأحبط كل المشاريع التوسعية . واحتفظ بجيش صغير فكان قوامه ٢٥٠٠٠ (رجل) فقط كما احتفظ بأسطول ضعيف . وحتى عام ١٨٨٠ كان ترتيب الجيش الأمريكي الرابع عشر في العالم بعد بلغاريا وكان الأسطول الأمريكي أصغر حجما من الأسطول الإيطالي رغم أن قوة أمريكا الصناعية كانت أكثر من قوة إيطاليا ثلاث عشرة مرة . ولم تكن أمريكا تشارك في مؤتمرات دولية وكانت تعامل كدولة من الدرجة الثانية . وفي عام ١٨٨٠ خفضت تركيا حجم مؤسستها الدبلوماسية ، فألغت سفاراتها في السويد وبلجيكا وهولندا والولايات المتحدة.

وفي الوقت نفسه فضل دبلوماسي ألماني في مدريد تخفيض مرتبه على أن يعين في واشنطن.

ولكن بمجرد أن يصل بلد ما إلى مستوى قوة مثل المستوى الذي وصلت إليه أمريكا بعد الحرب الأهلية فلن يقاوم إلى الأبد إغراء ترجمة ما وصل إليه إلى وضع يكسبه أهميه في الساحة الدولية . وفي أواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر بدأت أمريكا في بناء أسطولها الذي كان حتى آخر عام ١٨٨٠ أصغر من أساطيل كل من شيلي و البرازيل والأرجنتين. وبحلول عام ١٨٨٩ كان وزير البحرية بنجامين تريسيBenjamin Tracy يسعى في البرلمان لتكوين أسطول يضم سفنا حربية وقد وضع المؤرخ البحري المعاصر الفريد ثاير ماهان Alfred Thayer Mahan المبرر المنطقي لبناء هذا الأسطول.

وفي الواقع ، رغم أن الأسطول الملكي البريطاني قام بحماية أمريكا من السلب والنهب من جانب الدول الأوروبية ، إلا أن القادة الأمريكيين لم يعتبروا بريطانيا الدولة الحامية لبلدهم. وطوال القرن التاسع عشر كانت بريطانيا العظمي تعتبر بمثابة التحدي الأكبر للمصالح الأمريكية والأسطول البريطاني الملكي بمثابة التهديد الاستراتيجي الأعظم لأمريكا . وليس غريبا أن أمريكا سعت ، عندما بدأت في استعراض عضلاتها ، إلى طرد النفوذ البريطاني من نصف الكرة الغربي واستندت كثيرا إلى مبدأ مونرو الذي كانت بريطانيا عاملا كبيرا في تشجيعه.

ولم تقف الولايات المتحدة موقفا ضعيفا إزاء التحدي الذي واجهته . ففي عام ١٨٩٥ لجأ وزير الخارجية ريتشارد أولني Richard Olny إلى الاستعانة بمبدأ مونرو لتحذير بريطانيا مشيرا بالتحديد إلى عدم تساوى القوة بين البلدين . وكتب يقول: إن الولايات المتحدة اليوم تسيطر عمليا على هذه القارة وأوامرها قانون على الرعايا فيها، وأن موارد أمريكا الضخمة ووضعها الجغرافي المعزول يجعلانها سيدة الموقف، تتمتع بموقع منيع لا يجعلها عمليا معرضة للخطر من جانب أي دولة أو من جانب الدول الأخرى مجتمعة. ومن الواضح أن نبذ أمريكا لسياسات القوة لم ينطبق على نصف الكرة الغربي . وفي عام ١٩٠٢ تخلت بريطانيا العظمي عن المطالبة بأن يكون لها دور رئيسي في أمريكا الوسطى .

ولما تحقق للولايات المتحدة السيادة العليا في نصف الكرة الغربي بدأت تدخل الساحة الأوسع للشئون الدولية . لقد تطورت أمريكا وأصبحت قوة عالمية رغما عنها تقريبا . ولما توسعت في القارة رسخت نفوذها على جميع شواطئها هذا بينما كانت تصر في الوقت نفسه على أنه ليست لديها الرغبة في اتباع السياسية الخارجية لدولة كبرى . وفي نهاية الأمر وجدت أمريكا نفسها تتمتع بذلك النوع من القوة، مما جعل منها أحد العوامل الدولية الكبرى بصرف النظر عن أولوياتها .وقد يستمر القادة الأمريكيون في الإصرار على أن السياسة

الخارجية الأساسية لأمريكا هي أن تكون منارة للبشر جميعا ، غير أنه لا يمكن أن ننكر أن بعض هؤلاء القادة أصبحوا يدركون أن قوة أمريكا ستخول لها أن يصبح رأيها مسموعا فيما يتعلق بموضوعات الساعة ، وأنها ليست في حاجة لأن تنتظر حتى يصبح البشر جميعا ديموقراطيين لتجعل نفسها جزءا من النظام الدولي .

ولم يعبر أحد عن هذه المعاني بوضوح أكثر من تيودور روزفلت . فقد كان أول رئيس للولايات المتحدة يصر على أن واجب أمريكا يحتم عليها أن تجعل العالم كله يشعر بنفوذها وأن تتصل أمريكا بالعالم على أساس مفهوم المصالح القومية . وكان روزفلت مثل أسلافه مقتنعا بدور أمريكا المفيد في العالم . غير أنه لم يكن مثلهم عندما رأى أن أمريكا لديها اهتمامات حقيقية بالسياسية الخارجية أكثر من اهتمامها بالبقاء منعزلة لا تشترك في شيء.

وقد بدأ روزفلت من فرض أن الولايات المتحدة دولة كأي دولة أخرى ، وليست تجسيدا وحيدا للفضيلة ، وإذا تصادمت مصالحها مع مصالح الدول الأخرى فهي ملتزمة بأن تعتمد على قوتها كي تنتصر .

وكخطوة أولى فسر روزفلت مبدأ مونرو تفسيرا تدخليا (يشجع على التدخل في شئون الدول الأخرى) إلى أقصى حد ، وذلك بأن شبهه بالمبادئ الإمبريالية السائدة في تلك الفترة. وفي ٦ ديسمبر عام ١٩٠٤ أعلن فيما أسماه (لازمة) النتيجة المنطقية مبدأ مونرو، الحق الكلي في التدخل من جانب أمة ما متمدينة وبموجب ذلك تكون الولايات المتحدة وحدها في نصف الكرة الغربي هي الدولة الوحيدة التي لها الحق في ممارسة هذا الحق، وإن التزام الولايات المتحدة بمبدأ مونرو قد يرغمها ، مهما كان ذلك على مضض ، في حالات الاعتداء السافر أو العجز عن رد العدوان ، على القيام بدور قوة بوليس دولية.

وقد سبقت ممارسات روزفلت ما كان ينادي به . ففي عام ١٩٠٢ أرغمت أمريكا هايتي على تسوية ديونها مع البنوك الأوروبية ، وفي عام ١٩٠٣ شجعت على إثارة الاضطرابات في بناما حتى تحولت الاضطرابات إلى عصيان كامل . وبمساعدة أمريكا انتزع الشعب استقلاله من كولومبيا ولكن ليس قبل أن تقيم واشنطن منطقة القناة تحت سيادة الولايات المتحدة على كلا جانبي ما كان سيصبح قناة بناما فيما بعد. وفي عام ١٩٠٥ فرضت الولايات المتحدة شكل المحمية المالية على جمهورية الدومينيكان . وفي عام ١٩٠٦ احتلت القوات الأمريكية كوبا .

وبالنسبة لروزفلت كانت دبلوماسية العضلات في نصف الكرة الغربي جزءا من دور أمريكا العالمي الجديد . ولم يعد المحيطان اللذان كانا يحميان أمريكا من السعة بحيث

يعزلانها عن بقية العالم . وكان على الولايات المتحدة أن تقوم بدورها على المسرح الدولي. وقد قال روزفلت ذلك في رسالته إلى الكونجرس الأمريكي في عام ١٩٠٢ : «لقد اتضح بشكل متزايد أن اعتماد الدول بعضها على بعض وتعقد العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية يجعل من الضروري على جميع الدول المتمدينة المنظمة أن تصر على التنظيم الصحيح للعالم».

ويحتل روزفلت موضعا تاريخيا فريدا في موقف أمريكا من العلاقات الدولية . فلم يحدث أن قام أي رئيس أمريكي بتعريف دور أمريكا العالمي بشكل كامل من حيث المصلحة القومية أو ربط بين المصلحة القومية وميزان القوى بهذا الشمول . وقد شارك روزفلت شعبه فيما رآه من أن أمريكا هي أفضل أمل للعالم . ولكنه لم يكن مثل معظمهم فلم يكن يرى أن أمريكا يمكنها أن تحافظ على السلام أو تحقق مصيرها بمجرد أن تمارس الفضائل المدنية . وكان في مفهومه عن طبيعة النظام العالمي أقرب إلى بالمرستون ودزرائيلي عن توماس جيفرسون.

الرئيس العظيم يجب أن يكون معلما يسد الفجوة القائمة بين مستقبل شعبه وتجربته . وقد نادى روزفلت بمبدأ صارم لشعب نشأ على اعتقاد أن السلام هو الحالة الطبيعية بين الأمم وأنه ليس هناك فارق بين الأخلاقيات الفردية والأخلاقيات الحكومية ، وأن أمريكا معزولة عن الاضطرابات التي تجتاح باقي العالم . لقد فند روزفلت كل الافتراضات . فقد كانت الحياة الدولية بالنسبة له تعني الصراع وأن نظرية داروين الخاصة بالبقاء للأصلح مرشد أفضل في التاريخ من الأخلاقيات الفردية . وكان روزفلت يرى أن الفقراء سيرثون الأرض فقط لو كانوا أقوياء . وأن أمريكا لم تكن قضية بل كانت دولة قوية – ومن حيث الإمكانيات كانت أقوى دولة . وكان روزفلت يأمل أن يكون الرئيس الذي يحقق لأمريكا الدخول إلى المسرح العالمي حتى يمكنها أن تشكل القرن العشرين – بالطريقة التي سيطرت بها بريطانيا على القرن التاسع عشر – كدولة لها قوة كبيرة جندت نفسها باعتدال وحكمة كي تعمل لتحقيق الاستقرار والسلام والتقدم.

وكان روزفلت قليل الصبر مع كثير من مظاهر التقوى التي سيطرت على الفكر الأمريكي فيما يتعلق بالسياسة الخارجية . فقد أنكر فعالية القانون الدولي . فما لا تستطيع الأمة حمايته بقوتها الخاصة لا يمكن حمايته عن طريق المجتمع الدولي . ورفض نزع السلاح الذي كان قد بدأ حينئذ يظهر كموضوع دولي .

وحتى الآن ليس هناك احتمال لإقامة أي نوع من القوة الدولية .. يمكنها بفعالية أن تردع الاعتداء ، وفي هذه الظروف يكون من الحماقة والإثم لأمة كبيرة حرة أن تحرم نفسها من

القوة لحماية حقوقها الخاصة وأن تناصر حتى في حالات استثنائية حماية حقوق الآخرين. وليس هناك ما يشجع الظلم أكثر من أن تتعمد الشعوب الحرة المستنيرة أن تجعل نفسها بلا قوة في الوقت الذي تترك فيه كل النظم الاستبدادية والبربرية معززة بالسلاح.

وكان روزفلت حتى أكثر قسوة عندما كان يتحدث عن حكومة عالمية :

«إنى أعتبر موقف ويلسون ـ بريان Wilson-Bryan الذي يعبر عن الثقة في معاهدات سلام خيالية ، وفي وعود مستحيلة ، وفي جميع أنواع قصاصات الورق التي ليس لها ما يساندها من القوة الفعالة موقفا بغيضا . ومن الأفضل تماما ،للأمة وللعالم ، اتباع تعاليم فريدريك الأكبر وبسمارك فيما يتعلق بالسياسة الخارجية عن اتباع موقف برايان وويلسون كاتجاه وطني دائم ... إن الأخلاق الحميدة دون أن تساندها القوة أمر كريه بل حتى أكثر ضررا من قوة لا تساندها المبررات الأخلاقية ».

وفي عالم تسيطر عليه القوة ، كان روزفلت يؤمن أن النظام الطبيعي للأشياء ينعكس في مفهوم مناطق النفوذ الذي أعطى دولا معينة نفوذا متفوقا على مناطق شاسعة في العالم كالولايات المتحدة مثلا في نصف الكرة الغربي أو لبريطانيا العظمى في شبه القارة الهندية. وفي عام١٩٠٨وافق روزفلت على احتلال اليابان لكوريا لأنه كان يرى أن العلاقات اليابانية الكورية ينبغي أن تحددها القوة النسبية لكل من البلدين ، ولا تحددها بنود معاهدة أو قانون دولي .

إن كوريا لليابان كلية . ومن المؤكد ، أنه اتفق طبقا للمعاهدة أن تظل كوريا مستقلة . غير أن كوريا نفسها كانت عاجزة عن تنفيذ المعاهدة ، وليس من الممكن أن نفترض أن أي أمة أخرى ستحاول أن تحقق للكوريين ما لم يتمكنوا إطلاقا من تحقيقه لأنفسهم. ومع تبني روزفلت لمثل هذه الآراء ذات النمط الأوروبي ، لم يكن من الغريب أن موقفه من ميزان القوى العالمي كان موقف رجل محنك ليس كموقف أي رئيس آخر سوى ريتشارد نيكسون . لقد رأي روزفلت في البداية أنه ليست هناك حاجة لأن تتورط أمريكا في التفاصيل الدقيقة لميزان القوى الأوروبي لأنه اعتبر أن هذا الميزان ينظم نفسه بنفسه . ولكنه أكد بما لا يدع مجالا للشك أنه لو ثبت أن هذا الموقف خاطئ فإنه سوف يحث أمريكا على التدخل في ميزان القوى لكي تعيد إليه التوازن .

وبالتدريج أخذ روزفلت يرى أن ألمانيا بمثابة تهديد للميزان الأوروبي وبدأ يربط بين مصالح أمريكا القومية ومصالح بريطانيا العظمى وفرنسا . وقد تبين ذلك عام ١٩٠٦ في مؤتمر الجيسيراس Algeciras Conference الذي كان الهدف منه هو العمل على استقرار مستقبل المغرب .أما ألمانيا التي أصرت على اتباع سياسة الباب المفتوح لإحباط محاولة السيطرة الفرنسية فقد حثت على ضرورة اشتراك ممثل لأمريكا في المؤتمر لأنها كانت تعتقد أن أمريكا

لها مصالح تجارية كبيرة هناك . وقد مثل أمريكا في المغرب السفير الأمريكي في إيطاليا، غير أن الدور الذي قام به السفير خيب أمل الألمان . ولقد أخضع روزفلت مصالح أمريكا التجارية – التي لم تكن كبيرة على أي الأحوال – لوجهة نظره الجغرافية السياسية . وقد أعرب عن وجهة النظر هذه هنرى كابوت لودج Henry Cabot Lodge في رسالة له إلى روزفلت في ذروة الأزمة المغربية . إذ قال لودج: إن فرنسا يجب أن تكون معنا وإنجلترا في منطقتنا ومجموعتنا . وهذا هو ألترتيب السليم اقتصاديا وسياسيا.

وفي أوروبا اعتبر روزفلت ألمانيا التهديد الرئيسي هناك، وفي آسيا كان قلقا بسبب طموح الروس ولذلك ساند اليابان ، الغريم الرئيسي لروسيا . وقال: ليست هناك أمة في العالم أكثر من روسيا تمسك بين يديها مصير السنوات القادمة.

وفي عام ١٩٠٤ شنت اليابان التي كان يحميها حلف مع بريطانيا العظمى هجوما على روسيا . ورغم أن روزفلت أعلن حياد أمريكا عندئذ إلا أنه مال إلى اليابان . وقال أن أي نصر روسي سيكون ضربة موجهة للحضارة وعندما دمرت اليابان الأسطول الروسي ابتهج وقال: لقد سعدت جدا بالنصر الذي أحرزته اليابان ، لأن اليابان تلعب في المباراة التي نلعبها.

لقد كان يريد أن يحل الضعف بروسيا بدلا من أن تستبعد كلية من ميزان القوى – لأنه وفقا لقواعد دبلوماسية ميزان القوى فإن زيادة ضعف روسيا لن يكون سوى استعاضة عن التهديد الروسي بالتهديد الياباني . وأدرك روزفلت أن النتيجة التي تخدم أمريكا بأحسن شكل هي التوصل إلى وضع تترك فيه روسيا وجها لوجه مع اليابان حتى يكون لكل منهما أثر مهدئ على الآخر.

واستنادا على واقعية الجغرافية السياسية بدلا من الاستناد على الإيثار الشديد لمصالح الآخرين ، دعا روزفلت كلتا الدولتين المتحاربتين إلى إيفاد ممثلين عنهما إلى مقر إقامته في أويستر باى لكي يقوموا بإعداد معاهدة صلح ، وهي المعاهدة التي وقعت أخيرا في بورتسموث Portsmouth ، بنيو هامبشير New Hampshire، والتي وضعت حدودا للنصر الياباني وحافظت على التوازن في الشرق الأقصى . ونتيجة لذلك أصبح روزفلت أول أمريكي يحصل على جائزة نوبل للسلام وذلك لأنه توصل إلى عقد تسوية بنيت على أساس حقائق عامة مثل ميزان القوى ومناطق النفوذ والتي اتضح بعد انقضاء عهد خليفته ويلسون أنها حقائق غير أمريكية تماما .

وفي عام ١٩١٤ كانت لروزفلت وجهة نظر تحليلية نسبيا لغزو ألمانيا لبلجيكا ولوكسمبورج رغم أن هذا الغزو كان انتهاكا سافرا للمعاهدات التي رسخت حياد هذين البلدين :

«أنا لا أتحيز لجانب أو لآخر فيما يتعلق بانتهاك تلك المعاهدات أو تجاهلها . فعندما يشترك عملاقان في مصارعة قاتلة ، فهما أثناء تصارعهما يكون كل منهما واثقا من أنه سوف يطأ بقدميه أي من يعترض طريقه إلا إذا وجد أنه من الخطر أن يفعل ذلك».

«وبعد شهور قلائل من نشوب الحرب في أوروبا ، غير روزفلت حكمه الأول فيما يتعلق بانتهاك حياد بلجيكا إلى العكس رغم أنه لم يكن الذي أقلقه شخصيا هو عدم قانونية الغزو الألماني بل التهديد الذي شكله ذلك الغزو لميزان القوى : ألا تعتقدون أنه لو انتصرت ألمانيا في هذه الحرب وحطمت الأسطول البريطاني ودمرت الإمبراطورية البريطانية ، فإنها في غضون عام أو اثنين سوف تصر على تبوؤ موقف السيادة في أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى... ؟»

وحث على أن تعيد أمريكا تسلحها بشكل ضخم حتى تستطيع أن تساند بثقلها الوفاق الثلاثي ورأي أن انتصار ألمانيا أمر ممكن ولكنه خطر في الوقت نفسه على الولايات المتحدة. وكان من شأن انتصار الدول المركزية أن يتسبب في إفساد حماية البحرية الملكية البريطانية مما يسمح للإمبريالية الألمانية أن تؤكد نفسها في نصف الكرة الغربي .

ولو أن روزفلت اعتبر سيطرة الأسطول البحري البريطاني على المحيط الأطلنطي أكثر أمنا من سيطرة ألمانيا لكان السبب في ذلك هو عوامل غير ملموسة لا علاقة لها بالقوة مثل التآلف الثقافي والتجارب التاريخية . والواقع أنه كانت هناك روابط ثقافية قوية بين إنجلترا وأمريكا لم يكن لها مثيل في مجال العلاقات بين الولايات المتحدة وألمانيا . وعلاوة على ذلك فقد كانت الولايات المتحدة قد اعتادت على سيطرة بريطانيا العظمي على البحار وكانت مرتاحة لهذه الفكرة ، ولم تشك أبدا في أن لدى بريطانيا مخططات توسعية في الأمريكتين . أما ألمانيا فكان ينظر إليها بنوع من الخشية . وفي ٣ أكتوبر ١٩١٤ كتب روزفلت إلى السفير البريطاني في واشنطن (وكان قد نسي حكمه السابق بشأن حتمية تجاهل ألمانيا لحياد بلجيكا) يقول :

«لو كنت رئيسا للجمهورية لتصرفت (ضد ألمانيا) في الثلاثين أو في الحادي والثلاثين من شهر يوليو».

وفي رسالة وجهها إلى الكاتب الإنجليزي ريدارد كيبلنج Rudyard Kipling بعد ذلك بشهر ، اعترف روزفلت بصعوبة حشد طاقات أمريكا للاشتراك في الحرب الأوروبية وفقا لآرائه أن الشعب الأمريكي ليس على استعداد للقيام بأعمال تستند بشدة على سياسات القوة:

«لو أني ناديت بكل ما أومن به شخصيا ، فلن أفلح في فعل شيء بين شعبنا ، لأنهم لن

يتبعوني . إن شعبنا قصير النظر ولا يفهم في الأمور الدولية . لقد كان شعبك قصير النظر ولكنه ليس بقصر نظر شعبنا في هذه الأمور .. والفضل في إيمان شعبنا بأنه ليس هناك ما يخاف منه من الصراع الحالي وبأنه ليس لديه أي مسئولية تجاهه ، يرجع أساسا إلى اتساع المحيط».

ولو أن الفكر الأمريكي في مجال السياسة الخارجية قد بلغ أوجه عند تيودور روزفلت لوصف هذا الفكر بأنه ثمرة تطور أدى إلّى تكييف المبادئ التقليدية لفن الإدارة الأوروبية لشئون الدولة مع الحالة في أمريكا . ولنظر إلى روزفلت على أنه الرئيس الذي كان في منصبه عندما بدأت الولايات المتحدة تجعل العالم يشعر بثقل وزنها ، بعد أن تمكنت من السيطرة على الأمريكتين . ولكن الفكر الأمريكي في مجال السياسة الخارجية الأمريكية لم ينته عند روزفلت ، ولا يمكن أن ينتهي هذا الفكر بهذا الشكل . فالقائد الذي يقصر الدور الذي يقوم به على التجربة التي يخوضها شعبه يكون مصيره الجمود ؛ والقائد الذي يسبق تجارب شعبه يخاطر بألا يفهمه أحد . فلا تجارب أمريكا ولا خبراتها أهلتها للدور الذي حدده لها روزفلت .

ومن إحدي مساخر التاريخ أن أمريكا حققت في النهاية الدور القيادي الذي تصوره لها روزفلت ، وفي إبان حياته ، ولكنها فعلت ذلك لصالح مبادئ سخر منها روزفلت وبتوجيه من رئيس احتقره روزفلت . لقد كان وودرو ويلسون تجسيدا لتقاليد نزعة الامتياز الأمريكي وبدأ ما أصبح فيما بعد المدرسة الفكرية الغالبة في السياسة الخارجية الأمريكية – وهي مدرسة رأى روزفلت أن مفاهيمها في أفضل الحالات لا تخدم أي غرض، وفي أسوأ الحالات تكون ضارة بالمصالح الأمريكية طويلة الأجل.

و بالنظر إلى جميع المبادئ التي وضعت لإدارة شئون الدولة كانت مبادئ روزفلت هي التي فازت على مبادئ أعظم رئيسين للولايات المتحدة . ومع ذلك فإن ويلسون هو الذي انتصر : فبعد ذلك بقرن من الزمان ظل روزفلت يذكر لإنجازاته ولكن ويلسون هو الذي شكل الفكر الأمريكي . لقد فهم روزفلت كيف تعمل السياسات الدولية بين الأمم التي كانت في ذلك الوقت تدير شئون العالم – فلم يكن لأي رئيس أمريكي تلك النظرة الثاقبة في كيفية عمل النظم الدولية . ومع ذلك فإن ويلسون أدرك البواعث الأساسية للحافز الأمريكي وربما كان الباعث الرئيسي هو أن أمريكا لا تري نفسها في الواقع أمة مثل أية أمة أخرى . فقد افتقرت إلى كل من الأساسين النظري والعملي لانتهاج ديبلوماسية على نمط الدبلوماسية الأوروبية التي تعمل على التعديل الدائم للفوارق الدقيقة في القوة من وضع الحياد الأخلاقي ، وذلك لغرض واحد هو المحافظة على ميزان دائم التغير . ومهما كانت حقائق القوة ودروسها فقد كان إيمان الشعب الأمريكي الثابت هو أن جوهر الشخصية الأمريكية الممتازة يكمن في

ممارسة الحرية ونشرها.

والأمريكيون يمكن أن يقتنعوا بالقيام بأعمال عظيمة من خلال رؤية تتفق مع مفهومهم عن بلدهم بأنه بلد ممتاز . ومع ذلك فرغم أن روزفلت كان على دراية فكريا بالطريقة التي تمارس بها دبلوماسية الدول الكبرى فعلا ، إلا أن طريقته فشلت في إقناع شعبه بأنه في حاجة إلى دخول الحرب العالمية الأولى . أما ويلسون من الناحية الأخرى فقد اختبر مشاعر شعبه وعرفها من مناقشات سامية أخلاقيا وغير مفهومة للقادة الأجانب .

كان إنجاز ويلسون إنجازا مذهلا . وبرفضه لسياسات القوة عرف كيف يؤثر في الشعب الأمريكي . وهو أكاديمي وصل إلى المسرح السياسي متأخرا نسبيا ، وقد انتخب نتيجة لانشقاق حدث في صفوف الحزب الجمهوري بين تافت Taft وروزفلت . وأدرك ويلسون أن انعزالية أمريكا الغريزية لا يمكن التغلب عليها إلا بالاستعانة بإيمانها بالطابع الممتاز لمثلها العليا . وخطوة بخطوة دخل ببلد انعزالي إلى أتون الحرب ، بعد أن بين أولا حب إدارته الشديد للسلم عن طريق تأييد حماسي للحياد . وقد فعل ذلك وهو يتجنب الإشارة إلى أي مصالح وطنية أنانية ، وأكد في الوقت نفسه أن أمريكا لا تسعى إلى الحصول على أية منافع أخرى غير تحقيق مبادئها.

وفي أول خطاب لويلسون عن حالة الاتحاد في ٢ ديسمبر ١٩١٣ قدم الشكل التمهيدي لما عرف فيما بعد بالويلسونية . وكان ويلسون يرى أن القانون الدولي وليس التوازن ، والجدارة بالثقة الوطنية وليس تأكيد الذات الوطنية ، هما أساس النظام الدولي . وعندما أوصي بالتصديق على عدة معاهدات للتحكيم قال مبررا ذلك أنه يجب أن يصبح التحكيم الملزم ، وليست القوة ، هو الوسيلة لحل المنازعات الدولية :

«ليست هناك سوى قاعدة واحدة ممكنة لتصفية الخلافات بين الولايات المتحدة والأمم الأخرى. وهذه القاعدة تتكون من عنصرين : شرفنا والتزاماتنا نحو السلام في العالم ومقياس بهذا التكوين يجب أن يوضع بسهولة ليحكم كل من تحديد الالتزامات التعاهدية (الالتزامات التي ينص عليها في المعاهدات) الجديدة وتفسير الالتزامات التي بدأ القيام بها بالفعل».

لم يكن هناك ما أزعج روزفلت مثل المبادئ الرنانة التي لا تساندها القوة أو الرغبة في تنفيذها . وقد كتب روزفلت إلى صديق له يقول : «إذا كان على أن أختار بين سياسة (الدم والحديد والعنف) وسياسة (الماء واللبن) المهادنة فأنا أؤيد سياسة الدم والحديد . إنها أفضل ليس فقط للأمة بل للعالم أجمع في الأمد البعيد».

وبنفس هذا المعيار ، فإن اقتراح روزفلت الخاص بالاستجابة للحرب في أوروبا عن طريق

زيادة النفقات الدفاعية لم يكن له معنى بالنسبة لويلسون . وفي خطابه الثاني عن حالة الاتحاد في ٨ ديسمبر ١٩١٤ وبعد أن ظلت الحرب الأوروبية مشتعلة لمدة أربعة شهور ، رفض ويلسون زيادة السلاح الأمريكي لأن هذا سيشير إلى أننا فقدنا رباطة جأشنا نتيجة لحرب أسبابها لا يمكن أن تمسنا ووجودها بذاته يوفر لنا فرصا للصداقة وخدمة تقدم لنا بلا مقابل.

وكان في رأي ويلسون أن نفوذ أمريكا اعتمد على عدم أنانيتها فكان عليها لذلك أن تصون نفسها حتى يمكنها في النهاية أن تمضي قدما كحكم موثوق به بين الأطراف المتحاربة. وكان روزفلت قد أكد أن الحرب في أوروبا ، ولا سيما إذا انتصر فيها الألمان ، يمكن في النهاية أن تهدد الأمن الأمريكي . أما ويلسون فقد رأى أن أمريكا في الأصل ليس لها مصلحة في شيء وبالتالي يجب أن تقوم بدور الوسيط . ولأن أمريكا تؤمن بقيم أسمى من ميزان القوى فإن الحرب في أوروبا هيأت لها الآن فرصة ممتازة لكي تدعو إلى اتخاذ موقف جديد وأفضل تجاه الشئون الدولية .

وقد سخر روزفلت من تلك الأفكار واتهم ويلسون بأنه يتزلف إلى الآراء الانعزالية لكي يساعده ذلك على إعادة انتخابه في عام ١٩١٦. والواقع أن قوة دفع سياسة ويلسون كانت تماما مضادة للانعزالية . وما كان ويلسون يدعو إليه ليس انسحاب أمريكا من العالم بل تطبيق قيمها على مستوى عالمي والتزام أمريكا في الوقت المناسب بنشر هذه القيم.

لقد أكد ويلسون من جديد ما أصبح فيما بعد الحكمة الأمريكية منذ جيفرسون ولكنه وضعها في خدمة أيديولوجية صليبية :

- «مهمة أمريكا الخاصة تسمو فوق دبلوماسية يوم بيوم أي أن دبلوماسية كل يوم قد تختلف عن دبلوماسية اليوم الآخر ، وهذه المهمة تلزم أمريكا أن تكون منارة الحرية لبقية العالم».
- السياسات الخارجية للديموقراطيات أسمى أخلاقيا لأن حب السلام متأصل في هذا الشعب .
- السياسة الخارجية يجب أن تكون انعكاسا لنفس المستويات كأخلاق الفرد .
- الدولة ليس لها الحق في أن تدعي أن لها أخلاقيات منفصلة لنفسها .

وقد أضفى ويلسون على تأكيدات التميز الأخلاقي الأمريكي بعدا عالميا :

«نحن لسنا قادرين على الخوف من قوة أي أمة أخرى. فنحن لا نغار من المنافسين لنا في ميادين التجارة أو أية إنجازات سلمية أخرى . إننا نريد أن نعيش حياتنا كما نريد ، ولكننا

نريد أيضا أن ندع الآخرين يعيشون حياتهم كما يريدون . إننا فعلا صديق حقيقي لكل أمم العالم لأننا لا نهدد أحدا ولا نريد الاستيلاء على ممتلكات أحد ولا نرغب في الإطاحة بأحد».

لم يحدث أبدا أن كانت هناك أمة استندت في مطلبها لقيادة العالم على حبها للغير . كل الأمم الأخرى حاولت أن يكون الحكم عليها من خلال توافق مصالحها القومية مع مصالح مجتمعات أخرى . ورغم ذلك فإنه ابتداء من وودرو ويلسون حتى جورج بوش استشهد الرؤساء الأمريكيون بعدم أنانية بلدهم بصفتها السمة الأكيدة لدورها القيادي . فلم يكن ويلسون ولا أتباعه فيما بعد ، حتى الوقت الحالي راغبين في مواجهة الحقيقة وهي أنه بالنسبة للزعماء الأجانب المشربين بأفكار أقل سموا فإن اتجاه أمريكا نحو حب الغير يجعلهم يشعرون بنوع معين من عدم القدرة على التنبؤ بشيء نحو أمريكا . وبينما المصالح القومية يمكن أن تحسب ، فإن حب الغير يتوقف على ما يقصده من يمارس هذا الحب .

وعلى أية حال فبالنسبة لويلسون كانت طبيعة حب الغير في المجتمع الأمريكي دليلا على نعمة إلهية :

«الأمر يبدو وكأنه بالعناية الإلهية ظلت قارة بعيدة عن الاستغلال تنتظر شعبا مسالما أحب الحرية وحقوق الإنسان أكثر من حبه لأي شيء آخر ليجيء إليها ويقيم دولة ديموقراطية غير أنانية».

والزعم بأن أهداف أمريكا كانت تدبيرا إلهيا معناه أن هناك دورا عالميا لأمريكا أكثر شمولا مما تصوره أي روزفلت . لأنه لم يكن يريد أكثر من تحسين ميزان القوى واستثمار دور أمريكا فيه بالأهمية التي تتناسب مع قوتها المتزايدة . وكان في مفهوم روزفلت أن أمريكا يمكنها أن تكون أمة واحدة بين أمم كثيرة – أقوى من معظمها وجزء من نخبة ممتازة من الدول الكبرى -- ولكن تظل خاضعة للقواعد الأساسية التاريخية للتوازن .

وقد انتقل ويلسون بأمريكا إلى مجال بعيد كل البعد عن تلك الاعتبارات . فبازدرائه لميزان القوى ، أصر على أن يكون دور أمريكا ليس هو إثبات عدم أنانيتها ، بل إثبات عظمتها وإذا كان ذلك حقيقيا فلم يكن لأمريكا الحق في أن تدخر قيمها لنفسها فقط. وفي عام ١٩١٥ تقدم ويلسون بمبدأ لم يسبق له مثيل وهو أن أمن أمريكا لا ينفصل عن أمن باقي الجنس البشري كله . وانطوى ذلك بداهة على أنه أصبح من واجب أمريكا منذ ذلك الوقت أن تعارض العدوان في كل مكان:

«لأننا نطالب بتنمية لا يعرقلها شيء وتنظيم حياتنا بلا إزعاج وفقا لمبادئنا الخاصة المتعلقة بالحق والحرية ، فإننا نرفض العدوان– الذي لن نرتكبه أبدا بأيدينا – من أي مصدر

يجيء . إننا نصر على توفير الأمن ونحن نقوم بتنفيذ ما اخترناه لأنفسنا من مناهج للتنمية القومية . إننا نفعل أكثر من ذلك . فنحن نطلب ذلك للآخرين أيضا . ونحن لا نقصر حماسنا للحرية الفردية والتنمية القومية الحرة على تطورات الأحداث والأمور التي تؤثر فينا فقط . فنحن نشعر بكل ذلك حيثما يكون هناك شعب يحاول السير في طرق الاستقلال والحق الوعرة».

وتصور أمريكا كشرطي عالمي رحيم كان نذيرا بمقدم سياسة الاحتواء التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية.

حتى في أكثر أوقاته حماسا وتجردا من القيود لم يكن روزفلت يحلم أبدا بهذا الشعور الجارف الذي كان نذيرا بظهور الاتجاه نحو التدخلية (سياسة التدخل وبخاصة التدخل الحكومي في الشئون الاقتصادية داخل الوطن أو في الشئون السياسية لبلد آخر). ولكن عندما كان روزفلت هو القائد السياسي المحارب ؛ كان ويلسون هو القس الملهم . فالقادة السياسيون وحتى المقاتلون يركزون اهتمامهم على العالم الذي يعيشون فيه ؛ أما بالنسبة للقادة الملهمين فإن العالم الحقيقى هو العالم الذي يريدون إخراجه إلى الوجود .

لقد حول ويلسون ما بدا أنه إعادة تأكيد للحياد الأمريكي إلى مجموعة من الاقتراحات أرست الأسس لحملة صليبية عالمية . ولم يكن هناك ، من وجهة نظر ويلسون ، فارق جوهري بين الحرية لأمريكا والحرية للعالم . ولما أثبت أن الوقت الذي أنفق في اجتماعات السلطة التي سادت فيها المناقشات والمجادلات حول أمور لفظية بسيطة لم يضيع هباء ، وضع تفسيرا ممتازا لما كان يعنيه جورج واشنطن فعلا عندما حذر من الوقوع في شراك أجنبية . وقد أعاد ويلسون تعريف كلمة أجنبية بطريقة لاشك كانت ستثير دهشة الرئيس الأول . وطبقا لرأي ويلسون فإن ما كان يعنيه واشنطن هو أن أمريكا يجب أن تتجنب التورط في أهداف الآخرين . غير أن ويلسون قال أنه ليس هناك شيء يهم البشرية يمكن أن يكون أجنبيا لنا أو لا نبالي به. ولذلك فإن أمريكا أصبح لديها صك غير محدد للتدخل بنفسها في الخارج.

أي تصور شاذ هذا الذي يستخلص تشريعا للتدخل العالمي من نصيحة لأحد الآباء المؤسسين ضد التورط الأجنبي ، ويضع فلسفة للحياد تجعل التورط في الحروب أمرا حتميا! وعندما راح ويلسون يدفع ببلده تدريجيا مقتربا من الحرب العالمية عن طريق تقديم تصوراته بوضوح عن عالم أفضل ، أثار حيوية ومثالية يبدو أنها بررت فترة البيات الشتوي الأمريكية التي استمرت طيلة مائة عام حتى أصبح في إمكان أمريكا الآن أن تدخل الساحة الدولية بنشاط وطهارة لم يعرفهما من قبل رفاقها الأكثر نضجا . لقد تصلبت الدبلوماسية الأوروبية وقهرت في بوتقة التاريخ وشهد القادة السياسيون الذين كانوا يمارسون تلك

الدبلوماسية أحداثا أثبتت أن أحلامهم كانت هشة ، وانهارت آمال كبيرة وضاعت مثل عليا بسبب ضعف البصيرة الإنسانية . ولم تعرف أمريكا مثل هذا العجز . وراحت تعلن بشجاعة أن ما حدث إذا لم يكن نهاية التاريخ فلا شك أنه لا صلة له بشيء، وراحت تعمل على تغيير قيم اعتبرت حتى ذلك الوقت قيما فريدة بالنسبة لها وعلى تحويلها إلى مبادئ عالمية تنطبق على الجميع . واستطاع ويلسون بذلك أن يتغلب ، ولو لبعض الوقت ، على الشد والجذب في الفكر الأمريكي بين مفهوم أمريكا الآمنة ومفهوم أمريكا الطاهرة . ولم تستطع أمريكا أن تقترب من الدخول في الحرب العالمية الأولي إلا باعتبار ذلك خطة لصالح الشعوب في كل مكان ، وليس لصالحها فقط وأن تدخل الحرب في دور المقاتل في سبيل الحريات العالمية .

كان إغراق السفينة الحربية لوسيتانيا Lusitania على أيدي الألمان ، وقبل كل شيء تجديد الألمان لحرب الغواصات غير المحدودة ، هو السبب المباشر لإعلان أمريكا الحرب. ولكن ويلسون لم يقل أن دخول أمريكا الحرب كان لأسباب أو شكاوى معينة . فلم تكن المصالح القومية لها صلة بالموضوع ، ولم يكن العدوان البلجيكي أو ميزان القوى لهما علاقة كذلك بالموضوع . لقد كان للحرب بدلا من ذلك أساس أخلاقي هدفه الرئيسي هو إقامة نظام دولي جديد أكثر عدلا . ووصف ويلسون الحرب في بيانه الذي طلب فيه إعلان الحرب بأنها شيء مخيف، إن الزج بهذا الشعب العظيم المسالم في آتون الحرب ،بل في أفظع الحروب وأكثرها تدميرا سوف يعرض المدنية كلها لخطر فادح . غير أن الحق أثمن من السلام ، وسوف نقاتل من أجل الأشياء التي تلقي إعزازنا وتقديرنا والتي وضعناها دائما قرب قلوبنا ،سوف نحارب من أجل الديموقراطية ومن أجل حق أولئك الذين يخضعون للسلطة كي يصبح لهم صوت في حكوماتهم ، سوف نحارب من أجل حقوق الأمم الصغيرة وحرياتها كي يسود العالم الحق باتفاق الشعوب الحرة بالقدر الذي يحقق السلام والأمن للأمم جميعا ويجعل العالم ذاته حرا في النهاية .

وفي حرب تقوم في سبيل نصرة تلك المبادئ لا يمكن أن يكون هناك حل وسط . فالنصر الحاسم التام هو الهدف الأساسي الصحيح . وليس هناك شك في أن الأمر لو رجع إلى روزفلت لأعرب عن أهداف أمريكا من الحرب في صيغ سياسية استراتيجية : أما ويلسون فقد بين بشموخ واعتزاز عدم وجود مصلحة لأمريكا في الحرب وحدد الهدف من الحرب في مقولات أخلاقية تماما . وفي رأي ويلسون أن الحرب لم تكن نتيجة لتصادم المصالح القومية التي يسعى البعض لتحقيقها دون قيد بل نتيجة لهجوم ألمانيا الذي لا مبرر له على النظام الدولي. وبصورة أكثر تحديدا فإن المجرم الحقيقي ليس هو الشعب الألماني بل الإمبراطور الألماني نفسه. وفي طلبه إعلان الحرب قال ويلسون مبررا ذلك :

ليس هناك شجار بيننا وبين الشعب الألماني . ومشاعرنا نحوه ليست سوى مشاعر الود والصداقة . لم يكن بدافع من الشعب الألماني أن دخلت الحكومة الألمانية هذه الحرب . فلم يتم ذلك بمعرفة سابقة من الشعب الألماني أو بموافقة منه . إنها حرب تقررت كما كانت تتقرر الحروب في الأيام التعيسة القديمة عندما كان حكام الناس لا يستشيرونهم وكان التحريض على الحروب وشنها يتم لصالح الأسر الحاكمة.

رغم أن ويليام الثاني اعتبر دائما بمثابة مدفع طليق على مسرح الأحداث الأوروبي فلم يحدث أبدا أن ناديا سياسيا أوروبيا يعزله : فلم ير أحد أن الإطاحة بالإمبراطور أو أسرته هي مفتاح السلام في أوروبا . غير أنه بمجرد أن أثير موضوع البنية الداخلية لألمانيا لم يكن ممكنا أن تنتهي الحرب بنوع الحل الوسط الذي يوازن المصالح المتضاربة والذي توصل إليه روزفلت بين اليابان وروسيا قبل ذلك بعشرين عاما . ففي ٢٢ يناير ١٩١٧ قبل أن تدخل أمريكا الحرب ، أعلن ويلسون أن هدف أمريكا هو السلام بدون انتصار ومع ذلك فإن ما اقترحه ويلسون عندما دخلت أمريكا الحرب فعلا هو سلام لا يتحقق إلا عن طريق الانتصار التام.

وسرعان ما تبلورت آراء ويلسون وأصبحت حكمة تقليدية . وبدأت حتى شخصيات بارزة محنكة مثل هيربرت هوفر Herbert Hoover تصف الطبقة الألمانية الحاكمة بأنها طبقة ذات طابع شرير متأصل فيها تفترس دماء الشعوب الأخرى. وقد وصف جاكوب شورمان Jacob schurman عميد جامعة كورنيل الحالة فى ذلك الوقت وصفا دقيقا فقال: إن الحرب هي صراع بين مملكة الرب ومملكة أسرة هن Hun -Land ,التي هي القوة والرعب معا.

ومع ذلك فإن الإطاحة بأسرة حاكمة واحدة لا يمكن بأية حال أن تحقق كل ما تضمنته مقولات ويلسون البلاغية . وعندما طالب ويلسون بإعلان الحرب مد دعوته الأخلاقية إلى العالم كله ، فليست ألمانيا فحسب بل يجب أن تصبح جميع الأمم الأخرى آمنة من أجل تحقيق الديمقراطية : لأن السلام يتطلب شركة من الأمم الديموقراطية. وقد ذهب ويلسون في كلمة أخرى له إلى أبعد من ذلك عندما قال أن قوة أمريكا سوف تضمر ما لم تنشر الولايات المتحدة الحرية في العالم كله :

«لقد أعددنا هذه الأمة لنجعل الناس أحرارا، ونحن لم نقصر مفهومنا وأغراضنا على أمريكا، والآن سنجعل الناس أحرارا . وإذا لم نفعل ذلك ، فإن سمعة أمريكا كلها سوف تنهار وسوف تتبدد كل قوتها» .

وأقرب ما وصل إليه ويلسون في تفاصيل إعلان أهدافه من الحرب يتلخص في النقاط الأربع عشرة ، التي سنتناولها في الفصل التاسع . ويكمن إنجاز ويلسون التاريخي في

اعترافه بأن الأمريكيين لا يمكنهم أن يتحملوا الدخول في تعهدات دولية كبرى لا يبررها إيمانهم الأخلاقي . وكانت كبوته هي اعتباره مآسي التاريخ انحرافات شاذة ، أو نتائج لقصر نظر القادة أنفسهم ولشرورهم . ورفضه لأي أساس موضوعي للسلم غير قوة الرأي العام وانتشار المؤسسات الديموقراطية في العالم . وهو في تلك العملية يطلب من الأمم الأوروبية أن تقوم بشيء ليست على استعداد للقيام به لا فلسفيا ولا تاريخيا وذلك فورا إثر حرب استنزفت ثرواتهم .

لقد ظلت الأمم الأوروبية طيلة ٣٠٠ عام تقيم نظامها العالمي على أساس توازن المصالح القومية ، وتضع سياساتها الخارجية على أساس تحقيق الأمن واعتبار كل منفعة أخرى مكسبا إضافيا . وقد طلب ويلسون من الأمم الأوروبية أن تستند في سياساتها الخارجية إلى الإيمان الشديد بالأخلاق ، تاركة الأمن ليجيء عرضيا وحده ، هذا إذا جاء أصلا . ولكن أوروبا لم يكن لديها مفهوم لمثل سياسة اللامبالاة هذه ، وكان الأمر يستدعي الانتظار لمعرفة ما إذا كان يمكن لأمريكا التي خرجت لتوها من قرن من العزلة أن تتحمل التورط الدائم في الشئون الدولية الذي انطوت عليه بداهة نظريات ويلسون .

وكان ظهور ويلسون على المسرح العالمي بمثابة حد فاصل في تاريخ أمريكا ، وكان هو أحد الأمثلة النادرة لقائد يغير تغييرا أساسيا الطريق الذي يسير فيه تاريخ بلاده . ولو حدث أن سيطر روزفلت على مقاليد الأمور أو سادت أفكاره في عام ١٩١٢ لكانت مسألة أهداف الحرب قد قامت على أساس التساؤل عن طبيعة المصلحة القومية الأمريكية . ولكان روزفلت قد برر دخول أمريكا الحرب بالاستناد على افتراض قدمه هو – وهو أنه إذا لم تنضم أمريكا إلى الوفاق الثلاثي فإن الدول المركزية سوف تكسب الحرب وسرعان إن آجلا أو عاجلا ، ما ستشكل تهديدا لأمن أمريكا .

والمصلحة القومية الأمريكية بهذا التعريف كانت ستؤدي بأمريكا مع مرور الوقت إلى أن تنتهج سياسة عالمية تشبه سياسة بريطانيا العظمى إزاء أوروبا . وطيلة ثلاثة قرون ظل القادة البريطانيون يعملون انطلاقا من الفرض القائل أنه إذا تحكمت في موارد أوروبا دولة واحدة مسيطرة ، فإن هذه الدولة سيكون لديها عندئذ من الموارد ما يتيح لها تحدي سيطرة بريطانيا العظمى على البحار وبذلك تهدد استقلالها . والولايات المتحدة تعتبر من الناحية الجغرافية السياسية جزيرة أيضا قريبة من شواطئ أوراسيا (أوروبا وآسيا) وكانت ستشعر، إذا اتبعنا نفس هذا المنطق ، أنها مضطرة لمقاومة سيطرة دولة واحدة على أوروبا أو آسيا بل أكثر من ذلك التحكم في كلتا القارتين بواسطة نفس الدولة . ومن هذا المنطلق فلابد أن قدرة ألمانيا على الامتداد الجغرافي السياسي وليس لا مبالاتها الأخلاقية هي التي تسببت في

ظهور المبدأ القائل بأن للحرب مبرراتها.

وعلى أي حال فإن هذا الاتجاه الذي ينتمي إلى العالم القديم اصطدم بمعين لا ينضب من المشاعر الأمريكية التي سبر غورها ويلسون – كما هو الحال حتى اليوم . ولا حتى روزفلت كان يستطيع أن ينجح في سياسات القوة التي نادى بها رغم أنه مات مقتنعا بأنه كان يستطيع ذلك . وعلى أية حال لم يكن روزفلت في ذلك الوقت رئيسا للجمهورية ، وأوضح ويلسون ، حتى قبل أن تدخل أمريكا الحرب ، أنه سوف يقاوم أية محاولة لإقامة النظام الذي سيوجد بعد الحرب على أساس مبادئ متوطدة للسياسات الدولية .

وقد رأى ويلسون أن أسباب الحرب لا ترجع فقط إلى الشر الذي يكمن في نفوس القادة الألمان بل ترجع إلى نظام ميزان القوى الأوروبي أيضا . ففي ٢٢ يناير سنة ١٩١٧ هاجم ويلسون النظام الدولي الذي سبق الحرب ووصفه بأنه نظام للمنافسات المنظمة.

السؤال الذي يعتمد عليه كل مستقبل السلام والسياسة في العالم هو الآتي :

هل الحرب الراهنة هي صراع من أجل تحقيق سلام عادل آمن أم هي ميزان جديد للقوى؟ لا ينبغي أن يكون هناك ميزان للقوى بل ينبغي أن تكون هناك وحدة للقوى ...ولا ينبغي أن تكون هناك منافسات منظمة بل أن يكون هناك سلم عام منظم.

عندما تكلم ويلسون عن وحدة القوى فقد كان يعني مفهوما جديدا تماما عرف فيما بعد بالأمن الجماعي رغم أن ويليام جلادستون في بريطانيا العظمى قدم له شكلا مختلفا بعض الشيء ومات هذا الشكل في المهد في عام ١٨٨٠ وكان ويلسون –اقتناعا منه بأن جميع دول العالم لديها اهتمام متساو بالسلام ولذلك ستتحد لمعاقبة أولئك الذين عكروا صفو السلام – قد اقترح الدفاع عن النظام الدولي بالإجماع الأخلاقي للمحبين للسلام :

«...إن هذا عصر .. يرفض معايير الأنانية القومية – التي تحكمت في وقت ما في المشاورات بين الأمم ويطالب هذا العصر أيضا بأن تفسح معايير هذه الأنانية القومية الطريق لنظام جديد ستكون التساؤلات الوحيدة فيه هي هل هذا النظام صحيح ؟ هل هذا النظام عادل؟ هل هذا النظام في صالح الإنسانية ؟»

ولإرساء قواعد لذلك تقدم ويلسون بفكرة عصبة الأمم ، مؤسسة أمريكية محض. وتحت رعاية هذه المنظمة العالمية ، سوف تخضع القوة للأخلاق وسوف تخضع قوة السلاح لما يمليه الرأي العام . وظل ويلسون يؤكد أنه لو أن الجماهير كانت تصلها المعلومات على الدوام بشكل كاف لما اندلعت الحرب أبدا – متجاهلا المظاهرات الحماسية التي اشتعلت في جميع العواصم بما فيها عاصمتا بريطانيا العظمي وفرنسا معبرة عن الغبطة والارتياح لنشوب

الحرب . وكان ويلسون يرى أنه لو نجحت النظرية الجديدة فكان لا بد على الأقل أن يحدث تغييران في الحكم الدولي : أولا ، انتشار الحكومات الديموقراطية في شتى أنحاء العالم . وثانيا ، وضع دبلوماسية جديدة أكثر جدوى على أساس نفس مبادئ الشرف التي نطالب الأفراد بالالتزام بها.

وفي عام ١٩١٨ وضع ويلسون كضرورة لإقرار السلام الهدف الطموح المذهل الذي لم يسمع به أحد من قبل وهو تدمير كل سلطة استبدادية في أي مكان يمكنها بمفردها وفي سرية وباختيارها الفردي أن تتسبب في تعكير صفو السلام في العالم ، ولو لم يكن في الإمكان تدميرها الآن فلابد من تحويلها إلى كيان عاجز تماما. إن عصبة للأمم مشكلة بهذا الشكل تحركها مثل تلك الاتجاهات سوف تستطيع تسوية الأزمات بدون اللجوء للحرب . وقال ويلسون أمام مؤتمر السلام الذي عقد في ١٤ فبراير عام ١٩١٩: إننا عن طريق هذا الجهاز (ميثاق عصبة الأمم) سنعتمد أولا وأساسا على قوة عظيمة واحدة وتلك هي القوة الأخلاقية للرأي العام العالمي – سوف يظهر نفوذ الرأي العام المطهر الموضح للأمور الذي يتمتع بقوة الإقناع – حتى يمكن لتلك الأشياء التي يدمرها الضوء أن تدمر بشكل أصح بالضوء الكاسح النابع من التعبير العالمي عن إدانة العالم.

إن صيانة السلام لن تنبع بعد ذلك من الحسابات التقليدية للقوة بل من إجماع عالمي تسانده آلية للمحافظة على النظام والأمن . فيمكن لتجمع عالمي أغلبه من الدول الديموقراطية أن يكون بمثابة وصي على السلام ويحل محل نظامي توازن القوى والأحلاف.

ومثل هذه الآراء المجيدة لم يحدث من قبل أبدا أن قدمتها أية أمة ناهيك عن أن تكون قد وضعت موضع التنفيذ . ومع ذلك فقد تحولت على أيدي النزعة المثالية الأمريكية إلى الفكر العادي المتداول بشأن السياسة الخارجية . فكل رئيس أمريكي منذ ويلسون قدم تنويعات مختلفة للفكرة الرئيسية لويلسون . فكثيرا ما تناولت المناقشات المحلية موضوع فشل تنفيذ أفكار ويلسون المثالية (التي سرعان ما أصبحت موضوعا مألوفا لدرجة أنها لم تعد حتى تنسب إليه) بدلا من أن تتناول موضوع صلاحية تلك الأفكار لأن تكون في الواقع دليلا مناسبا لمواجهة التحديات القاسية في ذلك العالم المضطرب . وطيلة ثلاثة أجيال ظل النقاد يهاجمون بشدة تحليلات ويلسون ونتائجه ؛ ومع ذلك فطوال ذلك الوقت ظلت مبادئ ويلسون الأساس الذي بني عليه فكر السياسة الخارجية الأمريكية . ومع ذلك فإن ما قام به ويلسون من المزج بين القوة والمبادئ هيأ أيضا المسرح لقرون من التناقض الفكري بينما كان الضمير الأمريكي يحاول التوفيق بين مبادئه وضرورياته. فالفرض الأساسي للأمن الجماعي كان هو أن جميع الأمم يمكن أن تنظر إلى كل تهديد للأمن بنفس الطريقة وتكون

مستعدة لأن تتعرض لنفس الأخطار عند مقاومة هذا التهديد . وليس فقط أن لا شيء مثل هذا قد حدث فعلا بل إنه لم يحدث أبدا أن شيئا مثل هذا كان من المقدر أن يحدث في تاريخ كل من عصبة الأمم والأمم المتحدة . وفقط عندما يكون التهديد ساحقا حقا ويؤثر علي نحو حقيقي على جميع المجتمعات أو على أغلبها – يكون هذا الإجماع في الآراء ممكنا – وذلك كما حدث خلال الحربين العالميتين – وكما حدث على أساس إقليمي في الحرب الباردة . ولكن في أغلب الحالات – بل وتقريبا في معظم الحالات الصعبة – تميل الأمم في العالم إلى الاختلاف إما حول طبيعة التهديد أو حول نوع التضحية التي يكونون على استعداد للقيام بها لمواجهة هذا التهديد.

وتلك كانت القضية عندما اعتدت إيطاليا على أثيوبيا سنة ١٩٣٥ وفي أزمة البوسنة سنة ١٩٩٢ . وقد ثبت عندما كان الأمر يتعلق بتحقيق أهداف إيجابية أو معالجة حالات ظلم بين ، أن الوصول إلى إجماع عالمي في الرأي أمر أكثر صعوبة . ومن السخرية أنه في عالم ما بعد الحرب الباردة الذي لم يكن به تهديد أيديولوجي أو عسكري شديد والذي ازداد فيه امتداد الديموقراطية أكثر من أي وقت مضى فإن تلك الصعوبات قد ازدادت .

وقد أظهرت الويلسونية بوضوح انشقاقا كامنا آخر في الفكر الأمريكي إزاء الشئون الدولية . فهل كان هناك لأمريكا أي مصالح أمنية احتاجت للدفاع عنها بغض النظر عن الوسائل التي اتبعت لتحدي هذه المصالح ؟ أو هل ينبغي على أمريكا أن تقاوم فقط التحديات التي يمكن وصفها بحق بأنها تحديات غير قانونية ؟ هل هي حقيقة التحول الدولي أم أسلوب هذا التحول هو الذي كان موضع اهتمام أمريكا ؟ هل رفضت أمريكا مبادئ الجغرافية السياسية برمتها ؟ أو هل كان الأمر يحتاج إلى تفسير لتلك المبادئ من خلال مصفاة القيم الأمريكية ؟ وإذا تصادمت هذه فأيها ستكون لها الغلبة على الأخرى .

كان أثر الويلسونية هو أن أمريكا قاومت قبل كل شيء طريقة التغيير وأنها ليست لديها مصالح استراتيجية تستحق الدفاع عنها إذا تعرضت للتهديد بطرق قانونية ظاهريا . ومؤخرا في حرب الخليج أصر الرئيس الأمريكي بوش على أنه لا يدافع في هذه الحرب عن إمدادات البترول الحيوية بقدر ما يقاوم مبدأ العدوان . وأثناء الحرب الباردة كانت بعض المناقشات المحلية التي تجرى في أمريكا تدور حول مسألة ما إذا كان لأمريكا بكل ما أوتيت به من عيوب حق أخلاقي يخول لها تنظيم مقاومة تهديدات موسكو .

أما تيودور روزفلت فلم يكن سيتنازعه أي شك للرد على تلك الأسئلة . والافتراض أن الأمم يمكنها أن تدرك التهديدات بطريقة واحدة أو تكون مستعدة للرد على تلك التهديدات على نحو متماثل يشكل إنكارا لكل شيء ناضل من أجله . ولم يكن حتى يمكنه أن يتصور أي

منظمة عالمية ينتمي إليها بارتياح كل من الجاني والضحية في وقت واحد . وفي نوفمبر ١٩١٨ كتب في رسالة له يقول :

«أنا أؤيد وجود مثل تلك العصبة) (عصبة الأمم) بشرط ألا نتوقع منها الكثير .. أنا لست على استعداد لأن أقوم بالدور الذي سخر منه حتى إيسوب عندما كتب كيف اتفق الذئاب مع الخراف على نزع سلاحهم ، وكيف صرفت الخراف الكلاب التي تحرسها بدافع من حسن النية فما كان من الذئاب إلا أن التهمتها فورا».

وفي الشهر الذي تلاه كتب إلى السيناتور فوكس عضو مجلس الشيوخ عن ولاية بنسلفانيا يقول :

«إن عصبة الأمم قد تنفع قليلا غير أنها كلما زاد طنينها ، وكلما تظاهرت بأنها تفعل الكثير كلما تضاءلت إنجازاتها . إن الحديث عن عصبة الأمم يشير بطريقة ساخرة مقيتة إلى الحلف المقدس الذي عقد قبل مائة عام وكان هدفه الأساسي صيانة السلام . وكان الرئيس ويلسون في تلك ا للحظة مثله مثل القيصر الكسندر قبل قرن مضي».

وفي تقدير روزفلت أن الصوفيين فقط ، والحالمين ، والمفكرين ، هم الذين يرون أن السلام هو الحالة الطبيعية للإنسان وأنه يمكن صيانته عن طريق إجماع نزيه للآراء لا يبغي أية مصالح . أما هو فكان يرى أن السلام هش تماما بطبيعته ، ولا يمكن صونه إلا باليقظة والاحترا م الدائمين وبسلاح الأقوياء وبالأحلاف بين المتشابهين فكريا .

غير أن روزفلت عاش إما متأخرا قرنا أو متقدما قرنا عن زمانه . فموقفه من الشئون الدولية مات بموته عام ١٩١٩ ؛ ومنذ ذلك الوقت لم يكن مرجعا تسترشد به أية مدرسة من مدارس الفكر الأمريكي في السياسة الخارجية . والمؤكد ، من ناحية أخرى ، أن الدرجة التي وصل إليها انتصار ويلسون الفكري جعلت حتى ريتشارد نيكسون الذي كانت سياسته الخارجية في الواقع انعكاسا لكثير من مفاهيم روزفلت ، يعتبر نفسه قبل كل شيء تابعا لويلسون في نزوعه إلى الدولية (سياسة التعاون بين الدول خاصة في الحقلين السياسي والاقتصادي)، وقد علق صورة للرئيس الذي شهد فترة الحرب في قاعة مجلس الوزراء .

لقد فشلت عصبة الأمم في أن يكون لها أثر في أمريكا لأن البلد لم يكن على استعداد بعد للمساهمة في مثل هذا الدور العالمي . ورغم ذلك فإن النصر الذي أحرزته أفكار ويلسون أثبت أنه يشتمل على بذور التطور أكثر من أي نصر سياسي آخر . لأن أمريكا كلما كانت تواجه مهمة إقامة نظام عالمي جديد كانت تعود بطريقة أو أخرى إلى وصايا وودرو ويلسون . وعند نهاية الحرب العالمية الثانية ساعدت أمريكا على بناء الأمم المتحدة على نفس المبادئ

التي بنيت عليها عصبة الأمم على أمل إقرار السلام بالاتفاق بين المنتصرين . غير أنه عندما دفن هذا الأمل بدأت أمريكا الحرب الباردة لا كصراع بين دولتين عظميين بل كصراع أخلاقي من أجل الديموقراطية . وعندما انهارت الشيوعية تبنت إدارتا كلا الحزبين السياسيين الرئيسيين في أمريكا فكرة ويلسون التي تقول أن الطريق للسلم يكمن في الأمن الجماعي المصحوب بانتشار واسع النطاق للمؤسسات الديموقراطية في العالم .

وفي الويلسونية تجسدت الدراما الرئيسية لأمريكا على مسرح الأحداث العالمي : فقد كانت الأيديولوجية الأمريكية أيديولوجية ثورية بشكل ما ، بينما كان الأمريكيون يرون أنهم مقتنعون بوضعهم الراهن . ومع ميل الأمريكيين إلى تحويل قضايا السياسة الخارجية إلى صراع بين الخير والشر فإنهم لم يشعروا بالارتياح عموما إزاء الحلول الوسط وكذلك إزاء أي نتائج إذا كانت متحيزة أو غير قاطعة . ولأن أمريكا ابتعدت عن محاولات تحقيق تحولات جغرافية سياسية واسعة النطاق فقد كان ذلك سببا في أنه كثيرا ما نسب إليها الارتباط بالدفاع عن ا لوضع الإقليمي الراهن وأحيانا الوضع السياسي الراهن .

ولما كانت أمريكا تثق في حكم القانون فقد وجدت أنه من الصعوبة بمكان التوفيق بين إيمانها بالتغيير السلمي وبين الحقيقة التاريخية التي تؤكد أن كل التغييرات الهامة في التاريخ تدخل فيها العنف كما تدخلت فيها الثورة .

وقد وجدت أمريكا أن عليها أن تحقق أهدافها المثالية في عالم أقل حظوة من عالمها وبالاتفاق مع دول لديها هوامش أضيق للبقاء وأهداف محدودة بقدر أكبر وثقة أقل في النفس . ومع ذلك فقد ثابرت أمريكا . وأصبح عالما ما بعد الحرب عالم من خلق أمريكا إلى حد كبير لدرجة أنها في النهاية قامت بالدور الذي تصوره ويلسون لها، وهو أن تكون منارة يسترشد بها الجميع وأملا يبلغونه.



■ ويليام أوف أورانج



■ الكاردينال ريشيليو

الفصل الثالث

من العالمية إلى التوازن

ريشيليو ، ويليام أوف أورانج ، وبيت

لقد ظهر – ما يصفه المؤرخون اليوم بنظام ميزان القوى الأوروبي – في القرن السابع عشر نتيجة للانهيار النهائي لآمال القرون الوسطى في العالمية – وهي مفهوم خاص بنظام عالمي يمثل مزيجا من تقاليد الإمبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية . كان الناس ينظرون إلى العالم على أنه انعكاس لصورة السماء وكما أن هناك إلها واحدا يحكم في السماء لذلك لا بد أن يحكم العالم الدنيوي إمبراطور واحد ويحكم الكنيسة العالمية بابا واحد.

وبهذه الروح تم جمع الدول الإقطاعية في ألمانيا وشمال إيطاليا تحت حكم الإمبراطور الروماني المقدس . وفي القرن السابع عشر ، توفرت لهذه الإمبراطورية الإمكانيات للسيطرة على أوروبا . وكانت فرنسا ، التي تصل حدودها إلى أقصى غرب نهر الراين ، وكذلك بريطانيا، دولتين على الحدود الخارجية لتلك الإمبراطورية .

ولو كان الإمبراطور الروماني المقدس قد نجح في تحقيق السيطرة المركزية على جميع الأقاليم الواقعة في نطاق سلطته ، لأصبحت علاقات دول أوروبا الغربية معه أشبه بعلاقات الدول المجاورة للصين مع المملكة الوسطى ؛ فرنسا فيها تشبه فيتنام أو كوريا ، وإنجلترا تشبه اليابان .

وعلى أية حال فإنه بالنسبة لمعظم فترة العصور الوسطى لم يتمكن الإمبراطور الروماني المقدس من تحقيق تلك الدرجة من السيطرة المركزية . وأحد أسباب ذلك هو عدم وجود المواصلات والاتصالات الملائمة مما جعل من الصعب ربط هذه الأقاليم الشاسعة بعضها ببعض . غير أن أهم الأسباب هو أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة فصلت إدارة الكنيسة عن إدارة الحكومة . وعلى عكس الفرعون أو القيصر فلم يكن أحد يعتقد أن الإمبراطور الروماني المقدس أوتي صفات إلهية . وفي كل مكان خارج أوروبا الغربية ، حتى في المناطق التي كانت تحكمها الكنيسة الشرقية ،كانت الحكومة والدين وحدة واحدة بمعنى أن التعيين في

المراكز الهامة في أي منهما كان يخضع للحكومة المركزية ؛ ولم تكن لدى السلطات الدينية الوسائل ولا السلطة للدفاع عن الوضع الاستقلالي الذي طالبت به المسيحية الغربية كحق لها .

وفي أوروبا الغربية رسخت إمكانية نشوب النزاع ، أو من وقت لآخر ، نشوب النزاع فعلا بين البابا والإمبراطور ، الأوضاع التي أدت في النهاية إلى وجود نظم الحكم الدستوري والفصل بين السلطات التي هي أساس الديمقراطية الحديثة. وقد مكن ذلك مختلف الحكام الإقطاعيين من تعزيز حكمهم الذاتي عن طريق فرض جزاءات على الجماعات المتنافسة فيما بينها . وقد أدى ذلك بدوره إلى وجود أوروبا المجزأة – خليط من الدوقيات ، والمقاطعات ، والمدن ، والأبرشيات ورغم أن جميع الإقطاعيين دانوا –من الناحية النظرية – بالولاء للإمبراطور ، إلا أنهم كانوا من الناحية العملية يتصرفون كما يحلو لهم . وقد طالب عديد من الأسر الحاكمة بالتاج الإمبراطوري ، واختفت السلطة المركزية تقريبا. واحتفظ الأباطرة بالتصور القديم للحكم العالمي بدون أي إمكانية لتحقيق هذا الحكم . وعند أطراف أوروبا ، لم تقبل فرنسا وإنجلترا وأسبانيا سلطة الإمبراطورية الرومانية المقدسة رغم أنهم ظلوا جزءا من الكنيسة العالمية .

وفقط عندما جاءت أسرة هابسبورج وطالبت بصفة دائمة تقريبا بالتاج الإمبراطوري في القرن الخامس عشر ، وحصلت من خلال زيجات مدبرة بدهاء على التاج الأسباني وموارده الضخمة ، أصبح من الممكن بالنسبة للإمبراطور الروماني المقدس أن يتوق إلى ترجمة مطالبه العالمية إلى نظام سياسي . وفي النصف الأول من القرن السادس عشر ، أحيا الإمبراطور شارل الخامس السلطة الإمبراطورية إلى درجة زادت من احتمالات قيام إمبراطورية أوروبا الوسطى المكونة مما هو اليوم ألمانيا ، والنمسا ، وشمال إيطاليا والجمهورية التشيكية ، وسلوفاكيا ، والمجر ، وفرنسا الشرقية ، وبلجيكا ، وهولندا.. وتلك مجموعة من الدول لديها من إمكانيات السيادة ما يجعلها تحول دون ظهور أي شيء يشبه ميزان القوى الأوروبي .

وفي تلك اللحظة بوجه خاص تسبب ضعف البابوية نتيجة لحركة الإصلاح الديني في القضاء على احتمالات قيام إمبراطورية أوروبية لها نفوذها . وعندما كانت البابوية قوية كانت شوكة في عنق الإمبراطور الروماني المقدس وندا مرعبا له . وعندما بدأت البابوية في الانهيار في القرن السادس عشر ثبت أنها كانت لعنة بالنسبة لفكرة الإمبراطورية . فقد كان الأباطرة يريدون أن يروا أنفسهم ويراهم الآخرون كوكلاء عن الله . غير أنه في القرن السادس عشر لم يعد ينظر إلى الإمبراطور في أراضي البروتستانت على أنه وكيل عن الله بل كان ينظر إليه على أنه قائد عسكري من فيينا مرتبط ببابوية متفسخة . وقد أمدت حركة الإصلاح الديني الأمراء الثائرين بحرية في الحركة والعمل في كلا الحقلين الديني والسياسي ، وكان

انفصالهم عن روما فرارا من العالمية الدينية ، وقد بين صراعهم مع إمبراطور آل هابسبورج أنهم لم يعودوا يعتبرون الولاء للإمبراطورية واجبا دينيا .

ومع انهيار مفهوم الوحدة ، كانت الدول الآخذة في الظهور في أوروبا تحتاج إلى مبدأ ما لتبرير خروجها على مبادئ الكنيسة وتنظيم علاقاتها . وقد وجدت ذلك في مفهومي مصلحة الدولةالعليا Raison d'etat وميزان القوى، وكل من هذين المفهومين يعتمد على الآخر . فمفهوم مصلحة الدولة العليا يؤكد أن سلامة كيان الدولة يبرر أية وسائل تستخدم لتعزيز هذه السلامة ؛ لقد حلت المصلحة القومية محل فكرة العصور الوسطى المتعلقة بالنزعة الأخلاقية العالمية . وحل ميزان القوى محل الحنين للملَكية العالمية مصحوبا بعزاء بأن كل دولة في تحقيقها لمصالحها الأنانية سوف تسهم بشكل ما في أمن وتقدم جميع الدول الأخرى .

إن أول وأشمل صياغة لهذا الاتجاه الجديد جاءت من فرنسا ، التي كانت أيضا واحدة من أوائل الدول القومية في أوروبا . لقد كانت فرنسا أكبر البلدان الخاسرة في عملية إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة لأنها ربما تصبح بذلك – لو استخدمنا التعبير الحديث – مثل فنلندا. وبضعف القيود الدينية ، بدأت فرنسا تستغل المنافسات التي تولدت عن حركة الإصلاح الديني بين جيرانها . وقد أدرك حكام فرنسا أنه بمواصلة العمل على إضعاف الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بل العمل، حتى أكثر من ذلك ،على انحلالها) سوف يعزز أمن فرنسا ويمكنها ،مع توفر حسن الحظ ، من التوسع شرقا .

وكان العامل الرئيسي لهذه السياسية الفرنسية هو شخصية مريبة ،أمير للكنيسة اسمه أرماند جين دي بليسيس : الكاردينال دى ريشليو Cardinal de Richelieu، رئيس وزراء فرنسا في الفترة من ١٦٢٤ حتى ١٦٤٢ . ويزعم أن البابا اوربان الثامن UrbanVIII قال عندما علم بوفاة الكاردينال دى ريشليو، لو كان هناك إله فسوف يكون علي الكاردينال دي ريشليو أن يبرر الكثير من أعماله . وإذا لم يكن هناك إله .. فقد عاش الكاردينال إذن حياة ناجحة. ولا شك أن تلك العبارة القصيرة الغامضة التي قيلت في وفاة ريشليو، كانت ستسعد ذلك القائد السياسي الذي حقق نجاحا كبيرا بتجاهله نزعات التقوى الدينية الرئيسية في عصره والتسامي عليها حقا .

قليل من القادة السياسيين يستطيعون أن يزعموا أن أثرهم في التاريخ أكبر من أثر ريشليو . كان ريشليو هو مبتدع نظام الدولة الحديث وهو الذي نشر مفهوم مصلحة الدولة العليا . ومارسه بلا هوادة لصالح بلده . وتحت رعايته حل مفهوم مصلحة الدولة العليا محل مفهوم القيم الأخلاقية العالمية في العصور الوسطى كمبدأ عمل في السياسية الفرنسية . وقد سعى في البداية إلى الحيلولة دون سيطرة آل هابسبورج على أوروبا غير أنه في النهاية ترك

وراءه تراثا ظل طيلة القرنين التاليين يغري خلفاءه على تحقيق المنزلة العليا لفرنسا في أوروبا . ونتيجة لفشل تلك الطموحات ظهر ميزان القوى ، في البداية كحقيقة من حقائق الحياة ثم كأسلوب لتنظيم العلاقات الدولية .

تولي ريشيليو منصبه في عام ١٦٢٤ عندما كان فرديناند الثاني الإمبراطور الروماني المقدس من آل هابسبورج يحاول إحياء عالمية الكاثوليكية ، والقضاء على البروتستانتية وتحقيق التحكم الإمبراطوري على أمراء أوروبا الوسطى . وقد أفضت عملية الإصلاح المضاد هذه ، إلى ما سمي فيما بعد بحرب الثلاثين عاما التي نشبت في أوروبا الوسطى عام ١٦١٨ وتحولت إلى واحدة من أكثر الحروب وحشية ودمارا في تاريخ البشرية .

وبحلول عام ١٦١٨ انقسم إقليم أوروبا الوسطى المتحدث بالألمانية والذي كان معظمه جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى معسكرين مسلحين : البروتستانت والكاثوليك. وكان الفتيل الذي أشعل نار الحرب قد اشتعل في نفس العام في براغ . ولم يمض وقت طويل حتى سيقت ألمانيا كلها إلى المعركة . وبينما كانت ألمانيا تقطر دما أصبحت إماراتها فريسة سهلة للغزاة من الخارج . وسرعان ما سارت الجيوش السويدية والدنمركية تخترق أوروبا الوسطى وأخيرا انضم الجيش الفرنسي إلى المعركة . وعندما انتهت الحرب في عام ١٦٤٨ كانت أوروبا الوسطي قد دمرت تماما وفقدت ألمانيا ثلث عدد سكانها تقريبا . ومن التجربة القاسية لهذا الصراع المأساوي قام الكاردينال ريشيليو بتطعيم السياسة الخارجية الفرنسية بمبدأ مصلحة الدولة العليا وهو مبدأ انتهجته الدول الأوروبية الأخرى في القرن التالي .

وبصفة ريشيليو أميرا للكنيسة فقد كان من المفروض عليه أن يرحب بمحاولات فرديناند لاستعادة الأرثوذوكسية الكاثوليكية غير أن ريشيليو وضع المصلحة القومية الفرنسية في مرتبة أعلى من أي أهداف دينية . ولم تمنعه مهنته ككاردينال من أن يرى محاولات آل هابسبورج لإعادة ترسيخ الديانة الكاثوليكية كتهديد جغرافي سياسي لأمن فرنسا . وبالنسبة له لم يكن هذا تصرفا دينيا بل كان مناورة سياسية من جانب النمسا للسيطرة على أوروبا الوسطى وتحويل فرنسا بالتالي إلى دولة من الدرجة الثانية .

ولم تكن مخاوف ريشيليو بلا أساس . فإن نظرة ولو خاطفة إلى خريطة أوروبا كانت تبين بوضوح أن فرنسا كانت محاطة من جميع الجهات بأراض تابعة لآل هابسبورج : أسبانيا في الجنوب ؛وفي الجنوب الشرقي دول المدينة في شمالي إيطاليا ، التي تسيطر على معظمها أسبانيا ،وفي الشرق المنطقة التي كانت تسمى في ذلك الوقت فرانش– كومتي (وهي اليوم المنطقة التي تقع أعلى ليون وسافوي) وهي أيضا واقعة تحت الحكم الأسباني، ثم الأراضي الواطئة في الشمال . وكانت الحدود القليلة التي لا تخضع لحكم آل هابسبورج الأسبان خاضعة للفرع النمساوي من العائلة .

وكانت دوقية لورين تدين بالولاء للإمبراطور الروماني المقدس النمساوي مثل بعض المناطق المهمة استراتيجيا التي تقع على طول نهر الراين والتي تعرف اليوم بمنطقة الألزاس. ولو كان شرق ألمانيا أيضا قد سقط تحت حكم آل هابسبورج لأصبحت فرنسا ضعيفة بشكل خطير أمام الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

ولم يكن ريشيليو يرتاح كثيرا لاشتراك أسبانيا والنمسا مع فرنسا في الإيمان بالدين الكاثوليكي. فقد كان ريشيليو على العكس تماما ، يصر على الحيلولة دون انتصار حركة الإصلاح المضاد . وفي السعي لتحقيق ما يمكن أن يسمى اليوم بمصالح الأمن القومي وما كان يسمى حينئذ –لأول مرة – مصلحة الدولة العليا ، كان ريشيليو على استعداد لمؤازرة الأمراء البروتستانت واستغلال الشقاق داخل الكنيسة العالمية .

ولو كان أمراء آل هابسبورج قد ساروا على نفس قوانين اللعبة أو فهموا العالم الآخذ في الظهور والذي يعمل وفقا لمبدأ مصلحة الدولة العليا ، لرأوا أنهم يحتلون مكانا رائعا لتحقيق ما كان ريشيليو يخشاه كل الخشية وهو تفوق النمسا وسيادتها وظهور الإمبراطورية الرومانية المقدسة كقوة مسيطرة على أوروبا . وعلى أية حال فإنه بمضي القرون استفاد أعداء آل هابسبورج من تحجر الأسرة الحاكمة في التأقلم مع الضروريات التكتيكية أو فهم اتجاهات المستقبل . لقد كان حكام آل هابسبورج رجال مبدأ . فلم يتساهلوا في معتقداتهم إلا عند الهزيمة . ولذلك ففي بداية تلك الملحمة السياسية كانوا عزلا تماما ولم يستطيعوا حماية أنفسهم من مكائد الكاردينال التي لا رحمة فيها .

ومما لاشك فيه أن الإمبراطور فرديناند الثاني ، نقيض ريشيليو، لم يكن قد سمع أبدا بمفهوم مصلحة الدولة العليا . وحتى لو كان قد سمع به لرفضه على أنه كفر بالمقدسات لأنه كان يرى أن مهمته المقدسة في الدنيا هي تنفيذ إرادة الله ، وكان دائما يؤكد على كلمة المقدس في لقبه المعروف بالإمبراطور الروماني المقدس . ولم يكن من الممكن أبدا أن يقر أن الأهداف الإلهية يمكن أن تتحقق بأقل من الوسائل الأخلاقية . ولم يكن يفكر أبدا في عقد معاهدات مع البروتستانت السويديين أو المسلمين الأتراك وهي إجراءات كان الكاردينال يقوم بها كأمر طبيعي . ولهذا فإن الجيزويتي لامورماني Lamormaini مستشار الكاردينال لخص رأي الإمبراطور فيما يلي :

إنه بحكمته ، أدان السياسات الزائفة الفاسدة التي انتشرت في ذلك الوقت . وكان يرى أن أولئك الذين يتبعون تلك السياسات لا يمكن التعامل معهم لأنهم يمارسون الزيف ويسيئون إلى الله والدين. ومن الحماقة الكبيرة محاولة تعزيز مملكة جاءت من عند الله وحده بوسائل مكروهة من الله.

إن هذا الحاكم الذي التزم بمثل تلك القيم المطلقة ، وجد أنه من المستحيل أن يقبل الحلول

الوسط . وفي عام ١٥٩٦ قال فرديناند وهو ما زال أرشيدوق :

«عندما تصل الأمور إلى مسألة الدين فإني أفضل أن أموت على أن أقدم أي تنازلات لأولئك المتعصبين الطائفيين». وقد نفذ كلامه . فأضيرت إمبراطوريته . ولما كان اهتمامه بخير الإمبراطورية أقل من اهتمامه بطاعة إرادة الله فقد اعتبر من واجبه سحق البروتستانتية رغم أنه كان من الواضح أن بعض المجاملة معها كان في مصلحته . واللغة الحديثة تسمي فرديناند متعصباً. وثمة كلمات لكاسبار سكيوبيوس Caspar Scioppius أحد المستشارين الإمبراطوريين ، توضح معتقدات الإمبراطور : ويل للملك الذي يتجاهل صوت الله الذي يطلب منه أن يقتل المنشقين عن العقيدة . أنت لا يجب أن تشن الحرب من أجل نفسك بل من أجل الله. وبالنسبة لفرديناند فقد كان سبب وجود الدولة هو خدمة الدين وليس العكس: فيما يتعلق بشئون الدولة وهي شئون مهمة جدا لعقيدتنا المقدسة فلا يمكن للمرء دائما أن يأخذ الاعتبارات الإنسانية في الحسبان ؛ بل يجب أن يضع آماله في الله ويدين لله.

وقد عامل ريشيليو الإيمان الديني لفرديناند بوصفه تحديا استراتيجيا . ورغم أنه شخصيا كان متدينا فقد كان ينظر إلى واجباته كوزير من زاوية دنيوية . وربما كان الخلاص هو هدفه الشخصي غير أن ذلك كان بالنسبة لريشيليو رجل الدولة أمرا لا صلة له بالموضوع . وقد قال مرة «إن الإنسان خالد لا يموت وخلاصه في الآخرة ، أما الدولة فهي ليست خالدة وخلاصها الآن أو لا خلاص لها على الإطلاق». وبمعني آخر فإن الدول لا يعترف بجميلها في أي في العالمين لمجرد أنها تلتزم بالحق ؛ فهي يعترف بجميلها عندما تكون بدرجة كافية بحيث تستطيع أن تفعل ما هو ضروري .

ولم يكن ريشيليو ليسمح لنفسه أن تفوته الفرصة التي تهيأت لفرديناند في سنة ١٦٢٩ وهي السنة الحادية عشرة للحرب . فقد كان الأمراء البروتستانت على استعداد لقبول سيطرة آل هابسبورج السياسية شريطة أن يظلوا أحرارا في اختيار الدين الذي يريدونه وأن يحتفظوا بأراضي الكنيسة التي استولوا عليها أثناء الإصلاح الديني . غير أن فرديناند لم يكن يقبل أن يجعل وظيفته الدينية خاضعة لاحتياجاته السياسية . وبرفضه ما كان يمكن أن يكون نصرا كاسحا وضمانا لإمبراطوريته ، وبإصراره على القضاء على الكفر البروتستانتي أصدر مرسوم رد الأراضي الذي طالب السادة البروتستانت برد جميع الأراضي التي استولوا عليها من الكنيسة منذ عام ١٥٥٥ . وكان هذا انتصارا للمشاعر الحماسية على سلوكيات المنفعة، وتلك حالة كلاسيكية يقضي فيها الإيمان على حسابات المصالح السياسية الذاتية . وقدكفل ذلك ضمان نشوب معركة حتى النهاية .

ولما وجد ريشيليو نفسه في هذا الموقف ، أصر على إطالة أمد الحرب حتى تنزف أوروبا

الوسطى دماءها حتى النهاية . وتجاهل التردد في السياسة الداخلية بسبب اعتبارات دينية. وفي العفو العام الذي سمي بعفو اليس Grace of Alais الذي صدر في عام ١٦٢٩ منح ريشيليو الفرنسيين البروتستانت حرية العبادة وهي نفس الحرية التي كان الإمبراطور يحارب من أجل حرمان الأمراء الألمان منها . وبعد أن حمى بلده من الاضطرابات الداخلية التي تمزق أوروبا الوسطى شرع ريشيليو في استغلال حماس فرديناند الديني لخدمة الأهداف القومية الفرنسية .

وقد كان عجز إمبراطور هابسبورج عن فهم مصالحه القومية – بل الواقع ، رفضه الفعلي لقبول صحة أي من مفاهيم المصلحة القومية –سببا في إعطاء رئيس وزراء فرنسا فرصة لتأييد الأمراء البروتستانت الألمان ولتقديم العون المالي لهم ضد الإمبراطور الروماني المقدس . ولم يكن القيام بدور المدافع عن حريات الأمراء البروتستانت ضد أهداف السيطرة المركزية التي يسعى إليها الإمبراطور الروماني المقدس يناسب أسقفا فرنسيا وملكه الكاثوليكي الفرنسي لويس الثالث عشر . وكان لقيام أمير من أمراء الكنيسة بتقديم العون المالي إلى ملك السويد البروتستانتي جوستافوس أدولفوس Gustavus Adolphus, وشن حرب ضد الإمبراطور الروماني المقدس معان ضمنية ثورية بلغت في عمقها غليان الثورة الفرنسية بعد ذلك بـ١٥٠ سنة .

كانت أي سياسة خارجية نزيهة متحررة من الالتزامات الأخلاقية في عصر كان الحماس الديني والتطرف الأيديولوجي لا يزالان يسيطران عليه أشبه بجبل الألب عندما يكون مغطى بالثلوج في وسط الصحراء . كان هدف ريشيليو هو إنهاء ما اعتبره تطويقا لفرنسا ، وكذلك إنهاك آل هابسبورج والحيلولة دون قيام دولة عظمى على حدود فرنسا – وخاصة حدودها مع ألمانيا . وكان معياره الوحيد لعقد الأحلاف هو أن تخدم هذه الأحلاف مصالح فرنسا ، وقد فعل ذلك في البداية مع الدول البروتستانتية وبعد ذلك حتى مع الإمبراطورية العثمانية الإسلامية . ومن أجل إنهاك المتحاربين ومد أجل الحرب قام ريشيليو بتقديم العون المالي لأعداء أعدائه وقدم الرشوة وأثار التمرد كما عبأ مجموعة غير عادية من البراهين التي تدعم الأسر الحاكمة والبراهين القانونية . وقد نجح نجاحا باهرا لدرجة أن الحرب التي بدأت عام ١٦١٨ امتدت عقدا بعد آخر حتى لم يجد التاريخ لها في النهاية اسما أفضل من مدة استمرارها حرب الثلاثين عاما.

وقفت فرنسا موقف المتفرج في الوقت الذي دمرت فيه ألمانيا وذلك حتى عام ١٦٣٥ عندما بدأ الإنهاك التام وحده ينذر مرة أخرى بانتهاء الأعمال العدوانية وبعقد تسوية سلمية. ولم يكن ريشيليو يهمه أن تعقد تلك التسوية إلا بعد أن يصبح الملك الفرنسي في مثل قوة إمبراطور هابسبورج بل الأفضل أن يصبح أقوى منه . وفي محاولاته لتحقيق هذا الهدف أقنع ريشيليو ملكه، في السنة السابعة عشرة من الحرب ، بضرورة دخول العراك إلى جانب

الأمراء البروتستانت.. على ألا يكون المبرر لذلك سوى الفرصة السانحة لاستغلال قوة فرنسا المتنامية :

إنها لعلامة من علامات الشجاعة والحكمة أن تستطيع أن تسيطر بقوات حلفائك على القوات المعادية لدولتك لمدة عشر سنوات ، وذلك بأن تضع يدك في جيبك وليس على سيفك وبعد ذلك تدخل في حرب علنية عندما لا يكون حلفاؤك قادرين على البقاء بدونك؛ وهذا يبين أيضا أنك تصرفت من أجل حماية سلم مملكتك مثل الاقتصاديين الذين بينما يحرصون حرصا شديدا على جمع المال يعرفون أيضا كيف ينفقونه.

إن نجاح سياسية مصلحة الدولة العليا يعتمد قبل كل شيء على تقييم علاقات القوة بين الدول . فالقيم العالمية تتحدد بإدراكها وفهمها ولا تحتاج إلى إعادة تفسيرها بصفة مستمرة ؛ والواقع أن تلك القيم لا تتسق مع التفسير . ولكن تعيين حدود القوة يتطلب مزيجا من الخبرة ونفاذ البصيرة والتأقلم المستمر مع الظروف أو الأحداث، ويجب من الناحية النظرية طبعا أن يكون ميزان القوى سهل الحساب تماما غير أنه في الممارسة العملية ثبت واقعيا أن تطبيقه في غاية الصعوبة . بل الأكثر تعقيدا هو التوفيق بين حسابات دولة ما وحسابات الدول الأخرى ، وذلك هو الشرط الضروري حتى يمكن العمل وفقا لحسابات ميزان القوى . وعادة ما يتم التوصل إلى إجماع في الرأي حول طبيعة التوازن بالصراعات التي تنشب من فترة لأخرى .

ولم يكن ينتاب ريشيليو أي شك في قدرته على السيطرة على التحدي ، انطلاقا من اقتناعه بأنه في الإمكان إقامة صلة بين الوسائل والأهداف بالحسابات الدقيقة . وقد ذكر في كتابه شهادة سياسة tpoitical testament أن المنطق يتطلب أن يكون هناك تناسب هندسي بين الشيء الذي يجب دعمه والقوة التي ستدعمه. لقد جعله القدر أميرا للكنيسة، ووضعته معتقداته في الصحبة الفكرية للفلاسفة العقلانيين من أمثال ديكارت Descarte سبينوزا Spinoza وهذان كان من رأيهما أن عمل الإنسان يمكن أن توضع له خريطة علمية؛ وكانت الفرصة قد هيأت له تحويل النظام العالمي بحيث يخدم مصلحة بلده. وتلك هي المرة التي كان فيها تقديره السياسي لنفسه دقيقا. لقد تمتع ريشيليو بإدراك ثاقب لأهدافه، لكنه هو – وأهدافه – كانا لا يمكن أن ينتصرا لو لم يتمكن من جعل تكتيكاته تتناسب مع استراتيجيته .

ولا يمكن لمثل هذا المبدأ الجديد البالغ الجرأة أن يمر دون اعتراض . ومهما حدث من سيطرة مبدأ ميزان القوى في السنوات التي تلت ذلك إلا أنه كان مبدأ شديد العدوانية بالنسبة للتقليد العالمي القائم على أساس أولية القانون الأخلاقي . وقد صدر أكبر نقد لهذا المبدأ من العالم الشهير جانسينيوس Jansenius الذي هاجم السياسة عندما تتحرر من كل الثوابت الأخلاقية :

«هل يعتقدون أن دولة دنيوية زائلة يمكن أن تكون أكثر أهمية من الدين والكنيسة ؟ .. ألا يجب أن يؤمن أكثر الملوك مسيحية أنه لا يوجد في حكمه لمملكته وإدارتها ما يحول دونه وتعزيز مملكة المسيح ربه وحمايتها ؟ هل يستطيع أن يقول لله : دع سلطانك ومجدك والدين الذي يعلم الناس كيف يعبدونك.. دع كل ذلك يضيع ويدمر على أن تتوفر لدولتي الحماية وتبتعد عن الأخطار ؟».

هذا على وجه التحديد ما كان ريشيليو يقوله لمعاصريه ،وعلى حسب ما نعرف ، لربه أيضا. لقد كان ذلك هو مقياس الثورة التي عمل على قيامها وهو أن ما فكر فيه نقاده (على أنه جدل غير أخلاقي وخطير جدا لدرجة أنه يدحض نفسه بنفسه)كان في الواقع موجزا دقيقا للغاية لفكر ريشيليو . وبصفته رئيس وزراء الملك صنف ريشيليو الدين والأخلاق ووضعهما في وضع أدنى من مصلحة الدولة العليا ، التي هي الضوء الذي يسترشد به .

وبعد أن بين المدافعون عن ريشيليو كيف استوعبوا الوسائل الساخرة للأستاذ نفسه حولوا حجج النقاد وبراهينهم ضد النقاد أنفسهم . وقالوا أن سياسة تحقيق المصلحة الذاتية القومية تعتبر أسمى قانون أخلاقي ؛ وأن الذين انتقدوا ريشيليو هم الذين ينتهكون المبادئ الأخلاقية وليس هو .

ووصل الأمر إلى دانييل دي بريزاك Dainiel de priezac هو عالم متصل بالإدارة الملكية كي يعد النقض الرسمي للموضوع ، لا شك بموافقة ريشيليو نفسه على نشر هذا النقض . وبطريقة مكيافيلية كلاسيكية نقض بريزاك الفرض القائل أن ريشيليو يرتكب إثما قاتلا بانتهاجه سياسات يبدو أنها تحبذ نشر الهرطقة . وقال أن الواقع أن من ينتقدون ريشيليو هم الذين يعرضون أرواحهم للخطر . ولما كانت فرنسا هي أنقى وأكثر الدول تدينا بين الدول الكاثوليكية الأوروبية فإن ريشيليو بخدمته لمصالح فرنسا يخدم بالمثل مصالح الديانة الكاثوليكية.

ولم يوضح بريزاك كيف توصل إلى استنتاجه بأن فرنسا أنيطت بها تلك المهمة الدينية الفريدة . وعلى أي حال يمكن أن يستنتج من الافتراض الذي قدمه بريزاك أن تعزيز الدولة الفرنسية هو في الواقع عمل يخدم سلامة كيان الكنيسة الكاثوليكية وبالتالي فإن سياسة ريشيليو سياسة أخلاقية على أعلى درجة . والواقع أن عملية تطويق آل هابسبورج شكلت تهديدا كبيرا لأمن فرنسا إلى الحد الذي كان يجب معه فك هذا التطويق ، على أن يبرأ ملك فرنسا من أي وسائل يختارها لتحقيق هذا الهدف الأخلاقي النهائي .

إنه يسعى لتحقيق السلام عن طريق الحرب ، وإذا حدث وهو يشن تلك الحرب شيء يتعارض مع رغباته ، فلن تكون هذه الحرب جريمة إرادة بل جريمة ضرورة قوانينها صارمة

ومتطلباتها في غاية القسوة .. إن الحرب تكون عادلة عندما يكون القصد منها عادلا .. ولذلك فإن الإرادة هي العنصر الأساسي الذي يجب وضعه في الاعتبار وليست الوسيلة ... إن (من)ينوي قتل مذنب قد يريق أحيانا عن طريق الخطأ دم البريء.

ولكي نضع الأمور في نصابها الصحيح دون تزويق فالغاية هنا تبرر الوسيلة .

وهناك ناقد آخر من نقاد ريشيليو ،هو ماثيو دي مورج Ma thieu de Morgues اتهم الكاردينال بالتلاعب بالدين مثلما فعل معلمك السابق مكيافيللى Mschisvelli مع الرومان القدامى فقد شرحت لهم كيف يؤدونه ويشكلونه ويطبقونه بالطريقة التي تحقق بها مأربك.

كان النقد الذي وجهه دي مورج قويا ومعبرا مثل نقد جانسينياس Gansenius ولكن لم يكن له تأثير . لقد كان ريشيليو حقا شخصا مناورا كما وصفه نقاده واستخدم الدين بالطريقة التي وصفوه بها أيضا. ولا شك أنه كان سيرد على نقاده قائلا أنه لم يفعل أكثر من أنه قام بتحليل العالم كما هو كما فعل مكيافيللي . وقد يكون مثل مكيافيللي في أنه كان يفضل عالما يتمتع بأحاسيس أخلاقية أكثر نقاء لكنه كان مقتنعا بأن التاريخ هو الذي سيحكم على فنه في الحكم بتقدير مدى حسن استغلاله للظروف والعوامل التي وضعت بين يديه . والواقع أننا إذا كنا نضع تقييما لرجل الدولة وكان المقياس هو تحقيقه للأهداف التي حددها لنفسه ، فيجب أن يذكر ريشيليو بوصفه أحد الشخصيات التي اشتملت على بذور التطور في التاريخ الحديث . ذلك لأنه خلف وراءه عالما مختلفا اختلافا جذريا عن العالم الذي وجده ، وبث الحياة في سياسة اتبعتها فرنسا طيلة ثلاثة قرون بعده .

وبهذه الطريقة أصبحت فرنسا الدولة المسيطرة في أوروبا وتوسعت في أراضيها توسعا كبيرا. وفي القرن الذي أعقب صلح ويستفاليا Peace of Westphalia في عام ١٦٤٨ منهيا حرب الثلاثين عاما أصبح مبدأ مصلحة الدولة العليا هو المبدأ الذي اهتدت به الدبلوماسية الأوروبية . ولم يكن الاحترام الذي نظر به رجال السياسة في القرون التالية إلى ريشيليو ولا النسيان الذي كان مصير غريمه فرديناند الثاني ، مصدر دهشة للكاردينال الذي لم تكن لديه أية أوهام حتى عن نفسه . وقد ذكر ريشيليو في كتابه شهادة سياسية Political Statement أنه فيما يتعلق بشئون الدولة فمن أوتي القوة غالبا ما يكون على حق ، والضعيف في رأي أغلبية العالم لا يمكن إلا بصعوبة أن يتجنب أن يوصم بالخطأ في رأي غالبية العالم.. وتلك حقيقة عامة نادرا ما نقضت فيما بعد.

وقد كان أثر ريشيليو على تاريخ أوروبا الوسطى عكس الإنجازات التي حققها لصالح فرنسا . فقد كان يخشى أن تتوحد أوروبا الوسطى وحال دون حدوث ذلك . وقد أخر توحيد

ألمانيا حوالي قرنين من الزمان . والمرحلة المبدئية من حرب الثلاثين عاما يمكن أن تعتبر محاولة من أسرة آل هابسبورج ليتصرفوا على أنهم السلالة الحاكمة التي وحدت ألمانيا تماما مثلما أصبحت إنجلترا دولة قومية خاضعة لنفوذ أسرة نورمندية وبعد ذلك بقرون قليلة حذت فرنسا حذو إنجلترا وسقطت تحت حكم الكابيين (الأسرة الحاكمة في فرنسا منذ عام ٩٨٧ حتى عام ١٣٢٨ أثناء الفترة الإقطاعية في العصور الوسطى .) وقد قاوم ريشيليو آل هابسبورج وقسمت الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين أكثر من ٣٠٠ ملك كل منهم حر في أن ينتهج سياسة خارجية مستقلة . ولم تتمكن ألمانيا من أن تصبح دولة قومية فقد كانت غارقة في مشاجرات تافهة بين أفراد الأسرة الحاكمة فاتجهت للداخل . ونتيجة لذلك لم تظهر في ألمانيا ثقافة سياسية وطنية وتحجرت داخل إطار النزعة الريفية التي لم تخرج منها إلا في نهاية القرن التاسع عشر عندما وحدها بسمارك . وقد تحولت ألمانيا إلى ساحة قتال لمعظم الحروب الأوروبية التي كانت فرنسا البادئة لكثير منها .

وافتقدت ألمانيا الموجة المبكرة من الاستعمار الأوروبي فيما وراء البحار . وعندما توحدت ألمانيا في النهاية كانت تجربتها هزيلة للغاية فيما يتعلق بتحديد مصلحتها القومية حتى أنها كانت السبب في كثير من أسوأ المآسي التي حدثت في هذا القرن .

غير أن الآلهة كثيرا ما تعاقب الإنسان بأن تلبي له رغباته كاملة تماما . وقد كان تحليل الكاردينال بأن نجاح حركة الإصلاح المضاد سوف يحيل فرنسا إلى زائدة أو ذيل للإمبراطورية الرومانية المقدسة المتجهة نحو المزيد من المركزية تحليلا صحيحا بلا شك ، خاصة إذا افترض المرء كما افترض الكاردينال نفسه أن عصر الدولة القومية قد حان . وبما أن عدو المثالية الويلسونية هو الفجوة بين الإيمان بها وحقيقتها ،فإن عدو سياسة مصلحة الدولة العليا هو زيادة اتساع نطاقها، هذا إلا إذا نفذت على يد أستاذ خبير، وحتى ذلك لن يفلح وسيظل اتساع نطاق هذه السياسية هو عدوها .

إن مفهوم ريشيليو عن مصلحة الدولة العليا لم يشتمل في بنيانه الأصلي على حدود معينة. إلى أي مدى يمكن أن يتمادى المرء قبل أن يرى أن مصالح الدولة قد تحققت؟ كم عدد الحروب اللازمة لإقرار الأمن ؟ فالمثالية الويلسونية التي تدعي أنها سياسة غير أنانية تنطوي على خطر دائم هو إهمال مصالح الدولة ؛ أما سياسة ريشيليو الخاصة بمصلحة الدولة العليا فتنذر بدخول تجارب تتطلب القوة ومدمرة للذات .

وهذا هو ما حدث لفرنسا بعد أن تولى لويس الرابع عشر العرش . لقد سلَّم ريشيليو لملوك فرنسا دولة قوية وبجوارها ألمانيا المقسمة الضعيفة وعلى حدودها أسبانيا المتدهورة . غير أن الأمن لم يوفر راحة البال للويس الرابع عشر فقد اعتبره فرصة لاكتساب الأراضي بالفتح والغزو . وفي حماسه الشديد لتحقيق مصلحة الدولة العليا أثار لويس الرابع عشر الذعر لدى بقية أوروبا وتسبب في تجمع ائتلاف معاد لفرنسا أفسد في النهاية مخططه .

ورغم ذلك فقد ظلت فرنسا طيلة ٢٠٠ عام بعد ريشيليو أكثر الدول نفوذا في أوروبا ، وظلت عاملا هاما في مجال السياسة الخارجية وما زالت حتى يومنا هذا . وقليل من رجال الدولة في أي بلد يمكنهم أن يقولوا أنهم حققوا إنجازات مثل التي حققها ريشيليو. ومازال أكبر نجاح لريشيليو هو الذي حققه عندما كان رجل الدولة الوحيد الذي تخلص من القيود الأخلاقية والدينية التي تنتمي للعصور الوسطى . وكان من المحتم أن يرث خلفاء ريشيليو مهمة إدارة نظام تعمل فيه معظم الدول انطلاقا من الافتراضات التي وضعها هو. وبالتالي فقدت فرنسا ميزة وجود أعداء لها تقيدهم اعتبارات أخلاقية ، كما كان فرديناند في زمن ريشيليو. وبمجرد أن بدأت جميع الدول تلعب بنفس القواعد أصبح تحقيق المكاسب أكثر صعوبة . ورغم كل الأمجاد التي حققتها سياسة مصلحة الدولة العليا لفرنسا إلا أنها اتضح أنها أصبحت مصدر تعذيب ، فلابد من بذل جهد لانهاية له لتوسيع حدود فرنسا لتصبح الحكم في المنازعات بين الولايات الألمانية وبالتالي تسيطر على أوروبا الوسطى إلى أن أنهكت فرنسا بسبب جهودها المضنية وفقدت تدريجيا القدرة على تشكيل أوروبا وفقا لتصورها ومخططها .

كانت سياسة مصلحة الدولة العليا بمثابة أساس منطقي لسلوكيات دول بذاتها ولكنها لم تقدم أي رد على التحدي الذي يمثله النظام العالمي . وهذه السياسة يمكن أن تؤدي إلى البحث عن السلطة والتفوق أو إلى تحقيق التوازن . ولكن من النادر أن يتحقق التوازن عن طريق التخطيط المدبر . فعادة ما يتحقق التوازن نتيجة إعاقة محاولة بلد معين لفرض سيطرته على الآخرين وذلك كما انبثق ميزان القوى الأوروبي من محاولات احتواء فرنسا .

وفي العالم الذي افتتحه ريشيليو لم تعد الدول مقيدة بالتظاهر بالتمسك بقانون أخلاقي. فإذا كانت مصلحة الدولة وخيرها هما أسمى القيم . يصبح من واجب الحاكم زيادة أمجاده وتعزيزها . كان الأقوياء يحاولون السيطرة على الآخرين ، والضعفاء يقاومون عن طرق تكوين ائتلافات لزيادة قوتهم . وإذا كان الائتلاف قويا بدرجة تكفي لكبح جماح المعتدي ، ظهر ميزان القوى ، وإذا لم يكن قويا بدرجة فإن بلدا ما سوف يسيطر على الآخرين . وهذه النتيجة ليست قدرا ولذلك اختبرت بحروب متكررة . ففي بدايتها يمكن بسهولة أن تكون النتيجة ظهور إمبراطورية - فرنسية أو ألمانية - لتحقق التوازن . وهذا هو السبب في أن الأمر استغرق مئات السنين لإقامة نظام أوروبي يقوم بوضوح على أساس ميزان القوى . وفي البداية كان ميزان القوى تقريبا حقيقة من حقائق الحياة العرضية ولم يكن هدفا للسياسات الدولية .

ومن الغريب أن فلاسفة تلك الفترة لم ينظروا إلى ميزان القوى هذه النظرة . ولما كانوا من نتاج عصر التنوير فقد كانوا يعبرون عن إيمان القرن الثامن عشر بأنه من تصادم المصالح المتنافسة يخرج إلى الوجود التناسق والعدل . لقد كان مفهوم ميزان القوى امتدادا لحكمة تقليدية . كان

هدفه الأساسي هو الحيلولة دون سيطرة دولة واحدة على الآخرين وصيانة النظام الدولي . ولم يصمم ميزان القوى لمنع المنازعات بل للحد منها . وبالنسبة للمتشددين من رجال الدولة في القرن الثامن عشر، كان القضاء على المنازعات (أو الأطماع أو الجشع)ضربا من الخيال المثالي، وكان الحل هو التحكم في الخطأ والعجز المتأصل في البشرية للوصول إلى أفضل نتيجة تعمر طويلا .

وكان فلاسفة التنوير ينظرون إلى النظام الدولي كجزء من عالم يعمل مثل ساعة كبيرة الحجم لا تتوقف أبدا وتتقدم بإصرار نحو عالم أفضل . وفي عام ١٧٥١ وصف فولتير أوروبا المسيحية بأنها نوع من الجمهوريات.. الجمهورية الكبيرة مقسمة إلى عدة ولايات بعضها ولايات ملكية وبعضها مختلطة ... ولكن كلها متناسقة معا ... وكلها لديها نفس مبادئ القانون العام والقانون السياسي غير المعروف في أجزاء أخرى من العالم. وهذه الولايات كانت قبل كل شيء تتبع معا سياسة حكيمة وهي أن تبقي فيما بينها بقدر الإمكان ميزانا للقوى متعادل الكفتين.

وقد تناول مونتسكيو Montesquieu نفس الفكرة . فقد كان يرى أن ميزان القوى يولد الوحدة من الاختلاف.

إن حالة الأمور في أوروبا تتلخص في أن كل الولايات تعتمد بعضها على بعض ... إن أوروبا ولاية واحدة مكونة من عدة مقاطعات.

وبينما كانت هذه السطور تكتب في ذلك الوقت ، كان القرن الثامن عشر قد شهد حربين حول الخلافة الأسبانية ، وحرب حول الخلافة البولندية ، وسلسلة من الحروب حول الخلافة النمساوية . وبنفس الروح كتب فيلسوف التاريخ إيمريتش دي فاتيل Emmrich De Vattel عام ١٧٥٨ وهو العام الثاني من حرب الأعوام السبعة يقول :

إن المفاوضات المستمرة الجارية ، تجعل من أوروبا الحديثة نوعا من الجمهوريات أعضاؤها كل منهم مستقل ولكن كلهم مرتبطون معا بمصلحة مشتركة، يتحدون من أجل المحافظة على النظام ووقاية الحرية . وهذا هو السبب في ظهور المبدأ المعروف باسم ميزان القوى ومعناه ترتيب الأمور بحيث لا تكون أي ولاية في موقف يتيح لها السيادة الكاملة والسيطرة على الدول الأخرى.

كان الفلاسفة يخلطون خطأ بين النتائج والنوايا . وخلال القرن الثامن عشر خاض أمراء أوروبا حروبا لا تحصى دون أن يكون هناك دليل واحد على أن الهدف المقصود هو وضع أي فكرة عامة للنظام الدولي موضع التنفيذ . وفي اللحظة المحددة التي أصبحت فيها العلاقات الدولية تتحدد على أساس القوة ، ظهرت عوامل كثيرة جديدة لدرجة أن الحسابات

أصبحت في حيز الاستحالة تماما .

ولذلك ركزت مختلف الأسر الحاكمة منذ ذلك الوقت في تعزيز أمنها على التوسع الإقليمي. وفي خلال تلك العملية تغيرت مواقع القوة النسبية بينها تغيرا خطيرا . فتراجعت أسبانيا والسويد وهبطتا إلى مستوى الدرجة الثانية . وبدأت بولندا تنحدر في طريقها إلى الزوال . وبدأت روسيا (التي غابت تماما عن صلح ويستفاليا (وبروسيا) التي قامت بدور ضئيل فيه) في الظهور كدولتين كبيرتين .إن ميزان القوى يكون من الصعب تحليله عندما تصبح عناصره الأساسية ثابتة نسبيا . فمهمة تقييمه والتوفيق بين تقييمات مختلف الدول تصبح مهمة معقدة بشكل يدعو إلى اليأس عندما تكون القوة النسبية للدول في تغير متواصل ومستمر .

فالفراغ الذي وجد في أوروبا الوسطي بسبب حرب الثلاثين عاما أغرى البلدان المجاورة على انتهاك حرمتها والتعدي عليها . فقد راحت فرنسا تضغط عليها من ناحية الغرب وروسيا تزحف عليها من ناحية الشرق . وتوسعت بروسيا في وسط أوروبا . ولم تشعر أي من البلدان الرئيسية في أوروبا بأي التزام خاص نحو ميزان القوى الذي امتدحه الفلاسفة كثيرا. وقد نظرت روسيا إلى نفسها على أنها بعيدة جدا، وكانت بروسيا بصفتها أصغر الدول الكبرى لا تزال ضعيفة لدرجة لا يمكنها معها أن تؤثر في التوازن العام للقوى . وقد واسى كل ملك نفسه بفكرة أن تعزيز حكمه الخاص هو أكبر إسهام ممكن في السلام العام، وعزا الأمر كله للقوة الخفية التي تتحكم في العالم وذلك لتبرير جهوده دون الحد من طموحه .

وقد ظهرت طبيعة مفهوم مصلحة الدولة العليا بوصفه حسابا لفوائد المخاطرة من الطريقة التي برر بها فريدريك الأكبر استيلائه على سيليسيا من النمسا رغم علاقات بروسيا الودية في ذلك الوقت مع تلك الدولة ، ورغم أنها كانت مرتبطة بمعاهدة لاحترام سلامة أراضي النمسا :

إن تفوق قواتنا ، والسرعة التي نستطيع أن نحركها بها ،وباختصار ، التميز الواضح الذي لدينا على جيراننا يوفر لنا في حالة الطوارئ غير المتوقعة هذه ، تفوقا حاسما على كل دول أوروبا الأخرى .. إنجلترا وفرنسا خصمان . فإذا تدخلت فرنسا في شئون الإمبراطورية ، فإن إنجلترا لا يمكنها أن تسمح لها بذلك . ولذلك فأنا أستطيع دائما أن أعقد حلفا جيدا مع أي منهما . وإنجلترا لن تغار من استيلائي على سيليسيا الأمر الذي لن يعود عليها بأي ضرر . وهي في حاجة إلى حلفاء . ولن تعبأ هولندا بأي شيء مادامت القروض التي على سيليسيا للتجار في أمستردام سوف تسدد . وإذا لم نستطع أن نرتب الأمور مع إنجلترا وهولندا فلاشك أننا نستطيع أن نتفق مع فرنسا التي لا يمكنها أن تفسد مخططاتنا وسوف ترحب بإذلال البلاط الإمبراطوري . وروسيا وحدها هي التي يمكن أن تثير لنا المشاكل . فإذا عاشت الإمبراطورة ... فيمكننا أن نرشو كبار مستشاريها . وإذا ماتت فسوف يكون الروس مشغولين

جدا ولن يكون لديهم الوقت للاهتمام بالشئون الخارجية ...

لقد عامل فريدريك الأكبر الشئون الدولية وكأنها مباراة في الشطرنج . كان يريد أن يستولي على سيليسيا لكي يزيد من قوة بروسيا . والعقبة الوحيدة التي يعترف بأنها ستقاوم مخططه هي المقاومة من الدول الأقوى وليست العوامل الأخلاقية . لقد كان تحليله هو حساب الجوائز والمخاطرة : فإذا استولي على سيليسيا فهل ستنتقم دول أخرى أو تسعي للحصول على تعويضات ؟

وقد سوى فريدريك الحسابات لصالحه . فاستيلاؤه على سيليسيا جعل بروسيا دولة عظمى مخلصة غير أنها أشعلت أيضا سلسلة من الحروب في الوقت الذي كانت فيه بلدان أخرى تحاول التكيف مع هذا اللاعب الجديد . وكانت أولي تلك الحروب هي حرب الخلافة النمساوية التي استمرت من عام ١٧٤٠ حتى عام ١٧٤٨ . وفيها انضمت إلى بروسيا كل من فرنسا وأسبانيا وبافاريا وسكسوني، وقد غير هؤلاء موقفهم وانحازوا إلى الجانب الآخر في عام ١٧٤٣ بينما آزرت بريطانيا العظمي النمسا . وفي الحرب الثانية – حرب السنوات السبع التي استمرت من عام ١٧٥٦ حتى عام ١٧٦٣ ـ تحركت الأدوار في الاتجاه العكسي. وانضمت إلى النمسا كل من روسيا وفرنسا وساكسونيا والسويد بينما أيدت بروسيا كل من بريطانيا العظمى وهانوفر . وكان تغيير الانحياز نتيجة لحسابات دقيقة لفوائد مباشرة وتعويضات معينة وليس نتيجة لاحترام مبدأ هام من مبادئ النظام الدولي .

ومع ذلك فقد ظهر بالتدريج نوع من التوازن من تلك الفوضى والنهب الواضحين، وقد حاولت من خلالهما كل دولة من جانبها أن تزيد من قوتها الخاصة . لم يكن الأمر يرجع إلى ضبط النفس ولكن إلى أنه لم تكن هناك دولة ولا حتى فرنسا من القوة بحيث تفرض إرادتها على الآخرين جميعا وتشكل بذلك إمبراطورية . وعندما كانت أي دولة تهدد بأن تصبح دولة مسيطرة كانت الدول الأخرى تشكل ائتلافا.. ليس تطبيقا لنظرية في مجال العلاقات الدولية بل انطلاقا من تحقيق لمصالح ذاتية للوقوف أمام طموح الدول الأقوى .

ولم تؤد تلك الحروب المستمرة إلى القضاء على الحروب الدينية لسببين . فمن التناقض أن الحكام الاستبداديين في القرن الثامن عشر كانوا في وضع أقل قوة لا يمكنهم من حشد موارد للحرب بينما كان في استطاعة الدين أو الأيديولوجية أو الحكومة الشعبية أن تلهب مشاعر الحرب . لقد كان أولئك الحكام مقيدين بالعرف السائد وربما بشعورهم الشخصي بعدم الأمان لفرضهم ضرائب الدخل وكثيرا من أنواع الابتزاز الحديثة الأخرى والحد من كم الثروة القومية المخصصة أصلا للحرب بالإضافة إلى أن تقنية السلاح كانت بدائية .

وقبل كل شيء ، فقد تم تعزيز التوازن في أوروبا والواقع أن الذي تسبب في تحقيق هذا التوازن هو ظهور دولة كانت سياستها الخارجية مكرسة بوضوح للمحافظة على التوازن .

لقد كانت سياسة إنجلترا قائمة على مساندة الدول الأضعف كلما دعت المناسبة إلى ذلك وكذلك مساندة الجانب الأكثر عرضة للتهديد بقصد تحقيق التوازن . وكان المدبر الأصلي لتلك السياسة هو الملك ويليام الثالث ملك إنجلترا وهو رجل صارم خبير بالحياة والناس هولندي المولد . وفي بلده الأصلي هولندا عاني من طموح الملك الفرنسي لويس الرابع عشر المعروف ، لكثرة إنجازاته وإصلاحاته ، باسم ملك الشمس Sun King وعندما أصبح ويليام الثالث ملكا لإنجلترا بدأ في تكوين ائتلافات لإحباط كل تدابير وجهود لويس الرابع عشر في كل اتجاه . وكانت إنجلترا البلد الأوروبي الوحيد الذي لم تكن سياسته الخاصة بمصلحة الدولة العليا تتطلب منه التوسع في أوروبا . ولما كانت إنجلترا تري أن مصلحتها القومية تكمن في المحافظة على التوازن الأوروبي فقد كانت هي البلد الأوروبي الوحيد الذي لم يطلب لنفسه شيئا في أوروبا أكثر من الحيلولة دون أن تسيطر دولة واحدة على أوروبا . وفي متابعتها لتحقيق هذا الهدف وافقت على أن تنضم إلى أي تشكيل من الأمم يناهض مثل هذا العمل .

وقد ظهر بالتدريج ميزان للقوى عن طريق تغيير الائتلافات تحت زعامة بريطانيا ضد المحاولات الفرنسية للسيطرة على أوروبا . وهذا الأسلوب الفعال هو تقريبا جوهر كل الحروب التي نشبت في القرن الثامن عشر ويكمن وراء كل الائتلافات التي تزعمتها بريطانيا ضد الهيمنة الفرنسية التي حوربت تحت اسم نفس الحريات الأوروبية التي كان ريشيليو ينادي بها في ألمانيا ضد آل هابسبورج . وقد واصل ميزان القوى وجوده لأن الأمم التي كانت تقاوم السيطرة الفرنسية كانت قوية لدرجة لا يمكن التغلب عليها ، ولأن قرنا ونصف قرن من التوسع جرد فرنسا تدريجيا من ثرواتها .

وقد عكس دور بريطانيا بوصفه عاملا على تحقيق التوازن صورة لحقيقة جغرافية سياسية في الحياة . فقد كان يمكن أن يتعرض وجود جزيرة صغيرة نسبيا قرب ساحل أوروبا للخطر لو كانت كل موارد أوروبا قد عُبِّئَتْ تحت إمرة حاكم واحد . لأن إنجلترا في مثل هذه الحالة (كما كانت قبل اتحادها مع اسكتلندا في عام ١٧٠٧) كانت لديها موارد وعدد سكان أقل بكثير وكانت إن آجلا أو عاجلا ستصبح تحت رحمة إمبراطورية أوروبا .

وقد اضطرت ثورة إنجلترا المجيدة عام ١٦٨٨ البلاد إلى الدخول في مواجهة مباشرة مع لويس الرابع عشر ملك فرنسا . لقد أطاحت الثورة بالملك الكاثوليكي جيمس الثاني عن عرشه. ولما بحثت إنجلترا عن بديل بروتستانتي في أوروبا ، اختارت ويليام أوف أورانج William Of Orange حاكم هولندا الذي كانت له مطالبة بسيطة بالعرش البريطاني من خلال زواجه من مارى ابنة الملك المخلوع . ولما أصبح ويليام ملكا دخلت إنجلترا في حرب مستمرة مع لويس الرابع عشر حول ما أصبح بلجيكا فيما بعد ، أرض حافلة بحصون عديدة هامة وموانئ يسهل الوصول إليها من الشواطئ البريطانية ولكن بشكل محفوف بالمخاطر (رغم أن هذا الموضوع

ظهر فقط بمرور الوقت .) وكان ويليام يعرف تماما أنه لو نجح لويس الرابع عشر في احتلال تلك الحصون فإن هولندا ستفقد استقلالها ، وسوف تتضاعف احتمالات سيطرة فرنسا على أوروبا ، وستصبح إنجلترا عرضة للتهديد المباشر . وكان إصرار ويليام على إرسال جنود إنجليز للقتال ضد فرنسا من أجل بلجيكا الحالية ، نذيرا بقرار بريطانيا دخول الحرب من أجل بلجيكا في عام ١٩١٤ عندما غزاها الألمان .

ومنذ ذلك الوقت ، راح ويليام يقود الحرب ضد لويس الرابع عشر . وكان ويليام قصير القامة محدودب الظهر ومصابا بالربو ولم يكن يبدو من النظرة الأولى أنه الرجل الذي اختاره القدر كي يذل ملك الشمس الفرنس لويس الرابع عشر .

غير أن أمير أورانج Prince Of Orange كان يتمتع بإرادة حديدية مقرونة بذكاء غير عادي ، فأقنع نفسه ، ولاشك أنه كان على صواب ، أنه إذا سمح للويس الرابع عشر – أقوى ملك بالفعل في أوروبا – أن يهزم هولندا الأسبانية (بلجيكا حاليا) فسوف تصبح إنجلترا في خطر . وكان لابد من تشكيل ائتلاف يكبح جماح الملك الفرنسي ، ليس من منطلق نظرية ميزان القوى المجردة ولكن من أجل استقلال كل من هولندا وإنجلترا . وأدرك ويليام أنه لو تحققت مخططات لويس الرابع عشر بشأن أسبانيا وممتلكاتها فسوف تصبح فرنسا دولة عظمى لن تستطيع أي مجموعة مؤتلفة من الدول أن تتحداها . وللقضاء على ذلك الخطر ، سعى ويليام إلى البحث عن شركاء له وسرعان ما وجدهم . وتكون الحلف الكبير The Grand Alliance السويد وأسبانيا وسافوى وإمبراطور النمسا وساكسونيا والجمهورية الهولندية وإنجلترا، وكان هذا أكبر ائتلاف شهدته أوروبا الحديثة لقوات تتحالف ضد دولة واحدة . وطيلة ربع قرن من ١٦٨٨حتى ١٧١٣ ظل لويس الرابع عشر يشن حروبا مستمرة ضد ذلك التحالف . وأخيرا تم كبح جماح سياسة مصلحة الدولة العليا الفرنسية بواسطة المصالح الذاتية لدول أوروبا الأخرى . وظلت فرنسا أقوى دولة في أوروبا ولكن دون أن تكون لها السيادة والسيطرة . وكان هذا درسا عن كيفية عمل نظرية ميزان القوى .

لم تكن عداوة ويليام للويس الرابع عشر عداوة شخصية أو قائمة على أية مشاعر معادية لفرنسا ، بل كانت انعكاسا لتقييمه المدروس لقوة لويس الرابع عشر وطموحه اللانهائي . وذات مرة أسر ويليام لأحد مساعديه أنه لو كان حيا في خمسينيات القرن السادس عشر (١٥٥٠) عندما كان آل هابسبورج يهددون بأنهم ستصبح لهم السيطرة على مقاليد الأمور لكان قد أصبح فرنسيا مثلما هو الآن أسباني وهذا الكلام شبيه لما قاله ونستون تشرشل في عام ١٩٣٠ ردا على الاتهام الذي وجه إليه بأنه معاد للألمان إذ قال : انعكست الظروف فقد نكون مؤيدين للألمان ومعادين للفرنسيين.

وكان ويليام على استعداد تام للتفاوض مع لويس الرابع عشر عندما شعر أن ذلك سوف

يخدم ميزان القوى . وبالنسبة لويليام كانت الحسبة البسيطة هي أن إنجلترا سوف تحاول المحافظة على توازن قوى غير محكم بين آل هابسبورج والبوربون ، حتى يعمل الأضعف بمساعدة بريطانيا على المحافظة على التوازن في أوروبا . ومنذ أيام ريشيليو كان الجانب الأضعف دائما هو النمسا ولذلك انضمت بريطانيا إلى آل هابسبورج للوقوف في وجه سياسة التوسع الإقليمي الفرنسية .

ولم تكن فكرة القيام بدور تحقيق التوازن فكرة رحب بها الشعب البريطاني عندما ظهرت. ففي نهاية القرن السابع عشر كان الرأي العام البريطاني يميل إلى عزلة بريطانيا عن المشاكل التي لا علاقة لها بها ، كما حدث في أمريكا بعد ذلك بقرنين . وكانت الحجة السائدة هي أنه سوف يكون هناك وقت كاف لمقاومة أي تهديد متي يظهر وإذا ظهر . وليس هناك داع لمحاربة أخطار تخيلية أو تخمينية قائمة على أساس ما يمكن أن يفعله بلد ضد بريطانيا فيما بعد .

وقد قام ويليام بدور مماثل للدور الذي قام به تيودور روزفلت Theodore Roosevelt فيما بعد في أمريكا ، محذرا شعبه الذي يميل أساسا إلى الانعزالية من أن سلامته تعتمد على المشاركة في ميزان القوى فيما وراء البحار . وقد قبل شعبه آراءه أسرع مما قبل الأمريكيون آراء روزفلت. وبعد حوالي عشرين سنة من وفاة ويليام ، كتبت صحيفة كرافتسمان The craftsman وهي صحيفة تمثل المعارضة –وكانت محقة فيما كتبت – أن ميزان القوى هو واحد من المبادئ الأصيلة الدائمة للسياسة البريطانية، وأن السلام في أوروبا حالة ضرورية لرخاء الجزيرة التجارية .. ويجب أن يكون المسعى المتواصل لأي وزارة بريطانية هو أن تحافظ بنفسها على هذا السلام وأن تستعيده إذا حطمه أو عكر صفوه الآخرون.

والموافقة على أهمية ميزان القوى لم تهدئ الخلافات البريطانية حول أفضل استراتيجية لتنفيذ السياسة البريطانية بصفة عامة . فقد كانت هناك مدرستان فكريتان ، تمثلان الحزبين السياسيين الرئيسيين في البرلمان ، مما يشبه إلى حد كبير ما حدث في الولايات المتحدة من خلاف في الرأي بعد الحربين العالميتين . فقد كان من رأي حزب الأحرار البريطاني أن بريطانيا العظمى ينبغي ألا تتورط في شيء إلا إذا كان هناك تهديد فعلي لميزان القوى وعندئذ سيكون هناك وقت كاف للتخلص من التهديد . وعلى النقيض كان حزب المحافظين يرى أن واجب بريطانيا العظمي الأساسي هو أن تسهم في تشكيل ميزان القوى وليس فقط أن تحافظ عليه . وكان من رأي حزب الأحرار أنه سيكون هناك وقت كاف لمقاومة أي هجوم يقع على البلدان الواطئة Low countries بعد أن يكون هذا الهجوم قد وقع فعلا.. وكان حزب المحافظين يرى أن سياسة الانتظار والترقب قد تتيح لأي معتد أن يضعف ميزان القوي إلى حد لا يمكن معه تعديله . وبالتالي فإنه إذا أرادت بريطانيا العظمي أن تتجنب

القتال في دوفر فعليها إذن أن تقاوم العدوان على طول نهر الراين أو في أي مكان آخر في أوروبا يبدو أن ميزان القوى يتعرض فيه للتهديد . واعتبر حزب الأحرار أن الأحلاف ليست سوى ذريعة ملائمة ، يجب أن تنتهي بمجرد أن يتحقق النصر ويجعل من الهدف العام أمرا موضع نقاش ، بينما حث المحافظون على اشتراك بريطانيا في ترتيبات تعاونية دائمة حتى تتمكن من التكيف مع الأحداث والمحافظة على السلام.

وقد أيد لورد كارتريت Lord Carteret وزير الخارجية المنتمي إلى حزب المحافظين في الفترة من ١٧٤٢ حتى ١٧٤٤ قضية اشتراك بريطانيا الدائم في تطورات الأحداث الأوروبية. فاستنكر ميل حزب الأحرار إلى أن تتجاهل بريطانيا كل متاعب واضطرابات أوروبا وألا تترك بريطانيا جزيرتها بحثا عن الأعداء ولكن نهتم بتجارتنا وبتحقيق رغباتنا وبدلا من مغازلة الخطر في بلاد أجنبية ننام في أمان ، حتى يوقظنا الإنذار عند سواحلنا. وقال: لكن بريطانيا العظمى تحتاج إلى مواجهة الحقيقة التي تكمن في أن مصلحتها الدائمة هي تأييد آل هابسبورج كثقل مضاد لفرنسا لأنه إذا رأي الملك الفرنسي أنه ليس هناك منافس له في أوروبا فسوف يجلس آمنا مستحوذا على كل مكاسبه من غزواته ، وربما يقوم عندئذ بتخفيض حامياته ، والتخلي عن حصونه ، وتسريح جنوده ؛ غير أن هذه الثروة التي تملأ الآن السهول بالجنود سرعان ما ستستخدم لتنفيذ مخططات أكثر خطورة على بلدنا ... وبالتالي يجب علينا أيها اللوردات الأعزاء ، أن نساند بلاط النمسا لأنه القوة الوحيدة التي يمكن أن توضع في الميزان ضد أمراء عائلة البوربون.

كان الفارق بين استراتيجيات السياسة الخارجية لحزبي الأحرار والمحافظين فارقا عمليا، وليس فلسفيا ، تكتيكيا وليس استراتيجيا ، وأظهر هذا الفارق تقييم كل من الحزبين لسهولة تعرض بريطانيا العظمى لخطر الاعتداء عليها . فسياسة الترقب والانتظار التي يدعو إلى انتهاجها حزب الأحرار عكست إيمان الحزب بأن هامش الأمان لبريطانيا هامش عريض فعلا . أما المحافظون فقد وجدوا أن وضع بريطانيا العظمي خطر ومشكوك فيه . وكان هذا الفارق بالتحديد هو الذي فصل بين الانعزاليين الأمريكيين والأمريكيين الداعين إلى العالمية globalists في القرن العشرين . فلا بريطانيا العظمي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولا أمريكا في القرن العشرين وجدت أنه من السهل إقناع شعبها أن سلامة بلدها تتطلب التزاما بسياسة الارتباط الدائم ولا تتطلب اتباع سياسة العزلة.

وفي كلا البلدين ، كان يظهر بصفة دورية ، زعيم يضع أمام شعبه الحاجة إلى الارتباط الدائم . لقد أخرج ويلسون للعالم عصبة الأمم ؛ وغازل كارتر سياسة الارتباط الدائم مع أوروبا ؛ ودعا كاستلريج Castlereagh وزير الخارجية في الفترة من ١٨١٢حتى ١٨٢١ إلى وضع نظام للمؤامرات الأوروبية ، واقترح جلادستون Gladstone رئيس الوزراء في أواخر القرن التاسع عشر أول صورة للأمن الجماعي . وفي النهاية فشلت دعواتهم لأنه حتى

بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن من الممكن إقناع أي من الشعبين البريطاني أو الأمريكي بأنه يواجه تحديا مميتا إلى أن واجهاه فعلا .

وبهذه الطريقة أصبحت بريطانيا العظمي هي التي تعمل على تحقيق التوازن الأوروبي وقد حدث ذلك في البداية تقريبا بسبب الإهمال وبعد ذلك بسبب اتباع استراتيجية مدركة لأهمية التوازن الأوروبي . وبدون التزام بريطانيا العظمي الشديد بالقيام بهذا الدور فمن المؤكد أن فرنسا كانت ستسيطر تماما على أوروبا في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر، وكانت ألمانيا أيضا ستسيطر على أوروبا في العهد الحديث . وبهذا المعنى فقد كان تشرشل على حق بعد ذلك بقرنين عندما قال أن بريطانيا العظمي صانت حريات أوروبا.

وفي بداية القرن التاسع عشر ، حولت بريطانيا العظمى سياستها المخصصة للدفاع عن ميزان القوى إلى خطة مدبرة لها أهدافها . وحتى ذلك الوقت كانت بريطانيا تنتهج سياسة عملية مما تمشى مع نبوغ الشعب البريطاني ، وتتصدى لأي بلد يهدد التوازن.. وكان هذا البلد في القرن الثامن عشر دائما هو فرنسا . وانتهت الحروب بالحلول الوسط ، وعادة ما كانت تلك الحلول تعزز موقف فرنسا ولكنها كانت تحرمها من هدفها الحقيقي وهو السيطرة على أوروبا.

وكان ما حدث محتما، فقد هيأت فرنسا الفرصة لصدور أول بيان تفصيلي عن مفهوم بريطانيا لميزان القوى . ولما كانت فرنسا قد ظلت تسعى للسيطرة على أوروبا طيلة قرن ونصف قرن باسم مصلحة الدولة العليا فقد عادت بعد الثورة إلى مفاهيم العالمية القديمة . ولم تعد تستند إلى مصلحة الدولة العليا لتبرير نزعتها التوسعية . وبعد الثورة شنت فرنسا الحرب على بقية القارة للحفاظ على ثورتها ولكي تنشر الأفكار النموذجية عن النظام الجمهوري في أوروبا . وهاهنا مرة أخرى راحت فرنسا ذات الكفة الراجحة تهدد أوروبا بالسيطرة عليها .واندفعت الجيوش الفرنسية يحركها الحماس الأيديولوجي إلى أوروبا تحت اسم المبادئ العالمية للحرية والإخاء والمساواة . وأصبحت هذه الجيوش تحت قيادة نابليون قيد شعرة من إقامة كومنولث أوروبي مركزه فرنسا . وبحلول عام ١٨٠٧ كانت الجيوش الفرنسية قد أقامت ممالك تابعة لفرنسا على طول نهر الراين في إيطاليا وأسبانيا وجعلت من بروسيا دولة من الدرجة الثانية وأضعفت النمسا بشكل خطير . ولم تكن إلا روسيا هي التي وقفت بين نابليون وسيطرة فرنسا على أوروبا .

ومع ذلك فقد أثارت روسيا رد فعل اتسم بالغموض – جزء من رد الفعل هذا أمل وجزء منه خوف وخشية – وقد ظل هذا حالها حتى أيامنا هذه . ففي بداية القرن الثامن عشر كانت حدود روسيا تمتد إلى نهر الدنيبر Dnieper وبعد ذلك بقرن وصلت إلى نهر الفيستولا (Vistula في بولندا حاليا) على بعد ٥٠٠ ميل غربا . وفي بداية القرن الثامن عشر كانت

روسيا تقاتل من أجل بقائها ضد السويد وبولتافا Poltava (في أعماق ما يعرف اليوم بأوكرانيا). وفي منتصف القرن كانت روسيا تشترك في حرب السنوات السبع وقد وصلت قواتها إلى مدينة برلين . وفي نهاية القرن كانت هي الأداة الرئيسية في تقسيم بولندا .

وقد أصبحت القوة الروسية المجردة تنذر بمزيد من السوء بسبب الحكم الاستبدادي العنيف لمؤسساتها الداخلية . ولم يخفف العرف القائم أو الأرستقراطية المستقلة النزاعة إلى تأكيد ذاتها من شدة استبدادية تلك المؤسسات ، وهذا كما كان الحال بالنسبة للملوك الذين كانوا يحكمون بمقتضى الحق الإلهي في أوروبا الغربية . وفي روسيا كان كل شيء يتوقف على نزوات القيصر . وكان من الممكن تماما للسياسة الخارجية الروسية أن تتجه من الليبرالية إلى المحافظة على حسب مزاج القيصر الحاكم – كما كان الحال في الواقع أثناء حكم القيصر الكسندر الأول Alexander وعلى أي حال ففي داخل روسيا لم تكن هناك أبدا أية محاولة للقيام بتجربة ليبرالية .

وفي عام ١٨٠٤ اتصل الكسندر الأول قيصر كل الروس الماكر برئيس وزراء بريطانيا ويليام بيت الأصغر William Pitt the Younger عدو نابليون اللدود وتقدم إليه باقتراح من عنده . كان الكسندر متأثرا بشدة بفلاسفة التنوير وتصور نفسه أنه تعبير عن الضمير الأخلاقي لأوروبا وكان في آخر مراحل افتتانه المؤقت بالمؤسسات الليبرالية(التحررية) وبهذه التركيبة العقلية ؛ اقترح على بيت مشروعا غامضا من أجل تحقيق السلام العالمي ، يدعو فيه جميع الأمم إلى تعديل دساتيرها بهدف القضاء على الإقطاع وتطبيق الحكم الدستوري . وبعدئذ تقوم الدول التي أجرت تلك الإصلاحات بنبذ اللجوء إلى القوة وعرض المنازعات بينها للتحكيم . وهكذا أصبح ألكسندر الحاكم المطلق الروسي هو المبشر غير المرتقب بالفكرة الويلسونية القائلة أن المؤسسات الليبرالية هي الشرط المسبق للسلام ، رغم أنه لم يتماد إلى الحد الذي يقول فيه أنه يجب ترجمة هذه المبادئ عمليا بين شعبه . وفي غضون سنوات قلائل انتقل الكسندر إلى أقصى الطرف المضاد المحافظ في المجال السياسي .

وقد وجد بيت Pitt الآن نفسه في مواجهة ألكسندر ، في نفس الموقف الذي وجد فيه تشرشل نفسه في مواجهة ستالين Stalin بعد ذلك بمائة وخمسين عاما . لقد كان يحتاج بشدة إلى مساندة روسيا له ضد نابليون ، لأنه كان من المستحيل تصور هزيمة نابليون بأي طريقة أخرى . ومن ناحية أخرى لم يكن بيت مهتما أكثر من تشرشل –فيما بعد –باستبدال دولة مسيطرة بدولة مسيطرة أخرى ، أو بتأييد روسيا بوصفها الحَكَم النهائي في أوروبا . وقبل كل شيء فقد كانت هناك محاذير في السياسة الداخلية في بريطانيا مثل حظر ممارسة أنشطة معينة الأمر الذي لم يتح لأي من رؤساء الوزراء البريطانيين من أن يجعل بلده يتعهد بأن يقيم السلام على أساس الإصلاح السياسي والاجتماعي في أوروبا . فلم يحدث أن دخلت بريطانيا حربا بسبب هذه القضية لأن الشعب البريطاني لم يشعر أن الاضطرابات السياسية

والاجتماعية في أوروبا تهدده بل شعر أن ما يهدده فقط هو التغيرات التي تطرأ على ميزان القوى .

وقد تناول بيت في رده على ألكسندر كل تلك العناصر . وتجاهل «بيت» دعوة الروس لإجراء الإصلاحات السياسية في أوروبا ، وحدد شكل التوازن الذي يجب أن يتحقق إذا أريد صيانة السلام . ولأول مرة تظهر إمكانية عقد تسوية أوروبية عامة قبل صلح ويستفاليا Westphalia بقرن ونصف قرن . ولأول مرة أيضا تعقد تسوية بوضوح على أساس مبادئ ميزان القوى .

ورأي بيت أن السبب الرئيسي وراء عدم الاستقرار يكمن في ضعف أوروبا الوسطى، الأمر الذي كان مرارا مبعث إغراء على الغزو الفرنسي لها ومحاولات السيطرة الفرنسية عليها (كان مهذبا للغاية ويريد المساعدة الروسية بشدة فلم يوضح أن أوروبا الوسطى عندما تكون بالغة القوة لتحمل الضغوط الفرنسية فسوف تكون بالمثل في وضع يكفل لها إحباط إغراءات التوسع الإقليمي الروسية) . إن التسوية الأوروبية التي تحتاج إلى البدء بحرمان فرنسا من كل حيازاتها بعد الثورة وإعادة الاستقلال، في أثناء تلك العملية، للبلدان الواطئة سوف تجعل بهذا الشكل من قلق بريطانيا الرئيسي مبدأ للتسوية.

وعلى أي حال فإن الحد من السيطرة الفرنسية لن تكون له فائدة إذا ظلت الولايات الجرمانية الـ٣٠٠ المنعزلة الأصغر حجما تشكل إغراء للضغط والتدخل الفرنسي . ولكبح جماح مثل هذا الطموح رأي بيت أنه من الضروري تشكيل تكتلات كبيرة في وسط أوروبا عن طريق إدماج الولايات الجرمانية في تجمعات أكبر . وبعض الولايات التي كانت قد انضمت إلى فرنسا أو انهارت على نحو شائن سوف تضمها روسيا أو النمسا إليها . وستشكل الأخريات في وحدات أكبر .

وقد تجنب بيت أي إشارة إلى حكومة أوروبية ما . واقترح بدلا من ذلك أن تقوم بريطانيا العظمي وبروسيا والنمسا وروسيا بضمان الترتيب الإقليمي الجديد في أوروبا بواسطة حلف دائم يوجه ضد العدوان الفرنسي –بالضبط كما فعل فرانكلين . د . روزفلت Franklin D.Roosevelt في محاولته إقامة النظام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية على أساس حلف يقف ضد ألمانيا واليابان . ولم يكن ممكنا لبريطانيا العظمى في عهد نابليون ولا للولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية أن يتصور أي منهما أن التهديد الأكبر للسلام في المستقبل يمكن أن يجيء فيما بعد من الحليف الحالي وليس من العدو الذي سيهزم فيما بعد . كان هذا مقياسا للخوف من نابليون أن يكون رئيس وزراء بريطانيا على استعداد للموافقة على ما رفضه بلده حتى ذلك الوقت بإصرار – وهو الاشتراك بصفة دائمة فيما يحدث في أوروبا – و أنه يجب على بريطانيا العظمي أن تتخلص من مرونتها التكتيكية بوضع سياستها علي أساس افتراض وجود عدو دائم لها .

إن ظهور ميزان القوى الأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يشبه جوانب معينة في عالم ما بعد الحرب الباردة . ففي ذلك الوقت ، كما هو حادث الآن ، أفرخ نظام عالمي منهار مجموعة من الدول تسعى لتحقيق مصالحها القومية بدون أن تقيدها في ذلك أية مبادئ سامية . وفي ذلك الوقت ، كما هو الحال الآن ، فإن الدول التي تشكل النظام الدولي كانت تتحسس طريقها لإيجاد تعريف لدورها الدولي . ثم قررت دول متعددة أن تعتمد كلية على الدفاع عن مصالحها القومية ، ووضع ثقتها فيما يسمي باليد الخفية (القدر) والموضوع هو ما إذا كان عالم ما بعد الحرب سيمكنه أن يجد مبدأ ما لكبح جماح محاولات توكيد القوة والمصلحة الذاتية . وبالطبع ففي النهاية يظهر دائما ميزانا للقوى كأمر واقع عندما تتفاعل عدة دول بعضها مع بعض . والسؤال هو ما إذا كانت المحافظة على النظام الدولي يمكن أن تتحول إلى خطة مقصودة ومدروسة أو ما إذا كانت المحافظة على هذا النظام ستنتج عن سلسلة من اختبارات القوة .

وفي الوقت الذي كانت حروب نابليون تقترب من نهايتها – كانت أوروبا على استعداد لأن تضع – للمرة الوحيدة في تاريخها – تصميما لنظام دولي يقوم على مبادئ ميزان القوى . وقد علم من اختبارات الحروب القاسية في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أن ميزان القوى لا يمكن أن يترك لمخلفات الصدام بين الولايات الأوروبية . وقد حددت خطة بيت تسوية إقليمية لتصحيح نقاط الضعف في النظام العالمي في القرن الثامن عشر، ولكن حلفاء بيت الأوروبيين تعلموا درسا إضافيا آخر .

من الصعب جدا تقييم القوة ، والرغبة في إثبات القوة متنوعة ، لدرجة أنه لا يمكن أن يسمح بمعاملتها كمرشد يوثق به لإقامة نظام عالمي . والتوازن يعمل بأفضل طريقة ممكنة إذا دعمه اتفاق على القيم العامة . وميزان القوى يكبح القدرة علي الإطاحة بالنظام العالمي؛ والاتفاق على قيم مشتركة يقمع الرغبة في الإطاحة بالنظام العالمي . والقوة بدون شرعية تغري بتجارب القوة ؛ والشرعية بدون قوة تغري باتخاذ مواقف عديمة الجدوى .

والدمج بين العنصرين كان هو التحدي الذي واجهه مؤتمر فيينا (المؤتمر الذي وضع أسس الدبلوماسية الحديثة) وكذلك النجاح الذي حققه هذا المؤتمر الذي أسس قرنا من النظام العالمي لم تنشب فيه أو تقاطعه حرب عامة.



■ خطاب الوداع الذى ألقاه جورج واشنطن ، بخط اليد لوحة محفورة نقلا عن صورة لواشنطن للمثال جلبرت ستيوارت

الفصل الرابع

الحلف الأوروبي

بريطانيا العظمى، والنمسا ،وروسيا

بينما كان نابليون يعاني في منفاه الأول ، في جزيرة إلبا Elba ، اجتمعت الدول المنتصرة في الحروب النابليونية في فيينا في شهر سبتمبر ١٨١٤ لوضع خريطة لعالم ما بعد الحرب. واستمر مؤتمر فيينا (المؤتمر الذي وضع أسس الدبلوماسية الحديثة) في الانعقاد طوال فترة هروب نابليون من إلبا وهزيمته النهائية في واترلو. وفي هذا الوقت كانت الحاجة إلى إعادة بناء النظام العالمي قد أصبحت أكثر إلحاحا .

وكان الأمير فون ميترنيخ Von Metternich هو المفاوض النمساوي وحيث إن المؤتمر عقد في فيينا فلم يكن إمبراطور النمسا نفسه بعيدا عن مكان انعقاد المؤتمر . وقد بعث ملك بروسيا بالأمير فون هاردنبرج Von Hardenberg لحضور المؤتمر وبعث لويس الثامن عشر الذي كان قد أعيد من جديد تنصيبه ملكا لفرنسا بتاليراند Talleyrand لحضور المؤتمر ، هذا الرجل الذي حافظ بذلك على الرقم القياسي في خدمة كل حاكم فرنسي منذ ما قبل الثورة. وحضر القيصر الكسندر الأول المؤتمر بنفسه . وحضر نيابة عن بريطانيا العظمى وزير الخارجية الإنجليزي لورد كاسلريج. Castlereagh وقد حقق هؤلاء الرجال الخمسة ما كانوا يريدون . وبعد مؤتمر فيينا شهدت أوروبا أكبر فترة سلام عرفتها في تاريخها.. فلم تنشب أية حروب على الإطلاق بين الدول الكبرى طيلة أربعين عاما ، وبعد حرب القرم عام ١٨٥٤ لم تنشب حروب كبيرة طوال ستين عاما أخرى . وقد كانت تسوية فيينا تشبه حرفيا خطة بيت لدرجة أن كاسلريج عندما قدمها للبرلمان، أرفق بها صورة من الخطة البريطانية الأصلية ليبين مدى التشابه الشديد بين الاثنتين.

ومن التناقض ، أن هذا النظام العالمي ، الذي وضع باسم ميزان القوى بشكل واضح للغاية حتى أنه لم يكن في ذلك يشبه أي شيء قبله أو بعده ، اعتمد بصورة بسيطة جدا على القوة للمحافظة على نفسه . وقد وصل الأمر إلى الحالة الفريدة هذه لأن التوازن صمم بشكل رائع لا يمكن معه القضاء عليه إلا بجهد بالغ الضخامة من الصعب للغاية القيام به . ولكن كان

أهم الأسباب هو أن بلدان أوروبا كانت مترابطة معا بالشعور بأن هناك قيما مشتركة بينها. فلم يكن هناك فقط توازن مادي بل كان هناك توازن أخلاقي أيضا . كانت القوة والعدالة في تناغم كبير . إن ميزان القوى يقلل من فرص استخدام القوة ، والإحساس المشترك بالعدالة يقلل من الرغبة في استخدام القوة . وأي نظام دولي ليس عادلا مصيره أن يواجه من يعترضه إن آجلا أم عاجلا . غير أن نظرة أي شعب معين إلى عدالة نظام عالمي معين تعتمد إلى حد كبير على مؤسسات هذا الشعب الداخلية وكذلك على كيفية الحكم على قضايا السياسة الخارجية التكتيكية . ولهذا فإن التوافق بين المؤسسات الداخلية هو دعم للسلام . ولعله يبدو من السخرية أن ميترنيخ كان مبشرا بويلسون ، بمعنى أن ميترنيخ اعتقد أن المشاركة في مفهوم العدالة مطلب أساسي ولازم للنظام الدولي ، مهما كان تعارض فكرة ميترنيخ عن العدالة تعارضا تاما مع فكرة العدالة التي حاول ويلسون إرساء قواعدها في القرن العشرين.

وقد ثبت أن تشكيل الميزان العام للقوى أمر بسيط نسبيا . فقد سار رجال الدولة وفقا لخطة «بيت» وكأنها تصميم لمهندس معماري . وحيث إن فكرة تقرير المصير لم تكن قد خرجت إلى الوجود بعد، فلم يكن هؤلاء الرجال مهتمين إطلاقا بتكوين ولايات ذات انسجام عرقي من الأراضي التي استردت من نابليون . وقد أصبحت النمسا قوية بإيطاليا وأصبحت بروسيا قوية بألمانيا . وحصلت الجمهورية الهولندية علي هولندا النمساوية (معظمها بلجيكا حاليا) وتخلت فرنسا عن جميع الأقاليم التي غزتها وعادت إلى حدودها القديمة التي كانت لديها قبل الثورة . وحصلت روسيا على الأراضي الواقعة في قلب بولندا (ووفقا لسياستها الخاصة بعدم حيازة شيء في أوروبا اقتصرت بريطانيا العظمى في مكاسبها الإقليمية على رأس الرجاء الصالح في الطرف الجنوبي من أفريقيا).

وفي مفهوم بريطانيا العظمى عن النظام العالمي فإن اختبار ميزان القوى ، هو مدى حسن أداء مختلف الأمم للأدوار الموكلة إليها في الإطار الشامل للنظام العالمي، تماما مثلما نظرت الولايات المتحدة إلى أحلافها في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية . وعند وضع المفهوم البريطاني للنظام العالمي موضع التنفيذ فإن بريطانيا العظمى واجهت فيما يتعلق ببلدان أوروبا نفس الاختلاف في النظرة إلى النظام العالمي الذي واجهته الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة . فالأمم لا تحدد هدفها على أنه ترس في جهاز الأمن . فالأمن يجعل وجود الأمم ممكنا ولكنه لا يكون أبدا غرضها الوحيد أو حتى الأساسي .

لم تعد النمسا وبروسيا تعتقدان أنهما تمثلان تكتلات كبيرة أكثر من فرنسا التي رأت فيما بعد أن الغرض من حلف شمال الأطلنطي هو مجرد تقسيم للعمل . ولم يكن ميزان القوى برمته أهمية كبيرة للنمسا وبروسيا إذا لم يعمل في نفس الوقت على إعطاء علاقتهما الخاصة المعقدة حق قدرها أو يضع في الاعتبار أدوار بلديهما التاريخية .

وبعد فشل آل هابسبورج في السيطرة على أوروبا الوسطى في حرب الثلاثين عاما ، تخلت

النمسا عن محاولتها للسيطرة على كل ألمانيا . وفي عام ١٨٠٦ ألغيت الإمبراطورية الرومانية المقدسة الأثرية . غير أن النمسا كانت لا تزال تعتبر نفسها الأولى بين أطراف متساوية وكانت مصرة على الحيلولة دون أن تأخذ أي دولة ألمانية أخرى وخاصة بروسيا الدور القيادي التاريخي للنمسا .

وكان لدى النمسا كل الأسباب التي تدعوها إلى اليقظة والحذر . فمنذ أن استولى فريدريك الأكبر Fredrick the Great على سيليسيا Silesia تصدت بروسيا لمحاولات النمسا لتولي القيادة في ألمانيا . وقد عملت الدبلوماسية القاسية والاهتمام الشديد بفنون الحرب ، والالتزام بالنظام على أعلى المستويات ، علي انتقال بروسيا في غضون قرن من إمارة ثانوية في السهول الشمالية الألمانية الجرداء إلى مملكة رغم أنها كانت لا تزال أصغر الدول الكبرى إلا أنها كانت من بين أقواها من الناحية العسكرية . وقد امتدت حدودها غريبة الشكل عبر شمالي ألمانيا من الشرق البولندي جزئيا إلى أرض الراين التي أضفيت عليها الصبغة اللاتينية إلى حد ما (كانت تفصلها عن إقليم بروسيا الأصلي مملكة هانوفر Hanover) مما زود الولاية البروسية بإحساس طاغ بأنها كتبت عليها مهمة وطنية، حتى إن لم تكن هذه المهمة تزيد عن مجرد الدفاع عن أقاليمها المجزأة .

وكانت العلاقة بين أكبر ولايتين ألمانيتين ، وكذلك علاقتهما بالولايات الألمانية الأخرى أمرا بالغ الأهمية بالنسبة للاستقرار في أوروبا . والواقع أنه منذ حرب الثلاثين عاما على الأقل شكلت الترتيبات الداخلية في ألمانيا نفس المعضلة لأوروبا : فكلما كانت ألمانيا تضعف وتقسم كانت تغري جيرانها ولا سيما فرنسا على ممارسة أطماعها التوسعية . وفي الوقت نفسه كان احتمال الوحدة الألمانية يبث الرعب في قلوب الدول المحيطة بها ، وقد ظل الحال كذلك حتى في وقتنا هذا . لقد توقع مراقب بريطاني أن تتحقق مخاوف ريشيليو من أن تسيطر ألمانيا الموحدة على أوروبا وتقهر فرنسا . وقد كتب هذا المراقب في عام ١٦٠٩:...أما فيما يتعلق بألمانيا فإنها لو كانت خاضعة تماما لملكية واحدة فسوف تكون شيئا رهيبا للآخرين جميعا. لقد كانت ألمانيا تاريخيا إما ضعيفة جدا أو قوية جدا بالنسبة للسلام في أوروبا .

وقد أدرك المخططون في مؤتمر فيينا أنه إذا أريد لأوروبا الوسطى أن تنعم بالسلام والاستقرار فعليهم أن يقضوا على ما أقدم عليه ريشيليو في بداية القرن السابع عشر . لقد شجع ريشيليو على أن تكون أوروبا الوسطى ضعيفة ومجزأة وزود فرنسا بإغراء دائم على التعدي عليها وتحويلها إلى ملعب فعلي للجيش الفرنسي . وهكذا بدأ السياسيون في فيينا تقوية ألمانيا وليس توحيدها . وكانت النمسا وبروسيا هما الولايتين الجرمانيتين الرئيسيتين وجاءت بعدهما في الترتيب ولايات متوسطة الحجم – من بينها بافاريا Bavaria ورتمبيرج wurtemberg وساكسونيا. التي اتسعت بعد ذلك ودعمت . أما

الولايات الغربية ألـ ٣٠٠ التي كانت موجودة قبل نابليون فقد تم جمعها في ثلاثين ولاية فقط وارتبطت معا فيما سمي بالاتحاد الفيدرالي الألماني . ولما كان هذا الاتحاد ينص على توفير الدفاع المشترك ضد العدوان الخارجي فقد ثبت أنه ابتكار عبقري . وكان هذا الاتحاد قويا جدا فلم يكن في استطاعة فرنسا أن تهاجمه ولكنه كان أيضا ضعيفا جدا ولا مركزيا فلم يكن في مقدوره أن يهدد جيرانه . وقد حقق هذا الاتحاد التوازن بين قوة بروسيا العسكرية المتفوقة وهيبة النمسا الرفيعة وشرعيتها . وكان الغرض منه هو إحباط قيام الوحدة الألمانية علي أساس قومي ، والمحافظة على عروش مختلف الأمراء والملوك الألمان ، والتصدي للعدوان الفرنسي . وقد نجح الاتحاد في كل ذلك .

وفي تعاملهم مع ألمانيا المهزومة ، كان على المنتصرين الذين يعدون تسوية سلمية أن يجتازوا عملية التحول من العناد اللازم لتحقيق النصر إلى التراضي اللازم لتحقيق السلام الدائم . والسلام المقرون بالعقوبات يرهن النظام الدولي رهنا لأنه يلقي على عاتق المنتصرين الذين استنزفتهم الجهود التي بذلوها في الحرب مهمة إخضاع بلد يصر على تقويض التسوية السلمية . فأي بلد لديه مظلمة أو شكوى يطمئن إلى أنه سيجد مساندة اوتوماتيكية تقريبا من الطرف الساخط المهزوم . وكانت تلك هي لعنة معاهدة فرساي . Treaty Of Versailles

وقد تجنب المنتصرون في مؤتمر فيينا ، مثل المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، الوقوع في هذا الخطأ . ولم يكن من السهل أن يمونوا كراما مع فرنسا ، التي ظلت تحاول السيطرة على أوروبا طيلة قرن ونصف قرن والتي رابطت جيوشها بين جيرانها طيلة ربع قرن . ومع ذلك فقد توصل القادة السياسيون في مؤتمر فيينا إلى أن أوروبا ستكون أكثر أمنا إذا أرضت فرنسا نسبيا بدلا من أن إثارة استيائها وسخطها . لقد حرمت فرنسا من الأراضي التي استحوذت عليها من غزواتها غير أنه سمح لها بالاحتفاظ بحدودها القديمة – أي حدود ما قبل الثورة – رغم أن تلك الحدود كانت تمثل حدود إقليم أكبر بكثير من الذي حكمه ريشيليو . وقد أثار كاسيلريج وزير خارجية ألد أعداء نابليون في القضية نقطة مؤداها:

أن تجاوزات فرنسا المستمرة، لاشك ، ستسوق أوروبا إلى قدر من التمزق (... ولكن) دع الحلفاء عندئذ ينتهزون هذه الفرصة الأخرى لتحقيق ذلك الهدوء ، الذي تطلبه كل دول أوروبا بشدة ... مع التأكيد على أنهم إذا خاب أملهم فسوف يحملون السلاح مرة أخرى ليس فقط من مواقع قوية تحت تصرفهم بل بتلك القوة المعنوية التي هي وحدها يمكن أن تحفظ أعضاء مثل هذا الاتحاد متضامنين معا...

وبحلول عام ١٨١٨ سمح لفرنسا بالانضمام إلى نظام المؤتمرات في مؤتمرات دورية أوروبية ظلت طوال نصف قرن تقترب من أن تكون بمثابة حكومة لأوروبا .

وباقتناع بريطانيا بأن الدول على اختلافها قد فهمت مصالحها الذاتية بدرجة كافية تجعلها تدافع عن هذه المصالح في حالة الاعتداء عليها ، فكان من الأرجح أن ترضي بريطانيا بترك الأمور على ما هي عليه عند هذا الحد . واعتقد البريطانيون أن الأمر لا يتطلب أي ضمان رسمي أو أن مثل هذا الضمان يمكن أن يضيف كثيرا إلى التحليل المعقول للمواقف.. ومع ذلك فقد أصرت بلدان أوروبا الوسطي ـ وهم ضحايا الحرب طيلة قرن ونصف قرن ـ علي ضرورة توفير ضمانات حقيقية.

وقد واجهت النمسا بصفة خاصة أخطارا لم يكن من الممكن لبريطانيا العظمي أن تتصورها . وكانت النمسا ، وهي أثر من آثار عصور الإقطاع ، إمبراطورية يتكلم سكانها عدة لغات وتجمع قوميات حوض نهر الدانوب حول مواقعها التاريخية في ألمانيا وشمال إيطاليا. وقد حاولت النمسا وهي تعي التيارات المتضارية لليبرالية والقومية التي هددت وجودها ، أن تغزل نسيجا من القيود الأخلاقية لوقف اختبارات القوة . وكانت مهارة ميترنيخ البارعة هي إقناع البلدان الرئيسية بجعل خلافاتهم أدني من إحساسهم بالقيم المشتركة . وقد عبر تاليراند Talleyrand عن أهمية وجود مبدأ تقييدي فقال :

لو كان أقل مستوي لقوة المقاومة مساويا لأكبر مستوى لقوة العدوان فسيكون هناك عندئذ توازن حقيقي. غير أن ... الموقف الحقيقي يسمح فقط بتوازن مصطنع وحرج ولا يمكن أن يستمر إلا إذا كانت هناك دول كبيرة مفعمة بروح من الاعتدال والعدالة .

وبعد مؤتمر فيينا كانت هناك وثيقتان ورد فيهما التعبير عن العلاقة بين ميزان القوى والإحساس المشترك بالشرعية وهاتان الوثيقتان هما : الحلف الرباعي الذي ضم بريطانيا العظمى ، وبروسيا والنمسا وروسيا ؛ والحلف المقدس الذي اقتصر علي الثلاثة المعروفين بالبلاط الشرقي – بروسيا والنمسا ، وروسيا ـ وفي بداية القرن الثامن عشر كانت النظرة إلى فرنسا نفس نظرة الخوف التي كان ينظر بها إلى ألمانيا في القرن العشرين – كدولة مزمنة في العدوان أصيلة في إثارة القلاقل . ولذلك أعد القادة السياسيون في فيينا الحلف الرباعي بهدف القضاء على أي ميول عدوانية فرنسية في مهدها بقوة ساحقة . ولو كان المنتصرون المجتمعون في فرساي قد أقاموا حلفا مماثلا في سنة ١٩١٨ لما عانى العالم من حرب عالمية ثانية .

كان الحلف المقدس مختلفا تماما : فلم تر أوروبا مثل تلك الوثيقة منذ أن ترك فيرديناند الثانى Ferdinand II عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة قبل ذلك الوقت بقرنين تقريبا. وقد اقترح القيصر الروسي – الذي لم يستطع أن يقنع نفسه بالتخلي عن مهمته التي حددها لنفسه – تجديد النظام العالمي وإعادة تشكيل المشتركين فيه . وفي عام ١٨٠٤ كان بيت قد خفف من حملته المقترحة لإقامة المؤسسات الليبرالية ؛ وفي عام ١٨١٥ طغى على ألكسندر إحساس غامر بالنصر لا يمكن إنكاره، بغض النظر عن أن حملته العنيفة في ذلك الوقت كانت

تتناقض تماما مع ما دعا إليه قبل أحد عشر عاما، والآن أصبح الكسندر عبدا للدين وللقيم المحافظة واقترح شيئا ليس أقل من أن يتم إصلاح النظام الدولي إصلاحا كاملا على أساس أن الطريق الذي سلكته الدول من قبل في علاقاتها المتبادلة لا بد من تغييره ، وأنه من الضروري استبداله على وجه السرعة بنظام للأشياء قائم على أساس الحقائق المجيدة للديانة الأبدية للمسيح المنقذ.

وراح الإمبراطور النمساوي يمزح قائلا أنه حائر هل يناقش تلك الأفكار في مجلس الوزراء أو علي كرسي الاعتراف في الكنيسة . غير أنه كان يعرف أيضا أنه لا يمكنه الانضمام إلى حملة القيصر العنيفة، وأنه عندما يرفضها فسوف يعطي ألكسندر المبرر لكي يقوم بهذه الحملة وحده ، تاركا النمسا تواجه التيارات الليبرالية والقومية في تلك الفترة بدون حلفاء . وهذا هو السبب في أن ميترنيخ حول طلب القيصر إلى ما أصبح يعرف بالحلف المقدس الذي فسر الضروريات الدينية على أنها التزام من الموقعين على الحلف بأن يحافظوا على الوضع الراهن في أوروبا، ولأول مرة في التاريخ الحديث توكل الدول الأوروبية لنفسها مهمة مشتركة.

لا يمكن لأي سياسي بريطاني أن يكون قد انضم لأي مؤسسة تشرع حقا عاما أو التزاما بالتدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى . وقد وصف كاسلريج الحلف المقدس بأنه نموذج للتصوف السامي والهراء الفارغ. وقد رأى ميترنيخ في الحلف فرصة لجعل القيصر يتعهد بتأييد الحكم الشرعي ، ومنعه قبل كل شيء من ممارسة حوافزه التبشيرية من جانب واحد وبدون التقيد بشيء . لقد جمع الحلف المقدس الملوك المحافظين معا في مقاومة مع الثورة ولكنه ألزمهم أيضا بالعمل بالتعاون معا فقط مما منح النمسا حق اعتراض نظري على مغامرات حليفها الروسي. وكان ما سمي بالحلف الأوروبي يعني ضمنا أن الدول التي كانت متنافسة على مستوى واحد يجب أن تسوى الأمور التي تؤثر في الاستقرار العام بإجماع الرأي .

لقد كان الحلف المقدس أكثر الجوانب الأصيلة لتسوية فيينا . فاسم الحلف ذاته المقدس حول الانتباه عن أهميته العملية التي كانت تتركز على الزج بعنصر التقيد الأخلاقي في العلاقات بين الدول الكبرى . وقد تسبب الاهتمام الذي أولته بلدان أوروبا للحفاظ على بقاء مؤسساتها الداخلية في أن تتجنب هذه البلدان المنازعات التي كان يمكن كأمر طبيعي أن يشتركوا فيها في القرن السابق .

ومع ذلك فمن المبالغة في التبسيط أن نقول أن المؤسسات الداخلية إذا توافقت تضمن وحدها وجود ميزان قوى سلمي . ففي القرن الثامن عشر حكم كل حكام أوروبا بلدانهم بمقتضى الحق الإلهي، وكانت مؤسساتهم الداخلية متوافقة بشكل واضح . ومع ذلك فإن نفس هؤلاء الحكام حكموا وهم يشعرون بأن حكمهم سيستمر وخاضوا حروبا لا نهاية لها

ضد بعضهم البعض لأنهم اعتبروا أن مؤسساتهم الداخلية مؤسسات لا يمكن أن تهاجم .

ولم يكن وودرو ويلسون أول من يعتقد أن طبيعة المؤسسات الداخلية تحدد سلوك دولة على المستوى الدولي . وكان ميترنيخ يعتقد ذلك أيضا ولكن على أساس مجموعة من الفروض مختلفة تماما . وبينما كان ويلسون يعتقد أن الديمقراطيات محبة للسلام وعاقلة بطبيعتها إلا أن ميترنيخ رأي أن الديموقراطيات خطيرة ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتها . ولما كان ميترنيخ قد عاصر المعاناة التي سببتها فرنسا ذات النظام الجمهوري لأوروبا فقد رأي بالتالي أن السلام مرتبط بالحكم الشرعي . وتوقع من الرؤوس المتوجة في الأسر الحاكمة القديمة إن لم تعمل علي صيانة السلام فعلى الأقل تعمل من أجل المحافظة على الهيكل الأساسي للعلاقات الدولية . وبهذه الطريقة ، أصبحت الشرعية هي العامل الذي ساعد على تماسك النظام الدولي .

الفارق بين موقف ويلسون وموقف ميترنيخ من العدالة الداخلية والنظام الدولي أمر أساسي لفهم وجهات النظر المتعارضة لأوروبا وأمريكا . وقد كافح ويلسون من أجل إقرار مبادئ اعتقد أنها مبادئ ثورية وجديدة . وحاول ميترنيخ إرساء قواعد اعتبرها قديمة . وكان ويلسون مقتنعا وهو يرأس بلدا قام بهدف تحرير الإنسان بأن القيم الديموقراطية يمكن أن تقنن ثم تدمج بعد ذلك في مؤسسات جديدة تماما على نطاق العالم . أما ميترنيخ، الذي كان يمثل بلدا قديما تطورت مؤسساته بالتدريج دون أن يشعر أحد بذلك ، فلم يكن يرى أن الحقوق يمكن أن توجد عن طريق سن القوانين. فالحقوق في رأي ميترنيخ موجودة أصلا في طبيعة الأشياء . وسواء أكدتها القوانين أو الدساتير فتلك مسألة فنية أساسا ولا علاقة لها بتحقيق الحرية . واعتبر ميترنيخ أن ضمان الحقوق أمر ينطوي على تناقض : إن الأمور التي ينبغي أن يسلم بها تلقائيا تفقد قوتها عندما تظهر في صورة بيانات رسمية تحكمية ... فالأشياء التي تخضع خطأً للتشريع تكون نتيجتها فقط تحديداً لذلك الشيء الذي كانت المحاولة تهدف حمايته إن لم يكن إلغاءه تماما.

كانت بعض الحقائق العامة التي قالها ميترنيخ عبارة عن تبريرات لممارسات الإمبراطورية النمساوية يخدم بها نفسه فلم تكن هذه الإمبراطورية قادرة على التأقلم مع العالم الجديد الآخذ في الظهور . ولكن ميترنيخ أعرب أيضا عن اقتناع منطقي بأن القوانين والحقوق وجدت في الطبيعة ولم تصدر بالأوامر . وكانت الثورة الفرنسية هي التجربة التي شكلت وجدانه والتي بدأت بإعلان حقوق الإنسان وانتهت بحكم الإرهاب . أما ويلسون فقد كانت التجربة التي شكلته تجربة وطنية أكثر اعتدالا ، ولم يكن يدرك قبل خمسة عشر عاما من ظهور النظم الاستبدادية الجديدة أن هناك تشوهات يمكن أن تحدث للإرادة الشعبية . وفي فترة ما بعد مؤتمر فيينا ، قام ميترنيخ بدور حاسم في توجيه وترتيب النظام الدولي وفي تفسير متطلبات الحلف المقدس . وقد اضطر ميترنيخ إلى القيام بهذا الدور لأن النمسا

كانت هي التي تثير كل العواصف وكانت مؤسساتها الداخلية أقل توافقا مع الاتجاهات الليبرالية والقومية في ذلك القرن . وكانت بروسيا تريد السيطرة على موقع النمسا في ألمانيا وروسيا على سكانها السلاف في البلقان . وكانت هناك دائما فرنسا ،التي تتوق إلى المطالبة بتركة ريشيليو في أوروبا الوسطى . وقد أدرك ميترنيخ أنه إذا أتيح لتلك الأخطار أن تتحول إلى اختبارات للقوة ، فإن النمسا سوف تستنفد قوتها مهما كانت النتيجة التي يسفر عنها أي صراع . ولذلك كانت سياسته هي تجنب الأزمات عن طريق التوصل إلى تحقيق إجماع معنوي والابتعاد عن أولئك الذين لا يمكن تجنبهم وذلك بأن يؤيد من جانبه وحدة أي أمة تكون على استعداد لأن تتحمل وطأة المواجهة. بريطانيا العظمى في مواجهة فرنسا في البلدان الواطئة ، بريطانيا العظمي وفرنسا في مواجهة روسيا في البلقان ، الولايات الصغيرة في مواجهة بروسيا في ألمانيا .

إن مهارة ميترنيخ السياسية الرائعة أتاحت له أن يترجم حقائق ديبلوماسية مألوفة إلى مبادئ عملية في السياسة الخارجية . وقد تمكن ميترنيخ من إقناع حليفي النمسا الحميمين ـ اللذين يمثل كل منهما تهديدا من حيث الجغرافية السياسية للإمبراطورية النمساوية – بأن الخطر المذهبي الناجم عن الثورة من شأنه أن يفسد فرصهم الاستراتيجية . فلو كانت بروسيا قد حاولت استغلال النزعة القومية الألمانية لتمكنت من التصدي لنفوذ النمسا في ألمانيا بثلاثين عاما قبل بسمارك . ولو أن القيصرين الكسندر الأول ونيقولاس الأول اهتما فقط بفرص روسيا الجغرافية السياسية لكانا قد استغلا انحلال الإمبراطورية العثمانية بطريقة أكثر حسما لمواجهة خطر النمسا، وذلك كما فعل خلفاؤهما فيما بعد في نفس القرن . لقد امتنعا عن المغالاة في استغلال مصالحهما لأن ذلك كان يتعارض مع المبدأ السائد الذي دعا إلى الإبقاء على الوضع الراهن. أما النمسا التي بدا أنها كانت ترقد على فراش الموت بعد هجوم نابليون عليها فقد مُنحت فرصة جديدة للحياة بفضل نظام ميترنيخ الذي مكنها من الحفاظ على بقائها مائة عام أخرى .

والرجل الذي أنقذ تلك الإمبراطورية التي لم تكن تتمشى مع الزمن ، ووجه سياستها طيلة ما يقرب من خمسين عاما لم يكن قد زار النمسا إلا بعد أن بلغ الثالثة عشرة من عمره ولم يقم فيها إلا بعد أن بلغ السابعة عشرة. وكان والد الأمير كليمينس فون ميترنيخ Metternich Klemens Von حاكما عاما لبلاد الراين والتي كانت عندئذ من ممتلكات آل هابسبورج. وكان ميترنيخ شخصية عالمية يشعر بمزيد من الارتياح في التحدث باللغة بالفرنسية عن الألمانية. وفي عام ١٨٢٤ كتب لويلنجتون يقول لفترة طويلة ظلت أوروبا لي بمثابة وطن الأجداد وقد سخر معارضوه المعاصرون من مقولاته الأخلاقية وكلامه المصقول، ولما كانت شخصية ميترنيخ ناتجا منطقيا لعصر التنوير فقد وجد نفسه مدفوعا نحو صراع ثوري كان غريبا على طبعه كما وجد نفسه مدفوعا لأن يصبح رئيس وزراء دولة تحت الحصار لا

يستطيع أن يغير من بنيتها شيئا .

وكان أسلوب ميترنيخ هو الرزانة واعتدال الهدف . ولما كنا لا نهتم إلا قليلا بالأفكار النظرية فنحن نقبل الأمور كما هي عليه ونحاول بأقصى جهدنا أن نحمي أنفسنا من الانخداع بغير الحقيقة. وبعبارات إذا فحصت بدقة فإنها تتبخر في الهواء فعلى سبيل المثال عبارة الدفاع عن المدنية ليس فيها شيء ملموس يمكن تحديده. ·

ويمثل هذه الاتجاهات تجنب ميترنيخ أن تكتسحه المشاعر التي تجتاح الناس لحظة وقوع الحدث . فبمجرد أن هزم نابليون في روسيا وحتى قبل أن تصل القوات الروسية إلى أوروبا الوسطى وصف ميترنيخ روسيا بأنها مصدر تهديد كامن طويل الأجل . وفي الوقت الذي كان فيه جيران النمسا يركزون اهتمامهم على التحرر من الحكم الفرنسي ، جعل ميترنيخ مشاركة النمسا في الائتلاف المعادي لنابليون تعتمد على تحديد أهداف للحرب تتوافق مع بقاء إمبراطوريته الكسيحة . وكان اتجاه ميترنيخ مضاداً تماما للموقف الذي اتخذته الديموقراطيات في الحرب العالمية الثانية عندما وجدت نفسها في ظروف مماثلة في مواجهة الاتحاد السوفيتي . ومثل كاسلريج وبيت ، اعتقد ميترنيخ أن أوروبا الوسطى القوية هي الشرط الأساسي للاستقرار الأوروبي . وبإصراره على تجنب اختبارات القوة إذا أمكن ذلك أصلا فقد اهتم ميترنيخ بترسيخ أسلوب الاعتدال وتجنب التدابير السياسية المتطرفة كما اهتم بحشد القوة الخام :

إن موقف الدول (الأوروبية) يختلف باختلاف موقعها الجغرافي . ففرنسا وروسيا حدودهما واحدة وهذه ليس من السهل أن تتعرض للهجوم . والراين بخطوطه الثلاثة من الحصون يضمن لفرنسا الاسترخاء : ...والمناخ المخيف .. يجعل نيمن Nimen حدودا ليست أقل أمنا لروسيا . أما النمسا وبروسيا فتسجدان أنهما معرضتان للهجوم من كل النواحي من الدول المجاورة لهما .وباستمرار تعرضهما للتهديد من تفوق هاتين الدولتين فإن النمسا وبروسيا لن تجدا الهدوء بانتهاج سياسة حكيمة مدروسة وموزونة وفي علاقات تتسم بالنوايا الطيبة بين بعضها البعض ومع جيرانهما...

ورغم أن النمسا كانت تحتاج روسيا كحاجز ضد فرنسا ، فقد كانت تلزم الحذر مع حليفتها المتهورة ، والحذر خاصة من نزعة القيصر للقيام بحملات صليبية عنيفة . وقد قال تاليراند Talleyrand عن القيصر الكسندر الأول أنه شبيه بأبيه القيصر بول Paul المجنون. وقال ميترنيخ يصف ألكسندر أنه مزيج غريب من قوة الرجولة وضعف الأنوثة .ضعيف جدا فلا يتوفر له الطموح الحقيقي وقوى جدا فلا يمكن أن يشعر بالتفاهة أو الغرور .

وكان ميترنيخ يرى أن المشكلة التي تسببها روسيا ليست هي كيفية احتواء نزعتها العدوانية – وهذه محاولة من شأنها أن تستنفد قوة النمسا – بقدر ما هي كيفية التخفيف

من طموحاتها . وقال ديبلوماسي نمساوي: إن ألكسندر يريد تحقيق السلام في العالم ولكن ليس من أجل السلام وبركاته بل من أجله هو ، ولا يريد أن يكون السلام بلا شروط بل بتحفظات من فكره هو : فقد كان يريد أن يظل هو الوسيط في هذا السلام ، ومنه ينبغي أن يتحقق هدوء العالم وسعادته . وينبغي أن تدرك أوروبا كلها أن هذا الهدوء ليس سوى نتيجة لعمله هو وأنه يتوقف على نواياه الحسنة وأن هذا السلام يمكن أن يتزعزع حسب نزواته ...

واختلف كاسلريج وميترنيخ حول كيفية احتواء روسيا الفضولية الماكرة . وكان كاسلريج –بوصفه وزيرا لخارجية دولة جزرية «جزيرة» بعيدة عن ساحة المواجهات.. على استعداد لمقاومة الهجمات العلنية فقط ، وحتى في تلك الحالة يجب أن تشكل تلك الهجمات تهديدا للتوازن . ومن ناحية أخرى فإن بلد ميترنيخ يقع في وسط أوروبا ولا يمكنه أن يعرض نفسه لتلك الأخطار . ولأن ميترنيخ ، على وجه الخصوص ،كان لا يثق في الكسندر ، فقد أصر على أن يبقي قريبا منه وركز اهتمامه على ألا يجعل التهديدات تصدر أبدا من ناحيته . وكتب يقول إذا أطلق مدفع واحد فسوف يفر منا الكسندر على رأس حاشيته وبعدئذ لن تكون هناك أبدا حدود للقوانين التي سيعتقد أنها منحت له كحق إلهي.

وللتخفيف من حماس الكسندر ، اتبع ميترنيخ استراتيجية ذات شقين . فتحت قيادته كانت النمسا تقف في طليعة الصراع ضد النزعة القومية رغم أن ميترنيخ كان يصر بشدة على ألا تكون النمسا معرضة للخطر ، أو تتصرف من جانب واحد . وكان أيضا أقل ميلا لتشجيع الآخرين على التصرف على مسئوليتهم ذلك لأنه من ناحية كان يخشى أن يتحول حماس التبشير الروسي إلى نزعة نحو التوسع الإقليمي . وبالنسبة لميترنيخ كان الاعتدال فضيلة فلسفية وضرورة عملية . وقال مرة في تعليمات بعث بها إلى أحد سفراء النمسا : إنه من الأهم التخلص من مطالب الآخرين عن أن نلح في مطالبنا ... فسوف نكسب الكثير نسبيا إذا طالبنا بالقليل. وقد حاول كلما أمكنه ذلك أن يخفف من مخططات القيصر الصليبية العنيفة وذلك بأن يشركه في مشاورات تستنفد جل وقته وتقيد تصرفاته إلى الحد الذي يجيزه الإجماع الأوروبي .

وكان الشق الثاني من استراتيجية ميترنيخ هو وحدة المحافظين . فعندما لا يصبح من الممكن تجنب المعركة يلجأ ميترنيخ إلى الحيلة والخداع . وقد وصف ذلك ذات مرة فقال : إن النمسا تنظر إلى كل شيء من حيث الجوهر (المضمون). وروسيا قبل كل شيء تريد المظهر (الشكل) ؛ وبريطانيا تريد الجوهر بدون المظهر (الشكل)... وسوف تكون مهمتنا أن نجمع بين مستحيلات بريطانيا والصيغة التي تريدها روسيا. وقد ساعدت مهارة ميترنيخ النمسا على التحكم في إيقاع الأحداث طيلة جيل بأكمله وذلك بأن حوّلت روسيا؛ وهي بلد كان ميترنيخ يخشاه ؛ إلى شريك على أساس وحدة مصالح المحافظين ، وبريطانيا العظمى التي كان يثق فيها ، إلى ملجأ أخير لمقاومة التحديات التي تواجه ميزان القوي . ولا شك أن النتيجة

الحتمية لذلك سوف تتأخر فقط . ورغم ذلك فإنه ليس إنجازا بسيطا أن يحافظ ميترنيخ على بقاء ولاية قديمة على أساس قيم لا تتمشى مع الاتجاهات السائدة حولها طيلة قرن كامل من الزمان .

وكانت مشكلة ميترنيخ هي أنه كلما تحرك مقتربا من القيصر كلما غامر بفقدان ارتباطه ببريطانيا وكلما غامر بفقدان ارتباطه ببريطانيا كلما كان مضطرا لأن يقترب من القيصر كي يتجنب العزلة . وكانت المعادلة المثالية بالنسبة لميترنيخ في ذلك الوقت هي تأييد بريطانيا للمحافظة على التوازن الإقليمي ، وتأييد روسيا لقمع الفوران الداخلي.. الحلف الرباعي للأمن الجغرافي السياسي ، والحلف المقدس من أجل الاستقرار الداخلي .

ولكن بمرور الوقت وذبول ذكرى نابليون ازدادت صعوبة المحافظة على تلك المعادلة .

فكلما ازداد اقتراب الأحلاف من الوصول إلى تحقيق نظام الأمن الجماعي والحكومة الأوروبية كلما شعرت بريطانيا أنها مضطرة للانفصال عن تلك الأحلاف. وكلما ازداد انفصال بريطانيا كلما ازداد اعتماد النمسا على روسيا فتدافع عن القيم المحافظة بتشدد أكبر . وكانت هذه دائرة مفرغة لا يمكن كسرها .

ومهما كان تعاطف كاسلريج مع مشاكل النمسا فلم يكن قادرا على حث بريطانيا العظمى على مواجهة الأخطار المتوقعة التي تتعارض مع الأخطار الفعلية . وقال كاسلريج عندما يتزعزع التوازن الإقليمي الأوروبي فيمكن لبريطانيا أن تتدخل تدخلا فعليا، غير أنها آخر حكومة في أوروبا يتوقع منها أو تغامر بتوريط نفسها في أي قضية ذات طابع نظرى... سوف نكون في مكاننا إذا هدد أي خطر فعلى النظام الأوروبى؛ ولكن هذا البلد لا ولن يتصرف وفقا لمبادئ وقاية مجردة وتخمينية. ومع ذلك فقد كان لب مشكلة ميترنيخ هو أن الضرورة اضطرته إلى أن يعامل ما رأته بريطانيا مجردا وتخمينيا على أنه عملي وواقعي. وقد تبين أن الاضطرابات الداخلية هى الخطر التى رأت النمسا أنه أمر ليس من السهل معالجته .

ولكي يخفف ميترنيخ الخلاف من حيث المبدأ ، اقترح عقد اجتماعات دورية أو مؤتمرات لوزراء الخارجية لاستعراض حالة الشئون الأوروبية . وقد سعي ، ما عرف فيما بعد بنظام المؤتمرات إلى التوصل إلى إجماع في الرأي حول القضايا التي تواجه أوروبا وتمهيد الطريق للتعامل معها من جانب أطراف متعددة . ولم تكن بريطانيا رغم ذلك مستريحة لنظام الحكومة الأوروبية لأنه نظام اقترب كثيرا من نظام أوروبا الموحدة الذي كانت بريطانيا دائما تعترض عليه. وغض النظر عن السياسة البريطانية التقليدية ، فلم يحدث أن تعهدت حكومة بريطانيا بأن تلتزم التزاما دائما باستعراض الأحداث كلما ظهرت دون أن تواجه تهديدا بعينه . فالاشتراك في حكومة أوروبية لم يكن أمرا أكثر جاذبية للرأي العام البريطاني كما كانت عصبة الأمم بالنسبة للأمريكيين بعد ذلك بمائة عام ، وللأسباب ذاتها .

وقد جعلت الحكومة البريطانية تحفظها واضحا وضوحا تاما بمجرد أن عقد أول مؤتمر ، وهو مؤتمر إيكس لا شابيل Aix-La-Chapelle في عام ١٨١٨. وقد بُعث كاسلريج إلى المؤتمر حاملا تعليمات غير عادية تنم عن الحقد على المؤتمر : إننا نوافق (إعلان عام) في هذه المناسبة ، وبصعوبة أيضا ، على أن نطمئن(الدول الثانوية ...)أن الاجتماعات الدورية ... ينبغي أن تقتصر على موضوع واحد ، أو حتى .. على دولة واحدة ، فرنسا ، ولا يكون التزاما بالتدخل بأي صورة لا يقرها قانون الأمم ... لقد كانت سياستنا الحقيقية دائما هي عدم التدخل إلا في حالات الطوارئ القصوى وعندئذ يكون تدخلنا بقوة كبيرة. لقد أرادت بريطانيا العظمى أن تكبح جماح فرنسا وفيما عدا ذلك فقد ساد في لندن خوف مزدوج من التورط في أوروبا ومن أوروبا الموحدة .

وكانت هناك مناسبة واحدة فقط وجدت فيها بريطانيا العظمى أن دبلوماسية المؤتمرات تتفق مع أهدافها . فأثناء الثورة اليونانية عام ١٨٢١ فسرت بريطانيا رغبة القيصر في حماية السكان المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية المنهارة على أنها المرحلة الأولى في محاولة روسيا غزو مصر . وعندما أصبحت المصالح الاستراتيجية البريطانية معرضة للخطر لم يتردد كاسلريج في الاستغاثة بالقيصر – باسم الوحدة المتحالفة ذاتها التي كان قد سعى حتى ذلك الوقت لتقييدها ـ لاحتواء فرنسا . وانطلاقا من طبيعته الشخصية ، وضع كاسلريج فارقا بين القضايا النظرية والقضايا العملية : إن مسألة تركيا مسألة ذات طابع مختلف تماما وهي مسألة ينظر إليها في إنجلترا على أنها ذات طابع عملي وليس نظريا...

غير أن استغاثة كاسلريج بالحلف ساعدت قبل كل شيء على أن تبين أن الحلف هش مشاشة أصيلة فيه . فحلف يعامل فيه أحد أعضائه مصالحه الاستراتيجية الخاصة على أنها القضية العملية الوحيدة لا يكون من شأنه أن يوفر أمنا إضافيا لأعضائه . لأنه لا يوفر أي التزام أكثر مما تتطلبه اعتبارات المصلحة القومية في أي حالة . ولا شك أن ميترنيخ شعر بالارتياح لتعاطف كاسلريج الشخصي الواضح مع أهدافه وحتى تعاطفه مع نظام المؤتمرات ذاته . وقال أحد الدبلوماسيين النمساويين أن كاسلريج أشبه بعاشق للموسيقي يستمع إليها في الكنيسة ويحاول أن يصفق ولكنه لا يجرؤ ولكن حتى لو لم يجرؤ أكثر السياسيين البريطانيين من ذوى العقلية الأوروبية أن يصفق لما يؤمن به ، فإن دور بريطانيا العظمى في الحلف الأوروبي كان مصيره أن يكون دورا عابرا لا أثر له .

والأمر أشبه بما حدث لويلسون وعصبة أممه بعد ذلك بقرن من الزمان فالجهود التي بذلها كاسلريج ، لإقناع بريطانيا العظمى بالاشتراك في نظام للمؤتمرات الأوروبية ، تجاوزت ما كان يمكن أن تجيزه المؤسسات النيابية الإنجليزية سواء على أسس فلسفية أو استراتيجية . فقد كان كاسلريج مقتنعا ، مثل ويلسون فيما بعد ، بأن أفضل طريقة لتجنب خطر عدوان جديد هي أن ينضم بلده إلى منبر أوروبي دائم يعمل على معالجة التهديدات قبل أن تتطور

إلى أزمات . وقد فهم أوروبا أحسن مما فهمها معظم معاصريه البريطانيين، وأدرك أن التوازن الجديد الذي تشكل يتطلب عناية دقيقة . واعتقد أنه وضع حلا يمكن أن تؤيده بريطانيا العظمى لأنه لا يتجاوز عقد سلسلة من جلسات المناقشات بين وزراء خارجية الدول المنتصرة الأربع ولا يرتبط هذا الحل بأية التزامات .

ولكن حتى جلسات المناقشات كانت فيها نكهة الحكومة الأوروبية بالنسبة للوزارة البريطانية . والواقع أن نظام المؤتمرات لم يتخط حتى عقبته الأولية . وعندما حضر كاسلريج المؤتمر الأول في إيكس لا شابيل في عام ١٨١٨ سمح لفرنسا بالانضمام إلى نظام المؤتمرات وخرجت بريطانيا العظمى منه . ورفضت الوزارة البريطانية أن تدع كاسلريج يحضر أي مؤتمرات أوروبية أخرى . وقد عقدت تلك المؤتمرات بعد ذلك في برلين عام ١٨٢٠ وفي تروبو Troppau عام ١٨٢٠ وفي لايباخ Laibach عام ١٨٢١وفي فيرونا Verona عام ١٨٢٢ . وظلت بريطانيا العظمى بعيدة عن نظام المؤتمرات الذي اخترعه وزير خارجيتها ، كما حدث فيما بعد حين نأت الولايات المتحدة بنفسها عن عصبة الأمم التي كان رئيسها هو الذي اقترح إنشاءها . وفي كلتا الحالتين فشلت محاولة زعيم أقوى البلاد لإقامة نظام عام للأمن الجماعي بسبب محظورات داخلية وتقاليد تاريخية .

وقد اعتقد ويلسون وكاسلريج كلاهما ،أن النظام العالمي الذي ينشأ بعد حرب فاجعة لا يمكن حمايته إلا عن طريق المشاركة الإيجابية من جانب شتى كبار الأعضاء في المجتمع الدولي وبصفة خاصة من جانب دولتيهما . وبالنسبة لكاسلريج وويلسون كان لابد أن يكون الأمن جماعيا ؛ فإذا سقطت أي دولة ضحية فسوف يصبح الجميع في النهاية ضحايا . وبهذه الرؤية للأمن كأنه شيء متماسك خال من الشقوق أصبح هناك لكل الدول اهتمام عام بمقاومة العدوان ، بل اهتمام أكبر بمنع وقوع العدوان . وكان كاسلريج يرى أن بريطانيا العظمى مهما كانت آراؤها في قضايا معينة فإن لها مصلحة حقيقية في صون السلام العام والمحافظة على ميزان القوى . ورأى كاسلريج مثلنا رأي ويلسون أن أفضل طريقة للدفاع عن تلك المصلحة هي أن يكون لبلده يد في وضع القرارات التي تؤثر في النظام الدولي وفي تنظيم مقاومة انتهاكات السلام .

ونقطة الضعف في نظام الأمن الجماعي هي أن المصالح نادرا ما يشبه بعضها بعضا ونادرا ما يكون الأمن خاليا من الفجوات . وبالتالي فالأرجح بالنسبة للأعضاء في نظام عام للأمن الجماعي أن يتفقوا على عدم العمل المشترك بدلا من أن يتفقوا على العمل المشترك؛ فهم إما تجمعهم معا مبادئ عامة جذابة أو قد يشهدون هروب أكثر الأعضاء قوة من تجمعهم ، وهو العضو الذي يشعر أنه آمن تماما وهو وحده فهو لذلك لا يشعر أنه في حاجة إلى نظام للأمن الجماعي في قليل أو كثير . ولم يستطع أي من ويلسون ولا كاسلريج أن يضم بلده إلى نظام للأمن الجماعي وذلك لأن أيا من مجتمعيهما لم يشعر بأنه مهدد

بأخطار قريبة، وكان الرأي هو أنه يمكن لأي منهما مواجهة الأخطار وحده أو يبحث إذا دعت الحاجة عن حلفاء له في اللحظة الأخيرة . فبالنسبة لأي منهما لم يكن الانضمام إلى عصبة الأمم أو نظام الحلف الأوروبي يضاعف من المخاطر التي يتعرض لها دون أن يعزز أمنه .

وكان هناك على أي حال فارق شاسع بين رجلي السياسة الأنجلو ساكسونيين كاسلريج وويلسون . فلم يكن كاسلريج غير منسجم مع معاصريه فقط بل لم يكن منسجما مع كل اتجاهات السياسة الخارجية البريطانية . ولم يترك كاسلريج تركة وراءه ، فلم يتخذ أي سياسي بريطاني من كاسلريج مثالا يحذو حذوه . أما ويلسون فلم يستجب فقط لكل المطالب التي حثت عليها الدوافع الأمريكية بل زاد عليها وصعد بها إلى مستوي جديد أعلى . وكان كل خلفائه ويلسونيين إلي حد ما ، وتشكلت السياسة الخارجية الأمريكية بعده وفقا للقواعد التي وضعها .

لقد استنفد اللورد ستيوارت Lord Stewart المراقب البريطاني والأخ غير الشقيق لكاسلريج الذي أتيح له حضور شتى المؤتمرات الأوروبية ، معظم نشاطه في تحديد المدى الذي يمكن أن يصل إليه تورط بريطانيا في الخارج بدلا من أن يركز اهتمامه على الإسهام في الإجماع الأوروبي . وفي المؤتمر الذي عقد في تروبو ، قدم مذكرة أكد فيها حق الدفاع عن النفس ولكنه أصر على أن بريطانيا العظمي لن تكلف نفسها بصفتها عضوا في الحلف المسئولية الأدبية بأن تقوم بإدارة قوة شرطة أوروبية عامة. وفي مؤتمر لايباخ اضطر لورد ستيوارت إلى أن يكرر أن بريطانيا العظمي لن تتورط أبدا في أخطار غير واقعية وتكهنية. وقد عرض كاسلريج بنفسه موقف بريطانيا في مذكرة مؤرخة في ٥ مايو ١٨٢٠ . أكد فيها أن الحلف الرباعي هو حلف لتحرير جزء كبير من أوروبا من السيطرة العسكرية لفرنسا ...ومع ذلك فلم يكن مقصودا منه أبدا أن يكون اتحادا لحكومة العالم أو أن يكون مراقبا للشئون الداخلية لدول أخرى.

وفي النهاية وجد كاسلريج أنه أصبح محاصرا بين معتقداته وبين ضروراته الداخلية . ولم يكن يرى أن هناك مخرجا من موقفه الذي لا يمكن المحافظة عليه . وقال كاسلريج في آخر حديث له مع الملك سيدي: من الضروري أن نقول وداعا لأوروبا فأنت وأنا وحدنا نعرفها وأنقذناها فلن يكون هناك بعدي من يفهم شئون أوروبا. وبعد ذلك بأربعة أيام انتحر كاسلريج .

لقد زاد اعتماد النمسا على روسيا ، وكانت أكثر المشاكل المحيرة لميترنيخ هي إلى أي مدى سيعمل احتكامه إلى مبادئ القيصر المحافظة إلى الحيلولة دون روسيا واستغلال فرصها في البلقان وعند الحدود الخارجية لأوروبا . واتضح أن الجواب هو ثلاثون سنة تقريبا تعامل خلالها ميترنيخ مع ثورات في نابولي Napoly وأسبانيا واليونان بينما كان يحافظ آنذاك بشكل فعال على إجماع أوروبي ويتجنب تدخل روسيا في البلقان .

ولكن المسألة الشرقية لم تنته . والواقع أن المسألة الشرقية في جوهرها كانت نتيجة لصراعات من أجل الاستقلال في البلقان إذ إن الجنسيات المختلفة كانت تحاول الانفصال عن الحكم التركي . والمأزق الذي سببه ذلك لنظام ميترنيخ هو اصطدام ما يحدث بالتزام هذا النظام بالمحافظة علي الوضع الراهن أي المحافظة على الحالة كما هي وأن حركات الاستقلال الموجهة اليوم ضد تركيا سوف تهاجم النمسا بعد ذلك . وعلاوة على ذلك فإن القيصر الذي كان أكثر الناس التزاما بالشرعية كان أيضا أكثرهم شوقا للتدخل، ولكن حتما لم يكن هناك أحد ـ لا في لندن ولا في فيينا – يصدق أن القيصر سوف يحافظ علي الوضع الراهن بعد أن أطلق العنان لجيوشه في كل مكان .

ولفترة ما ، كانت هناك مصلحة مشتركة في امتصاص الصدمة التي أحدثها انهيار الإمبراطورية العثمانية ، أدت إلى استمرار وجود علاقة قوية مع بريطانيا والنمسا . ومهما كانت قلة اهتمام البريطانيين بقضايا معينة في البلقان فقد كانت إنجلترا ترى أن تقدم روسيا نحو المضايق يهدد المصالح البريطانية في البحر المتوسط، وقد واجه ذلك معارضة عنيفة. ورغم أن ميترنيخ لم يشترك أبدا بصفةمباشرة في تلك الجهود البريطانية لمعارضة نزعة التوسع الروسية ، إلا أنه رحب بها كثيرا . أما دبلوماسيته الحذرة المجهولة قبل كل شيء – التي تؤكد وحدة أوروبا ، وتتملق روسيا ، وتتزلف بريطانيا ـ فقد أتاحت للنمسا المحافظة على اختيارها الروسي بينما تحملت دول أخرى عناء مقاومة نزعة التوسع الروسية .

وكان إقصاء ميترنيخ عن مسرح الأحداث عام ١٨٤٨ بمثابة بداية النهاية للتصرف الحاسم الذي استغلت فيه النمسا وحدة مصالح المحافظين الذين يقاومون لتغيير للمحافظة على تسوية فيينا . ومما لاشك فيه أنه لا يمكن أن الشرعية كانت تعويضا غير محدد عن التدهور المطرد في الموقف الجغرافي السياسي للنمسا أو عن زيادة التنافر بين مؤسساتها الداخلية من جانب وبين نزعات القومية المسيطرة من جانب آخر . غير أن الاهتمام بدقة الفروق هو في الواقع جوهر فن الحكم . وقد تمكن ميترنيخ بالحيلة والدهاء من معالجة المسألة الشرقية . ولكن خلفاءه ، الذين لم يتمكنوا من التوفيق بين مؤسسات النمسا الداخلية وبين متطلبات العصر ، حاولوا التعويض عن ذلك بتوجيه مسار الدبلوماسية النمساوية بحيث تتمشى مع الاتجاه الآخذ آنئذ في الظهور بممارسة سياسات القوة ، دون أي تقيد بمفهوم الشرعية . وكان ذلك بعينه هو تدمير النظام الدولي .

وهكذا تحطم الحلف الأوروبي أخيرا على صخرة المسألة الشرقية . وفي عام ١٨٥٤ نشبت الحرب بين الدول الكبرى لأول مرة منذ أيام نابليون. ومن قبيل السخرية أن تلك الحرب ، حرب القرم – التي طالما أدانها المؤرخون على أنها حرب لا معنى لها وكان من الممكن تجنب نشوبها تماما – لم تشعل شرارتها روسيا أو بريطانيا العظمي ، أو النمسا – وهي بلدان

لها مصلحة في المسألة الشرقية – بل كانت فرنسا هي التي أشعلت شرارتها .

وفي عام ١٨٥٢ قام نابليون الثالث ، إمبراطور فرنسا الذي تولى الحكم بانقلاب ، بإقناع السلطان التركي بمنحه لقب حامي المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية ، وهو دور كان قيصر روسيا يحتفظ به تقليديا لنفسه . وقد غضب نيكولاس الأولNicholas I بشدة لأن نابليون الذي كان يعتبره شخصا شاذا ومدعيا ، يتجرأ على أن يحتل مكان الروس كحام للسلافيين البلقان ،وطالب نيكولاس بوضع لروسيا يتساوى مع وضع فرنسا. وعندما صد السلطان المبعوث الروسي قطعت روسيا علاقاتها الدبلوماسية مع تركيا . وكان اللورد بالمرستون Lord Palmerston الذي شكل سياسة بريطانيا الخارجية في منتصف القرن التاسع عشر . يشك كثيرا في روسيا وألح على إرسال البحرية الملكية إلى خليج بيسيكا Besika قرب الدردنيل . وواصل القيصر اتباع روح نظام ميترنيخ وقال أنتم الأربعة ـ مشيرا إلى الدول الكبرى الأخرى ـ يمكنكم أن تملوا علي ما تريدون .. ولكن هذا لن يحدث أبدا . فأنا أستطيع أن أعتمد على برلين وفيين . ولكي يبين نيكولاس عدم مبالاته أمر باحتلال إمارتي مولدافيا Moldavia و ولاشيا (Wallachiaرومانيا اليوم .)

واقترحت النمسا ـ التي ستكون أكثر الخاسرين في حالة نشوب حرب ـ الحل الواضح وهو أن تشترك فرنسا وروسيا في حماية المسيحيين العثمانيين . ولم يكن بالمرستون يريد أيًا من النتيجتين . ولكي يعزز موقف بريطانيا العظمي في المساومة أرسل الأسطول البريطاني إلى مدخل البحر الأسود . وقد شجع هذا تركيا على إعلان الحرب على روسيا . ووقفت كل من بريطانيا العظمى وفرنسا إلى جانب تركيا .

وعلى أي حال فقد كانت أسباب الحرب أعمق من ذلك . وكانت المطالب الدينية في الواقع مبررات وراء مخططات سياسية واستراتيجية . وكان نيكولاس يحاول تحقيق الحلم الروسي القديم باحتلال القسطنطينية والمضايق .وقد رأي نابليون الثالث الفرصة سانحة لإنهاء عزلة فرنسا ، والقضاء على الحلف المقدس بإضعاف روسيا . وسعي بالمرستون لإيجاد مبرر ما لوقف اندفاع روسيا نحو المضايق وقفا نهائيا . وعندما اشتعلت الحرب دخلت السفن الحربية البريطانية البحر الأسود وبدأت تدمر الأسطول الروسي هناك . ونزلت قوة بريطانية فرنسية في القرم للاستيلاء على القاعدة البحرية الروسية في سيفاستبول.

ولم تسفر هذه الأحداث عن شيء سوي تعقيد الموقف بالنسبة لقادة النمسا . فكانوا يولون أهمية للصداقة التقليدية مع روسيا ، بينما كانوا يخشون من أن يؤدي تقدم الروس في البلقان إلى زيادة الشعور بالقلق لدي السكان السلافيين في النمسا . ولكنهم كانوا يخشون من أن يؤدي تأييد صديقتهم القديمة روسيا في القرم إلى إعطاء فرنسا مبررا لمهاجمة أقاليم النمسا الإيطالية .

وفي البداية أعلنت النمسا الحياد الذي كان طريقا معقولا . ولكن الكونت بول وزير خارجية النمسا الجديد، وجد أن عدم القيام بأي تصرف أمر مثير للأعصاب والتهديد الفرنسي لممتلكات النمسا في إيطاليا مثير للانزعاج . وبينما كانت الجيوش الفرنسية والبريطانية تحاصر سيفاستبول قدمت النمسا للقيصر إنذارا وطالبت فيه بأن تنسحب روسيا من مولدافيا وولاشيا . وكان هذا هو العامل الحاسم في إنهاء حرب القرم.. أو أن هذا على الأقل ما اعتقده القادة الروس آنئذ بل ما زالوا يعتقدون ذلك حتى الآن.

تخلت النمسا عن نيكولاس الأول وعن صداقة قوية مع روسيا ترجع إلى حروب نابليون، وأدى التهاون المصحوب بالذعر بخلفاء ميترنيخ إلى أن يتخلصوا من تركة الوحدة بين المحافظين التى تكدست بعناية وأحيانا بطريقة مؤلمة طيلة أكثر من ثلاثين عاما . ومرة واحدة تحرر النمسا نفسها من قيود القيم المشتركة وتحرر روسيا أيضا كي تمارس سياستها الخاصة على أساس مصلحتها الجغرافية السياسية فقط . وبانتهاج روسيا هذا الطريق كان لابد أن تصطدم بالنمسا فيما يتعلق بمستقبل البلقان بل تسعى في الوقت المناسب إلى تقويض إمبراطورية النمسا .

والسبب في أن تسوية فيينا ظلت سارية لمدة خمسين عاما هو أن الدول الشرقية الثلاث – روسيا وبروسيا والنمسا – رأت أن وحدتها هي العامل الأساسي الذي يقف أمام الفوضى الثورية وسيطرة فرنسا على أوروبا . غير أن النمسا (قاعة نبلاء أوروبا كما أطلق عليها تاليراند) تمكنت في حرب القرم من عقد حلف غير مستقر مع نابليون الثالث الذي كان يتمني القضاء على نفوذ النمسا في إيطاليا وبريطانيا العظمي التي كانت ترفض التورط في القضايا الأوروبية. وهكذا حررت النمسا كلا من روسيا وبروسيا ، شريكيها السابقين في الحلف المقدس المولعين بتحقيق المكاسب لكي يحققا مصالحهما القومية غير منقوصة.

وقد حصلت بروسيا على الثمن الذي كانت تريده بأن أرغمت النمسا على الانسحاب من ألمانيا، هذا بينما تحولت أعمال روسيا العدوانية المتزايدة في البلقان إلى أحد الأسباب التي أطلقت شرارة الحرب العالمية الأولي وأدت إلى انهيار النمسا انهيارا كاملا .

وعندما واجهت النمسا حقائق سياسات القوة ، فشلت في أن تدرك أن خلاصها كان يكمن في الالتزام الأوروبي بالشرعية . وكان مفهوم وحدة مصالح المحافظين قد تجاوز الحدود القومية وبالتالي عمل على تخفيف المواجهات التي تسببها سياسات القوة . وكان للنزعة القومية الأثر المضاد فعظمت تحقيق المصلحة القومية ، وزادت من المنافسات والمخاطر بالنسبة للجميع . وألقت النمسا بنفسها في مباراة كان لا يمكن أن تفوز فيها بسبب نقاط ضعفها .

وفي غضون خمس سنوات من نهاية حرب القرم بدأ الزعيم الوطني الإيطالي كاميلو كافور

Camillo Cavour عملية طرد النمسا من إيطاليا بالتحريض علي شن حرب على النمسا مؤيدا بحلف فرنسي وموافقة روسية، وكلاهما كان يبدو قبل ذلك أمرا لا يصدق . وفي غضون خمس سنوات أخري يهزم بسمارك النمسا في حرب للسيطرة على ألمانيا . ومرة أخرى وقفت روسيا بعيدا وكذلك فعلت فرنسا ولكن على مضض . ولو حدث ذلك في أيام ميترنيخ لناقش الحلف الأوروبي تلك الاضطرابات وسيطر عليها . ومنذ ذلك الوقت اعتمدت الدبلوماسية بقدر أكبر على القوة المجردة وليس على القيم المشتركة .

وتحققت المحافظة على السلام لمدة خمسين عاما أخرى . غير أنه مع كل عقد كان التوتر يتضاعف وسباق التسلح يزداد .

وقد سارت أحوال بريطانيا العظمى بطريقة مختلفة تماما في نظام دولي تسيره سياسات القوة . وأحد أسباب ذلك هو أن بريطانيا لم تعتمد أبدا على نظام المؤتمرات للمحافظة على أمنها ؛ فبالنسبة لبريطانيا العظمى كان النمط الجديد للعلاقات الدولية أكثر شبها بالأعمال التجاريةالمألوفة . وفي القرن التاسع عشر أصبحت بريطانيا العظمى هي الدولة المسيطرة في أوروبا . ومن المؤكد أنها كانت قوية بما يكفي أن تقف وحدها وكانت تتمتع بميزة العزلة الجغرافية والحصانةمن الاضطرابات الداخلية التي تقع في أوروبا . ولكنها كانت أيضا تتمتع بميزة أخرى وتلك هي أن قادتها معتدلون ينتهجون سياسات غير عاطفية تجاه المصلحة القومية .

وخلفاء كاسلريج لم يفهموا أوروبا جيدا كما فهمها هو . غير أنهم ألموا بالأمور الجوهرية التي تشكل المصلحة القومية البريطانية وتابعوا تحقيق هذه المصلحة بمهارة وإصرار غير عاديين . ولم يضيع جورج كانينج George Canning الذي خلف كاسلريج مباشرة في منصبه ، أي وقت في القضاء على الروابط القليلة المتبقية التي حافظ كاسلريج من خلالها على نفوذه، مهما كان ضئيلا ، على نظام المؤتمرات الأوروبي . وفي عام ١٨٢١ أى قبل أن يخلف كاسلريج بعام واحد ، دعا كانينج إلى انتهاج سياسة الحياد قولا وعملا وقال دعونا لا نفترض، بتلك الروح الرومانسية الخرقاء ، أننا نستطيع وحدنا أن نبعث الحياة في أوروبا من جديد. وبعد أن أصبح وزيرا للخارجية لم يترك مجالا للشك في أن المبدأ الذي يسير عليه هو المصلحة القومية التي كان يرى أنها لا تتمشى مع التورط الدائم في أوروبا :

... إن ارتباطنا الحميم ،كما هو الحال ، بالنظام الأوروبي ، لا يعني أنه يتحتم علينا أن نكون مطالبين بالزج بأنفسنا في أعمال تطفلية مثيرة للقلق والانزعاج لصالح الدول التي تحيط بنا.

وبمعنى آخر فإن بريطانيا العظمى ستحتفظ بالحق في السير في طريقها الخاص طبقا لمقتضيات كل حالة على حدة ولا توجهها إلا مصلحتها القومية ، وهذه سياسة جعلت من

الحلفاء إما مساعدين أو أطرافا لا صلة لهم بأي موضوع .

وقد أوضح بالمرستون في عام ١٨٥٦ التعريف البريطاني لمصطلح المصلحة القومية فقال : عندما يسألني الناس ... عما يسمى بالسياسة ، فإن الإجابة الوحيدة لدي هي أننا نقصد أن نفعل ما قد يبدو أنه أحسن ما يمكن ، إزاء كل مناسبة تظهر جاعلين مصلحة بلدنا مبدأنا الذي نسترشد به. وبعد ذلك بنصف قرن ، لم يكتسب الوصف البريطاني الرسمي لمصطلح السياسة الخارجية البريطانية كثيرا من حيث الدقة ، كما يتبين من الشرح الذي قدمه وزير الخارجية سير إدوارد جراى Sir Edward Grey عندما قال إن وزراء خارجية بريطانيا قد استرشدوا بما كان يبدو لهم أنه المصلحة المباشرة لبلدهم ، دون أن يضعوا حسابات دقيقة للمستقبل.وفي معظم البلدان الأخرى كانت أمثال هذه التصريحات ستواجه بقدر من السخرية ويقال عنها أنها تصريحات متكررة المعاني بلا جدوى – نحن نفعل ما هو أفضل لأننا نراه أفضل . وفي بريطانيا العظمي كانت هذه التصريحات تعتبر مبعث استنارة ونادرا ما كانت هناك دعوة أو مطلب لتعريف عبارة المصلحة القومية التي كانت تستخدم كثيرا : وقال بالمرستون: نحن ليس لدينا حلفاء أبديون ولا أعداء دائمون، إن بريطانيا العظمى ليست في حاجة إلى استراتيجية رسمية لأن قادتها فهموا ما هي المصلحة البريطانية فهما جيدا تماما بحيث استطاعوا التصرف تلقائيا في كل حالة إذا ما ظهرت واثقين من أن جمهورهم سوف يتبعهم. وقال بالمرستون أيضا : إن مصالحنا أبدية ومن واجبنا تحقيق هذه المصالح.

كان القادة البريطانيون واضحين فيما هم ليسوا على استعداد للدفاع عنه بدلا من أن يضعوا سلفا تعريفا للأعمال العدائية التي تبرر اللجوء للحرب. وكانوا حتى أكثر ترددا في تحديد أهداف إيجابية ربما لأنهم فضلوا الوضع الراهن إلى حد كبير . واقتناعا منهم بأنهم سيتعرفون على المصلحة القومية البريطانية بمجرد رؤيتها فلم يشعروا أن هناك حاجة لتفسيرها بتوسع مسبقا . وفضلوا انتظار حالات واقعية.. وهذا موقف كان يستحيل على دول أوروبا أن تتخذه لأنها كانت هي بذاتها تلك الحالات الواقعية .

ولم يكن الرأي البريطاني عن الأمن يختلف كثيرا عن رأي الأمريكيين ذوى النزعة الانعزالية في هذا الموضوع ، إذ إن بريطانيا العظمي شعرت أنها محصنة ضد كل شيء سوى الاضطرابات المفاجئة العنيفة . غير أن أمريكا وبريطانيا العظمي اختلفتا عندما وصل الأمر إلى نقطة العلاقة بين السلام والهيكل الداخلي ، فالقادة البريطانيون لم ينظروا بأي حال إلى انتشار المؤسسات النيابية على أنه مفتاح للسلام كما كان قد فعل نظراؤهم الأمريكيون ولم يشعروا حتى أنهم مهتمون بمؤسسات تختلف عن مؤسساتهم .

ولذلك ففي عام ١٨٤١ بين بالمرستون للسفير البريطاني في سانت بيترسبيرج الأوضاع التي ستقاومها بريطانيا العظمى بقوة السلاح كما أوضح له لماذا لن تقاوم بريطانيا

التغييرات الداخلية المحضة :

إن أحد المبادئ العامة التي تود حكومة صاحبة الجلالة أن تلتزم بها كمرشد لها في التعامل في مجال العلاقات بين إنجلترا والدول الأخرى ،هو ، أن التغييرات التي قد تختار الأمم الأجنبية إجراءها في قوانينها الداخلية وشكل حكوماتها يجب أن ينظر إليها على أنها أمور ليس لبريطانيا أن تتدخل فيها بقوة السلاح ...

ولكن محاولة ما من أمة واحدة لكي تستولي وتستحوز لنفسها على أراض تنتمي لأمة أخرى فهذا أمر مختلف ؛ لأن مثل تلك المحاولة من شأنها أن تؤدي إلى اختلال ميزان القوى القائم ، وتغيير القوى النسبية للدول قد يسفر عن خطر تتعرض له دول أخرى ، والحكومة البريطانية تعتبر أن لها في مثل تلك الحالات الحرية الكاملة في المقاومة...

والوزراء البريطانيون بدون استثناء اهتموا قبل كل شيء بالمحافظة على حرية بلدهم في التصرف . ففي عام ١٨٤١ كرر بالمرستون كراهية بريطانيا للقضايا النظرية البحث فقال :

ليس من المعتاد بالنسبة لإنجلترا أن تدخل في تعهدات تتعلق بحالات لم تظهر بالفعل أو حالات ليس من المتوقع ظهورها بصورة مباشرة...

وبعد ذلك بقرابة ثلاثين عاما عرض جلادستون Gladston نفس المبدأ في خطاب وجهه إلى الملكة فيكتوريا Victoria

يجب أن تحتفظ بريطانيا تماما في أيديها بوسائل تقييم التزاماتها الخاصة إزاء مختلف الحالات الواقعية عندما تظهر ؛ كما يجب على بريطانيا ألا تكبل حريتها في الاختيار وتضيق من نطاقها ببيانات تصدرها للدول الأخرى ، خدمة لمصالحهم الحقيقية أو المفترضة التي سيزعمون على الأقل أنهم مفسرون مشتركون لها.

وبإصرارهم على حرية التصرف ، رفض القادةالسياسيون البريطانيون ،كقاعدة ،كل الأشكال المختلفة لموضوع الأمن الجماعي . وقد بين ما سمي فيما بعد «العزلة الرائعة» اقتناع بريطانيا بأنها سوف تخسر من الأحلاف أكثر مما ستكسب منها . وهذا الموقف الانعزالي المتباعد لايمكن أن تنتهجه إلا دولة تكون من القوة بحيث تستطيع الوقوف وحدها، ولا تتوقع التعرض لأية أخطار تجعلها تحتاج مساعدة حلفاء لها وتكون متأكدة من أن أي خطر عظيم يهددها سوف يهدد أيضا من يمكن أن يكونوا حلفاءها بقدر أكبر . إن دور بريطانيا بوصفها الدولة التي حافظت على التوازن الأوروبي زودها بكل الخيارات التي كان قادتها إما يريدونها أو يحتاجونها . وكانت السياسة قادرة على الاستمرار لأنها لم تسع لتحقيق أي مكاسب إقليمية في أوروبا ، فبريطانيا يمكنها أن تختار المنازعات الأوروبية التي يمكنها أن تتدخل فيها وذلك لأن مصلحتها الوحيدة في أوروبا هي التوازن (مهما كان

نهم الشهية البريطانية للحيازة الاستعمارية فيما وراء البحار).

ومع ذلك فإن «العزلة الرائعة» لبريطانيا لم تقف حائلا دون دخولها في ترتيبات مؤقتة مع بلدان أخرى للتعامل مع ظروف خاصة . وبوصفها دولة بحرية ليس لديها جيش كبير ثابت فإن بريطانيا العظمي كانت أحيانا تحتاج إلى التعاون مع حليف من أوروبا ، وقد فضلت دائما أن تختاره بنفسها كلما دعت الحاجة إلى ذلك . وفي مثل تلك الحالات كان القادة البريطانيون يوضحون أن الأحقاد السابقة لم يكن لها أي تأثير عليهم . وفي أثناء انفصال بلجيكا عن هولندا عام ١٨٣٠ هدد بالمرستون فرنسا في البداية بالحرب إذا حاولت السيطرة على الدولة الجديدة ، وبعد ذلك بسنوات قلائل عرض عليها التحالف معها لضمان استقلال بلجيكا : إن إنجلترا وحدها لا يمكنها أن تحقق أهدافها في أوروبا : فيجب أن يكون لديها حلفاء لتحقيق غرضها في أوروبا وليكونوا بمثابة أدوات تعمل بها.

ولاشك أن مختلف حلفاء بريطانيا المختارين لغرض خاص كانت لهم أيضا أهدافهم الخاصة، والتي عادة ما تشمل توسيع نطاق نفوذهم أو أقاليمهم في أوروبا . وعندما كانوا يتجاوزون ما كانت إنجلترا تعتبره كافيا أو مناسبا كانت إنجلترا تغير انحيازها فتنحاز لجانب آخر أو تشكل ائتلافات جديدة ضد حلفائها السابقين دفاعا عن التوازن . وقد أكسبتها مثابرتها غير العاطفية وإصرارها الأناني لقب ألبيون الخائن (ألبيون معناها إنجلترا بلغة الشعر .) هذا النوع من الدبلوماسية قد لا يكون قد عكس اتجاها ساميا بصفة خاصة غير أنه حافظ على السلام في أوروبا خاصة بعد أن بدأ نظام ميترنيخ يبلى تدريجيا .

كان القرن التاسع عشر ذروة النفوذ البريطاني . فقد كانت بريطانيا العظمي تثق في نفسها وكان لها كل الحق في ذلك . فقد كانت هي الدولة الصناعية الكبرى، وكان الأسطول الملكي يهيمن على البحار . وفي عصر كثرت فيه الاضطرابات الداخلية كانت الحالة الداخلية في بريطانيا هادئة بشكل ملحوظ . وعندما كان الأمر يصل إلى القضايا الكبيرة في القرن التاسع عشر – التدخل أو عدم التدخل ، الدفاع عن الوضع الراهن أو التعاون مع التغيير – فإن القادة البريطانيين رفضوا أن يلتزموا بمبدأ أو عقيدة ما . غير أنه في حرب استقلال اليونان في عشرينيات القرن التاسع عشر (١٨٢٠) تعاطفت بريطانيا العظمي مع استقلال اليونان عن الحكم العثماني مادام ذلك لم يكن يهدد وضعها الاستراتيجي في شرق البحر المتوسط عن طريق زيادة النفوذ الروسي . غير أنه في عام ١٨٤٠ تدخلت بريطانيا العظمى لاحتواء روسيا مؤيدة بذلك الوضع الراهن في الإمبراطورية العثمانية . وفي ثورة المجر عام ١٨٤٨ رحبت بريطانيا العظمي ، رغم سياستها الرسمية بعدم التدخل ، باستعادة روسيا للوضع الراهن . وعندما ثارت إيطاليا ضد حكم آل هابسبورج في خمسينيات القرن التاسع عشر تعاطفت بريطانيا العظمى معها ولكنها كانت «لا تدخلية» أي لم تكن تتبع سياسة التدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى. وللدفاع عن ميزان القوى لم تكن بريطانيا

العظمى تدخلية أو لا تدخلية بشكل قاطع، ولم تكن حصنا للدفاع عن النظام في فيينا، ولم تكن أيضا دولة تنادي بتعديل أية معاهدات أو مواثيق . وكان أسلوبها عمليا قاطعا وافتخر الشعب البريطاني بقدرته على الخوض في طريق مرتبك.

ومع ذلك فإن أية سياسة براجماتية (عملية) وخاصة عندما تكون سياسة براجماتية فعلا يجب أن تقوم على مبدأ ثابت حتى تمنع المهارة التكتيكية من أن تبدد السياسة وتتحول إلى ضرب عشوائي شديد هنا وهناك . وكان المبدأ الثابت لسياسة بريطانيا الخارجية - سواء كان معترفا به أم لا - هو دورها كحامية لميزان القوى والذي كان يعني بصفة عامة تأييد الضعيف ضد القوي . وفي عهد بالمرستون تطور ميزان القوى وأصبح مبدأ ثابتا من مبادئ السياسية البريطانية حتى إنه لم يكن يحتاج إلى أي دفاع نظري ؛ فأي سياسة كانت تتبع في أي لحظة معينة أصبحت توصف حتما بأنها تحمي ميزان القوى . وانضمت المرونة غير العادية إلى عدد من الأهداف العملية الثابتة . فمثلا ، الإصرار على إبقاء البلدان الواطئة بعيدة عن متناول أي دولة من الدول الكبرى لم يتغير بين الوقت الذي حكم فيه ويليام الثالث ووقت نشوب الحرب العالمية الأولى . وفي عام ١٨٧٠ أعاد دزرائيلي Disraeli تأكيد هذا المبدأ :

لقد ظلت دائما حكومة هذا البلد ترى أنه في صالح إنجلترا أن تكون البلدان الواقعة على الساحل الأوروبي الممتد من دنكرك Dunkrik وأوستند Ostend حتى جزر بحر الشمال في حوزة مجتمعات حرة مزدهرة ، تمارس فن الحياة في سلام وتتمتع بحقوق الحرية وتمارس تحقيق الأهداف التجارية التي تعمل على زيادة مدنية الإنسان وينبغي ألا تكون في حوزة دولة عسكرية كبرى ...

كان من مقاييس المدى الذي وصلت إليه عزلة القادة الألمان أنهم دهشوا حقا في عام ١٩١٤ عندما واجهت بريطانيا العظمى غزو ألمانيا لبلجيكا بإعلان الحرب .

وفي القرن التاسع عشر كانت المحافظة على النمسا تعتبر هدفا بريطانيا مهما. وقد حدث في القرن الثامن عشر أن خاض مالبورو Marlboroug ، وكارتريت Carteret وبيت Pitt عدة حروب لكي يحولوا دون فرنسا وإضعاف النمسا . ورغم أن النمسا لم يكن لديها ما يجعلها تخشى من عدوان فرنسي في القرن التاسع عشر فقد ظل البريطانيون يعتبرون النمسا ثقلا مواجها للتوسع الروسي نحو المضايق . وعندما هددت ثورة ١٨٤٨ بأن تتسبب في انحلال النمسا قال بالمرستون :

النمسا تقع في قلب أوروبا ، فهي عائق ضد التعدي على حقوق الآخرين من جانب وضد العدوان من جانب آخر . إن استقلال أوروبا السياسي وحريتها يرتبطان في رأيي بالمحافظة على النمسا وسلامة أراضيها كدولة أوروبية كبرى ؛ ولهذا فإن أي احتمال بعيد أو مباشر من شأنه أن يضعف ويشل النمسا بل الأكثر من ذلك أن يحولها من دولة من الدرجة الأولى إلى

دولة من الدرجة الثانية لا بد أن يكون كارثة كبرى لأوروبا ، كارثة يجب على كل بريطاني أن يستنكرها ويحاول منع وقوعها .

وبعد ثورة ١٨٤٨ أخذت النمسا تضعف بصفة مستمرة وأخذت سياستها تتجه اتجاهات خاطئة مما قلل من فائدتها كعامل رئيسي في السياسة البريطانية في شرق البحر المتوسط.

وكان اهتمام السياسة البريطانية يتركز على منع روسيا من احتلال الدردنيل . وفي المنافسات النمساوية الروسية كانت هناك مخططات روسية بشأن المقاطعات السلافية في النمسا ، والتي لم تكن تهم بريطانيا العظمى في الوقت الذي لم تكن فيه السيطرة على الدردنيل من المصالح النمساوية الحيوية . وبالتالي أصبحت بريطانيا العظمى تعتبر النمسا ثقلا غير مناسب في مواجهة روسيا . وكان هذا هو السبب في أن بريطانيا العظمى تنحت جانبا ولم تتدخل عندما هزمت النمسا على أيدي بيدمونت Piedmont في إيطاليا وعندما هزمتها بروسيا في الصراع على السيادة في ألمانيا، وكانت تلك لا مبالاة من جانب بريطانيا العظمى كان لا يمكن تصورها قبل جيل مضى . وقرب انتهاء القرن كان الخوف من ألمانيا يسيطر على السياسة البريطانية وأصبحت النمسا ، حليفة ألمانيا ، لأول مرة طرفا معاديا في الحسابات البريطانية .

وفي القرن التاسع عشر ، لم يكن هناك من يفكر في أنه من الممكن في يوم ما أن تتحالف بريطانيا العظمى مع روسيا . وكانت روسيا في رأي بالمرستون تتبع نظاما عدوانيا عالميا على جميع الجوانب، وهذه السياسة نابعة من ناحية من طابع شخصية الإمبراطور (نيكولاس) ذاته ومن ناحية أخرى من النظام الدائم للحكومة. وبعد ذلك بخمسة وعشرين عاما ردد هذا الرأي لورد كلاريندون Clarendon الذي قال إن حرب القرم هي معركة المدنية ضد الهمجية.

وقد قضت بريطانيا العظمى الجزء الأكبر من القرن وهي تحاول وقف التوسع الروسي في إيران وامتداده إلى مداخل القسطنطينية والهند . واستغرق ذلك عقودا استفحلت فيها النزعة الحربية في ألمانيا وكذلك تبلدت المشاعر من جانبها فتحول اهتمام بريطانيا الرئيسي بالأمن إلى ألمانيا ، وهو الأمر الذي لم يحدث إلا أخيرا .

لقد تغيرت الحكومات البريطانية بمعدل أكبر من تغير حكومات ما سمي بالدول الشرقية. ولم يحدث أن ظل واحد من كبار الشخصيات السياسية –بالمرستون وجلادستون ودزرائيلي– في منصبه بصفة مستمرة وبدون انقطاع مثل ميترنيخ ، ونيكولاس الأول وبسمارك . ومع ذلك فقد ظلت بريطانيا العظمى تحتفظ بخاصية الثبات على المبدأ وتماسك الهدف بصورة غير عادية ، فكانت بمجرد أن تسير في طريق معين ، تواصل السير فيه بتشبث

لا يلين ، الأمر الذي مكنها من أن تمارس نفوذها بشكل حاسم لصالح الهدوء في أوروبا .

و أحد الأسباب التي أدت ببريطانيا إلى اتباع فكر واحد في أوقات الأزمات ، هو الطابع النيابي لمؤسساتها السياسية . فقد لعب الرأي العام البريطاني منذ عام ١٧٠٠ دورا مهما في توجيه السياسة الخارجية البريطانية . ولم يكن لدى أي بلد آخر في أوروبا في القرن الثامن عشر وجهة نظر معارضة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد كانت هذه المعارضة متأصلة في النظام البريطاني . وفي القرن الثامن عشر كان حزب المحافظين ،كقاعدة ، هو الذي يعبر عن سياسية الملك الخارجية ، وهي السياسة التي كانت تميل إلى التدخل في المنازعات في أوروبا ؛ أما أعضاء حزب الأحرار من أمثال سير روبرت والبول Robert Walpole فكانوا يفضلون الابتعاد عن مشاجرات أوروبا وسعوا إلى زيادة التركيز على التوسع فيما وراء البحار . وبحلول القرن التاسع عشر تحول موقفهم إلى الاتجاه المضاد . فالأحرار مثل بالمرستون كانوا يمثلون سياسة الفعالية (سياسة تؤكد على ضرورة اتخاذ الإجراءات الفعالة أو العنيفة كاستعمال القوة لتحقيق الأغراض السياسية) بينما المحافظون مثل ديربى Derby وسالسبوري Salisbury كانوا يحرصون على التزام الحذر إزاء التورط الخارجي . أما الراديكاليون (النزاعون إلى إحداث تغييرات متطرفة في الأفكار والعادات السائدة أو في الأحوال والمؤسسات القائمة) من أمثال ريشارد جوبدن Richard Gobden فقد تحالفوا مع المحافظين في المطالبة باتباع سياسة عدم التدخل .

ولأن السياسة الخارجية البريطانية انبثقت من المناقشات الصريحة فإن الشعب البريطاني أظهر وحدة غير عادية بين أفراده في أوقات الحرب . ومن ناحية أخرى فإن طابع السياسة الخارجية هذا جعل من الممكن – غير أنه من غير المعتاد إلى حد كبير – للسياسة الخارجية أن تنقلب إلى عكسها عندما يتغير وزير الخارجية ويحل محله وزير آخر. فعلى سبيل المثال ، انتهى فجأة تأييد بريطانيا العظمي لتركيا في سبعينيات القرن التاسع عشر ١٨٧٠ عندما هزم جلادستون – الذي كان يعتبر أن الأتراك يستحقون اللوم أخلاقيا – دزرائيلى في انتخابات عام ١٨٨٠ .

وفي جميع الأوقات كانت إنجلترا تعتبر أن مؤسساتها النيابية مؤسسات فريدة في حد ذاتها . وكانت دائما تبرر سياساتها في أوروبا بأنها سياسات لتحقيق المصالح القومية البريطانية وليست سياسات لتدعيم عقائد معينة . فكلما أبدت بريطانيا العظمى تعاطفها مع ثورة ما ،كما فعلت مع إيطاليا عام ١٨٤٨ ، فقد كانت تفعل ذلك على أسس عملية بشكل واضح . وهكذا اقتبس بالمرستون عن كانينج Canning مقولته البراجماتية المأثورة عندما قال: إن أولئك الذين أوقفوا التقدم لأنهم يرون أنه بدعة سوف يضطرون في يوم أو آخر إلى قبول البدعة ، عندما تصبح بمرور الوقت أمرا عاديا وليس تقدما. غير أن تلك كانت نصيحة قائمة على تجربة وليست دعوة لنشر القيم أو نمط المؤسسات البريطانية . وخلال القرن

التاسع عشر كانت بريطانيا العظمى تصدر حكمها على غيرها من الدول من منطلق السياسة الخارجية لتلك الدول ،وظلت –فيما عدا الفترة التي تولي فيها جلادستون الشئون الخارجية – لا تبالي بشكل الهياكل الداخلية لتلك الدول .

ورغم أن بريطانيا العظمي وأمريكا اشتركتا في البعد عن التورط اليومي في الشئون الدولية فإن بريطانيا العظمي بررت صورتها الانعزالية الخاصة بأنها تقوم على أسس مختلفة تماما عن غيرها . وقالت أمريكا أن مؤسساتها الديمقراطية تعتبر مثالا ينبغي أن يحتذي به في العالم أجمع ؛ أما بريطانيا فقد كانت ترى أن مؤسساتها البرلمانية ليس فيها ما له أهمية للمجتمعات الأخرى . وأصبحت أمريكا تعتقد أن انتشار الديمقراطية سوف يضمن تحقيق السلام بل إن السلام الدائم لا يمكن أن يتحقق بطريقة أخرى . وربما كانت بريطانيا العظمي تفضل هيكلا داخليا من نوع معين ولكنها لن تخاطر بأي شيء من أجله .

وفي عام ١٨٤٨ قلل بالمرستون من أهمية مخاوف بريطانيا التاريخية من الإطاحة بالملكية في فرنسا ومن احتمال ظهور بونابرت جديد بأن وضع القاعدة العملية التالية في فن إدارة شئون الدولة وهى :«إن المبدأ الذي لا يتغير الذي تتصرف إنجلترا بموجبه هو التسليم بأن الأداة التي تستخدمها كل أمة هي الأداة التي قد تختارها هذه الأمة بشكل مدروس.

كان بالمرستون هو الواضع الرئيسي لسياسة بريطانيا الخارجية طيلة ما يقرب من ثلاثين عاما . وفي عام ١٨٤١ حلل ميترنيخ أسلوبه البراجماتي (العملي) بإعجاب مشوب بالسخرية عندما قال :

...ما الذي يريده إذن لورد بالمرستون ؟ إنه يريد أن يجعل فرنسا تشعر بقوة إنجلترا وذلك بأن يثبت لها أن المسألة المصرية سوف تنتهي كما يريد هو ودون أن يكون لفرنسا أي حق في المشاركة فيها . إنه يريد أن يثبت للدولتين الألمانيتين انه لا يحتاجهما في شيء ، وأن مساعدة روسيا لإنجلترا كافية لها . إنه يريد أن يكبح جماح روسيا ويسحبها وراءه بسبب قلقها الدائم من أن ترى إنجلترا تقترب من فرنسا مرة أخرى.

لم يكن هذا وصفا غير دقيق لما فهمته بريطانيا عن ميزان القوى . ففي النهاية تمكنت بريطانيا العظمى بحساب ميزان القوى من عبور القرن بحرب قصيرة نسبيا مع دولة كبرى أخرى.. «حرب القرم».

ورغم أن نشوب حرب القرم كان بعيدا عن مقصد أي شخص عندما بدأت إلا أنها كانت هي على وجه التحديد التي أدت إلى انهيار نظام ميترنيخ الذي وضع بشق الأنفس في مؤتمر فيينا . وقد أزال تفكك الوحدة بين ملوك الشرق الثلاثة عامل الاعتدال الأخلاقي من الدبلوماسية الأوروبية . وقد أعقبت ذلك خمسة عشر عاما من الاضطرابات قبل أن يظهر استقرار جديد يحمل في طياته عدم الأمان بشكل خطير .



■ نابليون الثالث



■ أوتو فون بسمارك

الفصل الخامس

اثنان من الثوار
نابليون الثالث وبسمارك

أسفر انهيار نظام ميترنيخ في أعقاب حرب القرم، عن عقدين من الصراع: حرب بييدمونت وفرنسا ضد النمسا في عام ١٨٥٩، والحرب حول شليسفيج – هولشتين Schleswig-Holstein عام ١٨٦٤ والحرب بين النمسا وبروسيا عام ١٨٦٦ ، والحرب بين فرنسا وبروسيا عام ١٨٧٠. ومن هذا الاضطراب ظهر ميزان جديد للقوى في أوروبا . وقد خسرت فرنسا – التي اشتركت في ثلاث من تلك الحروب وشجعت على نشوب الحروب الأخرى – موقف السيادة الذي كانت تتمتع به وفازت به ألمانيا . والأهم من ذلك أن القيود الأخلاقية لنظام ميترنيخ اختفت . وقد تميز هذا التغيير العنيف باستخدام اصطلاح جديد لسياسة ميزان القوى غير المقيدة : فقد حلت العبارة الألمانية Realpolitic (السياسة الواقعية) محل العبارة الفرنسية Raison detat (مصلحة الدولة العليا) دون أن يتغير المعنى بأي شكل.

وكان ظهور النظام الأوروبي الجديد نتيجة للعمل الشخصي لاثنين كان من غير المحتمل أن يتعاونا معا وأصبحا في النهاية عدوين لدودين – وهذان هما الإمبراطور نابليون الثالث وأوتو فون بسمارك .Otto von Bismarck لقد تجاهل الرجلان إخلاص ميترنيخ القديم للدين والأخلاقيات وقالا : ينبغي لصالح الاستقرار المحافظة على الرؤوس الشرعية المتوجة لدول أوروبا كما ينبغي وضع حد بالقوة للحركات القومية والحركات التحررية، وكذلك ينبغي قبل كل شيء أن تحدد العلاقات بين الدول بإجماع الرأي بين الحكام ذوى وجهات النظر المتشابهة . وقد وضع هذان الرجلان سياستهما استنادا إلى السياسة الواقعية تلك الفكرة القائلة أن العلاقات بين الدول يجب أن تتقرر على أساس القوة المجردة وأن الأقوى هو الذي يسود .

نابليون الثالث ابن أخ بونابرت الكبير الذي عمل على خراب أوروبا ،كان في شبابه عضوا في الجمعيات الإيطالية السرية التي كانت تحارب السيطرة النمساوية في إيطاليا . وقد انتخب نابليون الثالث رئيسا عام ١٨٤٨ نتيجة لانقلاب وأعلن نفسه إمبراطورا في عام

١٨٥٢ . وأوتو فون بسمارك سليل أسرة بروسية عريقة ومعارضا متحمسا للثورة التحررية في بروسيا عام ١٨٦٢. وأصبح بسمارك رئيسا للوزراء في عام ١٨٦٢ ذلك لأن الملك المتردد لم ير طريقا آخر للتغلب على إخفاق البرلمان ، المنقسم على نفسه ، في الوصول إلى اتفاق حول الاعتمادات المالية الحربية.

وفيما بينهما تمكن نابليون الثالث وبسمارك من التخلص من تسوية فيينا بل والأهم ، التخلص من الإحساس بالقيود علي النفس التي فرضها الإيمان المشترك بالقيم المحافظة. ولا يمكن تصور شخصين مختلفين في الطباع والشخصية مثل نابليون الثالث وبسمارك . كان أحدهما المستشار الحديدي والثاني أبو الهول في تويليري ـ Tuilerie كما سميا ما في ذلك الوقت– متفقين في كراهيتهما لنظام فيينا . فكلاهما كان يشعر أن النظام الذي وضعه ميترنيخ في فيينا عام ١٨١٥ كان مثل طائر القطرس (طائر بحري كبير). فكان نابليون الثالث يكره نظام فيينا لأنه صمم عمدا لاحتواء فرنسا . ورغم أن نابليون الثالث لم تكن لديه أطماع مشوبة بجنون العظمة مثل عمه ، فقد شعر هذا القائد الغامض أن فرنسا كان لها الحق أحيانا في الحصول على مكاسب إقليمية وكان لا يريد أن تقف أوروبا الموحدة في طريقه ، وقد اعتقد علاوة على ذلك أن النزعة القومية والنزعة التحررية قيم ارتبطت في ذهن العالم بفرنسا، وأن نظام فيينا بكبته تلك النزعات يضع قيدا حول طموحاته . وقد استاء بسمارك مما فعله ميترنيخ بنفسه بتوصله إلى تسوية فيينا لأنها جعلت بروسيا مقيدة بأن تكون شريكا صغيرا للنمسا في الاتحاد الكونفيدرالي الألماني ، وكان مقتنعا أن الاتحاد حافظ على عدد كبير من صغار الملوك الألمان إلى حد أنه وضع قيدا على بروسيا . ولو كانت بروسيا ستحقق المقدر لها وتوحد ألمانيا لكان لا بد من القضاء على نظام فيينا .

ورغم أن الرجلين الثوريين اشتركا معا في احتقار النظام القائم فقد انتهيا عند مواقف متعارضة تماما من حيث انجازاتهما . فقد حقق نابليون عكس ما بدأ إنجازه . وتخيل أنه الشخص الذي سيقضي على تسوية فيينا وأنه ملهم القومية الأوروبية ، ووصل بالدبلوماسية الأوروبية إلى حالة من الاضطراب لم تستفد فرنسا منها شيئا واستفادت منها دول أخرى . وسهل نابليون عملية توحيد إيطاليا وأغرى بدون قصد منه على توحيد ألمانيا ، وهاتان الواقعتان أضعفتا فرنسا من ناحية الجغرافيا السياسية ودمرتا الأساس التاريخي للنفوذ الفرنسي المسيطر على أوروبا الوسطى . ولو أرادت فرنسا مقاومة أي منهما لما كان ذلك في إمكانها ومع ذلك فإن سياسة نابليون الشاذة ساعدت كثيرا على التعجيل بالعملية وعملت في الوقت نفسه على تبديد قدرة فرنسا على تشكيل النظام الدولي الجديد بحيث يخدم مصالحها طويلة الأجل . وقد حاول نابليون تدمير نظام فيينا لأنه كان يعتقد أن هذا النظام عمل على عزل فرنسا – وهو ما كان صحيحا إلى حد ما – غير أنه في الوقت الذي أفل فيه حكمه عام ١٨٧٠ كانت فرنسا معزولة أكثر مما كانت في عهد ميترنيخ .

وكانت التركة التي خلفها بسمارك عكس ذلك تماما . فقليل من القادة السياسيين استطاعوا أن يغيروا منحى التاريخ كما غيره بسمارك ، فقبل أن يتولى منصبه ، كان المتوقع أن تتحقق الوحدة الألمانية عن طريق ذلك النوع من الحكومة النيابية الدستورية الأمر الذي كان هدف ثورة عام ١٨٤٨ . وبعد ذلك بخمس سنوات كان بسمارك في طريقه لحل مشكلة توحيد ألمانيا التي حيرت فكر ثلاثة أجيال من الألمان ، ولكنه فعل ذلك على أساس تفوق القوة البروسية وليس من خلال عملية نظام الحكم الدستورى الديموقراطي أو الحكم وفقا لها . ولم يكن هناك أي جمهور له أهميته أيد الذي اقترحه بسمارك . وكانت ألمانيا الجديدة ديمقراطية إلى حد كبير لا تلقى قبول ذوى الاتجاهات المحافظة ، وكانت على درجة كبيرة من الفاشستية لا تلقى قبول الأحرار وكانت موجهة نحو ممارسة القوة بشكل لا يلقي قبول المناصرين للسلطة الشرعية . وقد تشكلت ألمانيا الجديدة وفقا لتصميم عبقري اقترح توجيه القوى الخارجية والداخلية التي أطلقها من عقالها عن طريق استغلال العداوة بينها – وهو عمل برع فيه غير أنه ثبت أنه بعيد عن مقدرة خلفائه.

وفي حياته كان يطلق علي نابليون الثالث اسم أبو الهول تويليرى Sphinx of the Tueleries لأنه كان يعتقد أنه كان يدبر مؤامرات ذكية لا يستطيع أحد أن يدرك كنهها إلا بعد أن تتكشف بالتدريج . وقد اعتبر أنه شخص بالغ الذكاء بشكل مبهم لأنه أنهى عزلة فرنسا الدبلوماسية في ظل نظام فيينا ولأنه بدأ التحرك نحو هدم الحلف المقدس عن طريق حرب القرم . ولم يكن هناك سوى زعيم أوروبي واحد هو الذي أدرك سر شخصيته منذ البداية وهو أوتو فون بسمارك . وفي خمسينيات القرن التاسع عشر ١٨٥٠ كان وصفه الساخر له كما يلي : لقد بولغ في تقدير ذكائه علي حساب نزعته العاطفية . بمعنى أن عاطفته أكبر من ذكائه .

ونابليون مثله مثل عمه ، استبدت به فكرة افتقاره إلى اعتماده شرعيا أو بمعني آخر إلى أوراق الاعتماد الشرعية من الملوك الآخرين . فرغم أنه كان يعتبر نفسه ثوريا إلا أنه كان يتوق إلى أن يحوز قبول الملوك الشرعيين في أوروبا ، وبالطبع لو أن الحلف المقدس كان قد حافظ على ما آمن به أصلا لحاول الإطاحة بالمؤسسات الجمهورية التي حلت محل الحكم الملكي الفرنسي في عام ١٨٤٨. وكانت التجاوزات الدموية للثورة الفرنسية ما زالت ذكرى حية ولكن كانت كذلك ذكرى التدخل الأجنبي في فرنسا الذي تسبب في أن أطلق عنان جيوش الثورة الفرنسية على الأمم الأوروبية في عام ١٧٩٢ . وفي الوقت نفسه فإن خوفا مماثلا من التدخل الأجنبي جعل فرنسا الجمهورية تحتقر تصدير ثورتها . ومن مأزق الخوف هذا ، أقنعت الدول المحافظة نفسها بأن تعترف على مضض بفرنسا الجمهورية التي حكمها في البداية الشاعر ورجل الدولة ألفونس ديلا مارتين Alphonse de Lamartine ثم بعد ذلك نابليون كرئيس منتخب وأخيرا نابليون الثالث كإمبراطور في عام ١٨٥٢ وذلك بعد الانقلاب الذي قام به في شهر ديسمبر السابق لكي يتخلص نهائيا من القوانين الدستورية التي حظرت

إعادة انتخابه .

ولم يكد نابليون الثالث يعلن الإمبراطورية الثانية حتى ظهرت مرة أخرى مسألة الاعتراف به شرعيا . وفي هذه المرة كان الموضوع هو هل يعترف بنابليون إمبراطورا رغم أن تسوية فيينا أبعدت بالتحديد أسرة بونابرت عن العرش الفرنسي . وكانت النمسا هي أول من قبل ما لا يمكن تغييره . وقد أشار سفير النمسا في باريس البارون هبنر Baron Hubner إلى تعليق ساخر عن هذا الموضوع صدر عن رئيسه الأمير شوارزنبرج chwarzenberg ٣١ ديسمبر ١٨٥١ مؤكدا فيه انتهاء عهد ميترنيخ قال فيه : إن أيام المبادئ قد ولت.

وكان مصدر القلق الكبير التالي لنابليون هو ما إذا كان الملوك الآخرون سيخاطبونه بلقب الأخ كما كانوا يخاطبون بعضهم بعضا ، أم سيخاطبونه بصورة أدنى . وفي النهاية رضخ ملكا النمسا وبروسيا لما كان يفضله نابليون ، رغم أن القيصر نيكولاس ظل عنيدا ورفض ألا يخاطبه بأكثر من كلمة الصديق. ونظرا لآراء القيصر في الثوار فلا شك أنه شعر أنه كافأ نابليون بأكثر مما يستحقه . وقد أعرب هوبنر عن استياء المشاعر فيما كتبه تحت اسم التويليريات:

إن المرء لديه إحساس بأنه أصبح خاضعا للبلاط القديم في أوروبا . وتلك هي الدودة التي تأكل قلب الإمبراطور نابليون .

وسواء كان رفض الاعتراف شرعيا بنابليون حقيقيا أم خياليا فهو يبين الفجوة القائمة بين نابليون وملوك أوروبا الآخرين ، والتي كانت أحد الأسباب النفسية العميقة للهجوم المتهور المستمر الذي شنه نابليون على الدبلوماسية الأوروبية .

ومن مظاهر السخرية في حياة نابليون أنه كان يصلح للسياسة الداخلية التي أضجرته أساسا بقدر أكبر من صلاحيته للقيام بالمغامرات الخارجية التي كان يفتقر فيها إلى الجرأة ونفاذ البصيرة . وعندما التقط نابليون أنفاسه من مهمته الثورية التي حددها لنفسه أسهم إسهامات كبيرة في تطور فرنسا . فقد جلب الثورة الصناعية إلى فرنسا . وكان لتشجيعه لمؤسسات الائتمان الكبيرة دور كبير في تطور فرنسا الاقتصادي . وقد أعاد نابليون بناء باريس فحولها إلى تلك المدينة ذات المظهر الرائع الحديث. فقد كانت باريس في بداية القرن التاسع عشر مدينة تنتمي إلى العصور الوسطى بشوارع ضيقة ملتوية . وقد زود نابليون مستشاره الحميم بارون هاوسمان Baron Haussman بالسلطة والميزانية اللازمتين لإعادة بناء المدينة الحديثة بميادين واسعة ومبان حكومية ضخمة .

ولكن السياسة الخارجية كانت هوى نابليون الأول وهنا وجد نفسه ممزقا بانفعالات متضاربة . فقد أدرك من ناحية أنه لن يستطيع أبدا أن يحقق مطالبه المتعلقة بالشرعية لأن شرعية الملك هي حق المولد الذي لا يمكن أن يمنح . ومن ناحية أخرى فإنه لم يكن يريد أن

يذكر في التاريخ على أنه الملك الذي طالب بشرعية العرش . لقد كان كاربونارى إيطالياً (الكاربوناري هو المقاتل من أجل الاستقلال) واعتبر نفسه مدافعا عن حق تقرير المصير الوطني . وفي الوقت نفسه كان ينفر من القيام بمخاطرات كبيرة . وكان هدف نابليون في النهاية هو إلغاء البنود الخاصة بالحدود في تسوية فيينا وتغيير نظام الدولة الذي قام بناء عليها. غير أنه لم يدرك أبدا أن تحقيق هذا الهدف سوف يسفر أيضا عن توحيد ألمانيا، الأمر الذي سيقضي إلى الأبد على الآمال الفرنسية بالسيطرة على أوروبا الوسطى.

وكانت طبيعة سياسته الشاذة هذه انعكاسا لشخصيته الغامضة . ولما كان عديم الثقة بأشقائه الملوك اضطر نابليون إلى الاعتماد على الرأي العام وتأرجحت سياسته حسب تقديره لما يحتاجه لتدعيم شعبيته . وفي عام ١٨٥٧ كتب البارون هوبنر لإمبراطور النمسا يقول :

في رأيه (نابليون) أن السياسة الخارجية ليست سوى أداة يستخدمها لتأمين حكمه في فرنسا ولإضفاء الشرعية على عرشه وليؤسس أسرته الحاكمة .. . إنه لن يتخلى عن أية وسيلة وعن أي تحالف أو اتحاد يكون مناسبا لجعله محبوبا في بلده.

وفي أثناء ذلك جعل نابليون من نفسه سجينا لأزمات خلقها بنفسه لأنه كان يفتقر إلى البوصلة الداخلية التي تجعله سائرا في الطريق الصحيح . وكثيرا ما شجع نشوب الأزمات مرة في إيطاليا وأخري في بولندا وثالثة فيما بعد في ألمانيا – ثم يتراجع قبل عواقبها النهائية . لقد أوتي طموح عمه ولكنه لم يؤت جرأته ، أو عبقريته أو فيما يتعلق بذلك قوته العدوانية . لقد أيد النزعة القومية الإيطالية مادامت مقتصرة على شمال إيطاليا ، وأيد استقلال بولندا مادام لا ينطوي على أية مخاطرة بالحرب .أما بالنسبة لألمانيا فإنه ببساطة لم يعرف إلى أي جانب يضع رهانه ، ولما كان قد توقع استمرار النزاع بين النمسا وبروسيا فقد جعل من نفسه أضحوكة عندما طلب من بروسيا المنتصرة أن تعوضه بعد أن انتهت الأحداث عن عدم قدرته على رؤية المنتصر .

وكان أكثر ما ناسب أسلوب نابليون هو عقد مؤتمر أوروبي لإعادة رسم خريطة أوروبا ، لأنه في هذا المؤتمر قد يتألق بأقل قدر من الخطورة . ولم تكن حتى لدى نابليون أية فكرة واضحة عن الحدود التي يريد تغييرها في أوروبا . وعلى أية حال فلم تكن هناك أية دولة كبرى على استعداد لتنظيم مثل هذا المنبر لتلبية ما يناسب احتياجات نابليون الداخلية . وليست هناك دولة توافق على إعادة رسم حدودها – خاصة إذا لم يكن ذلك في صالحها – إلا إذا كانت هناك ضرورة ملحة لذلك . وكما اتضح فيما بعد فإن المؤتمر الوحيد الذي رأسه نابليون كان مؤتمر باريس الذي أنهى حرب القرم ، ولكنه لم يعد رسم خريطة أوروبا ولم يفعل أكثر من مجرد التصديق على ما أنجز في الحرب . وقد منعت روسيا من أن يكون لها أسطول في البحر الأسود وبذلك حرمت من القدرة الدفاعية لصد عدوان بريطاني آخر، وأرغمت

روسيا أيضا على أن تعيد إلى تركيا بيسارابيا Bessarabia وإقليم كارس Kars على الساحل الشرقي للبحر الأسود . وبالإضافة إلى ذلك أرغم القيصر على التخلي عن مطلبه بأن يكون حامي المسيحيين العثمانيين ، الأمر الذي كان سببا مباشرا للحرب . وقد كان مؤتمر باريس رمزا لانهيار الحلف المقدس،ولكن لم يكن هناك أحد ممن شاركوا في المؤتمر على استعداد للقيام بمهمة إعادة رسم الخريطة الأوروبية .

ولم ينجح نابليون أبدا في عقد مؤتمر آخر لإعادة رسم خريطة أوروبا ، وذلك لسبب رئيسي واحد وهو ما أوضحه له السفير البريطاني لورد كلاريندون Lord Clarindon عندما قال : إن بلدا يحاول إجراء تغييرات كبيرة ويفتقر إلى الاستعداد لتحمل مخاطر كبيرة ، لا بد أن يلقي بنفسه في طريق العبث.

إني أرى أن فكرة عقد مؤتمر أوروبي بدأت تتبلور في ذهن الإمبراطور ومعها فكرة التوسع في الحدود الفرنسية ، وإلغاء المعاهدات القديمة وغير ذلك من التعديلات الضرورية . لقد وضعت تلقائيا قائمة طويلة للأخطار والصعوبات التي سيتسبب فيها هذا المؤتمر كنتيجة طبيعية ، إلا إذا كانت قراراته إجماعية وهو أمر غير محتمل أو إذا كانت دولة واحدة أو دولتين من أقوى الدول ستخوضان الحرب لتحقيق ما تريدان .

وفي إحدى المناسبات لخص بالمرستون سياسة نابليون في إدارة شئون الدولة فقال: إن الأفكار تتكاثر في ذهنه مثل تكاثر الأرانب في زريبة. والمشكلة هي أن تلك الأفكار لم تكن لها صلة بأي مفهوم رئيسي مهم . وفي أثناء الفوضى التي صاحبت انهيار نظام ميترنيخ كان أمام فرنسا اختياران استراتيجيان . فكان يمكنها أن تواصل انتهاج سياسة ريشيليو وتسعى إلى إبقاء أوروبا الوسطى مقسمة . وكان هذا الاختيار سيتطلب من نابليون أن يخضع معتقداته الثورية على الأقل في ألمانيا لصالح الحكام الشرعيين الموجودين الذين كانوا يتوقون إلى الإبقاء على أوروبا الوسطى مجزأة . أو كان يمكن لنابليون أن يضع نفسه على رأس حملة صليبية جمهورية –كما فعل عمه– توقعا أن تكسب فرنسا بذلك شكر وامتنان القوميين وربما حتى الزعامة السياسية لأوروبا .

ومن سوء حظ فرنسا أن نابليون اتبع الاستراتيجيتين كلتيهما في وقت واحد . ولما كان مناصرا لحق تقرير المصير الوطني فقدكان غافلا علي ما يبدو عن المخاطر الجغرافية السياسية (الجيوبوليتيكية) الذي يشكله هذا الوضع لفرنسا في أوروبا الوسطي . وقد أيد الثورة البولندية ولكنه تراجع عندما ووجه بنتائجها . وعارض تسوية فيينا إذ رآها إهانة لفرنسا ، دون أن يفهم ،حتى فات الأوان ، أن نظام فيينا العالمي كان أفضل ضمان للأمن عموما ولفرنسا كذلك .

كان الاتحاد الكونفيدرالي الألماني (اتحاد الولايات الألمانية) مصمما لكي يكون بمثابة

مجموعة متكاملة من الولايات لمواجهة أي خطر خارجي ساحق . وكان محرما على ولاياته تحريما قاطعا أن تنضم معا لأغراض عدوانية . وكانت تلك الولايات لا تستطيع الاتفاق فيما بينها على استراتيجية هجومية – كما اتضح من واقع ما حدث من أن أحدا لم يقترب من هذا الموضوع طيلة نصف القرن الذي وجد فيه هذا الاتحاد . وحدود فرنسا عند الراين التي كان لا يمكن اختراقها مادامت تسوية فيينا قائمة ، لم يثبت أنها كانت آمنة طيلة قرن بعد انهيار الاتحاد الكونفيدرالي الذي ساعدت عليه سياسة نابليون .

ولم يتمكن نابليون إطلاقا من فهم هذا العنصر المهم في الأمن الفرنسي . وقرب نشوب الحرب بين النمسا وبروسيا عام ١٨٦٦ – النزاع الذي قضي على الاتحاد الكونفيدرالي –

كتب إلى إمبراطور النمسا يقول :

لابد أن أعترف أني شاهدت بقدر من الرضا انهيار الاتحاد الكونفيدرالي الذي نظم أساسا ضد فرنسا.

وكان رد آل هابسبورج أكثر عمقا : لم يحدث أن كان الاتحاد الكونفيدرالي الذي أقيم بدوافع دفاعية محضة منذ وجوده سببا في ازعاج جيرانه.

ولم يكن البديل للاتحاد هو أوروبا الوسطي المقسمة التي كان يفضلها ريشيليو، بل ألمانيا إذا توحدت بتعداد سكانها الذي يفوق تعداد سكان فرنسا وقدرة صناعية سرعان ما تتفوق على قدرة فرنسا . وبمهاجمته تسوية فيينا كان نابليون يحول عقبة دفاعية إلى تهديد عدواني ممكن للأمن الفرنسي .

والاختبار الحقيقي للقائد السياسي هو قدرته على أن يميز من بين دوامة القرارات التكتيكية، تلك القرارات التي تخدم مصالح بلده الحقيقية في الأمد الطويل، ويجد الاستراتيجية المناسبة لتحقيق تلك المصالح .

وكان لنابليون أن ينعم بالتصفيق الذي قوبلت به تكتيكاته الذكية أثناء حرب القرم (التي ساعدها قصور نظر النمسا) وبزيادة الخيارات الدبلوماسية التي فتحت أبوابها أمامه.وكان يمكن لمصالح فرنسا أن تظل قريبة من النمسا وبريطانيا العظمى الدولتان المرجح بالأكثر أن تتحملا التسوية الإقليمية لأوروبا الوسطى . وقد كانت سياسة الإمبراطور على أي حال سياسة خاصة تدفعها طبيعته الزئبقية . وبوصفه بونابارت وبما له من مزاج خاص فلم يكن يرتاح أبدا للتعاون مع النمسا ، مهما كانت الأمور التي تمليها مصلحة الدولة العليا . ففي عام ١٨٥٨ قال نابليون لدبلوماسي من بييدمونت : لقد شعرت نحو حكومة النمسا وسوف أشعر نحوها دائما بالاشمئزاز . وقد دفعه ولعه بالمشروعات الثورية إلى دخول الحرب مع النمسا حول إيطاليا في عام ١٨٥٩ . وقد تمكن نابليون من عزل بريطانيا العظمى بضمه

سافوي ونيس في أعقاب الحرب وكذلك باقتراحاته المتكررة بعقد مؤتمر أوروبي لإعادة رسم حدود أوروبا . ولكي يتمم عزلته ضحى نابليون بخيار ضم فرنسا في تحالف مع روسيا بمساندته الثورة البولندية عام ١٨٦٣. وبتحويله الدبلوماسية الأوروبية إلى حالة من التغير الدائم تحت شعار تقرير المصير الوطني ، وجد نابليون فجأة نفسه وحيدا ، عندما ظهرت من خلال الاضطراب الذي ساعد كثيرا على حدوثها ، أمة ألمانية كانت نذيرا بنهاية الهيمنة الفرنسية على أوروبا .

وقد قام الإمبراطور بأول تحركاته في إيطاليا بعد حرب القرم في عام ١٨٥٩ بعد ثلاث سنوات من انعقاد مؤتمر باريس . ولم يتوقع أحد أن يعود نابليون إلى ممارسة مهنة شبابه بالسعي إلى تحرير شمال إيطاليا من حكم النمسا . ولم تكن فرنسا لتستفيد كثيرا من مثل تلك المغامرة . فلو نجحت فسوف تخلق دولة في موقف أقوى لسد طريق الغزو الفرنسي التقليدي، ولو فشلت فسوف تتضاعف المهانة بسبب غموض الهدف . وسواء نجحت أم فشلت فإن وجود الجيوش الفرنسية في إيطاليا من شأنه أن يزعج أوروبا .

ولهذه الأسباب جميعا كان السفير البريطاني لورد هنري كولي Lord Henry Cowley مقتنعا بأن نشوب حرب فرنسية في إيطاليا أمر بعيد الاحتمال . ليس من مصلحته أن يشن حرباً و يتورط في حرب، وقال هوبنر نقلا عن كولي إن التحالف مع إنجلترا رغم أنه اهتز لحظة وما زال ساكنا ، ما زال هو أساس سياسة نابليون الثالث . وبعد ذلك بثلاثة عقود قال هوبنر في تأملات له :

إننا لا نكاد نفهم كيف يمكن لهذا الرجل بعد أن وصل إلى ذروة المجد ،أن يفكر جديا بدون دافع مفهوم في القيام بمغامرة أخري إلا إذا كان مجنونا أو مصابا بجنون المقامرين.

ولكن نابليون أثار دهشة الدبلوماسيين جميعا باستثناء خصمه اللدود بسمارك الذي تنبأ بنشوب حرب فرنسية ضد النمسا وكان يأمل في الواقع أن تنشب تلك الحرب كوسيلة لإضعاف موقف النمسا في ألمانيا .

وفي شهر يوليو ١٨٥٨ عقد نابليون تفاهما سريا مع كاميلو بنسيو دي كافور Camilo Bensio di Cavour رئيس وزراء بييدمونت (سردينيا حاليا) أقوى ولاية إيطالية للتعاون في شن حرب ضد النمسا . وكانت هذه حركة مكيافيلية تماما يستطيع بها كافور أن يوحد شمال إيطاليا ويحصل نابليون على نيس وسافوى من بييدمونت. وفي شهر مايو ١٨٥٩ وجد مبرر مناسب لذلك ، فقد سمحت النمسا التي كانت تفتقر دائما إلى هدوء الأعصاب لنفسها أن تثيرها مضايقات بييدمونت إلى درجة أن أعلنت الحرب . وأعلن نابليون أن هذا يعتبر بمثابة إعلان حرب ضد فرنسا ودفع بجيوشه إلى إيطاليا .

والغريب في أيام نابليون أن الفرنسيين عندما كانوا يتكلمون عن اندماج الدول القومية

على أنه موجة المستقبل ، كانت في ذهنهم أساسا إيطاليا وليست ألمانيا الأقوى بكثير . فقد كان للفرنسيين تعاطف وألفة ثقافية مع إيطاليا وهو ما كان مفتقدا مع جارتهم الشرقية المشئومة . وبالإضافة إلى ذلك فإن الازدهار الاقتصادي القوي الذي نقل ألمانيا إلى مقدمة الدول الأوروبية كان قد بدأ توا . وعليه فلم يكن واضحا بعد أن إيطاليا سوف تكون أقل قوة بأي شكل من ألمانيا . وقد أدى حذر بروسيا أثناء حرب القرم إلى تعزيز وجهة نظر نابليون بأن بروسيا هي أضعف الدول الكبرى وغير قادرة على اتخاذ إجراءات قوية بدون مساندة من روسيا .وبالتالي فقد كان نابليون يرى أن حربا إيطالية تضعف النمسا سوف يكون من شأنها أن تقلل من قوة ألمانيا أخطر غريم لفرنسا وتزيد أهمية فرنسا في إيطاليا – وهذا حكم سيئ التقدير كبير في كلتا الحالتين.

وقد أبقي نابليون على اختيارين متعارضين مفتوحين أمامه . ففي أحسن الحالات كان يمكن لنابليون أن يقوم بدور القائد السياسي الأوروبي : فسوف تتخلص شمال إيطاليا من نير النمسا ، وتجتمع الدول الأوروبية في مؤتمر تحت رعاية نابليون وتوافق على إعادة النظر في الحدود الإقليمية على نطاق واسع الأمر الذي لم يتمكن نابليون من تحقيقه في مؤتمر باريس . وفي أسوأ الحالات ستصل الحرب إلى مأزق وسوف يقوم نابليون بدور المتلاعب المكيافيللي بسياسة مصلحة الدولة العليا وسيحصل على بعض الميزات من النمسا علي حساب بييدمونت في مقابل إنهاء الحرب .

وقد سعي نابليون لتحقيق الهدفين في وقت واحد . فقد انتصرت القوات الفرنسية في ماجينتا Magenta وسولفيرينو Solferino ولكنها تسببت في إطلاق موجة من مشاعر الكراهية للفرنسيين من جانب الألمان حتى إنه بدا في وقت ما أن الولايات الألمانية الصغيرة في خوفها من التعرض لهجوم جديد من نابليون ، سوف ترغم بروسيا على التدخل إلى جانب النمسا . وبعد أن خاب أمله عند ظهور أولى بوادر القومية الألمانية وبعد أن صدم بزيارته لميدان المعركة في سولفيرينو ، عقد نابليون هدنة مع النمسا في فيلافرانكا Villafranca في ١١ يوليو ١٨٥٩ دون أن يخطر حلفاءه البييدمونتيين .

وقد فشل نابليون في تحقيق أي من الهدفين و أضعف بشدة موقف بلده في الساحة الدولية . ومنذ ذلك الوقت مد القوميون الإيطاليون المبادئ التي دعا إليها إلى أبعاد لم يكن يتصورها أبدا .وكان الهدف الذي يقصد إليه نابليون بإقامة دولة تابعة متوسطة الحجم في إيطاليا ، قد ضايق بييدمونت التي لم تكن توشك أن تتخلى عن مهمتها القومية . وظلت النمسا متمسكة بشدة بالمحافظة على البندقية Venetia بينما كان نابليون يوشك أن يعيدها إلى إيطاليا ، متسببا بذلك في إثارة نزاع لا حل له ولا ينطوي على مصلحة ممكن تصورها لفرنسا . وقد فسرت بريطانيا العظمي ضم سافوى ونيس على أنه بداية فترة أخرى من غزوات نابليون ورفضت كل المبادرات الفرنسية لتلبية الهاجس المفضل لنابليون وهو

عقد مؤتمر أوروبي . وطيلة ذلك الوقت كان القوميون الألمان يرون في الاضطرابات الأوروبية فرصة سانحة للمضي قدما في آمالهم في تحقيق الوحدة القومية.

وقد أدت تصرفات نابليون أثناء الثورة البولندية عام ١٨٦٣ إلى المزيد من التقدم في طريقه إلى العزلة . ولإحياء تقاليد الصداقة البونابارتية مع بولندا ، حاول نابليون أولا إقناع روسيا بتقديم بعض تنازلات لرعاياها الثائرين . غير أن القيصر لم يقبل حتى مجرد مناقشة مثل هذا الاقتراح . وبعد ذلك حاول نابليون بذل جهد مشترك مع بريطانيا العظمى ، ولكن بالمرستون كان شديد الحذر من الإمبراطور الفرنسي الزئبقي المتقلب . وأخيرا اتجه نابليون إلى النمسا مقترحا عليها أن تتنازل عن مقاطعاتها البولندية الخاصة لدولة بولندية لم تنشأ بعد ، وأن تتنازل عن فينيشيا لإيطاليا بينما تسعى إلى تعويض ذلك في سيليسيا والبلقان . ولم تكن للفكرة أي إغراء للنمسا التي كان يطلب منها المخاطرة بدخول حرب مع بروسيا وروسيا من أجل أن ترى دولة تدور في فلك فرنسا تظهر على حدودها .

العبث بالأمور إذا انغمس فيه القائد السياسي يكلفه كثيرا ، ولابد من دفع ثمن ذلك في النهاية . فالأعمال التي توجه حسب النوبات المزاجية في لحظة معينة ولا تكون مرتبطة باستراتيجية شاملة لا يمكن أن تبقى إلى الأبد . وتحت حكم نابليون فقدت فرنسا تأثيرها على الترتيبات الداخلية لألمانيا وكان هذا التأثير هو الدعامة الأساسية لاستمرار السياسة الفرنسية منذ ريشيليو. وبينما أدرك ريشيليو أن بقاء أوروبا الوسطى ضعيفة هو مفتاح الأمن الفرنسي ، فقد ركزت سياسة نابليون – التي كانت مدفوعة بميله الشديد للشهرة – على أطراف أوروبا وهي المكان الوحيد الذي كان يمكن فيه تحقيق المكاسب بأقل قدر من المخاطرة . ومع انتقال مركز جاذبية السياسة الأوروبية إلى ألمانيا ، وجدت فرنسا أنها أصبحت تقف وحدها .

وقد وقع حادث مشئوم في عام ١٨٦٤ . فلأول مرة منذ مؤتمر فيينا تقوم النمسا وبروسيا معا بتمزيق هدوء أوروبا الوسطى . ببدء حرب لصالح قضية ألمانية ضد دولة ليست ألمانية. وكانت القضية هي مصير دوقيتي إلب Elbe وهما دوقية شليسفيج Schleswig ودوقية هولشتاين Holstein اللتين كانتا من ناحية الأسر الحاكمة مرتبطتين بالتاج الدنمركي. ولكنهما كانتا أيضا عضوين في الاتحاد الكونفيدرالي الألماني . وقد أسفرت وفاة الحاكم الدنمركي عن ظهور قضايا سياسية وأسرية وقومية معقدة قال عنها بالمرستون أن ثلاثة أشخاص فقط هم الذين فهموها : واحد منهم مات والثاني كان في مصحة للأمراض العقلية وكان هو نفسه الثالث غير أنه نسي هذه المشكلة . وكان جوهر النزاع أقل أهمية بكثير من ائتلاف ولايتين ألمانيتين رئيسيتين لتشنا حربا ضد الدنمرك الضئيلة لإرغامها على التخلي عن إقليمين ألمانيين مرتبطين بالتاج الدنمركي . وقد ثبت أن ألمانيا قادرة قبل كل شيء على القيام بأعمال عدوانية وأنه إذا اتضح أن آلية الاتحاد بطيئة ومرهقة فيمكن ببساطة

للدولتين الألمانيتين العظميين أن يتجاهلاها تماما .

وطبقا لتقاليد نظام فيينا كان يجب في هذه المرحلة على الدول الكبرى أن تعقد مؤتمرا لاستعادة الوضع السابق بصورة تقريبية . ومع ذلك فإن أوروبا آنئذ كانت في حالة من الفوضى ترجع إلى حد كبير إلي تصرفات الإمبراطور الفرنسي .ولم تكن روسيا على استعداد لمعاداة البلدين اللذين لم يتدخلا عندما قمعت هي الثورة البولندية . ولم تكن بريطانيا العظمي تشعر بارتياح الهجوم على الدنمرك ولكنها كانت ستحتاج إلى حليف من أوروبا كي تتدخل ولم تكن فرنسا ، شريكها المحتمل الوحيد ، توحي بالثقة فيها .

وكان يجب على نابليون بعد استيعاب دروس التاريخ والأيديولوجية وسياسة مصلحة الدولة العليا أن يحذر من أن الأحداث سرعان ما ستتخذ قوة دافعة خاصة بها . ورغم ذلك فقد تأرجح نابليون بين التمسك بالمبادئ التقليدية للسياسة الخارجية الفرنسية التي رسمت لكي تبقى ألمانيا مقسمة ، وبين تأييد مبدأ القومية الذي كان إلهاما له في شبابه . وكتب دروان دي ليز Drouyn de Lhuys وزير خارجية فرنسا إلى لاتور دا فيرن السفير الفرنسي في لندن :

لما كنا قد وجدنا أنفسنا في موقف يضعنا بين حقوق بلد طالما تعاطفنا معه وبين آمال الشعب الألماني التي يجب بالمثل أن نضعها في الاعتبار ، فيجب علينا أن نتصرف بقدر كبير من الحذر أكثر من إنجلترا.

ومسئولية القادة السياسيين على أي حال هي حل المشكلات المعقدة وليس مجرد التفكير فيها لأن الحذر يصبح بالنسبة للقادة الذين لا يستطيعون الاختيار بين البدائل المطروحة أمامهم هو العذر عن عدم التصرف . وقد أصبح نابليون مقتنعا بحكمة عدم التصرف فمكن بذلك بروسيا والنمسا من تحديد مستقبل دوقيتي إلب Elbe فقد انتزعتا شليزفيج وهولستين Schleswig-Holstei من الدنمرك واحتلتاها معا بينما وقفت باقي أوروبا تتفرج – وهذا حل لم يكن يخطر علي بال أحد في ظل نظام ميترنيخ . وبدأ كابوس فرنسا وهو وحدة ألمانيا يقترب وهذا أمر كان نابليون قد ظل يتفاداه طيلة عقد من الزمان .

ولم يكن بسمارك على وشك أن يشارك في قيادة ألمانيا . وقد حول الحرب المشتركة من أجل شيلسفيج وهولشتاين إلى حلقة أخرى في سلسلة أخطاء سياسة النمسا التي لا تنتهي والتي ظلت عشر سنوات تمثل تآكل وضعها كدولة كبرى . وكان سبب حدوث تلك الأخطاء دائما واحداً – وهو محاولة النمسا استرضاء بلد أعلن عن عدائه لها بأن تعرض التعاون معه. ولم تفلح استراتيجية الإرضاء أيضا مع بروسيا أكثر مما أفلحت مع فرنسا من قبل عقد مضى أثناء حرب القرم . وبعيدا عن عملية الرشوة لتخليص النمسا من ضغوط بروسيا ، فإن الانتصار المشترك على الدنمرك أسفر عن ظهور منبر جديد غير ملائم لإثارة المضايقات . وقد

تركت النمسا آنئذ لإدارة شئون دوقيتي إلب مع حليف بروسي كان رئيس وزرائه بسمارك ، مصرا على انتهاز الفرصة لإثارة معركة تمناها منذ أمد طويل في إقليم يقع علي بعد مئات الأميال من الأراضي النمساوية ويجاور ممتلكات بروسيا الرئيسية .

وعندما ازداد التوتر ازداد ظهور غموض نابليون بشكل واضح . فقد كان يخشى من توحيد ألمانيا ولكنه كان يتعاطف مع النزعة القومية الألمانية وكان يهتاج عصبيا عند محاولة حل تلك المعضلة التي لا حل لها . و اعتبر بروسيا الولاية الألمانية القومية الحقيقية وقد كتب في عام ١٨٦٠ يقول :

إن بروسيا تجسد القومية الألمانية ، والإصلاح الديني ، والتقدم التجاري . والتمسك بالمبادئ الدستورية التحررية . إنها أكبر الملكيات الجرمانية الحقيقية، فهي تتمتع بمزيد من حرية الضمير ومزيد من التنوير ، وتمنح من الحقوق السياسية أكثر مما تمنحه معظم الولايات الجرمانية الأخرى.

وكان بسمارك سيوافق على كل كلمة من هذه الكلمات. ومع ذلك فبالنسبة لبسمارك كان تأكيد نابليون لوضع بروسيا الفريد هو المفتاح لانتصار بروسيا النهائي . وفي النهاية فإن إعجاب نابليون العلني ببروسيا أصبح بمثابة عذر آخر عن عدم عمل أي شيء . وإضفاء طابع العقلانية على التردد في اتخاذ القرارات وعدم التصرف . ووصف نابليون ذلك بأنه مناورة ذكية فقد كان نابليون في الواقع يشجع على قيام حرب بين النمسا وبروسيا لأنه كان مقتنعا أن بروسيا سوف تخسر في تلك الحرب . وقد قال لألكسندر واليفسكي Alexandre Walewski وزير خارجيته السابق في ديسمبر عام ١٨٦٥ : «صدقني يا صديقي العزيز ، إن الحرب بين النمسا وبروسيا تشكل واحدة من تلك الاحتمالات التي لا أمل فيها ، التي يمكن أن تعود علينا بأكثر من فائدة». والغريب أنه في إطار تشجيع نابليون للحرب ، لا يبدو أنه سأل نفسه لماذا كان بسمارك مصرا على الحرب إذا كان الاحتمال الأكبر هو أن بروسيا ستهزم.

وقبل أربعة شهور من بدأ الحرب بين بروسيا والنمسا ، تحرك من نابليون من الضمنية إلى العلنية . ففي حثه فعلا على الحرب قال لسفير بروسيا في باريس الكونت فون دير جولتز Von der Goltz في شهر فبراير عام ١٨٦٦:

أرجوك أن تبلغ الملك (ملك بروسيا) أنه يمكنه دائما أن يعتمد على جيشي . وفي حالة نشوب نزاع بين بروسيا والنمسا فسوف ألتزم الحياد التام . إني أريد إعادة اتحاد الدوقيتين (شليزفيج وهولشتين) مع بروسيا .. . وإذا اتخذ هذا النزاع أبعادا لا يمكن لأحد أن يتنبأ بها ، فإنني مقتنع بأني أستطيع دائما الوصول إلى تفاهم مع بروسيا التي تتفق مصالحها في كثير من القضايا مع مصالح فرنسا هذا بينما لا أري أي أرض أستطيع أن أتفق فيها مع النمسا.

ماذا كان يريد نابليون فعلا ؟ هل كان مقتنعا باحتمال وصول الأمر إلى حالة جمود تعزز

موقفه من المساومة ؟ كان من الواضح أنه يأمل في الحصول على تنازلات من بروسيا مقابل وقوفه موقف الحياد . وقد فهم بسمارك هذه اللعبة . فإذا التزم نابليون بالحياد فقد عرض بذلك أن يتخذ موقفا جيدا من استيلاء فرنسا على بلجيكا الأمر الذي كان يمكن أن يكون له فائدة إضافية وهي توريط فرنسا مع بريطانيا العظمى . ومن المحتمل أن نابليون لم يأخذ هذا العرض بجدية لأنه كان يتوقع أن تخسر بروسيا الحرب ، فقد كانت تحركاته تهدف بقدر أكبر إلى أن تمضي بروسيا في طريق الحرب عن أن تساوم من أجل الفوائد والمنافع . وبعد سنوات قلائل صرح الكونت أرماند Armand كبير مساعدي وزير الخارجية الفرنسي قائلا:

كان قلقنا الوحيد في وزارة الخارجية هو أن بروسيا سوف تسحق وتهان إلى حد كبير جدا وكنا مصممين على أن نحول دون ذلك بالتدخل في الوقت المناسب . وكان الإمبراطور يريد أن تترك بروسيا للهزيمة وبعد ذلك يتدخل ويبني ألمانيا حسب تصوراته

وما كان يفكر فيه نابليون هو العودة إلى مكائد ريشيليو بصورة حديثة . فقد كان من المتوقع من بروسيا أن تعرض علي فرنسا منحها تعويضات في المناطق الغربية لتخليصها من هزيمتها فتسلم فينيشيا لإيطاليا ، ويتخذ ترتيب ألماني جديد يسفر عن تكوين اتحاد كونفيدرالي بين ولايات شمال ألمانيا تحت رعاية بروسيا وتكوين تجمع جنوبي ألماني تدعمه فرنسا والنمسا . والخطأ الوحيد في ذلك المخطط هو أنه بينما كان الكاردينال يعرف كيف يقيم العلاقة بين القوى وكان على استعداد للقتال في سبيل تقييمه هذا فإن نابليون لم يكن على استعداد لأن يفعل أي شيء من ذلك .

وراح نابليون يسوف ، على أمل أن تتغير الأحداث بحيث تقدم له أعز رغباته بدون أي مخاطرة . والطريقة التي استخدمها هي حيلته المألوفة التي يدعو فيها إلى عقد مؤتمر أوروبي لتجنب التهديد بالحرب . وكان رد الفعل عندئذ مألوفا بالمثل فقد رفضت الدول الأخرى التي كانت تخشى مخططات نابليون حضور المؤتمر . وأينما اتجه كانت المعضلة تنتظره : فكان أمامه طريقان إما أن يدافع عن الوضع الراهن بالتخلي عن تأييده لمبدأ القومية ، أو يشجع النزعة التعديلية والنزعة القومية كليهما وفي أثناء تلك العملية يعرض المصالح القومية لفرنسا كما كانت تفهم تاريخيا للخطر.

وقد حاول نابليون الاحتماء بملجأ عندما ألمح إلى بروسيا بمسألة التعويضات دون أن يحدد ما هي تلك التعويضات ، الأمر الذي أقنع بسمارك أن الحياد الفرنسي مسألة ثمن وليس مسألة مبدأ . وقد كتب جولتز إلى بسمارك يقول :

إن العقبة الوحيدة التي يرى الإمبراطور أنها تعترض اتخاذ موقف مشترك بين بروسيا وفرنسا وإيطاليا في مؤتمر هي عدم وجود التعويض الذي سيعرض علي فرنسا ، إن المرء يعرف ما يريد ، وعرف ما تريده إيطاليا ولكن الإمبراطور لا يستطيع أن يقول ما الذي تريده

فرنسا ولا يمكننا أن نقدم له أية اقتراحات في هذا الشأن.

واشترطت بريطانيا العظمى لحضورها المؤتمر أن توافق فرنسا مسبقا على بقاء الوضع الراهن كما هو . وبدلا من استغلال ذلك التمسك بالترتيبات الألمانية التي تدين بالكثير لجهود القيادة الفرنسية والتي يرجع إليها الفضل في الحفاظ على أمن فرنسا ، فقد تراجع نابليون ، مصرا على أنها للمحافظة على السلام ، فمن الضروري أن توضع المشاعر والمطالب القومية في الاعتبار وباختصار كان نابليون على استعداد للمخاطرة بنشوب حرب بين النمسا وبروسيا وبألمانيا الموحدة لكي يحصل على غنائم غامضة في إيطاليا لا تحقق أية مصالح وطنية فرنسية ولكي يحقق مكاسب في أوروبا الغربية كان يكره تحديدها . ولكن فيما يتعلق ببسمارك فقد كان يقف أمام أستاذ يصر على قوة الحقائق ، واستغل لتحقيق أغراضه ما سمي بمناورات التجمل التي برع فيها نابليون .

كان هناك قادة فرنسيون فهموا الأخطار التي يعرض نابليون نفسه لها ، وأدركوا أن ما يسميه نابليون التعويض الذي كان يرمي إليه لا يتعلق عن قرب بأي اهتمام فرنسي رئيسي. وفي كلمة رائعة ألقاها في ٣ مايو ١٨٦٦ أدولف تيير Adolph Thiers معارض جمهوري شديد لنابليون أصبح فيما بعد رئيسا لفرنسا تنبأ فيها عن حق أنه من المرجح أن تبرز بروسيا كقوة مسيطرة في ألمانيا :

سوف نرى عودة إمبراطورية شارل الخامس التي كان مقرها من قبل فيينا وسوف يصبح مقرها الآن برلين وستكون بذلك قريبة من حدودنا وسوف تمارس ضغوطا عليها ...إنك لك الحق في مقاومة هذه السياسة باسم مصلحة فرنسا ، لأنه من المهم لفرنسا ألا تهددها مثل تلك الثورة بصورة خطيرة . وبعد أن صارعت طيلة قرنين ... للقضاء على هذا العملاق ، فهل هي على استعدادلأن تقف وتتفرج وهو يعيد بناء نفسه أمام أعينها.

وقال تيير أنه بدلا من تأملات نابليون الغامضة يجب على فرنسا أن تنتهج سياسة واضحة لمعارضة بروسيا وأن تتخذ لذلك مبررا هو الدفاع عن استقلال الولايات الألمانية —صيغة العجوز ريشيليو.وقال إن فرنسا لها الحق في مقاومة توحيد ألمانيا . أولا باسم استقلال الولايات الألمانية ... وثانيا باسم استقلالها هي وأخيرا باسم الميزان الأوروبي الذي هو مصلحة الجميع ، مصلحة المجتمع العالمي ... واليوم يحاول المرء السخرية من عبارة الميزان الأوروبي .. ولكن ما هو الميزان الأوروبي ؟ إنه استقلال أوروبا.

وكان الأوان قد فات تقريبا لتجنب نشوب الحرب بين بروسيا والنمسا التي ستغير الميزان الأوروبي تغييرا نهائيا . ومن الناحية التحليلية كان تيير على حق ولكن كان يجب أن توضع المقدمات المنطقية لهذه السياسة قبل ذلك بعقد من الزمان . وحتى في ذلك الوقت كان بسمارك سيتوقف عن اتخاذ أي موقف لو أصدرت فرنسا إنذارا شديد اللهجة بأنها لن تسمح

بهزيمة النمسا أو بتدمير إمارات تقليدية مثل مملكة هانوفر ، ولكن نابليون رفض هذا الطريق لأنه كان يتوقع أن تنتصر النمسا ، ولأنه يبدو أنه كان يفضل كثيرا إبطال تسوية فيينا وتحقيق تعليمات بونابارت ، على أي تحليل للمصالح القومية الفرنسية التاريخية . وقد رد على تيير بعد ثلاثة أيام قائلا : إني أمقت معاهدات ١٨١٥ التي يريد الناس الآن أن يجعلوها أساسا لسياستنا .

وبعد أقل من شهر من كلمة تيير ، نشبت الحرب بين النمسا وبروسيا . وعلى عكس كل توقعات نابليون انتصرت بروسيا انتصارا حاسما وسريعا . وطبقا لقواعد دبلوماسية ريشيليو كان يجب على نابليون أن يساعد المهزوم ويمنع تحقيق انتصار حاسم لبروسيا . ورغم أنه حرك فيلقا عسكريا للمراقبة إلى الراين إلا أنه تردد في الاستمرار بعد ذلك . وقد ارضي بسمارك نابليون بأن جعله يتوسط من أجل السلام ، رغم أن تلك الإيماءة الفارغة لم تخفي عدم اتصال فرنسا المتزايد بالترتيبات الألمانية . وفي معاهدة براغ في أغسطس عام ١٨٦٦ أرغمت النمسا على الانسحاب من ألمانيا . وضمت إلى بروسيا ولايتان هما هانوفر Hanover وهيس كاسيل Hesse- cassel وكانتا قد وقفتا إلى جانب النمسا أثناء الحرب وذلك بالإضافة إلي شليزفيج وهولشتين ومدينة فرانكفورت الحرة . وبخلع حكامهم أوضح بسمارك أن بروسيا التي كانت في وقت ما المسمار الذي يحكم رباط الحلف المقدس قد هجرت الشرعية بوصفها المبدأ الذي يسترشد به النظام العالمي.

وقد ضمت الولايات الألمانية الشمالية التي احتفظت باستقلالها إلى الكيان الجديد الذي ابتكره بسمارك وهو الاتحاد الكونفيدرالي للولايات الألمانية الشمالية الخاضع للقيادة البروسية في كل شيء بدأ من التشريعات التجارية إلى السياسة الخارجية . وقد سمح لولايات الجنوب الألماني وهي بافاريا Bavaria وبادن Baden وووُرتمبرج Wurttemberg بالاحتفاظ باستقلالها على أن يكون الثمن هو معاهدات مع بروسيا توضع بموجبها جيوشها تحت القيادة العسكرية البروسية في حالة نشوب حرب مع دولة خارجية . وكان توحيد ألمانيا الآن قد أصبح على بعد أزمة واحد .

قاد نابليون بلده إلى طريق مسدود ثبت أن الخروج منه مستحيل . كان الأوان قد فات عندما حاول إقامة حلف مع النمسا التي كان قد طردها من إيطاليا بعمل عسكري ومن ألمانيا بالحياد . غير أن النمسا كانت قد فقدت الاهتمام باستعادة أي من الموقعين وفضلت التركيز أولا على إعادة بناء إمبراطوريتها كَمَلَكية ثنائية مركزها فيينا وبودابست والتركيز بعد ذلك على ممتلكاتها في البلقان . وقد استاءت بريطانيا العظمى وتباعدت بسبب مخططات فرنسا ضد لوكسمبورج وبلجيكا ، ولم تغفر روسيا لنابليون أبدا تصرفاته إزاء بولندا .

وقد أصبحت فرنسا الآن مضطرة إلى علاج مسألة انهيار نفوذها التاريخي الأوروبي وذلك

بمفردها تماما دون مساعدة من أحد . وكلما أصبح موقفها ميئوسا منه كلما سعى نابليون لتعديل هذا الموقف بحركة ذكية مثل مقامر يضاعف رهانه بعد كل خسارة . وقد شجع بسمارك حياد نابليون في الحرب بين النمسا وبروسيا وذلك بإغرائه باحتمالات المكاسب الإقليمية ، أولا في بلجيكا ثم في لوكسمبورج . وكانت هذه الاحتمالات تختفي كلما كان نابليون يحاول الإمساك بها لأن نابليون كان يريد أن تسلم له تعويضاته ولأن بسمارك لم ير سببا لخوض المخاطر بعد أن جني بالفعل ثمرة تردد نابليون وحيرته .

ولما أحس نابليون بالمهانة بسبب مظاهر العجز هذه وقبل كل شيء بسبب ميل الميزان الأوروبي الواضح ضد فرنسا سعي إلى تعويض سوء حساباته التي توصل فيها إلى أن النمسا ستنتصر في الحرب على بروسيا وذلك بأن أثار قضية بشأن خلافة العرش الأسباني الذي أصبح الآن خاليا . وطلب تأكيدا من ملك بروسيا بألا يطالب بالعرش أي من أمراء أسرة هوهينزوليرن (Hohenzollern الأسرة الحاكمة البروسية). وكانت تلك محاولة أخرى عديمة الجدوى ، أفضل ما يمكن أن تسفر عنه هو زيادة هيبة نابليون دون أن تكون لذلك أية صلة بعلاقات الدول في أوروبا الوسطى .

ولم يتغلب أحد على بسمارك في دبلوماسيته السلسة . وفي إحدى خطواته البارعة استغل بسمارك الوضع الذي اتخذه نابليون لإغرائه على إعلان الحرب على بروسيا عام ١٨٧٠ وقد كان طلب الفرنسيين– بأن ينبذ ملك بروسيا أي عضو من أعضاء أسرته يحاول ارتقاء عرش أسبانيا –طلبا استفزازيا حقا . غير أن الملك العجوز المحنك ويليام ، بدلا من أن يفقد أعصابه، رفض بأناة وعن حق استقبال السفير الفرنسي الذي جاءه ليأخذ منه هذا التعهد . وقد بعث الملك بتقريره عن الموضوع في برقية إلى بسمارك الذي أعاد تحريرها – وأخلاها من أي لغة تومئ إلى الصبر والأناة اللتان عامل بهما الملك السفير الفرنسي. وعندئذ لجأ بسمارك الذي كان فعلا رجلا سابقا لزمنه إلى أسلوب طوره خلفائه إلى شكل فني : فقد سرب بسمارك نص الرسالة للصحف . وقد بدت صورة برقية الملك بعد أن أعيد تحريرها وكأنها توبيخ من الملك لفرنسا . وانتاب الشعب الفرنسي الغضب وطالب بالحرب التي أعطاها نابليون له .

وقد انتصرت بروسيا بسرعة وبصورة حاسمة بمساعدة جميع الولايات الألمانية الأخرى. وأصبح الطريق الآن ممهدا تماما لإتمام الوحدة الألمانية التي أعلنتها القيادة البروسية بطريقة تفتقر إلي اللباقة في ١٨ مايو ١٨٧١ في قاعة المرايا في قصر فرساي .

وحقق نابليون الثورة التي كان يسعى إليها رغم أن نتائجها كانت عكس ما كان يقصده منها . لقد أعيد رسم خريطة أوروبا حقا ولكن الترتيبات الجديدة أضعفت نفوذ فرنسا بلا رجعة دون أن تعود على نابليون بالشهرة التي كان يتوق إليها بشدة .

لقد شجع نابليون الثورة دون أن يفهم احتمالات نتائجها . ولما لم يستطع تقييم العلاقات بين القوى ويجندها لتحقيق أهدافه بعيدة المدى ، فقد فشل في هذا الاختبار . وقد انهارت سياسته الخارجية لا لأنه كان يفتقر إلى الأفكار بل لأنه لم يستطع ترتيب طموحاته المتعددة أو يحدد أية علاقة بينها وبين الحقائق البادية حوله . وكان يريد الشهرة ولكن لم يكن هناك خط واحد من خطوط السياسة ليسترشد به . وقد استرشد بدلا من ذلك بأهداف متشابكة كنسيج العنكبوت يتعارض بعضها مع بعض تعارضا تاما . وعندما واجه الأزمة الحقيقية في حياته فإن النزوات المتعددة راح يطرد بعضها بعضا .

لقد رأي نابليون أن نظام ميترنيخ مهين لفرنسا وقيد على طموحاتها . وقد نجح في تمزيق الحلف المقدس بأن وضع إسفينا بين النمسا وبروسيا أثناء حرب القرم . ولكنه لم يعرف ماذا يفعل بانتصاره . فمنذ عام ١٨٥٣ حتى عام ١٨٧١ سادت فوضى نسبية بينما كان يعاد ترتيب النظام الأوروبي . وعندما انتهت تلك الفترة برزت ألمانيا كأقوى دولة في أوروبا . وتحولت الشرعية – وهي مبدأ وحدة الحكام المحافظين التي خففت من فظاظة نظام ميزان القوى أثناء سنوات ميترنيخ – إلى شعار أجوف . وقد أسهم نابليون بنفسه في حدوث كل تلك التطورات ، وبالغ أكثر من اللازم في تقييم قوة فرنسا فشجع كل جيشان واضطراب مقتنعا بأنه سيحول كل ذلك لصالح فرنسا .

وفي النهاية أصبحت السياسة الدولية تقوم على أساس القوة المحض . وفي عالم مثل هذا وجدت فجوة متأصلة بين صورة فرنسا عن نفسها كقوة مسيطرة في أوروبا وقدرتها على أن تعيش وفقا لهذه الصورة – وهي فجوة أصابت السياسة الفرنسية بآفة حتى يومنا هذا . وأثناء حكم نابليون كان الدليل على ذلك هو عجز الإمبراطور عن تنفيذ مقترحاته التي لا تنتهي لعقد مؤتمر أوروبي لإعادة النظر في خريطة أوروبا . وكان نابليون قد دعا إلى عقد مؤتمر بعد حرب القرم عام ١٨٥٦ ومؤتمر قبل الحرب الإيطالية عام ١٨٥٩، ومؤتمر أثناء الثورة البولندية عام ١٨٦٣ وآخر أثناء حرب الدنمرك عام ١٨٦٤ ومؤتمر قبل نشوب الحرب بين النمسا وبروسيا عام ١٨٦٦ – وكان دائما يسعى أثناء تلك المؤتمرات أن يكسب مسألة إعادة النظر في الحدود التي لم يحددها بدقة أبدا والتي لم يكن على استعداد للمخاطرة بالحرب من أجلها .وكانت مشكلة نابليون هي أنه لم يكن قويا بالدرجة الكافية لكي يصر على ما يريد وأن مخططاته كانت متطرفة فكان من الصعب الإجماع على قبولها لقد ظل ولع فرنسا بالاتحاد مع البلدان التي ترضى زعامتها عاملا ثابتا في السياسة الخارجية الفرنسية منذ حرب القرم . لقد سعت فرنسا– التي لم تكن قادرة على أن تسيطر على حلف مع بريطانيا العظمى أو ألمانيا أو روسيا أو الولايات المتحدة والتي كانت تعتبر أن الحالة الأدنى مما هي عليه أمر لا يتماشى مع أفكارها عن عظمتها القومية وعن دورها المسيحي في العالم – إلى الزعامة في صورة عقد أحلاف مع دول أدنى – مع سردينيا ورومانيا والولايات

الألمانية الوسطى في القرن التاسع عشر ومع تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا .

ونفس هذا الاتجاه يمكن أن يوجد في سياسة فرنسا الخارجية بعد ديجول . فبعد مرور قرن على الحرب بين فرنسا وبروسيا ظلت مشكلة وجود ألمانيا الأكثر قوة هي الكابوس الذي يقلق فرنسا . وقد أخذت فرنسا بالاختيار الجريء وهو السعي إلي كسب صداقة جارتها التي تخشاها وتعجب بها في نفس الوقت . وعلي الرغم من ذلك فإن منطق الجغرافيا السياسية كان يتطلب أن تسعى فرنسا لإقامة روابط وثيقة مع الولايات المتحدة – ولو حتى من باب زيادة الخيارات أمامها . غير أن عزة النفس الفرنسية حالت دون حدوث ذلك وأدت بفرنسا إلى أن تبحث – أحيانا بصورة خيالية – عن تنظيم مجموعات – وأحيانا أي مجموعات – كي توازن الولايات المتحدة باتحاد أو تجمع أوروبي حتى لو كان ثمن ذلك هو الهيمنة الألمانية في النهاية. وفي العصر الحديث تصرفت فرنسا أحيانا كأنها معارضة برلمانية للزعامة الأمريكية وحاولت إقامة السوق الأوروبية لتكون زعيما بديلا للعالم وتعزيز الروابط مع بلدان يمكنها أن تسيطر عليها أو اعتقدت أنها يمكنها أن تسيطر عليها .

ومنذ انتهاء حكم نابليون الثالث افتقرت فرنسا إلى القوة اللازمة لفرض مطامح الخلاصيين (أفراد كنيسة بروتستانية تقول بأن جميع الناس سينعمون في النهاية بالخلاص) التي ورثتها عن الثورة الفرنسية ، أو إلى الساحة التي تجد فيها المتنفس المناسب لحماسها التبشيري . وظلت فرنسا أكثر من قرن تجد صعوبة في قبول الحقيقة الواضحة وهي أن الشروط الموضوعية للهيمنة التي جاء بها ريشيليو لفرنسا قد تلاشت بمجرد أن تحقق الاندماج الوطني في أوروبا . فجزء كبير من أسلوب دبلوماسيتها الشائك كان يرجع إلى محاولات قام بها قادتها لإطالة أمد دورها بوصفها مركز السياسة الأوروبية في بيئة تزايد باستمرار عدم تناسبها مع مثل تلك المطامح . ومن السخرية أن البلد الذي ابتكر سياسة مصلحة الدولة العليا كان عليه أن ينشغل طيلة جزء كبير من قرن من الزمان بمحاولة إخضاع طموحاته لحجم قدراته .

لقد أتم بسمارك تدمير نظام فيينا الذي بدأه نابليون . وقد حقق بسمارك شهرته السياسية بوصفه معارضا شديدا لثورة عام ١٨٤٨التحررية . وكان أيضا أول قائد سياسي يدخل حق الاقتراع للرجال في أوروبا هذا إلى جانب أكثر النظم شمولا للرفاهة الاجتماعية رآها العالم خلال ستين عاما . وفي عام ١٨٤٨ قاوم بسمارك بشده قيام البرلمان المنتخب بعرض التاج الإمبراطوري الألماني على ملك بروسيا . غير أنه بعد قليل من مرور عقدين قام هو بنفسه بتسليم هذا التاج الإمبراطوري إلى ملك بروسي في نهاية عملية توحيد الأمة الألمانية على أساس معارضة المبادئ التحررية وقدرة بروسيا على فرض إرادتها بالقوة . وقد جعل هذا الإنجاز المذهل النظام العالمي يلجأ إلى الصراعات التي لم يستطع أحد السيطرة عليه في القرن الثامن عشر والتي أصبحت في ذلك الوقت أكثر خطورة بسبب التكنولوجيا الصناعية

والقدرة على تعبئة موارد وطنية ضخمة . ولم يعد هناك بعد ذلك حديث يتردد عن وحدة الرؤوس المتوجة أو الانسجام بين ولايات أوروبا القديمة . وبموجب السياسة الواقعية لبسمارك تحولت السياسة الخارجية إلى مباراة في القوة .

وكانت إنجازات بسمارك شيئا غير متوقع مثل شخصيته . وقد كتب رجل الدم والحديد نثرا معجزا في بساطته وجماله ، وأحب الشعر ، ونقل عن الشاعر الإنجليزي بايرون صفحات من شعره في مذكراته .ورجل الدولة هذا الذي مجد السياسة الواقعية كان يتمتع بحاسة غير عادية لقياس نسبية الأشياء بعضها لبعض كان من شأنها أن حولت القوة إلى أداة لضبط النفس .

ما هو الشخص الثوري ؟ إذا كان الجواب عن هذا السؤال ليس غامضا لنجح قلة من الثوريين فقط . لأن الثوريين دائما وغالبا ما يبدءون من موقف قوة أدني. وينتصرون لأن النظام القائم لا يكون في مقدوره أن يدرك مدى وهنه . ويصبح هذا بصفة خاصة عندما يظهر التحدي الثوري ليس بمسيرة على الباستيل Bastille بل مرتديا زي المحافظين . إن قلة من المؤسسات هي التي تستطيع أن تدافع عن نفسها ضد أولئك الذين يدعون أنهم سيحافظون على تلك المؤسسات .

وهذا ما حدث مع أوتو فون بسمارك . Otto Von Bismarck فقد بدأت حياته في فترة ازدهار نظام ميترنيخ في عالم مكون من ثلاثة عناصر رئيسية : ميزان القوى الأوروبي ، وتوازن ألماني داخلي بين النمسا وبروسيا ، ونظام أحلاف قائم على وحدة القيم المحافظة . وطوال ثلاثين عاما بعد تسوية فيينا قلت حدة التوترات الدولية لأن كل الولايات الرئيسية شعرت بخطر يهدد بقائها المشترك ولأنه كان هناك التزام بالقيم بين ما سمى بالملكيات الشرقية : بروسيا والنمسا وروسيا .

وقد تحدى بسمارك كل ذلك. فقد كان مقتنعا أن بروسيا أصبحت أقوي دولة جرمانية ولم يكن يحتاج إلى الحلف المقدس كرباط مع روسيا . وكان في رأيه أن المصالح القومية المشتركة يمكن أن تكون أداة ترابط مناسبة وأن سياسة بروسيا الواقعية يمكن أن تحل محل وحدة المحافظين المقاومين للتغيير . واعتبر بسمارك النمسا عقبة أمام مهمة بروسيا الألمانية وليست شريكا فيها . وعلى عكس آراء معظم معاصريه تقريبا باستثناء كافور رئيس وزراء بييدمونت ، فقد عامل بسمارك دبلوماسية نابليون غير المستقرة على أنها فرصة استراتيجية ولم يعاملها على أنها عامل تهديد . وعندما ألقى بسمارك كلمة في عام ١٨٥٠ هاجم فيها الحكمة التقليدية القائلة أن الوحدة الألمانية تتطلب إقامة مؤسسات برلمانية، لم يدرك مؤيدوه المحافظون أن ما سمعوه هو قبل كل شيء تحد لمنطق المحافظين في نظام ميترنيخ .

إن شرف بروسيا ليس في أن تلعب على ألمانيا دور دون كيخوتة Don Quixoe من أجل مشاهير برلمانيين متبرمين يرون أن مؤسساتهم الداخلية مهددة . إني أسعى لحماية شرف بروسيا بأن تظل بروسيا بعيدة عن أي ارتباط شائن بالديموقراطية وألا نسمح أبدا بأن يحدث أي شيء في ألمانيا بدون إذن من بروسيا...

وعلى السطح كان هجوم بسمارك على الليبرالية (التحررية – مبادئ حزب الأحرار) تطبيقا لفلسفة ميترنيخ . ومع ذلك فقد تضمن هذا الهجوم فارقا حاسما من حيث تأكيده على نواح معينة . فقد كان نظام ميترنيخ قد تأسس على الفرض القائل أن بروسيا والنمسا اشتركتا في الالتزام بالمؤسسات المحافظة وأن كلا منهما تحتاج للأخرى لهزيمة الاتجاهات الديمقراطية الحرة . وكان بسمارك يلمح إلى أن بروسيا يمكنها أن تفرض أفضلياتها من جانب واحد ؛ وأن بروسيا يمكنها أن تكون محافظة في الداخل دون أن تربط نفسها بالنمسا أو بأية دولة محافظة أخرى في مجال السياسة الخارجية ، وأنها لا تحتاج إلى حلفاء للتعامل مع أي ثوران داخلي . وكان آل هابسبورج يواجهون مع بسمارك نفس التحدي الذي واجههم به ريشيليو– سياسة خالية من أي نظام للقيم فيما عدا القيمة الخاصة بأمجاد الولاية . وكما كان الحال مع ريشيليو لم يعرفوا كيف يتعاملون مع تلك السياسة أو حتى يفهموا كنهها وطبيعتها .

ولكن كيف كان يمكن لبروسيا أن تستمر في العمل بالسياسة الواقعية وحدها تماما في وسط أوروبا ؟ فمنذ عام ١٨١٥ كان رد بروسيا هو التمسك بالحلف المقدس مهما كان الثمن ؛ وكان رد بسمارك عكس ذلك تماما – تشكيل أحلاف وعلاقات في جميع الاتجاهات حتى يمكن أن تكون بروسيا أقرب إلى الأطراف المتنازعة أكثر من قرب كل واحد من الآخر . وبهذه الطريقة فإن موقفا بادي العزلة سوف يمكن بروسيا من أن تؤثر بدهاء في التزامات الدول الأخرى وتبيع تأييدها لمن يدفع ثمنا أكبر .

وكان من رأي بسمارك أن بروسيا سوف تصبح في موقف قوي يتيح لها تنفيذ تلك السياسة لأنها ليست لديها مصالح كثيرة في مجال السياسة الخارجية فيما عدا تعزيز وضعها الخاص في ألمانيا . وكانت كل دولة أخرى متورطة بصورة أكثر تعقيدا ؛ فبريطانيا العظمي لم يكن لديها فقط إمبراطوريتها لتقلق عليها بل كان لديها أيضا في هذا الصدد ميزان القوى الشامل لتقلق عليه ، وكانت روسيا في نفس الوقت تمارس هجومها ضد أوروبا الشرقية وفي آسيا والإمبراطورية العثمانية ؛ أما فرنسا فقد وجدت إمبراطورية جديدة ، فقد كانت لديها طموحات في إيطاليا ومغامرة تستعد لها في المكسيك ، وكانت النمسا مشغولة بإيطاليا والبلقان وبدورها القيادي في اتحاد الولايات الألمانية . ولأن سياسة بروسيا كانت مركزة على ألمانيا فلم تكن لديها في الواقع أية خلافات كبيرة مع أي دولة أخرى غير النمسا ، وفيما يتعلق بهذه النقطة فقد كانت الخلافات مع النمسا أساسا في ذهن بسمارك نفسه .

وكان عدم الانحياز إذا جاز لنا أن نستخدم هذا المصطلح الجديد هو المقابل العملي لسياسة بسمارك التي تتبع تعاون بروسيا فيما كان في رأيه سوق للبائعين .

إن الموقف الراهن يضطرنا ألا نسبق الدول الأخرى في الارتباط بأية التزامات. فنحن لسنا قادرين على تشكيل العلاقات بين الدول الكبرى كما نريد ، ولكننا يمكننا أن نحتفظ بحرية الحركة لنستغل لمصلحتنا تلك العلاقات التي تغير اتجاهها ... إن علاقتنا بالنمسا وبريطانيا وروسيا لا تشكل عقبة أمام التقارب مع أي من هذه الدول . وعلاقتنا فقط مع فرنسا هي التي تتطلب عناية خاصة حتى نبقي الاختيار مفتوحا في أن نتفق مع فرنسا بالسهولة التي نتفق بها مع الدول الأخرى .

هذه الإشارة إلى التقارب مع فرنسا البونابرتية تنطوي على وجود استعداد للاستغناء عن المذاهب – لكي تصبح بروسيا حرة في التحالف مع أي بلد (بغض النظر عن مؤسسات هذا البلد الداخلية) يساعدها على النهوض بمصالحها وكانت سياسة بسمارك بمثابة عودة إلى مبادئ ريشيليو الذي كان ، رغم أنه كاردينال في الكنيسة ، قد عارض الإمبراطور الروماني الكاثوليكي المقدس عندما كانت مصالح فرنسا تتطلب ذلك . وبالمثل فإن بسمارك رغم أنه محافظ وفقا لعقيدته الخاصة ، فقد افترق عن معلميه المحافظين عندما اتضح أن مبادئهم المناصرة للسلطة الشرعية سوف تقيد حرية بروسيا في الحركة .

وقد وصل هذا الخلاف الضمني إلى أقصى حد له عندما بالغ بسمارك في عام ١٨٥٦ ،– وكان عندئذ سفيرا لبروسيا لدى الاتحاد الكونفيدرالي الألماني –وتمادى في رأيه عندما قال إن بروسيا سوف تكون أكثر قربا من نابليون الذي كان في نظر المحافظين البروسيين مغتصبا لامتيازات الملك الشرعية.

ووضع نابليون في المقدمة علي أنه يحتمل أن يكون كبير المتحدثين باسم بروسيا ، أمر تجاوز كل ما كان تحتمله دوائر بسمارك الانتخابية المحافظة التي ساعدته في وظيفته الدبلوماسية وشجعته . وقد استقبلت هذه الدوائر فلسفة بسمارك الجديدة بنفس الإنكار المهين الذي ساد بين مؤيديه السابقين والذي واجهه ريشيليو قبل قرنين عندما تقدم بالأطروحة التى كانت أطروحة ثورية آنئذ والقائلة أن مصلحة الدولة العليا يجب أن يكون لها السبق على الدين . وهو أيضا نفس الإنكار المهين الذي واجه سياسة الوفاق التي انتهجها الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون مع الاتحاد السوفيتي في عصرنا الحالي . وبالنسبة للمحافظين كان نابليون الثالث نذيرا بدورة جديدة من سياسة التوسع الفرنسي بل والأهم من ذلك أنه كان رمزا لإعادة تأكيد المبادئ المكروهة للثورة الفرنسية.

ولم يعترض بسمارك على التحليل المحافظ لنابليون أكثر مما اعترض نيكسون على التفسير المحافظ للدوافع السوفيتية ، وقد رأي بسمارك –في الحاكم الفرنسي القلق ما رآه

نيكسون في القيادة السوفيتية المتداعية ـ انظر الفصل ٢٨ –فرصة سانحة وخطرا قائما في نفس الوقت . وقد رأى بسمارك أن بروسيا أقل تعرضا للخطر من النمسا سواء بالنسبة للتوسع الفرنسي أو للثورة . ولم يقبل بسمارك الرأي الذي كان سائدا والذي قال أن نابليون داهية أريب . وفي ذلك إشارة ساخرة إلى أن القدرة على الإعجاب بالآخرين ليست من خصائصه القوية . وكلما ازداد خوف النمسا من نابليون كلما ازداد اضطرارها لتقديم تنازلات إلى بروسيا، وكلما ناسب ذلك مرونة بروسيا الدبلوماسية .

وكانت أسباب قطع الصلة بين بسمارك والمحافظين البروسيين هي نفس أسباب الجدل الذي دار بين ريشيليو وناقديه من الكهنة، وكان الفارق الرئيسي هو أن المحافظين البروسيين كانوا يصرون على اتباع مبادئ سياسية عالمية وليس على اتباع مبادئ دينية عالمية . وأكد بسمارك أن القوة تتضمن شرعيتها الخاصة بها وقال المحافظون أن الشرعية تمثل قيمة تعلو علي حسابات القوة . وكان بسمارك يعتقد أن التقييم الصحيح للقوة ينطوي ضمنا على مبدأ تقييد الذات وأصر المحافظون على أن المبادئ الأخلاقية وحدها هي التي يمكنها في النهاية أن تحد من المطالب التي تتحقق بالقوة .

وقد تسبب هذا الخلاف في تبادل حاد للرسائل في أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر ١٨٥٠ بين بسمارك وأستاذه القديم ليوبولد فون جيرلاخ Leopold von Gerlach المعاون العسكري لملك بروسيا ـ الذي يدين له بسمارك بكل شئ – أول تعيين دبلوماسي له، ووصوله إلى البلاط الملكي ومهنته كلها .

وقد بدأ تبادل الرسائل بين الرجلين عندما أرسل بسمارك لجيرلاخ توصية بأن تهيىء بروسيا المجال أمام اتخاذ موقف دبلوماسي جديد من فرنسا وكانت تلك التوصية مصحوبة بمفسرة عرض فيها مبدأ المنفعة على أنه أفضل من الأيديولوجية (المذهب الفكري) . لا أستطيع أن أتجاهل المنطق الحسابي للحقيقة وهي أن النمسا بوضعها في يومنا هذا لا يمكن أن تكون صديقتنا . وطالما أن النمسا لا توافق على تحديد مناطق النفوذ في ألمانيا فيجب علينا أن نتوقع صراعا معها تستخدم فيه الدبلوماسية والكذب في وقت السلم مع انتهاز كل فرصة لتوجيه ضربة قاضية لها .

وعلى أيٍ حال فإن جيرلاخ لم يستطع أن يقبل الاقتراح القائل إن المصلحة الاستراتيجية يمكن أن تبرر التخلي عن المبدأ خاصة عندما يكون هناك بونابرت في الموضوع . وحث على اتباع علاج ميترنيخ – وهو أن تقوم بروسيا بالعمل على تقارب النمسا وروسيا واستعادة الحلف المقدس لفرض العزلة على فرنسا.

وكان هناك اقتراح آخر لبسمارك وجد جيرلاخ أنه اقتراح غير مفهوم بقدر أكبر وهو أن يدعى نابليون إلى الاشتراك في مناورات فيلق من الجيش البروسي لأن هذا الدليل على حسن

العلاقات مع فرنسا ... من شأنه أن يزيد من تأثيرنا في جميع مجالات العلاقات الدبلوماسية.

وقد أثار اقتراح اشتراك بونابرت في مناورات بروسية غضب جيرلاخ الشديد. كيف يمكن لرجل في مثل ذكائك أن يضحي بمبادئه بسبب شخص مثل نابليون. إن نابليون عدونا الطبيعي. لو كان جيرلاخ رأى ملاحظات بسمارك الساخرة التي كتبها على هامش الرسالةوالتي قال فيها: وماذا في ذلك ؟.. لما كتب رسالته التالية التي ردد فيها مبادئه المعادية للثورة وهي نفس المبادئ التي أدت به إلى مساندة الحلف المقدس ورعاية بسمارك في مراحل تاريخه الوظيفي المبكرة :

إن مبدئي السياسي هو الحرب ضد الثورة وسوف يظل كذلك دائما . إنك لن تقنع بونابرت بأنه لا يقف في صف الثورة . وهو لن يقف في صف أي شيء آخر لأنه من الواضح أنه يكتسب ميزات من ذلك ... ولهذا فإذا كان مبدئي بمعارضة الثورة صحيحا ... فيجب أيضا أن يلتزم به عن تطبيقه عمليا .

ومع ذلك فإن بسمارك اختلف مع جيرلاخ ليس لأنه لم يفهمه ، كما افترض جيرلاخ بل لأنه فهمه جيدا جدا . فالسياسة الواقعية بالنسبة لبسمارك اعتمدت على المرونة وعلى القدرة على استغلال كل خيار متاح دون التقيد بالمذاهب الفكرية . وكما فعل المدافعون عن ريشيليو فقد حول بسمارك المناقشة لتدور حول المبدأ الوحيد الذي يتفق فيه مع جيرلاخ وهو مبدأ يركز على الأهمية الكبرى للوطنية البروسية . وكان هذا من شأنه أن يجعل موقف جيرلاخ سيئا للغاية . وكان بسمارك يرى أن وحدة مصالح المحافظين التي يصر عليها جيرلاخ لا تتمشى مع ولاء هؤلاء المحافظين لبلدهم :

إن فرنسا تهمني فقط بقدر تأثيرها على الموقف في بلدي ولا يمكننا أن نمارس السياسة إلا مع فرنسا التي توجد أمامنا فعلا ... ويمكنني كشخص عاطفي أن أذرف الدموع قليلا على مصير هنري الخامس (المطالب البوربوني بالعرش دون أن يكون له حق فيه). غير أني كدبلوماسي سوف أكون خادمه لو كنت فرنسيا ، ولكن الواقع ، أن فرنسا ، بغض النظر عن الأحداث التي تسوقها، هي بالنسبة لي بيدق لا يمكن تجاهله على رقعة الشطرنج الدبلوماسية حيث لا يكون علي واجب آخر سوى أن أخدم ملكي وبلدي (هذا هو تأكيد بسمارك). فأنا لا أستطيع أن أوفق بين التعاطف الشخصي مع الدول الأجنبية وكراهيتي لها وبين ما يمليه على إحساسي بالواجب في الشئون الخارجية : فالواقع أني أري فيهما بذرة الخيانة للملك والبلد الذي أخدمه.

كيف كان يمكن لبروسي تقليدي أن يستجيب لاقتراح يقول أن القومية البروسية تسمو على مبدأ الشرعية ، وأنه إذا تطلبت الظروف فهل يمكن أن يصل إيمان جيل بوحدة القيم المحافظة إلى حد الخيانة ؟ وقد تسبب عناد بسمارك الشديد في سد الطريق أمام كل طرق الهروب

الفكري رافضا في البدء مقولة جيرلاخ إن الشرعية كانت هي مصلحة بروسيا القومية ولذلك فنابليون هو العدو الدائم لبروسيا :

يمكنني أن أرفض ذلك – ولكن حتى لو كنت أنت على حق فأنا لا يمكنني أن أعتبر أنه من الحكمة سياسيا أن ندع دولا أخرى تطلع على مخاوفنا في وقت السلم . وحتى يحدث ما تتنبأ به من انفصال في العلاقات فإني أعتقد أنه من المفيد أن نشجع الاعتقاد ..بأن التوتر مع فرنسا ليس خطأ أساسيا في طبيعتنا.. .

وبمعني آخر فإن السياسة الواقعية تتطلب مرونة تكتيكية ، والمصلحة القومية البروسية كانت تتطلب الإبقاء على طريق عقد صفقة مع فرنسا مفتوحا . فموقف المساومة لبلد ما يعتمد على الخيارات التي ترى أمامها . وإغلاق الطريق أمام هذه الخيارات يسهل من حسابات العدو ويقلص حسابات أولئك الذين يمارسون السياسة الواقعية .

وفي عام ١٨٦٠ أصبح من المستحيل رأب الصدع بين جيرلاخ وبسمارك حول قضية موقف بروسيا من الحرب بين فرنسا والنمسا بسبب إيطاليا . وبالنسبة لجيرلاخ كانت الحرب قد أزالت كل شك وكان هدف نابليون الحقيقي هو أن يهيئ المسرح للعدوان على طريقة أول بونابرت فرنسي . وبهذا استحث جيرلاخ بروسيا على تأييد النمسا . وبدلا من ذلك فقد رأي بسمارك الفرصة –وهي أنه إذا أرغمت النمسا على التراجع من إيطاليا ، فيمكن أن يكون ذلك بشيرا بطردها نهائيا من ألمانيا أيضا . وبالنسبة لبسمارك كانت معتقدات جيل ميترنيخ قد تحولت إلى مجموعة خطيرة من المثبطات :

أنا أبقى مع ملكي أو أسقط معه ، حتى لو كان فى رأيي أنه يقضي على نفسه بغباء ، ولكن بالنسبة لي فإن فرنسا ستظل هي فرنسا ، ولو كان يحكمها نابليون أو سانت لويس ، وسوف تظل النمسا بالنسبة لي بلدا أجنبيا ... أنا أعرف أنك سوف ترد على قائلا أن الحقيقة والحق لا يمكن أن ينفصلا ، وأن انتهاج سياسة بروسية صحيحة يتطلب الطهارة في الشئون الخارجية حتى لو كان ذلك من وجهة نظر المنفعة . أنا على استعداد لأن أناقش معك مسألة المنفعة هذه ، ولكنك إذا طرحت قضية التعارض بين الحق والثورة ، والمسيحية والكفر ، والله والشيطان، فلن أستطيع أن أتجادل معك بعد ذلك ولا يمكنني إلا أن أقول إني لست من رأيك وأنت تحكم علي ما بي وما بي هذا ليس ملكك لتحكم عليه.

هذا الإعلان المرير بالإيمان كان المقابل العملي لتأكيد ريشيليو بأنه لما كانت الروح خالدة فإن الإنسان يجب أن يخضع لحكم الله، ولكن الدول بما أنها ليست خالدة فلا يمكن أن يحكم عليها إلا بأعمالها الناجحة . وبسمارك مثل ريشيليو لم يرفض وجهات نظر جيرلاخ الأخلاقية على أنها مقولات شخصية تدل على الإيمان – وهو على الأرجح اتفق معه في كثير

منها ولكنه أنكر أن لها صلة بواجبات الحكم إذا توسع المرء في توضيح الفارق بين العقيدة الشخصية والسياسة الواقعية :

لم أسع إلى خدمة الملك ... إن الله الذي وضعني بشكل غير متوقع في هذه الخدمة سوف يبين لي على الأرجح طريق الخروج منها ولن يترك روحي تهلك . قد أجنح إلى المبالغة في تقدير قيمة هذه الحياة بشكل غريب ... لو لم أكن مقتنعا أنه بعد ثلاثين عاما لن تكون هناك أهمية لأي نجاح سياسي حققته أنا أو حققته بلدي في أوروبا . ويمكنني حتى أن أتمعن في فكرة أنه في يوم ما سوف يحكم الجيزويت غير المؤمنين مركز بروسيا بصورة من الاستبدادية البونابرتية ... أنا ابن أزمنة مختلفة عنك ولكني صادق مع زماني كما أنت صادق مع زمانك.

هذا الهاجس المتخوف من مصير بروسيا لم يكن له صدي بعد قرن من الزمان من الرجل الذي يدين له بسمارك بنجاحه في مهنته .

لقد كان بسمارك، حقا وليد عصر مختلف عن عصر معلمه السابق . فبسمارك ينتمي إلى عصر السياسة الواقعية التي تشكلت في فترة ميترنيخ . لقد كان نظام ميترنيخ انعكاسا لمفهوم القرن الثامن عشر عن العالم بوصفه ساعة ضخمة مكونة من أجزاء وتروس متشابكة يتسبب عطل أي جزء منها في عطل الأجزاء الأخرى . لقد كان بسمارك يمثل العصر الجديد في كل من العلم والسياسة . وقد نظر إلى العالم ليس بوصفه توازنا ميكانيكيا بل رآه في صورته الحديثة.. على أنه عالم يتكون من جزيئات متدفقة يحدث أثر كل منها على الآخر ما ندركه نحن كحقيقة . وكانت الفلسفة البيولوجية المماثلة لتلك الفلسفة هي نظرية داروين في النشوء والارتقاء القائمة على حقيقة البقاء للأقوى .

وقد أعلن بسمارك مدفوعا بمثل تلك الاعتقادات أن هناك تناسبا بين كل العقائد بما في ذلك الاعتقاد باستمرارية بقاء وطنه . فقد كان من واجب القائد السياسي في عالم السياسة الواقعية أن يقيم الأفكار بوصفها قوى في علاقتها بكل القوى الأخرى التي لها صلة باتخاذ القرار ؛ وكذلك يقيم العناصر المختلفة اللازمة من حيث صلاحيتها لخدمة المصلحة القومية وليس من حيث تناسبها مع المذاهب التي تكونت فكرتها سلفا .

ورغم ذلك فمهما كانت قد ظهرت لبسمارك فلسفة شديدة التحجر ، فهذه الفلسفة بنيت على أساس حجة من حجج العقيدة يستحيل إثباتها مثل افتراضات جيرلاخ المنطقية – أي أن التحليل الدقيق لمجموعة من الظروف المعينة لابد أن يؤدي بالضرورة بالقادة السياسيين إلى أن يصلوا جميعا إلى نفس النتائج . ومثلما وجد جيرلاخ أنه لا يمكن أن يتصور أن مبدأ الشرعية لايمكن الخروج منه بأكثر من تفسير واحد ، فقد كان بعيدا على بسمارك أن يفهم أن

القادة السياسيين قد يختلفون في طريقة تقييمهم للمصلحة القومية . وبسبب فهمه الرائع للفوارق الدقيقة بين القوة ونتائجها استطاع بسمارك في حياته أن يستعيض عن القيود الفلسفية لنظام ميترنيخ بسياسة ضبط النفس . ولأن هذه الفوارق الدقيقة لم تكن بالطبع واضحة من تلقاء نفسها بهذا الشكل لخلفاء بسمارك ومقلديه ، فإن التطبيق الحرفي لسياسة الواقعية أدى إلى اعتمادهم الزائد على القوة العسكرية ومن هناك إلى سباق التسلح ثم إلى حربين عالميتين .

النجاح كثيرا ما يكون مراوغا حتى أن القادة السياسيين الذين يحاولون تحقيق النجاح نادرا ما يهتمون بأن يفكروا أن هذا النجاح قد يفرض عليهم عقوباته الخاصة . ولذلك كان بسمارك في بداية حياته الوظيفية مشغول البال أساسا بتطبيق السياسة الواقعية لتدمير العالم الذي وجده والذي كانت مبادئ ميترنيخ مازالت تسيطر عليه إلى حد كبير . وكان هذا يتطلب أن تبعد بروسيا عن ذهنها تماما فكرة أن زعامة النمسا في ألمانيا لها أهمية حيوية بالنسبة لأمن بروسيا ومهمة كذلك لحماية القيم المحافظة أي القيم التي تقاوم التغيير . ومهما كان ذلك صحيحا فإنه في وقت انعقاد مؤتمر فيينا في منتصف القرن التاسع عشر لم تكن بروسيا في حاجة إلى حلف النمسا للمحافظة على الاستقرار الداخلي أو الهدوء الأوروبي والواقع ، طبقا لبسمارك، أن وهم الحاجة إلى حلف نمساوي ساعد قبل كل شيء على منع بروسيا من المضي في تحقيق هدفها النهائي بتوحيد ألمانيا .

وكما رأى بسمارك فإن تاريخ بروسيا كان تاريخا حافلا بأدلة تساند مطالبه بأن تكون لبروسيا السلطة العليا في ألمانيا كما يؤكد تاريخ بروسيا أنها لديها القدرة على الوقوف وحدها . لأن بروسيا لم تكن مجرد ولاية ألمانية أخرى فقط . ومهما كانت سياساتها الداخلية المحافظة فإن هذه السياسات لا يمكن أن تطفئ بريق الشهرة القومية الذي اكتسبته من خلال تضحياتها الرائعة في حروب التحرير ضد نابليون . وكان الأمر كأن حدود بروسيا ذاتها – إذ كانت عبارة عن مساحة من الأرض محاطة بأراض أجنبية ذات أشكال غريبة تمتد من سهل ألمانيا الشمالي من نهر الفيستولا Vistula إلى غرب الراين – قد قدرت لها أن تنتزع المطالبة بالوحدة الألمانية، حتى في نظر الليبراليين .

غير أن بسمارك ذهب أبعد من ذلك . فقد تحدى الحكمة التقليدية التي ساوت بين القومية والليبرالية أو على الأقل بالاقتراح الذي يقول أن الوحدة الألمانية لا يمكن تحقيقها إلا من خلال مؤسسات ليبرالية :

لم تصبح بروسيا قوة كبيرة عن طريق الليبرالية والفكر الحر ولكن عن طريق سلسلة متتابعة من الملوك الأقوياء الحاسمين الحكماء قاموا بعناية بتنمية الموارد العسكرية والمالية للدولة وتحكموا فيها كي يلقوا بها في بسالة بلا رحمة في ميزان السياسات

الأوروبية كلما سنحت الفرصة المناسبة لذلك. . .

لم يعتمد بسمارك على المبادئ المحافظة بل على الطابع الفريد للمؤسسات البروسية . واستند في مطالب بروسيا بأن تكون لها القيادة في ألمانيا على قوتها وليس على قيم عالمية، وكان بسمارك يرى أن المؤسسات البروسية تمثل سدا منيعا ضد النفوذ الخارجي حتى أن بروسيا كان يمكنها أن تستغل التيارات الديمقراطية في تلك الفترة كأدوات للسياسة الخارجية وذلك بأن تهدد بتشجيع مزيد من حرية التعبير في الداخل – وليس من المهم أن تلك السياسة لم يمارسها أحد من الملوك البروسيين خلال أربعة عقود :

إن الإحساس بالأمن الذي يكمن في أن يظل الملك سيدا في بلده حتى لو كان الجيش كله بعيدا عن البلد، إحساس لا تشترك فيه بروسيا مع أي ولاية في أوروبا أو أي ولاية ألمانية أخرى . وهذا الإحساس يهيأ الفرصة لقبول تطوير الشئون العامة بطريقة تتماشى بقدر أكبر مع المتطلبات الراهنة ... إن السلطة الملكية في بروسيا أساسها متين حتى أن الحكومة يمكنها دون التعرض للخطر أن تشجع على مزيد من حيوية النشاط البرلماني وبذلك تمارس الضغط على الأوضاع الاجتماعية في ألمانيا.

لقد رفض بسمارك رأي ميترنيخ القائل إن الشعور المشترك بسهولة تعرض الملوك الشرقيين الثلاثة في أوروبا للخطر يتطلب اتحادا وثيقا بينهم . غير أن القضية كانت عكس ذلك تماما. فلما كانت بروسيا غير مهددة بأي اضطرابات داخلية فإن تمسكها ذاته كان سلاحا تستطيع به أن تقوض تسوية فيينا وذلك بأن تهدد الدول الأخرى ولاسيما النمسا بسياسات من شأنها أن تثير ثورانا داخليا فيها . وبالنسبة لبسمارك كانت قوة مؤسسات بروسيا الحكومية والعسكرية ومؤسساتها المالية هي التي فتحت الطريق أمام سيطرة بروسيا على ألمانيا . وعندما عُين بسمارك سفيرا لدى مجلس الاتحاد في عام ١٨٥٢ ثم سفيرا لدى سانت بيترسبيرج في عام ١٨٥٨ كان قد ارتقى إلى مناصب ساعدته على أن يدافع عن سياساته، وكانت تقاريره التي يكتبها بدقة وتناسق تحث على انتهاج سياسة خارجية لا تقوم على أساس العواطف أو الشرعية بل تقوم على أساس تقييم صحيح للقوة . وبهذا الأسلوب عاد بسمارك إلى تقاليد حكام القرن الثامن عشر مثل لويس الرابع عشر وفريدريك الأكبر . وقد أصبح تعزيز نفوذ الدولة الهدف الرئيسي إن لم يكن الهدف الأول الذي لا تقيده إلا القوى المتجمعة ضده :

السياسة العاطفية لا تتبادل ، إنها شيء غريب خاص ببروسيا وحدها.

بالله ليست هناك أحلاف عاطفية يكون فيها الوعي بأداء عمل طيب هو المكافأة الوحيدة لتضحيتنا.

. . . السياسة هي فن الممكن ، وعلم النسبي.

ولا الملك حتى له الحق في إخضاع مصالح الدولة لأهوائه ولما يحب وما يكره.

وكان في تقدير بسمارك أن السياسة الخارجية لها تقريبا أساس علمي، مما يجعل في الإمكان تحليل المصلحة القومية من حيث إنها معيار موضوعي . ومن هذه الحسبة برزت النمسا كبلد أجنبي وليس كبلد شقيق ، وكعقبة قبل كل شيء أمام منزلة بروسيا الصحيحة في ألمانيا : ليست هناك ساحة نستعرض فيها سياستنا سوى ألمانيا وهذا هو بالتحديد المكان الذي تعتقد النمسا أنها تتطلبه لنفسها بشدة... إن كل منا يحرم الآخر من الهواء الذي يحتاجه ليتنفس . . . وهذه حقيقة لا يمكن تجاهلها مهما كانت بغيضة.

كان أول ملك بروسي يخدمه بسمارك كسفير هو فريدريك ويليام الرابع وكان هذا الملك ممزقا بين نزعة جيرلاخ المحافظة الشرعية وبين الفرص التي توفرها سياسة بسمارك الواقعية . وقد أصر بسمارك على أن احترام الملك الشخصي للولاية الألمانية المهيمنة والمتفوقة تقليديا لا يجب أن يضع حظرا على سياسة بروسيا . ولما كانت النمسا لن تقبل أبدا هيمنة بروسيا على ألمانيا فإن استراتيجية بسمارك كانت هي إضعاف النمسا بكل الطرق . ففي عام ١٨٥٤ أثناء حرب القرم حث بسمارك على أن تستغل بروسيا قطع الانفصال بين النمسا وروسيا وتهاجم من كان مازال شريكا لبروسيا في الحلف المقدس بدون أي تبرير لذلك أكثر من أن الفرصة كانت مواتية :

لو أمكننا أن ننجح في أن نصل بفيينا (عاصمة النمسا) إلى النقطة التي لا يعتبر فيها شن هجوم من جانب بروسيا على النمسا أمرا بعيد الاحتمال فسرعان ما سنسمع من هناك عن أشياء معقولة بقدر كبير. . .

وفي عام ١٨٥٩ أثناء حرب النمسا مع فرنسا وبييدمونت عاد بسمارك إلى نفس الموضوع:

مرة أخرى يقدم لنا الموقف الحالي الجائزة الكبرى وذلك لو تركنا الحرب بين النمسا وفرنسا تستمر ثم بعد ذلك نتحرك جنوبا بجيوشنا ونستولي على مراكز الحدود حتي نصل إلى بحيرة كونستانس Constance أو على الأقل إلى المناطق التي لم يعد يسيطر عليها الاعتراف البروتستانتي.

كان ميترنيخ سيعتبر ذلك هرطقة ، ولكن فريدريك الأكبر كان سيصفق لتلميذه الذي اقتبس عنه بذكاء منطقه الشخصي لغزو سيليسيا . Silesia

وقد أخضع بسمارك ميزان القوى الأوروبي لنفس التحليل النسبي البارد كما فعل مع الموقف الألماني الداخلي . وفي ذروة حرب القرم حدد بسمارك الخيارات الرئيسية المتاحة

أمام بروسيا :

متاح أمامنا ثلاثة تهديدات(١) : عقد حلف مع روسيا ، ومن الحماقة دائما أن نقسم بلا تردد أننا لن نتفق أبدا مع روسيا . وحتى لو كان ذلك حقيقية فينبغي أن نحتفظ بهذا الخيار لنستخدمه كتهديد(٢). سياسة نلقي فيها بأنفسنا بين أحضان النمسا ونكافئ أنفسنا على حساب المتحالفين (الألمان) الخونة(٣). تغيير الوزارات إلى اليسار وبذلك سرعان ما نصبح غربيين مما يمكننا من أن نتغلب على مناورات النمسا تماما .

وفي نفس الرسالة وردت كذلك خيارات بروسية لها أهميتها : حلف مع روسيا ضد فرنسا (من المفروض أن يقوم على أساس وحدة مصالح المحافظين)؛ وضع ترتيبات مع النمسا ضد الولايات الألمانية الثانوية (من المفترض أيضا أن تكون ضد روسيا) ، وانتقال إلى الليبرالية موجه داخليا ضد النمسا وروسيا (من المفترض أن يكون بالاشتراك مع فرنسا) وقد شعر بسمارك ، مثل ريشيليو أنه غير مقيد في اختياره لشركائه ، ولما كان على استعداد للتحالف مع روسيا أو النمسا أو فرنسا والاختيار الذي يحدده يعتمد على أي منهما سيخدم بقدر أكبر المصالح القومية البروسية . ورغم أن بسمارك كان عدوا لدودا للنمسا فقد كان على استعداد لبحث وضع ترتيبات مع فيينا مقابل تعويض مناسب في ألمانيا . ورغم أنه كان محافظا متشددا في الشئون الداخلية فلم ير بسمارك أن هناك عقبة أمام الانتقال بسياسة بروسيا الداخلية إلى اليسار مادام ذلك يخدم غرضا من أغراض السياسة الخارجية . لأن السياسة الداخلية أيضا كانت أداة للسياسة الخارجية الواقعية .

لقد حدثت بالطبع محاولات لتغيير ميزان القوى حتى في ذروة نظام ميترنيخ . ولكنه كان لا بد عندئذ من بذل كل جهد لإضفاء الشرعية على التغيير عن طريق إجماع الآراء الأوروبي . لقد سعى نظام ميترنيخ إلى إدخال التعديلات عن طريق المؤتمرات الأوروبية لا عن طريق سياسة خارجية تتبع منطق التهديد والتهديد المضاد . أما بسمارك فكان آخر شخص يرفض فعالية الإجماع الأخلاقي . غير أن ذلك كان بالنسبة له عنصرا واحدا من عناصر القوة من بين عناصر أخرى كثيرة . فاستقرار النظام الدولي اعتمد بشكل خاص على هذا الفارق الدقيق . والضغط من أجل التغيير بدون المبالغة التي قد تصل إلى الثناء على العلاقات التعاهدية القائمة أو القيم المشتركة ، أو الحلف الأوروبي كان بمثابة ثورة دبلوماسية . وفي الوقت المحدد ، فإن تحويل القوة بحيث تصبح المعيار الوحيد جعل الأمم جميعا تدخل في سباق للتسلح وتنتهج سياسات خارجية تعتمد على المواجهة.

وقد ظلت آراء بسمارك آراء أكاديمية (غير عملية) طالما أن العنصر الرئيسي في تسوية فيينا وهو وحدة الملوك الثلاثة في بروسيا والنمسا وروسيا ، ظل سليما كما هو ، وطالما

ومادامت بروسيا وحدها لم تجرؤ على تمزيق تلك الوحدة . وقد انهار الحلف المقدس بصورة غير متوقعة وبسرعة مذهلة بعد حرب القرم ، عندما تخلت النمسا عن إغفال اسمها الأمر الذي كان قد مكن ميترنيخ من إبعاد الأزمة عن إمبراطوريته المترنحة والانحياز بعد كثير من التردد إلى أعداء روسيا . لقد فهم بسمارك على الفور أن حرب القرم قد تسببت في ثورة دبلوماسية . وقال ميترنيخ إن يوم الحساب لا بد قادم حتى ولو في غضون سنوات قلائل.

والواقع أنه ربما كانت أهم وثيقة ذات صلة بحرب القرم هي رسالة من بسمارك يحلل فيها الموقف عند انتهاء الحرب عام ١٨٥٦. وبالطبع فإن الرسالة اتسمت بالمرونة المثالية للأسلوب الدبلوماسي وغياب تام للتردد في انتهاز الفرص . وقد سمى المؤرخون الألمان رسالة بسمارك عن حق الرسالة الأساسية. لأنه جمع فيها جوهر السياسة الواقعية رغم أنها كانت رسالة جريئة للغاية للموجهة إليه ، رئيس وزراء بروسيا ، أوتو فون مانتوفيل Otto Von Manteuffel الذي أظهرت تعليقاته التي كتبها على هامش الرسالة أنه لم يكن مقتنعا بما جاء فيها .

بدأ بسمارك الرسالة بعرض لموقف نابليون المواتي الأثير الغريب في نهاية حرب القرم ، وقال إنه لذلك فإن كل ولايات أوروبا سوف تسعى لصداقة فرنسا . وروسيا هي أكبر من يحتمل أن ينجح في ذلك :

إن حلفا بين روسيا وفرنسا أمر طبيعي للغاية حتى أنه لا يجب أن يسمح بقيامه ... وحتى الآن فإن صلابة الحلف المقدس ...هي التي أبقت الولايتين منفصلتين عن بعضهما : غير أنه بموت القيصر نيكولاس وحل الحلف المقدس بواسطة النمسا لا يبقى شيء يوقف التقارب الطبيعي بين الولايتين اللتين ليست بينهما مصلحة متضاربة واحدة.

ورأي بسمارك أن النمسا كانت قد ساقت نفسها إلي فخ لن تستطيع الخروج منه بأن تسابق القيصر إلى باريس . ولكي يحتفظ نابليون بتأييد جيشه فستلزمه قضية ما تزوده في أسرع وقت بمبرر للتدخل لا يكون مجردا من العدل وليس فيه تحكم مبالغ فيه . وإيطاليا هي الدولة المثالية المناسبة لهذا الدور . فطموحات سردينيا والذكريات عن بونابرت وميرات Murat تعتبر مبررات كافية ثم إن كراهية روسيا سوف تمهد الطريق.

وكان هذا بالطبع ما حدث على وجه التحديد بعد ذلك بثلاث سنوات . كيف يمكن لبروسيا أن تتخذ موقفا في ضوء حتمية التعاون بين فرنسا وروسيا واحتمالات نشوب نزاع بين فرنسا والنمسا ؟ وطبقا لنظام ميترنيخ فقد كان يجب على بروسيا أن تعزز تحالفها مع النمسا المحافظة ، وتعزز الاتحاد الكونفيدرالي الألماني ، وتقيم علاقات قوية مع بريطانيا العظمى وتحاول إبعاد روسيا عن نابليون .

وقد هدم بسمارك كل تلك الخيارات كل بدوره . فقد كانت القوات البرية البريطانية هزيلة للغاية لدرجة لا يمكن معها أن تكون ذات فائدة في الوقوف ضد حلف بين فرنسا وروسيا . وسوف ينتهي الأمر بالنمسا وبروسيا إلى أن يتحملا وطأة القتال . وحتى الاتحاد الكونفيدرالي الألماني لم يكن في إمكانه أن يضيف أي قوة حقيقية في هذا الصدد :

بمساعدة روسيا بروسيا والنمسا يمكن على الأرجح للاتحاد الكونفيدرالي الألماني أن يتماسك لأنه سيؤمن بتحقيق النصر حتى بدون تلك المساعدة ، ولكن في حالة حرب ذات جبهتين نحو الشرق والغرب ،فإن أولئك الأمراء الذين ليسوا تحت سيطرة حرابنا سوف يحاولون إنقاذ أنفسهم عن طريق إعلان حيادهم إذا لم يظهروا في الميدان ضدنا.

رغم أن النمسا كانت الحليف الرئيسي لبروسيا طيلة جيل بأكمله فقد كانت في ذلك الوقت تمثل في نظر بسمارك شريكا غير مناسب ، وكانت قد أصبحت العقبة الرئيسية أمام نمو بروسيا : ألمانيا صغيرة جدا لا تتسع لنا نحن الاثنين .. طالما أننا نحرث نفس الأرض إن النمسا هي الولاية الوحيدة التي ونحن ضدها نحقق مكاسب دائمة ونتكبد ونحن معها خسائر دائمة.

وقد وجد بسمارك حلا لأي جانب من جوانب العلاقات الدولية التي كان يبحثهافقال إن بروسيا أرادت قطع روابطها الاتحادية مع النمسا وأن تتبع سياسات ضد سياسات عصر ميترنيخ وذلك لكي تضعف حليفها السابق في كل مناسبة : عندما تضع النمسا فرسا في المقدمة نضع نحن فرسا في المؤخرة.

إن لعنة النظم الدولية المستقرة هي عجزها التام تقريبا عن رؤية التحديات القاتلة التي تواجهها . والنقطة العمياء عند الثوريين هي اعتقادهم أنهم يمكنهم أن يجمعوا بين كل مزايا أهدافهم وأفضل شيء في النظم التي يطيحون بها . ولكن القوى التي تطلقها الثورة لها وقعها الخاص ، ولا يمكن بالضرورة الاستدلال على الاتجاه الذي ستسير فيه من التصريحات التي يدلي بها المؤيدون لها .

وهكذا كان الحال مع بسمارك . ففي غضون خمس سنوات من توليه السلطة عام ١٨٦٢ أزاح عن الطريق العقبة النمساوية أمام الوحدة الألمانية بأن نفذ نصيحته الخاصة التي قدمها في العقد السالف . وخلال الحروب الثلاثة التي ورد ذكرها من قبل في هذا الفصل قام بطرد النمسا من ألمانيا ودمر أوهام ريشيليو المتبقية في فرنسا .

ولم تجسد ألمانيا الموحدة الجديدة مثاليات الجيلين الألمانيين الذين كانا يأملان في بناء دولة دستورية ديمقراطية . والواقع أنها لم تعكس صورة أي عنصر هام سابق من الفكر

الألماني إذ أنها خرجت إلى الوجود كاتفاق دبلوماسي بين ملوك ألمان ولم توجد كتعبير عن الإرادة الشعبية واستمدت شرعيتها من القوة البروسية وليس من مبدأ تقرير المصير الوطني، ورغم أن بسمارك حقق ما كان يريده فإن حجم انتصاره وحده رهن مستقبل ألمانيا بل والواقع أنه رهن أيضا النظام العالمي الأوروبي . ولا شك أنه كان معتدلا للغاية عندما أنهي حروبه كما كان قاسيا لا يرحم عندما كان يعد لتلك الحروب . وبمجرد أن وصلت ألمانيا إلى الحدود التي رآها بسمارك حيوية لأمنها انتهج الرجل سياسة خارجية حكيمة متوازنة ، وقد ظل طيلة عقدين يحدد التزامات أوروبا ومصالحها بصورة رائعة على أساس السياسة الواقعية ولمصلحة السلام في أوروبا .

لقد توحدت ألمانيا نتيجة لدبلوماسية افترضت مقدما اتباع اتجاهات تكيف غير محدودة. ومع ذلك فإن نجاح تلك السياسة في حد ذاته انتزع كل المرونة من النظام الدولي . فقد قل عدد المشاركين فيه الآن . وعندما يقل عدد اللاعبين فإن القدرة على إجراء التعديلات تتضاءل ، وقد ضم النظام الجديد عناصر أساسية أقل عددا وأثقل وزنا مما جعل من الصعب التفاوض من أجل الوصول إلى توازن مقبول عموما أو الإبقاء عليه بدون اختبارات دائمة للقوة .

وقد تضخمت مشكلات التكيف بسبب مدى الانتصار البروسي في الحرب البروسية الفرنسية وبسبب طابع الصلح الذي أنهي تلك الحرب .

فقد تسبب ضم ألمانيا لإقليم الألزاس واللورين في ظهور مشاعر عداوة فرنسية نحو ألمانيا لم يكن من الصعب التخلص منها وقضت على أي خيار لتعامل ألمانيا دبلوماسيا مع فرنسا.

وفي خمسينيات القرن التاسع عشر ١٨٥٠ رأي بسمارك أن خيار التعامل دبلوماسيا مع فرنسا ضروري للغاية حتى أنه ضحى بصداقته لجيرلاخ كي يعزز هذا الاختيار . وبعد ضم إقليم الألزاس واللورين اشتدت العداوة الفرنسية وتحولت إلي الخطأ الأساسي في طبيعتنا الأمر الذي حذر منه بسمارك بصفة مستمرة . وحال ذلك دون انتهاج السياسة التي ورد ذكرها في الرسالة الأساسية Master Dispatch سياسة الابتعاد إلى أن تكون الدول الأخرى قد تورطت فعلا ، ثم بعد ذلك بياع التأييد البروسي لمن يعرض فيه ثمنا أكبر .

لقد نجح الاتحاد الكونفيدرالي الألماني في التصرف كوحدة واحدة فقط في وجه التهديدات التي بلغت من العنف حدا قضت معه على المنافسات بين مختلف الولايات ؛ وأصبح العمل العدواني المشترك صعبا من الناحية التنظيمية . وكانت صعوبة تلك الترتيبات أحد الأسباب التي دفعت ببسمارك إلى أن يصر على أن تقام الوحدة الألمانية بقيادة بروسيا . غير أنه دفع أيضا ثمنا لتلك الترتيبات الجديدة . فبمجرد أن تحولت ألمانيا من ضحية ممكنة للعدوان إلى مصدر تهديد للتوازن الأوروبي ، أصبحت الاحتمالات البعيدة بأن تتحد الولايات الأخرى في

أوروبا ضد ألمانيا احتمالات حقيقية . وهذا الكابوس كان الدافع إلى انتهاج سياسة ألمانية سرعان ما قسمت أوروبا إلى معسكرين متعاديين.

وكان القائد السياسي الأوروبي الذي أدرك على وجه السرعة أثر الوحدة الألمانية هو بنيامين دزرائيلي Benjamin Disraeli الذي كان على وشك أن يصبح رئيسا لوزراء بريطانيا . ففي عام ١٨٧١ قال ما يلي عن الحرب الفرنسية البروسية :

إن هذه الحرب تمثل الثورة الألمانية : حدث سياسي أعظم من الثورة الفرنسية في القرن الماضي ...فليس هناك تقليد دبلوماسي لم يستبعد .. وأصبح لدينا عالم جديد .. ولقد تم القضاء على ميزان القوى قضاء تاما. وبينما كان بسمارك يوجه مقاليد الأمور اختفت تلك المعضلات بسبب دبلوماسيته البارعة الدقيقة . ومع ذلك فعلى المدى الطويل فإن تعقيد ترتيبات بسمارك بصفة خاصة كان السبب في أن مصير تلك الترتيبات كان الإخفاق. وكان دزرائيلي على صواب . لقد أعاد بسمارك تشكيل الخريطة الأوروبية ونمط العلاقات الدولية غير أنه في النهاية لم يستطع أن يضع تصميما يمكن لخلفائه أن يتبعوه . وبمجرد أن أصبحت تكتيكات بسمارك شيئا قديما لجأ خلفاؤه ومنافسوه إلى ما يكفل لهم الأمان، وذلك بمضاعفة حيازتهم للسلاح كوسيلة لتقليل اعتمادهم على جوانب الدبلوماسية المحيرة غير الملموسة . وكان عجز المستشار الحديدي عن إرساء قواعد لسياسته سببا في أن اضطرت ألمانيا إلى الدخول في طاحونة دبلوماسية لم تتمكن من الهروب منها إلا بسباق التسلح أولا ثم بالحرب .

وفي سياسته الداخلية بالمثل ، لم يتمكن بسمارك من وضع نموذج يمكن لخلفائه أن يتبعوه. وقد ازداد غموض شخصية بسمارك ، وهو شخص كان منعزلا في حياته ، بعد أن اختفي من مسرح الأحداث واكتسب أبعادا أسطورية . وقد ظل معاصروه يتذكرون الحروب الثلاثة التي حققت الوحدة الألمانية ولكنهم نسوا الاستعدادات المضنية التي سبقت تلك الحروب وجعلت في الإمكان نشوبها ،و الاعتدال الذي كان مطلوبا لجني ثمارها . لقد شاهدوا عروضا للقوة ولكن دون أن يدركوا التحليل الدقيق الذي استندت إليه .

وكان الدستور الذي وضعه بسمارك لألمانيا قد تسبب في مضاعفة تلك الاتجاهات . فرغم أنه وضع على أساس أول حق عالمي للرجل في الاقتراع في أوروبا إلا أن البرلمان (الريشتاج) Reichstag لم يكن يسيطر على الحكومة التي كان يعينها الإمبراطور ولا يمكن أن يقيلها إلا هو . وكان المستشار أقرب إلى كل من الإمبراطور والريشتاج أكثر من قرب أي منهما للآخر . ولذلك كان يمكن لبسمارك في حدود معينة أن يتلاعب بالمؤسسات الداخلية في ألمانيا كل

ضد الأخرى ، كما فعل مع الولايات الأخرى في سياسته الخارجية ولم يكن هناك من خلفاء بسمارك من أوتي المهارة ولا الشجاعة ليفعل ذلك . وكانت النتيجة أن النزعة القومية التي لم تمتزج بالديمقراطية تحولت إلى نزعة مغالية في الوطنية. بينما الديمقراطية بلا مسئولية أصابها العقم . ولعل أفضل ما عبر عن جوهر حياة المستشار هو خطاب كتبه بنفسه إلى السيدة التي كانت ستصبح زوجته في المستقبل :

إن ذلك الشيء الذي يفرض نفسه هنا على الأرض .. فيه دائما قدر من صفات الملاك الساقط وهو ملاك جميل ولكنه لا يشعر بالسلام ، عظيم في مفاهيمه وأعماله ولكن بدون نجاح ، وهو متغطرس ووحيد .

إن الثوريّين اللذين وقفا في البداية يؤيدان نظام الدولة الأوروبية المعاصرة كانا تجسيدا لكثير من معضلات العصر الحديث ، وكان نابليون الثوري المتردد يمثل النزعة إلى توجيه السياسة نحو العلاقات العامة . أما بسمارك الثوري المحافظ فكان يمثل النزعة التي تربط بين السياسة وتحليل القوة .

وكانت لدى نابليون أفكار ثورية ولكنه تراجع عنها قبل التورط فيها . ولما كان قد قضى شبابه فيما يسميه القرن العشرين «الاحتجاج» فهو لم يعبر أبدا الفجوة بين صياغة الفكرة وتنفيذها . ولما كان غير واثق من أهدافه وفي الواقع غير واثق من الشرعية التي كان يدعو إليها فقد استند إلى الرأي العام لسد تلك الفجوة . لقد مارس نابليون سياسته الخارجية بأسلوب القادة السياسيين العصريين الذين يقيسون نجاحهم برد الفعل في نشرة أخبار المساء في التليفزيون . ومثلهم جعل نابليون نفسه سجينا لما هو تكتيكي محض وركز على الأهداف قصيرة الأجل والنتائج الفورية ، ساعيا إلى التأثير في شعبه عن طريق تضخيم الضغوط التي عمل هو على إيجادها . وفي أثناء ذلك خلط السياسة الخارجية بحركات السحرة والمشعوذين . لأن الحقيقة في النهاية وليست الدعاية هي التي تقرر ما إذا كان القائد قد اختلف عن غيره .

والشعوب على المدى الطويل لا تحترم القادة الذين يعكسون صورة انعدام شعور هذه الشعوب بالأمان أو يرون فقط أعراض الأزمة وليس الاتجاهات في الأجل الطويل . ودور القائد هو أن يتحمل عبء التصرف على أساس الثقة في تقييمه لاتجاهات الأحداث وكيف يمكن التأثير فيها . وإذا فشل في ذلك فسوف تتضاعف الأزمات ، وتلك طريقة أخرى لأن نقول إن القائد فقد السيطرة على الأحداث . وقد اتضح أن نابليون كان بشيرا بظاهرة غريبة حديثة – الشخصية السياسية التي تسعى بشكل مفرط لتحدد ما يريده الناس ورغم ذلك تكون نهايته أن يرفض بل وحتى يحتقر .

ولم يفتقر بسمارك إلى الثقة في أن يتصرف وفقا لحكمه على مجريات الأمور . فقد حلل

ببراعة الحقيقة الأساسية والفرصة المتاحة أمام بروسيا . وقد رتب الأمور بصورة رائعة فألمانيا التي أقامها تحملت الهزيمة في حربين عالميتين ، وعاشت بعد احتلالين أجنبيين وستين عاما وهي بلد مقسم . وما فشل فيه بسمارك هو أنه حكم على بلده بالإخفاق باتباعه نمطا من السياسة كان يمكن أن يستمر لو ظهر رجل عظيم في كل جيل . ونادرا ما كان الأمر كذلك وقد قاومته مؤسسات ألمانيا الإمبراطورية . وبهذا المعني فإن بسمارك لم يبذر فقط بذور إنجازات بلده بل بذر أيضا بذور مآسيها في القرن العشرين . وقد كتب فون رون صديق بسمارك عنه يقول لا أحد يستطيع أن يأكل من شجرة الخلود بدون عقوبة.

كانت مأساة نابليون هي أن طموحه فاق قدراته . وكانت مأساة بسمارك هي أن قدراته فاقت قدرة مجتمعه على استيعابها . والتركة التي خلفها نابليون لفرنسا هي الشلل الاستراتيجي ، والتركة التي خلفها بسمارك لألمانيا هي العظمة التي لا يمكن استيعابها .



■ مؤتمر فيينا

الفصل السادس

السياسة الواقعية تنقلب على نفسها

السياسة الواقعية – هي السياسة الخارجية القائمة على حسابات القوة والمصلحة القومية – وهي التي حققت توحيد ألمانيا.. وتسبب توحيد ألمانيا في أن تنقلب السياسة الواقعية على نفسها وتسفر عن عكس ما كان مقصودا منها .

وبعد أن توحدت ألمانيا أصبحت أقوى بلد في أوروبا وراحت تزداد قوة في كل عقد، وبذلك أحدثت ثورة في الدبلوماسية الأوروبية، ومنذ ظهور نظام الدولة الحديث في أيام ريشيليو فإن الدول الواقعة عند أطراف أوروبا – بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا –راحت تمارس الضغط على دول وسط أوروبا . والآن لأول مرة يصبح وسط أوروبا قويا بدرجة تتيح له أن يمارس الضغط على دول أطراف أوروبا.. فكيف إذن تتعامل أوروبا مع هذا العملاق الذي ظهر في وسطها ؟

لقد تسببت الجغرافيا في مأزق لا حل له . فوفقا لكل تقاليد السياسة الواقعية فقد كان من المرجح أن تهب الأمم الأوروبية لاحتواء قوة ألمانيا المسيطرة المتزايدة . وحيث إن ألمانيا تقع في وسط أوروبا فقد كانت معرضة بصفة دائمة لخطر ما أسماه بسمارك كابوس الائتلافات العدوانية المحيطة . ولكن إذا حاولت ألمانيا حماية نفسها من ائتلاف لجيرانها – شرقا وغربا – في وقت واحد، فكان من المؤكد أنها ستهدد كلا منها على حدة وبذلك تعجل من تكوين الائتلافات . وأصبحت النبوءات المحققة للذات جزءاً من النظام الدولي . وما كان لازال يسمى الحلف الأوروبي كان في الحقيقة يتمزق بسبب مشاعر العداء بين مجموعتين من الدول : العداوة بين فرنسا وألمانيا ، والعداوة الآخذة في الازدياد بين الإمبراطورية النمساوية – المجرية والإمبراطورية الروسية .

فبالنسبة لفرنسا وألمانيا ، فإن ضخامة النصر الذي حققته بروسيا في حرب عام ١٨٧٠ قد أسفر عن رغبة دائمة لفرنسا في الانتقام . وأسفر ضم ألمانيا لإقليم الألزاس واللورين عن

زيادة حدة مشاعر الاستياء . وسرعان ما امتزج الاستياء بالخوف عندما بدأ القادة الفرنسيون يشعرون أن حرب ١٨٧٠ـ ١٨٧١ كانت علامة على نهاية عصر الهيمنة الفرنسية وعلى حدوث تغيير في انحياز القوى لا رجعة فيه . ولم يعد يصلح الآن نظام ريشيليو الذي يضرب فيه الولايات الألمانية كلا بالأخرى في وسط أوروبا المجزأة . وكانت فرنسا ممزقة بين الذكرى والطموح، فتسامت على إحباطها لما يقرب من خمسين عاما وتابعت في إصرار محاولات استعادة إقليم الألزاس واللورين دون أن ترى أن النجاح في ذلك لن يسفر عن أكثر من إذلال الكرامة الفرنسية دون إحداث أي تغيير في الواقع الاستراتيجي الأساسي . وفي ذلك الوقت لم تكن فرنسا وحدها قوية بحيث تستطيع احتواء ألمانيا ، فمنذ ذلك الوقت فصاعدا كانت تحتاج دائما إلى حلفاء للدفاع عن نفسها . وفوق ذلك فقد جعلت فرنسا نفسها على استعداد دائما لأن تكون حليفة لأي عدو لألمانيا ، وبذلك قيدت من مرونة الدبلوماسية الألمانية وصعدت أي أزمة تكون ألمانيا طرفا فيها .

وقد حدث الانشقاق الثاني بين الإمبراطورية المجرية – النمساوية وروسيا أيضا نتيجة للوحدة الألمانية . ففي عام ١٨٦٢ عندما أصبح بسمارك رئيسا للوزراء طلب من سفير النمسا أن يبلغ امبراطوره بالاقتراح المذهل بأن تنقل النمسا عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة مركز ثقلها من فيينا إلى بودابست. Budapest وقد رأى السفير أن الفكرة غير معقولة ومنافية للعقل. فكتب في تقريره إلى فيينا ربما تكون بسبب إرهاق عصبي.

ومع ذلك فبمجرد أن هزمت النمسا في صراعها من أجل الهيمنة في ألمانيا، فلم يكن أمامها إلا أن تعمل باقتراح بسمارك . وأصبحت بودابست شريكا مساويا إن لم يكن أحيانا مسيطرا على مقاليد الأمور في الملكية الثنائية التي تكونت حديثا .

وبعد أن طردت من ألمانيا لم يكن أمام الإمبراطورية المجرية النمساوية الجديدة طريق للتوسع سوى في البلقان . وحيث إن النمسا لم تكن قد اشتركت في أعمال استعمارية فيما وراء البحار فقد كان قادتها ينظرون إلى البلقان بسكانها السلافيين على أنها الساحة الطبيعية للطموحات الجغرافية السياسية للنمسا – حتى لو لمجرد مجاراة الدول الكبرى الأخرى . وكان النزاع مع روسيا أصيلا في تلك السياسة .

وكان المنطق البسيط يستدعي تحذير قادة النمسا من استثارة النزعة القومية في البلقان.

أو اعتبار روسيا عدوا دائما . غير أن المنطق البسيط لم يكن شائعا بكثرة في فيينا وكان أقل شيوعا في بودابست .وقد شاع الغلو في القومية . وواصلت الوزارة في فيينا المضي في طريق الكسل في الداخل وفي التعرض لنوبات هستيرية في السياسة الخارجية ، الأمر الذي عمل على عزلتها باطراد منذ أيام ميترنيخ .

ولم تر ألمانيا أن لها أية مصالح وطنية في البلقان . ولكنها كانت ترى أن لها مصلحة

كبرى في المحافظة على الإمبراطورية النمساوية المجرية . وكان في انهيار الملكية الثنائية مخاطرة بالتراجع عن سياسة بسمارك الألمانية برمتها . وكان القطاع الكاثوليكي المتكلم بالألمانية في الإمبراطورية سيعمل على الانضمام إلى ألمانيا معرضا هيبة بروسيا البروتستانتية للخطر ، تلك الهيبة التي كافح بسمارك من أجلها كفاحا مريرا . وكان تفكك الإمبراطورية النمساوية من شأنه أن يترك ألمانيا بدون حليف واحد يمكن الاعتماد عليه.

ومن ناحية أخرى فرغم أن بسمارك كان يريد الحفاظ على النمسا فلم تكن لديه رغبة في تحدي روسيا . كان ذلك كله لغزا في إمكانه أن يخفيه لعدة عقود، ولكنه لم يكن من الممكن التغلب عليه تغلبا تاما .

ومما زاد الطين بلة أن الإمبراطورية العثمانية التي كانت واقعة في براثن التفكك البطيء كانت تثير منازعات متكررة بين الدول الكبرى حول تقسيم الغنائم، وقد قال بسمارك ذات مرة أنه في حضور خمسة لاعبين، فمن المرغوب فيه دائما الانضمام إلى الثلاثة . غير أنه عندما كانت فرنسا هي الدولة المعادية من بين الدول الخمس الكبرى – إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وألمانيا ، وكانت إنجلترا غائبة بسبب سياسة العزلة الرائعة التي انتهجتها، وروسيا يكتنفها الغموض بسبب نزاعها مع النمسا ، فقد كانت ألمانيا في حاجة إلى التحالف مع كل من روسيا والنمسا حتى تكون مجموعة الثلاثة. ولم يكن هناك سوى قائد سياسي مثل بسمارك ـ أوتي الإرادة والمهارة ـ يمكنه أن يتصور مثل هذا العمل الذي يتحقق به التوازن . وهكذا أصبحت العلاقة بين ألمانيا وروسيا هي مفتاح السلام في أوروبا .

وبمجرد أن دخلت روسيا الساحة الدولية حققت لنفسها وضعا مسيطرا بسرعة مذهلة . وفي صلح وستفاليا عام ١٦٤٨ لم تكن روسيا قد اعتبرت دولة مهمة بدرجة تكفي لكي تحضر مؤتمر الصلح . غير أنه منذ عام ١٧٥٠ وفيما بعد أصبحت روسيا مشاركا نشطا في كل حرب أوروبية لها خطورتها. وبحلول منتصف القرن الثامن عشر كانت روسيا بالفعل تثير لدى المراقبين الغربيين نوعا من عدم الارتياح الغامض . وفي عام ١٧٦٢ قال القائم بالأعمال الفرنسي في سان بيترسبيرج في تقرير له :

إذا لم يقم أحد بكبح جماح الطموحات الروسية فإن هذه الطموحات قد يكون لها تأثيرات مميتة على الدول المجاورة . . . إني أعرف أنه لا ينبغي قياس درجة القوة الروسية بمدى امتداد أراضيها كما أعرف أن سيطرتها على الأقاليم الشرقية هي مجرد شبح مهيب– أكثر من أنه مصدر لقوة حقيقية . ولكني أيضا أظن أن أمة تستطيع تحمل تقلبات الفصول ذات المناخ القاسي أكثر من أي أمة أخرى ، أمة اعتادت على الطاعة مثل العبيد ولا تحتاج إلا القليل في حياتها تستطيع شن الحروب بثمن بخس ... ولا أظن أن أمة كهذه يمكنها أن تحقق أي نصر...

وفي الوقت الذي عقد فيه مؤتمر فيينا ، كانت روسيا بلا جدال أقوى بلد في القارة . وفي

منتصف القرن العشرين كانت روسيا قد أصبحت إحدى الدولتين الكبيرتين في العالم قبل أن تنفجر من الداخل بعد ذلك بأربعين سنة تقريبا وتفقد في بحر شهور قليلة كثيرا من مكاسبها الضخمة التي حققتها طوال القرنين السالفين.

الطبيعة الاستبدادية لقوة القيصر مكنت روسيا من اتباع سياسة خارجية على نحو تحكمي وعلى حسب مزاج الحاكم الشخصي . ففي غضون ست سنوات بين عام ١٧٥٦و١٧٦٢ دخلت روسيا حرب السبع سنوات إلى جانب النمسا وغزت بروسيا ، ثم تحولت إلى جانب بروسيا عند وفاة الإمبراطورة اليزابيث في يناير عام ١٧٦٢ ثم انسحبت إلى موقف الحياد عندما أطاحت كاترين الكبرى بزوجها في يونيو عام ١٧٦٢ . وبعد ذلك بخمسين سنة يشير ميترنيخ إلى أن القيصر الكسندر الأول لم يتمسك بأي مجموعة من المعتقدات أكثر من خمس سنوات . وقد وصف فريدريك فون جينتز Fredrich von Gentz مستشار ميترنيخ موقف القيصر على النحو التالي :

ليس للعقبات التي تقيد الملوك الآخرين وتعيقهم – السلطة المنقسمة على نفسها، القوالب الدستورية ، الرأي العام ، وما إلى ذلك – وبالنسبة لإمبراطور روسيا . فما يحلم به بالليل كان ينفذه بالنهار.

كان التناقض الظاهري هو أبرز سمات روسيا . فقد كانت في حرب بصفة مستمرة وكانت تتوسع في كل اتجاه ورغم ذلك كانت تعتبر نفسها مهددة بصفة دائمة . وكلما ازداد المتكلمون بلغات مختلفة في الإمبراطورية كلما شعرت روسيا بأنه من السهل تعرضها للخطر، وذلك يرجع جزئيا إلى حاجتها لعزل الجنسيات المختلفة كل جنسية عن الأخرى.

ولدعم حكمهم والتغلب على التوترات بين شعوب الإمبراطورية المختلفة لجأ جميع الحكام الروس إلى إشاعة أسطورة وجود تهديد أجنبي واسع النطاق تحولت في الوقت المناسب إلى نبوءة أخرى من نبوءات تحقيق الذات التي قضت على الاستقرار في أوروبا.

وبينما كانت روسيا تمارس توسعها من المنطقة المحيطة بموسكو إلى وسط أوروبا وشواطئ المحيط الهادي وإلى آسيا الوسطي تحول مطلبها الأمني إلى التوسع من أجل التوسع ذاته.

وقد وصف المؤرخ الروسي فاسيلي كليوشيفسكى Vasili Kleochevsky هذه العملية على النحو التالي :... لقد أصبحت تلك الحروب الدفاعية في الأصل والتي كانت تشن دون إدراك أو قصد من جانب السياسيين الروس ، حروبا عدوانية – استمرارا مباشرا لسياسة التوحد التي اتبعتها الأسرة الحاكمة (قبل رومانوف) صراع من أجل الأراضي الروسية التي لم تنتم أبدا للولاية الموسكوفية.

لقد تحولت روسيا بالتدريج وأصبحت تشكل تهديدا لميزان القوى في أوروبا كما أصبحت

تشكل تهديدا لسيادة جيرانها حول حدودها الخارجية الشاسعة . ومهما كانت المناطق الكبيرة التي تسيطر عليها روسيا، فإنها راحت تمد حدودها إلى الخارج . وقد بدأ ذلك أساسا على أنه حافز دفاعي، كما حدث عندما دافع الأمير بوتمكين (Potemkin المعروف بأنه أقام قرى ظاهرية على طول الطرق التي تمر فيها زوجة القيصر) عن غزو تركيا للقرم في عام ١٧٧٦ مستندا في ذلك بشكل معقول على أن هذا من شأنه أن يعزز من قدرة روسيا في الدفاع عن مملكتها. وعلى أيحال ففي عام ١٨٦٤ أصبح تعريف الأمن مرادفا للتوسع المستمر. وقد عرف المستشار ألكسندر جورشاكوف aleksandr Gorchakov التوسع الروسي في آسيا الوسطى قائلا: إنه عبارة عن التزام دائم لتأمين حدود روسيا لا تحركه إلى الأمام إلا قوته الدافعة :

إن موقف روسيا في آسيا الوسطي يشبه موقف جميع الولايات المتمدينة التي تصطدم بقبائل بدوية نصف متوحشة ليس لديها أي تنظيم اجتماعي ثابت . وفي مثل تلك الحالات فإن الاهتمام بأمن الحدود والعلاقات التجارية يتطلب دائما من الولاية الأكثر تمدينا أن تكون لها سلطة معينة على جيرانها . . .

ويجب على الولاية لذلك أن تختار : إما أن تتخلى عن بذل هذا الجهد المستمر وتعرض حدودها لقلاقل دائمة ... أو أن تتقدم أكثر وأكثر في قلب الأراضي المتوحشة حيث تواجه الصعوبة الكبرى وهي لن تستطيع أن تتوقف.

وكثير من المؤرخين تذكروا هذا الكلام عندما قام الاتحاد السوفيتي بغزو أفغانستان في عام ١٩٧٩ .

ومن التناقض، ومن الحقيقي أيضا أنه أمكن المحافظة على ميزان القوى في أوروبا طيلة الـ٢٠٠ عام السالفة في كثير من المناسبات بجهود الروس وبطولتهم . فبدون روسيا كان نابليون وهتلر سينجحان في إقامة إمبراطوريتين عالميتين . لقد كانت روسيا يوما ما مثل يانوس (إله في الأساطير الرومانية له تمثال في روما ذو وجهين، ويعرف بأنه إله المداخل والبوابات والبدايات وقد سمي باسمه شهر يناير لأنه بداية السنة) تشكل تهديدا لميزان القوى كما تشكل أيضا أحد عناصره الرئيسية اللازمة للتوازن التي كانت ضرورية للتوازن ولكنها لم تكن جزءا كاملا منه . وفي معظم تاريخها لم تكن روسيا تقبل إلا الحدود التي فرضها عليها العالم الخارجي ، وحتى تلك الحدود كانت تقبلها على مضض. ومع ذلك فقد كانت هناك فترات وعلى الأخص الأربعون عاما التي أعقبت نهاية حروب نابليون ، لم تستغل فيها روسيا قوتها الضخمة بل سخرتها لحماية القيم المحافظة في وسط وغرب أوروبا .

وحتى عندما كانت روسيا تلتزم بالشرعية فقد كانت اتجاهاتها مسيحية بقدر أكبر – وبالتالي كانت اتجاهات استعمارية – أكثر من الملكيات المحافظة الأخرى . وبينما كان

المحافظون في أوروبا الغربية يعلنون عن أنفسهم أنهم ينتهجون فلسفات ضبط النفس، فقد كان القادة الروس يجندون أنفسهم لخدمة الحملات الصليبية . ولأن القياصرة لم يواجهوا فعلا أي اعتراض على شرعيتهم في الجلوس على عروشهم فلم يكونوا يفهمون عن الحركات الجمهورية أكثر من أنها تعتبرهم لا أخلاقيين . ولما كانوا يشجعون وحدة القيم المحافظة – على الأقل حتى نشبت حرب القرم – فقد كانوا على استعداد لاستخدام الشرعية لتوسيع نطاق نفوذهم فاكتسبوا لنيقولا الأول لقب شرطي أوروبا. وعندما كان الحلف المقدس في قمته كتب فريدريك فون جينتز ما يلي عن الكسندر الأول :

الإمبراطور الكسندر ، رغم كل الحماس الذي أظهره بصفة دائمة للحلف الكبير وتعاطفه معه فهو الملك الذي يمكنه أن يمضي في طريقه بسهولة بدون هذا الحلف ... فالحلف الكبير بالنسبة له ليس سوى وسيلة يستخدمها للتأثير على الشئون الداخلية وهذا التأثير هو أحد الأهداف الرئيسية لطموحاته ...واهتمامه بالمحافظة على النظام كما هو الحال في النمسا أو روسيا أو إنجلترا ، ليس اهتماما أساسه الضرورة أو الخوف ، إنه اهتمام حر ومحسوب ، وهو في وضع يتيح له أن يتخلى عن هذا النظام لو قدم له نظام آخر مزايا أكبر.

والروس مثلهم مثل الأمريكيين يعتبرون مجتمعهم مجتمعا ممتازا . والتوسع الروسي في آسيا الوسطى ، بمواجهته مجتمعات بدوية أو إقطاعية فقط ، فيه كثير من سمات التوسع الأمريكي نحو الغرب ، والتبرير الروسي لذلك التوسع ، تمشيا مع ما قاله جورشاكوف أعلاه يشبه الطريقة التي برر بها الأمريكيون ما أسموه قدرهم الواضح. ولكن كلما ازداد اقتراب روسيا من الهند كلما ازداد الشك لدي بريطانيا وذلك إلى أن تحول التوسع السوفيتي في آسيا الوسطى في النصف الثاني من القرن العشرين إلى مشكلة من مشاكل السياسة الخارجية وذلك ليس على غرار التوسع الأمريكي نحو الغرب .

ونظرا لأن حدود البلدين حدود مفتوحة فقد كان ذلك من السمات القليلة المشتركة بين الامتياز السوفيتي والأمريكي . وكان إحساس أمريكا بالتفرد قائما على أساس مفهوم الحرية ؛ أما إحساس روسيا بالتفرد فقد نبع من معاناة الشعب الروسي . في أمريكا كان للجميع الحق في المشاركة في القيم الأمريكية ، أما في روسيا فلم يكن حق المشاركة في القيم الروسية متاحا إلا للأمة الروسية ، وبذلك أُستبعد معظم رعاياها من غير الروس . وقد أفضى تميز أمريكا إلى العزلة التي تناوبت مع حملات أخلاقية عنيفة .

وقد أثارت روسيا إحساسا بأن عليها مهمة يجب أن تقوم بها الأمر الذي كان يفضي كثيرا إلى التورط في مغامرات حربية .

وقد كتب ميخائيل كاركوف Mikhail Karkov خبير القانون الدولي عن الفارق بين القيم الروسية والقيم الغربية فقال :

... كل شيء هناك قائم على العلاقات التعاقدية وكل شيء هنا قائم على الدين: وهذا الفارق تحدد أصلا بسبب الموقف الذي تبنته الكنيسة في الغرب والموقف الذي تبنته في الشرق. فهناك توجد سلطة أساسية ثنائية، وهنا توجد سلطة واحدة.

ولم يختلف الوطنيون الروس والكتاب السلافيون والمفكرون في أن يعزو روح الإيثار المزعومة للأمة الروسية إلى دينها الأرثوذكسي. وقد فسر الروائي العظيم والوطني المتحمس فيودور ديستويفسكي Fyodor Destoyevsky مشاعر الروس بحب الآخرين بأنها التزام لتحرير الشعوب السلافية من الحكم الأجنبي ولو استدعى ذلك بالضرورة تحدي المعارضة في كل أوروبا الغربية. وقد كتب ديستويفسكي أثناء الحملة الروسية في البلقان عام ١٨٧٧ يقول:

اسألوا الناس، اسألوا الجنود، لماذا تنهضون وتستعدون؟ لماذا تحاربون وماذا تتوقعون من الحرب؟ وسوف يقولون لك كرجل واحد أننا ذاهبون لخدمة المسيح ولتحرير الأشقاء المضطهدين ... وسوف نقوم برعاية تجانسهم وحماية حريتهم واستقلالهم حتى لو كان ذلك ضد أوروبا كلها.

وعلى عكس دول أوروبا الغربية التي كانت روسيا تعجب بها وتحتقرها في نفس الوقت بل وتكن لها حسدا شديدا فإن روسيا لم تنظر إلى نفسها كأمة بل نظرت إلى نفسها كقضية تتجاوز الأوضاع الجغرافية السياسية، يسيرها الدين ويشد عضدها السلاح. ولم يقتصر ديستويفسكي في تحديده لدور روسيا على أنه تحرير الأشقاء السلافيين بل أضاف أن روسيا ستحمي تجانسهم واستقلالهم – وتلك مهمة اجتماعية تدرجت بشكل غير ملحوظ وتحولت إلى نوع من السيطرة. أما بالنسبة لكاركوف فقد كانت روسيا هي روما الثالثة:

إن قيصر روسيا هو أكثر من مجرد وريث لأسلافه. إنه خليفة قياصرة روما الشرقية، وخليفة أرباب الكنيسة ومجالسها الذين أقاموا العقيدة المسيحية. وبسقوط بيزنطة ظهرت موسكو وبدأت عظمة روسيا.

وبعد الثورة تحول الإحساس القوى بأن روسيا عليها رسالة إلى الدولية الشيوعية.

وتكمن المفارقة في التاريخ الروسي في الغموض المستمر بين الدافع لتحقيق الرسالة الروسية والإحساس المتغلغل بعدم الأمان. وعندما زال هذا الغموض تولد خوف من أنه إذا لم تعمل الإمبراطورية على توسيع حدودها فإنها سوف تنفجر من الداخل. ولذلك فعندما قامت روسيا بالدور الرئيسي في تقسيم بولندا فقد فعلت ذلك لأسباب تتعلق من ناحية بالأمن ومن ناحية أخرى بدواعي تحقيق الأمجاد بأسلوب القرن الثامن عشر. وبعد ذلك بقرن اكتسب ذلك النصر دلالة استقلالية. ففي عام ١٨٦٩ قال الضابط السلافي روستيسلاف أندريفيتش فادييف Rostislav Andreievich Fadeyev في مقال رائع بعنوان رأي في المسألة الشرقية أن على روسيا أن تواصل مسيرتها نحو الغرب لحماية

فتوحاتها الموجودة فعلا التي تم الاستيلاء عليها بالغزو.

إن التحرك التاريخي الذي قامت به روسيا من نهر الدنيبر، Dnieper إلى الفيستولا (Vistula خط تقسيم بولندا) كان إعلان حرب بالنسبة لأوروبا، لقد دخلت روسيا جزءا من أوروبا لا ينتمي إليها ، وأصبحت تقف الآن بين صفوف الأعداء – وهذه حالة مؤقتة فقط : فعليها إما أن ترد العدو أو تتخلى عن الموقع ... إما أن تمتد بنفوذها الفائق إلى البحر الأدرياتيكي أو تنسحب مرة أخرى إلى ما وراء الدنيبر...

ولم يختلف تحليل فادييف كثيرا عن تحليل جورج كينان George Kennan الذي جاء من الناحية الأخرى من خط التقسيم في مقاله عن أسباب السلوك السوفيتي ، وتنبأ في المقال بأنه إذا لم ينجح الاتحاد السوفيتي في التوسع فسوف ينفجر من الداخل وينهار.

ونادرا ما اتفق أحد في العالم الخارجي مع روسيا في رأيها عن نفسها . ورغم الإنجازات الرائعة في مجالات الأدب والموسيقى فلم تكن روسيا هي ذلك القطب المغناطيسي الثقافي بالنسبة للشعوب التي غزتها كما حدث مع البلدان الأم لبعض الإمبراطوريات الاستعمارية الأخرى . ولم تنظر أبدا المجتمعات الأخرى أو رعايا الإمبراطورية الروسية إليها على أنها مثل يحتذي به. وكانت روسيا بالنسبة للعالم الخارجي قوة كبرى أساسية – وجود توسعي غريب يجب أن يخشى منه وأن يتم احتواؤه سواء بالتغلب عليه أو بمجابهته .

وقد جرب ميترنيخ طريق التغلب على هذا الوجود التوسعي ونجح في ذلك طيلة جيل بأكمله إلى حد كبير . غير أنه بعد توحيد ألمانيا وإيطاليا فقدت القضايا المذهبية العظيمة للنصف الأول من القرن التاسع عشر عزمها في التوحيد . ولم يعد ينظر إلى النزعة القومية أو إلى النزعة الثورية لتحقيق النظام الجمهوري على أنهما تهديد للنظام الأوروبي . وعندما أصبحت القومية مبدأ يستند إليه في التنظيم فإن الرؤوس المتوجة في روسيا والنمسا قلت حاجتها بشكل كبير إلى التضامن معا في دفاع مشترك عن الشرعية .

وكان ميترنيخ قد استطاع أن يكون حكومة تقريبية من الحكومة الأوروبية لأن حكام أوروبا اعتبروا أن وحدتهم الأيديولوجية هي الحاجز الذي لا غنى عنه ضد الثورة . ولكن في سبعينيات القرن التاسع عشر كان الخوف من الثورة قد همد أو كانت الحكومات قد اعتقدت أنها يمكن أن تهزم تلك الثورة بدون مساعدة خارجية . وفي ذلك الوقت كان قد مضى جيلان على إعدام لويس السادس عشر ؛ وأمكن السيطرة على الثورات التحررية التي نشبت عام ١٨٤٨ ؛ ورغم أن فرنسا كانت جمهورية فقد فقدت حماسها في جمع الأنصار لها . ولم يعد هناك الآن رابط أيديولوجي مشترك يحد من النزاع الذي تزداد حدته بصفة مستمرة بين روسيا والنمسا حول البلقان أو بين ألمانيا وفرنسا حول الألزاس واللورين . وعندما كانت كل دولة من الدول الكبرى تنظر إلى الأخرى فلم تعد ترى شركاء في قضية عامة إنما كانت ترى

متنافسين خطرين بل حتى أعداء ألداء . وأصبحت المواجهة هي معيار الأسلوب الدبلوماسي.

وكانت بريطانيا العظمي في فترة سابقة قد أسهمت في ضبط النفس بقيامها بدور تصحيح التوازن الأوروبي. حتى في ذلك الوقت فإن بريطانيا العظمى من بين جميع الدول الأوروبية الكبرى كانت تتمتع بموقف يمكنها من انتهاج دبلوماسية لتوازن القوى لا تقيدها فيها عداوة شديدة لدولة أخرى .غير أن بريطانيا العظمي ارتبكت إزاء العوامل التي تشكل التهديد الرئيسي ولم تتمكن من العودة إلى تحديد علاقاتها إلا بعد عدة عقود .

وقد تم تغيير ميزان القوى المنبثق عن نظام فيينا الذي كان مألوفا لدى بريطانيا العظمي تغييرا جذريا . وقد أخذت ألمانيا الموحدة في اكتساب القوة للسيطرة علي أوروبا وحدها ـ وهو شيء كانت بريطانيا العظمي تقاومه دائما من قبل عندما جاء نتيجة للغزو ـ وعلى أي حال فإن معظم القادة البريطانيين ، باستثناء دزرائيلي ، لم يروا أي سبب لمعارضة عملية للاندماج الوطني في أوروبا الوسطى التي رحب بها رجال السياسة البريطانيون لعدة عقود وخاصة عندما بلغت ذروتها نتيجة لحرب كانت فرنسا فيها هي الدولة المعتدية فعلا .

ومنذ أن أبعد كانينج بريطانيا العظمي عن نظام ميترنيخ قبل أربعين عاما، فإن سياسة العزلة الرائعة التي انتهجتها بريطانيا ساعدتها على القيام بدور حامي التوازن وذلك يرجع إلى حد كبير إلى أنه لم تكن هناك دولة واحدة لديها القدرة بمفردها على السيطرة على أوروبا. وبعد أن توحدت ألمانيا اكتسبت بالتدريج تلك القدرة . ومن المحير أنها فعلت ذلك عن طريق تنمية إقليمها الوطني وليس عن طريق الغزو . كان أسلوب بريطانيا هو ألا تتدخل إلا إذا تعرض ميزان القوى فعلا للهجوم وليس لأن هناك احتمالات لتعرضه للهجوم. وحيث إن الأمر استغرق عقودا لكي يتضح التهديد الألماني لميزان القوى الأوروبي ؛ فقد تركزت اهتمامات السياسة الخارجية لبريطانيا العظمي بقية القرن على فرنسا التي تصادمت طموحاتها الاستعمارية مع طموحات بريطانيا العظمي وخاصة في مصر ، وعلى زحف روسيا نحو المضايق وإيران والهند ونحو الصين بعد ذلك.

وكانت كل هذه القضايا قضايا استعمارية . وفيما يتعلق بالدبلوماسية الأوروبية التي أسفرت عن الأزمات والحروب في القرن العشرين فقد استمرت بريطانيا العظمي في ممارسة سياسة العزلة الرائعة .

ولذلك كان بسمارك هو الشخصية المسيطرة في مجال الدبلوماسية الأوروبية حتى أعفي من منصبه عام ١٨٩٠. فقد كان يريد السلام للإمبراطورية الألمانية التي قامت مؤخرا ولم يسع إلى أي مواجهة مع أية أمة أخرى . غير أنه نظرا لغياب الروابط المعنوية بين الدول الأوروبية فقد واجه عملا بطوليا للغاية . فقد كان مضطرا لإبقاء روسيا والنمسا خارج معسكر عدوه الفرنسي . وتطلب هذا منع المعارضة النمساوية لأهداف الشرعية الروسية ومنع

روسيا من تقويض الإمبراطورية النمساوية المجرية . وكان يحتاج لعلاقات طيبة مع روسيا دون معاداة بريطانيا التي كانت تراقب عن كثب مخططات روسيا فيما يتعلق بالقسطنطينية والهند . وكان لا يمكن حتى لعبقري مثل بسمارك أن يقوم بعملية تحقيق التوازن هذا على نحو غير محدد ؛ فقد أصبح من الصعب التعامل مع القيود المتزايدة على النظام الدولي . ورغم ذلك ، فقد ظل بسمارك ، طيلة السنوات العشرين التي قاد فيها ألمانيا يمارس السياسة الواقعية التي نادى بها باعتدال وذكاء حالا دون أي انهيار لميزان القوى .

وكان هدف بسمارك هو ألا يعطي أي دولة أخرى – فيما عدا فرنسا ، العدو اللدود ، أي سبب للانضمام إلى حلف يوجه ضد ألمانيا . وبعد أن قال أن ألمانيا الموحدة قد أصيبت بالتخمة ولم تعد لديها أطماع توسعية أخرى حاول طمأنة روسيا بان ألمانيا لم يعد لديها أي اهتمام بالبلقان ؛ وقال إن البلقان لا تساوى عظام جندي بوميرانى (بوميرانيا في بولندا) واحد . ومع وضع بريطانيا في اعتباره لم يقدم بسمارك على أي مغامرة في أوروبا يمكن أن تثير قلق بريطانيا بشأن التوازن ، وأبقى على ألمانيا خارج دائرة السباق الاستعماري. هنا روسيا وهنا فرنسا ونحن في الوسط . وهذه هي خريطتي لأفريقيا. وكان هذا هو رد بسمارك على أحد الداعين إلى الاستعمار الألماني نصيحة اضطرته السياسة الداخلية فيما بعد إلى تغييرها .

وعلى أي حال فلم تكن إعادة الطمأنة كافية . فألمانيا كانت تريد حلفا مع كل من روسيا والنمسا مهما كان هذا أمرا غير محتمل كما بدا للوهلة الأولي . ومع ذلك فقد أنشأ بسمارك هذا الحلف في عام ١٨٧٣ – وسمي عصبة الأباطرة الثلاثة . وعندما أعلن عن وحدة الملوك المحافظين الثلاثة كانت هذه الوحدة شبيهة بحلف ميترنيخ المقدس إلى حد كبير . هل شعر بسمارك فجأة بتعاطف مع نظام ميترنيخ الذي حاول جاهدا القضاء عليه ؟ لقد تغير الزمن كثيرا نتيجة لنجاح بسمارك في كثير من الميادين . ورغم أن ألمانيا وروسيا والنمسا تعهدوا على طريقة ميترنيخ الحقيقية أن يتعاونوا في قهر النزعات التخريبية في المقاطعات الخاضعة لحكمهم فلم يعد الاشتراك في كراهية المتطرفين السياسيين يربط بين الملوك الشرقيين الثلاثة وذلك لأن كلا منهم أصبح واثقا أن الثوران الداخلي يمكن إخماده بدون مساعدة من الخارج.

وعلاوة على ذلك فإن بسمارك فقد أوراق اعتماده كرجل يميل إلى الشرعية المتصلبة . ورغم أن رسائله مع جيرلاخ (انظر الفصل الخامس) لم تذع فقد كانت اتجاهاته معروفة للجميع . ولما كان من دعاة السياسة الواقعية طوال تاريخه الوظيفي فلم يكن يستطيع فجأة أن يجعل الإخلاص للشرعية أمرا معقولا . وكان للمنافسة الجغرافية السياسية.

بين النمسا وروسيا الأهمية الأولي أكثر من الأهمية التي تولى للوحدة بين الملوك المحافظين . فقد كان كل من هؤلاء الملوك يسعى متنافسا مع الملوك الآخرين للحصول علو

غنائم حرب البلقان من الإمبراطورية التركية المنهارة . وكانت النزعة السلافية الشاملة والنزعة التوسعية القديمة تسهمان في انتهاج روسيا لسياسة مغامرات خطرة في البلقان . وكان الخوف الواضح يسفر عن انتهاج مواقف متماثلة داخل الإمبراطورية النمساوية المجرية . وهكذا ، بينما كان للإمبراطور الألماني حلف على الورق مع رفيقيه الملكين المحافظين في روسيا والنمسا فقد كان كل من هذين الشقيقين يكاد يفتك بالآخر .

وكان مصير التحدي الذي واجهه بسمارك في كيفية معاملة شريكين يعتبر كل منهما الآخر تهديدا مميتا له أن يعاني نظام أحلاف بسمارك حتى آخر أيام هذا الرجل .

وقد لقنت العصبة الأولى للأباطرة الثلاثة بسمارك درسا مفاده أنه لم يعد في إمكانه أن يسيطر على القوى التي حررها بأن يلجأ إلى المبادئ الداخلية للنمسا وروسيا .

ومنذ ذلك الوقت حاول أن يؤثر فيهما بالمكر مركزا اهتمامه على القوة والمصلحة الذاتية.

وهناك حادثان أوضحا أن السياسة الواقعية أصبحت هي الاتجاه السائد في ذلك الوقت. وقع الحادث الأول في عام ١٨٧٥ في صورة أزمة زائفة ، خطة مدبرة لإثارة الفزع من الحرب ظهرت في مقال افتتاحي نشر في إحدى الصحف الألمانية الكبرى كان عنوانها الاستفزازي هل الحرب قادمة ؟ وقد كتبت المقالة ردا على معلومات عن زيادة النفقات العسكرية الفرنسية وشراء الجيش الفرنسي لعدد كبير من الخيول . وربما كان بسمارك هو مصدر الإيحاء بالفزع من الحرب دون أن تكون لديه نية المضي في الموضوع أكثر من ذلك لأنه لم تكن هناك أي تعبئة ألمانية محدودة أو تحركات للقوات تهدد بشيء .

فمواجهة تهديد غير موجود هو طريقة سهلة لتعزيز موقف الأمة . وقد أعطت الدبلوماسية الفرنسية الذكية انطباعا بأن ألمانيا تخطط لشن هجوم وقائي ضد فرنسا . وروجت وزارة الخارجية الفرنسية رواية تقول أن القيصر أشار في حديث له مع السفير الفرنسي إلى أنه سيساند فرنسا في حالة نشوب صراع بينها وبين ألمانيا . وبدأت إنجلترا تتحرك وإنجلترا هي الدولة التي كانت بالغة الحساسية دائما لأي تهديد من جانب أي دولة واحدة للسيطرة على أوروبا . وقد أصدر رئيس الوزراء دزرائيلي تعليماته لوزير خارجيته لورد ديربي للاتصال بالمستشار الروسي جورشاكوف وإبلاغه بفكرة إثارة مخاوف برلين :

إن انطباعي الخاص هو أننا يجب أن نقوم بتحرك منسق للحفاظ على أمن أوروبا مثلما فعل اللورد بالمرستون عندما أربك فرنسا وطرد المصريين من سوريا . ويمكننا أن نعقد حلفا بيننا وبين روسيا لهذا الغرض بصفة خاصة ، وربما يمكن دعوة دول أخري مثل النمسا وربما إيطاليا للانضمام إلى هذا الحلف...

ولما كان دزرائيلي لا يثق إطلاقا في روسيا بسبب طموحها الاستعماري ولما كان قد أشار

إلى إقامة حلف بين روسيا وبريطانيا.. فقد بين ذلك مدى جديته في النظر إلى احتمال سيطرة ألمانيا على أوروبا الغربية . وقد زال الخوف من الحرب بنفس السرعة التي ظهر بها، ولذلك فإن مشروع دزرائيلي لم يتعرض للتجربة أبدا . ورغم أن بسمارك لم يحط علما بتفاصيل مناورة دزرائيلي إلا أنه كان في غاية المكر عندما تظاهر بأنه لم يشعر بقلق بريطانيا في هذا الشأن .

وكما بين جورج كينان، فقد كانت تلك الأزمة أقل بكثير مما صورته وسائل الإعلام . فلم تكن لدى بسمارك نية الدخول في حرب بسرعة فور إذلاله لفرنسا ، رغم أنه لم يعترض على ترك الانطباع لدى فرنسا بأنه قد يدخل الحرب إذا زادت الضغوط عليه أكثر من اللازم . ولم يكن القيصر الكسندر الثاني يعتزم ضمان الجمهورية الفرنسية رغم أنه لم يعترض على أن يبلغ بسمارك بأن هذا الخيار قائم. وبذلك كان تصرف دزرائيلي رد فعل لشيء مازال وهما . ومازال هذا المركب المكون من عدم الارتياح البريطاني ، والمناورة الفرنسية، والغموض الروسي يقنع بسمارك بأن سياسة نشطة فقط هي التي يمكن أن تدرأ بناء الائتلاف الذي كان من شأنه أن يسفر ، بعد ثلاثة أجيال، عن الوفاق الثلاثي الموجه ضد ألمانيا.

وكانت الأزمة الثانية أزمة حقيقية فعلا . وقد جاءت في صورة أزمة بلقان أخرى ، أثبتت أنه لا الروابط الفلسفية ولا الروابط الأيديولوجية يمكن أن تجعل عصبة الأباطرة الثلاثة تتماسك في وجه التصادم الأساسي بين المصالح القومية . ولأن الأزمة أدت إلى تعرية الصراع الذي قضي على نظام بسمارك الأوروبي وأغرقت أوروبا في الحرب العالمية الأولي فسوف نتناولها هنا بمزيد من التفصيل .

لقد سيطرت المسألة الشرقية التي ظلت نائمة منذ حرب القرم مرة أخرى على برنامج العمل الدولي الذي يتناول تلك الأوضاع المعقدة التي أصبحت كلما تقدم القرن شيئا مكررا مثل مسرحيات الكابوكي اليابانية . فكان أي حادث عرضي يقع يثير أزمة ، فتتصاعد التهديدات من روسيا وتحرك بريطانيا العظمي أسطولها البحري ، وتحتل روسيا بعدئذ جزءاً من البلقان العثماني تحتفظ به كرهينة . وتهدد بريطانيا العظمي بالحرب . وتبدأ المفاوضات التي تقوم فيها روسيا بالتخفيف من مطالبها وعند تلك النقطة بالذات ينفجر كل شيء .

وفي عام ١٨٧٦ ثار البلغاريون الذين عاشوا قرونا تحت الحكم التركي وانضمت إليهم شعوب أخرى من البلقان ، وردت تركيا على ذلك بوحشية مذهلة وهددت روسيا ، التي اجتاحتها المشاعر المؤيدة لتضامن الشعوب السلافية ، بالتدخل .

وفي لندن ، تسبب رد الفعل الروسي في أن تضخم شبح سيطرة روسيا على المضايق . ومنذ عهد كانينج ، راعى القادة السياسيون البريطانيون الحكمة القائلة إنه لو تحكمت روسيا في المضايق فسوف تسيطر على شرقي البحر المتوسط والشرق الأدنى ، وبذلك تهدد وضع

بريطانيا العظمي في مصر . ولذلك كان يجب ـ طبقا لحكمة بريطانيا التقليدية ـ الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية ، رغم عجزها ولا إنسانيتها ، حتى لو تسبب ذلك في التعرض لخطر الحرب مع روسيا.

ووضع الأمور بهذا الشكل واجه بسمارك بمعضلة خطيرة . فالزحف الروسي الذي قد يثير رد فعل بريطانيا حربيا كان يحتمل أيضا أن يثير النمسا لتدخل المعمعة . ولو اضطرت ألمانيا لأن تختار بين النمسا وروسيا فسوف تنهار سياسة بسمارك الخارجية ومعها عصبة الأباطرة الثلاثة . ومهما حدث فإن بسمارك واجه خطورة إثارة عداوة النمسا أو روسيا وهناك كذلك احتمال كبير بأن يثير غضب جميع الأطراف لو اتخذ موقف الحياد . وقد قال بسمارك أمام الريشستاج في عام ١٨٧٨ لقد تجنبنا ، في حالة ظهور خلاف في وجهات النظر بين النمسا وروسيا ، أن نكون أغلبية من اثنين ضد واحد بأن نأخذ جانب أحد الطرفين....

وكان الاعتدال هو طبيعة بسمارك الكلاسيكية رغم أن الاعتدال تولدت عنه معضلة تزداد تعقيدا كلما اتجهت الأزمة نحو الحل . وكان أول تحرك لبسمارك هو محاولة توثيق الروابط بين عصبة الأباطرة الثلاثة بالسعي لإيجاد موقف مشترك لهم . وفي بداية عام ١٨٧٦ وضعت عصبة الأباطرة الثلاثة مذكرة برلين Berlin Memorandum وحذرت فيها تركيا من الاستمرار في أعمالها القمعية . ويبدو أن المذكرة أشارت إلى أن روسيا قد تتدخل في البلقان إذا توفرت ظروف معينة وذلك لصالح الحلف الأوروبي مثلما حدث مع المؤتمرات التي عقدها سيترنينج في فيرونا Verana ولايباخ Laibach وتروبو Troppau واختارت دولة أوروبية لتنفيذ قراراتها.

ولكن هناك فارقا شاسعا بين اللجوء إلى هذا التصرف آنئذ وتكراره الآن. ففي أيام ميترنيخ ، كان كاسلريج هو وزير خارجية بريطانيا وكان يؤيد التدخل من جانب الحلف المقدس ، رغم أن بريطانيا العظمي كانت قد رفضت الاشتراك في هذا الحلف . غير أن دزرائيلى كان في ذلك الوقت هو رئيس الوزراء وقد فسر مذكرة برلين بأنها الخطوة الأولي نحو هدم الإمبراطورية العثمانية مع إبعاد بريطانيا العظمي عن الموضوع .

وهذا كان شيئا أقرب ما يكون من الهيمنة الأوروبية التي ظلت بريطانيا العظمي تعارضها قرونا . وقال دزرائيلي شاكيا لشوفالوف Shuvalov سفير روسيا في لندن : إن إنجلترا تُعامَل وكأننا الجبل الأسود أو البوسنة. وكتب للسيدة برادفورد Bradford التي كان يراسلها كثيرا قائلا:

ليس هناك تعادل وما لم نخرج عن طريقنا لنعمل مع دول الشمال الثلاثة فيمكنهم أن يعملوا بدوننا وهذا أمر لا يناسب دولة مثل إنجلترا.

ونظرا للوحدة التي أظهرتها الدول الثلاث سانت بيترسبرج ، وبرلين وفيينا ، لكان من

الصعب للغاية على بريطانيا العظمى أن تعترض على أي شيء يوافقون عليه . ولم يكن أمام دزرائيلي أي خيار إلا أن ينضم إلى الملوك الثلاثة بينما كانت روسيا تهاجم تركيا

وعلى أي حال فوفقا لتقاليد بالمرستون قرر دزرائيلي أن يقوم باستعراض عضلات بريطانيا. فحرك الأسطول البريطاني إلى شرق البحر المتوسط وأعلن عن تعاطفه مع تركيا وهو يضمن أن تركيا ستكون عنيدة وتذيع على الملأ أية خلافات مهما كانت داخل عصبة الأباطرة الثلاثة . ولم يكن يُعرف عن دزرائيلى أنه شديد التواضع فقد أعلن للملكة فيكتوريا أنه قضى على عصبة الأباطرة الثلاثة وحطمها تماما وقال إنه يعتقد أنها قد تلاشت تماما مثلما تلاشت الحكومة الثلاثية الرومانية.

كان بنيامين دزرائيلى من أغرب الشخصيات التي رأست حكومة بريطانيا . فعندما علم أنه سيعين رئيسا للوزراء في عام ١٨٦٨ اغتبط وصاح في ابتهاج، لقد تسلقت إلى قمة العمود الزلق ! وعلي عكس ذلك فعندما دعي عدو دزرائيلى اللدود ويليام ايوارت جلادستون Wiilliam Ewart Gladstone كي يخلفه في منصبه في نفس السنة فكر طويلا في مسئوليات السلطة وواجباته المقدسة نحو الله التي شملت الدعاء لله بأن يمنحه القوة اللازمة لتحمل المسئولية الخطيرة التي يتطلبها منصب رئيس الوزراء .

إن تصريحات الرجلين العظيمين اللذين سيطرا على السياسات البريطانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تتناسب مع طبيعتهما المتناقضة : فدزرائيلى – خادع ، حاد الذكاء ، وزئبقي ماكر ـ وجلادستون مثقف ومتدين ورزين . وكان من السخرية أن حزب المحافظين الفيكتورى المشكل من ملاك الأراضي وعائلات إنجيلية أرستقراطية متدينة يتمخض عنه كقائد، هذا المغامر اليهودي الذكي وأن حزب المثاليين المطلعين على بواطن الأمور يدفع إلى مسرح الأحداث العالمي بمثال غريب . ولم يحدث أبدا في تاريخ السياسة البريطانية أن صعد يهودي إلى مثل هذا المنصب المرموق . وبعد ذلك بقرن حدث مرة أخرى أن جاء المحافظون ضيقو الأفق وليس حزب العمال التقدمي بمارجريت تاتشر Margret Tatcher في هذا المنصب رئيسة لوزراء بريطانيا – ابنة بدال أثبتت أنها قائد عظيم آخر وأول سيدة ترأس الوزارة البريطانية .

لم يكن هناك احتمال بأن يتولى دزرائيلى منصب رئيس الوزراء . فقد كان في شبابه قصاصا، ولذلك كان أقرب إلى جماعة الأدباء منه إلى واضعي السياسة . وكان من الأنسب له والأرجح أن يشق حياته ككاتب متألق وليس كواحد من الشخصيات السياسية البريطانية البارزة في القرن التاسع عشر . وكان دزرائيلى مثل بسمارك يؤمن بتوسيع نطاق الاقتراع ليشمل الرجل العادي وكان مقتنعا أن الطبقة الوسطى في إنجلترا سوف تصوت لصالح المحافظين.

وكزعيم للمحافظين ابتكر دزرائيلي شكلا جديدا من أشكال الاستعمار مختلفا عن التوسع التجاري الأساسي الذي مارسته بريطانيا العظمي منذ القرن السابع عشر والذي قيل عنها بسببه أنها أقامت إمبراطورية في نوبة من النسيان . ولم تكن الإمبراطورية بالنسبة لدزرائيلي ضرورة اقتصادية بل ضرورة روحية وشرطا أساسيا من شروط عظمة بلاده . وقد قال في كلمته الشهيرة التي ألقاها في عام ١٨٧٢ في القصر البللوري هذه ليست قضية هزيلة . إن المسألة هي ما إذا كنتم ستكتفون بأن تكونوا إنجلترا المستريحة تقوم على غرار مبادئ أوروبا وتواجه في الوقت المناسب مصيرا لا مفر منه ، أو ما إذا كنتم ستصبحون إمبراطورية عظيمة – بلد يشب فيه أبناؤكم ليحتلوا مراكز هامة ولا يحصلون فقط على احترام وتقدير رجال بلدنا بل احترام العالم كله.

كان لا بد لدزرائيلي بتمسكه بمثل تلك المعتقدات أن يعارض تهديد روسيا للإمبراطورية العثمانية . وأن يرفض باسم التوازن الأوروبي النظم التقليدية التي وضعتها عصبة الأباطرة الثلاثة ، ويعترض ، باسم الإمبراطورية البريطانية ، أن تكون روسيا هي التي تفرض إجماعا أوروبيا بشأن المواقف بالنسبة للقسطنطينية . لأنه خلال القرن التاسع عشر انتشرت وسيطرت فكرة أن روسيا هي مصدر التهديد الأساسي لوضع بريطانيا العظمي في العالم . وقد رأت بريطانيا أن مصالحها فيما وراء البحار تهددها حركة كماشة روسية إحدى شعبتيها لمحاصرة القسطنطينية والأخرى لمحاصرة الهند عن طريق آسيا الوسطى . وفي طريق توسعها في آسيا الوسطى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وضعت روسيا أساليب غزو أصبحت فيما بعد تتبع بصورة نمطية . وكانت الضحية دائما بعيدة جدا عن مركز الشئون العالمية حتى أن قليلين من الغربيين كانت لديهم أدنى فكرة عما كان يحدث . ولذلك كانوا يتراجعون عن مفاهيمهم المسبقة بأن القيصر في الواقع رجل خير وأن مساعديه ميالون للعدوان والحرب يعملون على تحويل المسافات البعيدة والإرباك إلى أدوات للدبلوماسية الروسية .

وكانت بريطانيا العظمى هي الوحيدة من بين الدول الأوروبية التي اهتمت بآسيا الوسطى. وبينما كان التوسع الروسي جنوبا في اتجاه الهند آخذا في الازدياد ،كان المستشار الأمير الكسندر جورشاكوف يعارض الاحتجاجات البريطانية ، ولم يكن جورشاكوف دائما يعرف ماذا يفعل الجيش الروسي. وقد تكهن اللورد اوغسطس لوفتوس Augustus Loftus السفير البريطاني في سانت بيترسبورج بأن الإمبراطور الروسي رغم أنه حاكم مستبد فليس هو مصدر الضغط على الهند ، بل مصدر الضغط هو الإدارة العسكرية التي تلعب دورا له نفوذ كبير في روسيا . وأينما كان يوجد جيش ضخم بصفة دائمة في مكان معين ، كان من الضروري إيجاد عمل له ... وعندما يبدأ تنفيذ نظام للغزو ، كما حدث في آسيا الوسطى ، فإن الاستيلاء على قطعة أرض لا يلبث أن يعقبه الاستيلاء على قطعة أخرى وهكذا ...وتصبح

الصعوبة عندئذ هي أين يتوقف هذا الغزو . وكانت هذه الملاحظة صورة عملية لما قاله جورشاكوف (انظر صفحة ١٤١ أعلاه). ومن ناحية أخرى فإن الوزارة البريطانية لم تأبه كثيرا ما إذا كانت روسيا تهدد الهند بقوة الدفع الذاتي أو بدافع من الاستعمار المقصود.

ونفس هذا النمط تكرر مرارا . فكانت القوات الروسية كل سنة تزحف إلى عمق أكبر في قلب آسيا الوسطى . وعندئذ تطلب بريطانيا العظمي تفسيرا لما يحدث وتتلقى شتي أنواع التأكيدات بأن القيصر لا يعتزم أن يضم إلى روسيا مترا مربعا واحدا من الأرض .

وفي بداية الأمر كانت تلك الكلمات المهدئة قادرة على تهدئة الأمور . غير أنه كان من المحتم أن أي تقدم عسكري روسي آخر سيعيد فتح الموضوع مرة أخرى . فعل سبيل المثال ، بعد غزو الجيش الروسي لسمرقند (أوزباكستان حاليا) في شهر مايو ١٨٦٨ قال جورشاكوف للسفير البريطاني سير أندرو بوكانان Sir Andrew Buchanan.

إن الحكومة الروسية لم تكن ترغب أبدا في احتلال تلك المدينة وهي تأسف بشدة لذلك وأكد له أن روسيا لن تحتفظ بها بصفة دائمة. وقد ظلت سمرقند بالطبع تحت السيادة الروسية إلى أن سقط الاتحاد السوفيتي بعد ذلك بأكثر من قرن.

وفي عام ١٨٧٢ تكرر نفس المشهد الروائي علي بعد عدة مئات من الأميال في اتجاه الجنوب الشرقي فيما يتعلق بإمارة خيفا Khiva التي تقع على حدود دولة أفغانستان الحالية. فقد أوفد الكونت شوفالوف المرافق العسكري للقيصر إلى لندن ليطمئن البريطانيين أن روسيا ليس لديها نيات توسعية لضم أية أقاليم أخرى في آسيا الوسطي :

ليس فقط لأن فكرة الاستيلاء على حيفا كانت أبعد ما يكون عن نوايا الإمبراطور بل لأن تعليمات قاطعة أعدت لحظر ذلك وصدرت توجيهات بأن لا تؤدي الشروط التي تفرض في هذا المجال بأي حال إلى إطالة فترة احتلال خيفا.

ولم تكد هذه التأكيدات تصدر وتعلن حتى وصلت معلومات بأن الجنرال الروسي كاوفمان Kaufman قد سحق خيفا سحقا تاما وفرض عليها معاهدة كانت عكس ما أكده شوفالوف تماما.

وفي عام ١٨٧٥ طبقت تلك الأساليب على كوكاند – إمارة أخرى تقع عند حدود أفغانستان. وعندئذ شعر المستشار جورشاكوف بالحاجة إلى ضرورة إيجاد تبريرات للاختلاف القائم بين تأكيدات روسيا وبين أعمالها . وفي براعة وضع فارقا لم يسبقه إليه أحد بين التأكيدات التي تصدر من جانب واحد (التي طبقا لتعريفه ليس لها قوة ملزمة) الارتباطات الرسمية الثنائية ؛ أي التي تصدر من جانبين . وكتب في مذكرة له يقول: إن الوزارة في لندن تستنتج – من إبلاغنا إياها بطريقة تلقائية وودية بآرائنا فيما يتعلق بآسيا

الوسطي وبصفة خاصة بقرارنا الحاسم بأننا لن ننتهج سياسة غزو الأراضي أو ضمها –أننا قد عقدنا على أنفسنا تعهدات قاطعة نحوها في هذا الشأن. وهذا الكلام معناه أن روسيا ستصر على أن تطلق يدها في آسيا الوسطى وسوف تضع حدودها الخاصة بها ولا ترتبط أو تتقيد حتى بما تصدره من تأكيدات .

ولم يكن دزرائيلى ليسمح بأن تتكرر هذه الألاعيب عند مداخل القسطنطينية . وشجع الأتراك العثمانيين على رفض مذكرة برلين ومواصلة سلب البلقان . ورغم مسرحية الحزم البريطاني هذه فقد كان دزرائيلى يتعرض لضغوط داخلية شديدة . فالفظائع التي كان الأتراك يرتكبونها أثارت الرأي العام البريطاني ضدهم . وكان جلادستون يحتج على انعدام الأخلاق في سياسة دزرائيلى الخارجية . وهكذا شعر دزرائيلى بأنه مضطر إلى الموافقة على بروتوكول لندن لعام ١٨٧٧ الذي انضم فيه إلى الملوك الشرقيين الثلاثة في مطالبة تركيا بإنهاء المجزرة في البلقان وإصلاح إدارتها في المنطقة . ومع ذلك فرغم أن السلطان كان مقتنعا بأن دزرائيلى يقف إلى جانبه مهما قدم من طلبات رسمية فقد رفض حتى تلك الطلبات . وكان رد روسيا هو إعلان الحرب .

وبدا لأول وهلة كأن روسيا انتصرت في المباراة الدبلوماسية . فلم يكن يؤيدها الملكان الشماليان الآخران فقط بل كانت تؤيدها أيضا فرنسا علاوة على ما وجدته من تأييد كبير من جانب الرأي العام البريطاني . وكانت يدا دزرائيلى مقيدتين فدخول الحرب لمصلحة تركيا قد يسقط حكومته فعلا .

غير أن القادة الروس، كما حدث في أزمات كثيرة سابقة أخرى تمادوا في اللعبة . فقد وصلت القوات الروسية بقيادة الجنرال الذكي المتهور نيكولاس إيجناتييف Nicholas natyev إلى بوابات القسطنطينية . وبدأت النمسا في إعادة النظر في تأييدها للحملة الروسية . وحرك دزرائيلى السفن الحربية البريطانية إلى الدردنيل . وفي تلك اللحظة صدم ايجناتييف أوروبا بأجمعها عندما أعلن عن بنود معاهدة سان ستيفانو Treaty Of San Stefano التي من شأنها أن تضعف تركيا وتخلق دولة بلغارية كبيرة Big Bulgaria وكان من المعتقد أن هذه الدولة التي ستمتد أراضيها إلى البحر المتوسط سوف تسيطر عليها روسيا.

ومنذ عام ١٨١٥كان من المعتقد ـ وفقا للحكمة التقليدية في أوروبا ـ أن مصير الإمبراطورية العثمانية لا يمكن أن يتقرر إلا بواسطة الحلف الأوروبي بصفة عامة وليس بواسطة دولة واحدة خاصة روسيا . وقد تسببت معاهدة سان ستيفانو التي عقدها إيجناتييف في زيادة احتمالات سيطرة روسيا على المضايق، الأمر الذي كانت بريطانيا لا تحتمله، وسيطرة روسيا على سلاف البلقان الأمر الذي كانت النمسا لا تحتمله . ولذلك أعلنت بريطانيا العظمى والمجر النمساوية أن المعاهدة غير مقبولة .

وفجأة لم يعد دزرائيلي يقف وحده . فبالنسبة للقادة الروس كانت تحركاته نذير شؤم بعودة ائتلاف حرب القرم . فعندما أصدر وزير الخارجية البريطاني لورد سالسبوري مذكرته الشهيرة في شهر أبريل من عام ١٨٧٨ التي حدد فيها الأسباب التي تدعو إلى ضرورة إعادة النظر في معاهدة سان ستيفانو وافق على ذلك حتى شوفالوف السفير الروسي في لندن والمنافس لإيجناتييف منذ وقت طويل . وهددت بريطانيا العظمى بإعلان الحرب إذا تحركت روسيا نحو القسطنطينية بينما هددت النمسا بالحرب لسبب آخر وهو الخلاف على تقسيم غنائم حرب البلقان .

تعلق بسمارك بعصبة الأباطرة الثلاثة التي كانت تتأرجح على شفا الانهيار . وحتى ذلك الوقت كان بسمارك حذرا بصورة غير عادية . وفي أغسطس عام ١٨٧٦ قبل أن تتحرك الجيوش الروسية ضد تركيا من أجل قضية الأرثوذكسية والسلافية. كان جورشاكوف قد اقترح على بسمارك أن يستضيف الألمان مؤتمرا لحل أزمة البلقان . كان ميترنيخ أو نابليون سينتهز مثل هذه الفرصة للقيام بدور الوسيط الرئيسي للحلف الأوروبي ولكن بسمارك تردد في ذلك على أساس أن مثل هذا المؤتمر لن يفعل أكثر من إبراز الخلافات بين عصبة الأباطرة الثلاثة . وقال بصفته الشخصية إن كل المشتركين في المؤتمر بما فيهم بريطانيا العظمي سوف يخرجون منه غير راضين عنا لأن لا أحد سيحصل منا على التأييد الذي توقعه. واعتقد بسمارك أيضا أنه ليس من الحكمة في شيء التقريب بين دزرائيلي وجورشاكوف – وقد وصفهما قائلا: وزيران متساويان في غرور خطير .

ومع ذلك فعندما اتضح أن البلقان سيصبح مستصغر الشرر الذي سيشعل حربا أوروبية كبيرة، نظم بسمارك مؤتمرا في برلين وهي العاصمة الوحيدة التي كان القادة الروس على استعداد لزيارتها. ورغم ذلك فقد قرر الابتعاد عن اتباع دبلوماسية يوم بيوم وطلب إلى أندراسي وزير خارجية المجر ـ النمساوية توجيه الدعوات إلى من سيحضرون المؤتمر .

وكان من المقرر أن ينعقد المؤتمر في ١٣ يونيو ١٨٧٨ . وكانت بريطانيا العظمي وروسيا قد انتهيتا من تسوية القضايا الرئيسية باتفاقية عقدت بين لورد سالسبوري ووزير الخارجية الروسي الجديد شوفالوف في ٣٠ مايو . وقد حل محل بلغاريا الكبيرة – التي أوجدتها معاهدة سان ستيفانو – ثلاثة كيانات صغيرة جديدة : كيان مستقل أقل بكثير من مساحة بلغاريا ، ثم ولاية شرق روماليا وهي كيان مستقل كان من الناحية الفعلية تحت سيطرة حاكم تركي غير أنه تقرر أن تتولى لجنة أوروبية الإشراف على إدارتها (وكانت هذه اللجنة بمثابة سابقة لمشاريع حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في القرن العشرين) أما بقية بلغاريا فقد عادت إلى الحكم التركي . وقد انكمشت مكاسب روسيا في أرمينيا . وفي اتفاقيات سرية منفصلة وعدت بريطانيا العظمي النمسا بأنها سوف تؤيد احتلال النمسا للبوسنة والهرسك ، وأكدت للسلطان أنها سوف تضمن تركيا الآسيوية . وفي مقابل ذلك منح

السلطان إنجلترا حق استخدام قبرص كقاعدة بحرية .

وفي الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر برلين كان تهديد الحرب ، الذي جعل بسمارك يوافق على استضافة المؤتمر ، قد زال إلى حد كبير . وقد كانت المهمة الرئيسية للمؤتمر هي أن توافق أوروبا على ما تم التفاوض بشأنه . والمرء يتساءل هنا هل كان بسمارك سيخاطر بوضع نفسه في دور الوسيط الخطير لو أنه استطاع أن يتنبأ مقدما بتلك النتيجة . وطبعا من المرجح أن أهمية المؤتمر بوجه خاص هي التي كانت قد دفعت روسيا وبريطانيا إلى أن يسويا مشاكلهما وحدهما على وجه السرعة دون رغبة منهما في أن يعرضا لأهواء مؤتمر أوروبي مكاسب حصلا عليها كان من الصعب أن يحصل عليها كل من الآخر في مفاوضات مباشرة .

إن وضع تفاصيل اتفاق تم بالفعل ليس عملا بطوليا . فكل البلدان الكبرى ، فيما عدا بريطانيا العظمي ، مثلها وزراء الخارجية . ولأول مرة في تاريخ بريطانيا يحضر وزير الخارجية ورئيس الوزراء مؤتمرا دوليا يعقد خارج الجزر البريطانية وذلك لأن دزرائيلى لم يكن يريد أن ينسب إلى سالسبورى النجاح في تحقيق إنجاز دبلوماسي كبير إمكانيات نجاحه تأكدت بالفعل . أما جورشاكوف العجوز المختال الذي تفاوض مع ميترنيخ في مؤتمري لايباخ وفيرونا من قبل نصف قرن، فقد اختار مؤتمر برلين لكي يظهر للمرة الأخيرة على مسرح الأحداث . فقد أعلن عند وصوله إلى برلين أنا لا أريد أن أطفأ مثل مصباح يتصاعد منه الدخان بل أريد أن أسقط كنجم يهوى.

وعندما سئل بسمارك عن مركز ثقل المؤتمر أشار إلى دزرائيلى قائلا هذا اليهودي العجوز، هذا الرجل هو مركز ثقل المؤتمر[٧]. ورغم أن خلفيتهما كانت مختلفة كل الاختلاف إلا أن كلا من الرجلين كان يكن مشاعر الإعجاب للآخر فكل منهما مارس السياسة الواقعية وكره ما كان يري أنه رياء أخلاقي . وكانت الصبغة الدينية لتصريحات جلادستون (وهو رجل كان كل منهما يحتقره) تبدو لهما دجلا خالصا . ولم يكن أي من بسمارك أو دزرائيلى يتعاطف مع سلاف البلقان فقد كانا يعتبران سلاف البلقان من الشعوب المثيرة للمشاكل بشكل مزمن من هواة العنف . وكان الاثنان يميلان إلى السخرية اللاذعة، والملاحظات البارعة الذكية والتعميمات والتعليقات الساخرة . وكانا يشعران بالملل من التفاصيل المملة وكانا يفضلان التعامل مع السياسة بضربات درامية جريئة.

ويمكن أن يقال أن دزرائيلى هو رجل السياسة الوحيد الذي استطاع أن يتفوق علي بسمارك . وقد وصل دزرائيلى إلى المؤتمر وهو في موقف حصين لأنه كان قد حقق بالفعل كل أهدافه – وهو موقف وصل كاسلريج إلى موقف مماثل له في مؤتمر فيينا ووصل ستالين نفس الموقف بعد الحرب العالمية الثانية . وكانت الموضوعات المتبقية تتعلق بتفاصيل تنفيذ الاتفاقية السابقة بين بريطانيا العظمى وروسيا والمسألة العسكرية المتعلقة بالسيطرة

على ممرات البلقان وهل ستكون هذه السيطرة لتركيا أم لبلغاريا الجديدة . وبالنسبة لدزرائيلي فقد كانت المسألة الاستراتيجية في المؤتمر هي أن يبعد عن بريطانيا بقدر الإمكان مشاعر الإحباط الروسية بسبب اضطرارها للتخلي عن بعض ما حققته من غزواتها .

لقد نجح دزرائيلي لأن موقف بسمارك نفسه كان معقدا للغاية . فبسمارك لم يكن يرى أن ألمانيا لديها أي اهتمام بالبلقان وليس لها أساس بالنسبة للقضايا القائمة قضية تفضلها على الأخرى فيما عدا مسألة ضرورة تجنب نشوب حرب بين النمسا وروسيا بأي ثمن . وفي المؤتمر وصف دوره بأنه أشبه بدور السمسار الأمين وقدم تقريبا كل كلمة في المؤتمر بالكلمات التالية : (ألمانيا التي ليس لديها أي اهتمام مباشر بأي نوع في المسائل الشرقية...

ورغم أن بسمارك كان يفهم المباراة الجارية حق الفهم فقد شعر مع ذلك أنه أشبه بإنسان في كابوس يرى الخطر قادما نحوه ولكنه ليس في مقدوره أن يدرأه . وعندما حث البرلمان الألماني بسمارك على اتخاذ موقف أقوى. قال إنه يعتزم أن يخرج من الوضع كله سليما . وأوضح بسمارك أخطار الوساطة بأن أشار إلى حادث وقع في عام ١٨٥١ عندما تدخل القيصر نيكولاس الأول بين النمسا وبروسيا وكان يميل في الواقع إلى جانب النمسا.

ثم قام القيصر نيكولاس بأداء الدور الذي يفترض (غريمي) الآن أن يعطيه لألمانيا . فقد جاء نيكولاس وقال أول من يطلق النار سأطلق عليه أنا النار. ونتيجة لذلك أمكن المحافظة على السلام . لصالح من ولغير صالح من، هذا أمر على التاريخ أن يحكم عليه وأنا لا أريد أن أناقش هذا الموضوع هنا . إني ببساطة أسأل: هل هذا الدور الذي قام به القيصر نيكولاس ، والذي وقف فيه لصالح جانب واحد ، قوبل بالاعتراف بالجميل ؟ لا شك نحن في بروسيا لم نعترف بهذا الجميل ...فهل حدث أن توجهت النمسا بشكر إلى القيصر ؟ وبعد ذلك بثلاث سنوات جاءت حرب القرم .. وأنا لست في حاجة إلى أن أقول شيئا أكثر من ذلك.

وربما كان يمكنه أن يضيف إلى ما قاله أن تدخل القيصر لم يمنع بروسيا في النهاية من توحيد شمال ألمانيا – القضية الحقيقية في سنة ١٨٥١.

وقد لعب بسمارك بأوراق اللعب التي قدمت إليه بأكبر قدر من المهارة . وكانت خطته عموما هي دعم روسيا في قضايا تتعلق بالجزء الشرقي من البلقان (مثل قضية ضم بيسارابيا ـ حاليا مولودوفا ـ باستثناء القطاعين الشمالي والجنوبي التابعين لأوكرانيا) ومساندة النمسا في القضايا التي تتعلق بالجزء الغربي من البلقان مثل احتلال البوسنة والهرسك.

وثمة موضوع واحد فقط وقف فيه ضد روسيا . فعندما هدد دزرائيلي بمغادرة المؤتمر ما لم تترك الممرات الجبلية المواجهة لبلغاريا في حيازة تركيا توسط بسمارك لدى القيصر

للاعتراض على المفاوض الروسي شوفالوف Shuvalov.

وبهذه الطريقة تجنب بسمارك معاداة روسيا كما حدث بين النمسا وروسيا في أعقاب حرب القرم . ولكنه لم يخرج من ذلك سليما دون نقد . فقد شعر كثير من كبار الروس أنهم خدعوا في النصر . فروسيا قد تنزل عن رغبتها في تحقيق المكاسب الإقليمية لصالح الشرعية كما فعل الكسندر الأول مع الثورة اليونانية في العشرينيات من القرن التاسع عشر ونيكولاس الأول أثناء ثورات ١٨٤٨ غير أن روسيا لم تتخل أبدا عن هدف نهائي أو قبلت حلا وسطا على أنه حل عادل . وعموما فإن الوقوف في وجه النزعة التوسعية الروسية غالبا ما كان يسفر عن استياء مشوب بالغضب .

وهكذا بعد مؤتمر برلين وجهت روسيا اللوم بسبب فشلها في تحقيق أهدافها إلى الحلف الأوروبي وليس إلي تماديها في طموحاتها ، ولم توجه اللوم إلى دزرائيلى الذي شكل الائتلاف ضد روسيا وهدد بالحرب بل وجهته إلى بسمارك الذي نظم لعقد المؤتمر من أجل أن يتجنب نشوب حرب أوروبية . لقد اعتادت روسيا معارضة بريطانيا لها ، غير أن الجماعات المؤيدة للسلاف ، اعتبرت دور الوسيط الأمين الذي بدأ يقوم به حليف تقليدي مثل ألمانيا بمثابة إهانة لها . وشبهت الصحف القومية الروسية المؤتمر بأنه ائتلاف أوروبي ضد روسيا بقيادة الأمير بسمارك، هذا الرجل الذي حولوه إلى كبش فداء لفشل روسيا في تحقيق أهدافها المفرطة .

وقد لخص شوفالوف المفاوض الروسي الرئيسي في برلين الذي كان في موقف يسمح له بمعرفة خبايا الأمور اتجاهات روسيا الشوفينية (المغالية في القومية) في أعقاب المؤتمر قائلا :

إن المرء يفضل أن يترك الناس على وهم أحمق عندما يعتقدون أن مصالح روسيا قد لحق بها أذى كبير بسبب أعمال بعض القوى الأجنبية ، وبهذه الطريقة نساعد على استمرار أكثر عمليات الإثارة ضررا . الناس جميعا يريدون السلام ، وحالة البلد تتطلبه على وجه السرعة، غير أننا في الوقت نفسه نحاول أن نحمل العالم الخارجي آثار السخط الناجم فعلا عن أخطاء سياستنا ذاتها.

وعلى أي حال فإن شوفانوف لم يكن معبرا عن الرأي العام الروسي . ورغم أن القيصر نفسه لم يعبر عن رأيه بالطريقة التي عبرت بها صحافته الشوفينية أو الجماعات الراديكالية المؤيدة للسلافيين عن رأيها، فلم يكن أيضا راضيا رضاء تاما عن النتائج التي وصل إليها المؤتمر . وفي العقود التي تلت ذلك أصبحت الخيانة الألمانية في برلين المادة الرئيسية في كثير من الوثائق السياسية الروسية بما فيها الوثائق التي صدرت قبل نشوب الحرب العالمية الأولى. ولم يعد في الإمكان بعد ذلك استمرار وجود عصبة الأباطرة الثلاثة القائمة على

أساس وحدة الملوك المحافظين . ومن الآن فصاعدا فلو وجدت أي قوة للتماسك في الشئون الدولية فستكون هي السياسة الواقعية ذاتها .

وفي خمسينيات القرن التاسع عشر ١٨٥٠ أيد بسمارك سياسة كانت هي المرادف الأوروبي لسياسة العزلة الرائعة البريطانية فقد حث على الابتعاد عن التورط في أي شيء قبل الإلقاء بثقل بروسيا وراء أي جانب يبدو أنه الأفضل لخدمة مصالحها القومية في أي وقت من الأوقات . وهذه الطريقة تجنبت الأحلاف التي حدت من حرية الحركة وقبل كل شيء وفرت لبروسيا مزيدا من الخيارات عن أي ند ممكن لها . وفي سبعينيات القرن التاسع عشر حاول بسمارك تعزيز عملية توحيد ألمانيا بالعودة إلى الحلف التقليدي مع النمسا وروسيا . غير أنه في ثمانينيات القرن التاسع عشر ظهر موقف لم يسبق له مثيل . كانت ألمانيا قوية جدا بحيث لا يمكنها أن تقف بمعزل عن الأحداث لأن هذا الموقف قد يوحد أوروبا ضدها . ولم يعد يمكنها أيضا الاعتماد على تأييد روسيا التاريخي لها وهو تأييد يتراجع في معظم الأحوال . كانت ألمانيا عملاقا في حاجة إلى أصدقاء.

وقد سوى بسمارك هذه المعضلة بأن عكس تماما طريقته التي كان يطبقها من قبل في السياسة الخارجية . فمادام لم يعد قادرا على إدارة ميزان القوى بأن تكون التزاماته أقل من أي غريم ممكن، فسوف يقيم مزيدا من العلاقات مع مزيد من البلدان عن أي ند ممكن له. وبذلك يصبح قادرا على أن يختار من بين كثيرين من الحلفاء حسب الأحوال . وبعد تخليه عن حرية المناورة التي ميزت دبلوماسيته طيلة العشرين سنة السالفة ، بدأ بسمارك في بناء نظام من الأحلاف صممه ببراعة لكي يعمل من ناحية على منع أعداء ألمانيا من التعاضد معا ويعمل من ناحية أخرى على تقييد تصرفات شركاء ألمانيا . وفي كل ائتلاف من ائتلافات بسمارك التي كانت تتعارض أحيانا مع بعضها البعض كانت ألمانيا أكثر قربا لكل من شركاء ألمانيا من قربهم لبعضهم البعض، ولذلك كان لبسمارك دائما حق الاعتراض على التصرفات العامة وكذلك كانت لديه حرية الاختيار في أن يتصرف مستقلا . وقد نجح طيلة عقد من الزمان في الاحتفاظ بمواثيق مع أعداء حلفائه حتى يستطيع أن يقيد التوتر في جميع الجوانب .

وقد بدأ بسمارك سياسته الجديدة في عام ١٨٧٩ بأن عقد حلفا سريا مع النمسا . ولما شعر باستياء روسيا بعد مؤتمر برلين كان أمله هو بناء حاجز يمنع المزيد من التوسع الروسي . ولما لم يكن يريد السماح للنمسا بأن تستغل التأييد الألماني لها لتحدى روسيا فقد سعى إلى الاعتراض على سياسة النمسا في البلقان . وكان الترحيب الحار الذي قابل به سالسبورى الحلف النمساوي الألماني، حيث قال في عبارة إنجيلية أنباء طيبة عن ابتهاج عظيم ، بمثابة تأكيد لبسمارك بأنه لا يقف وحده في الميل نحو وقف التوسع الروسي . ولا شك أن سالسبورى كان يأمل أن تقوم النمسا بعد ذلك بتأييد من ألمانيا بتحمل العبء الملقي على

كاهل بريطانيا بمقاومة التوسع الروسي نحو المضايق . ولم يكن من تخصص بسمارك الدخول في معارك من أجل المصالح القومية لبلدان أخرى . وكان يمقت بصفة خاصة أن يفعل ذلك في البلقان لأنه كان يشعر بازدراء شديد للمعارك التي تجري في تلك المنطقة . وقال عن البلقان في إحدى المناسبات: «يجب علينا أن نجعل لصوص الغنم هؤلاء يفهمون بوضوح أن الحكومات الأوروبية لا تحتاج لأن تسخر نفسها من أجل تحقيق رغباتهم وإنهاء المنافسات بينهم». ولسوء الحظ بالنسبة للسلام في أوروبا أن خلفاء بسمارك نسوا تحذيراته هذه.

واقترح بسمارك تقييد روسيا في البلقان عن طريق الأحلاف وليس عن طريق المواجهة. وكان القيصر من ناحيته لا يعلم شيئا عن احتمالات العزلة . ونظرا لأن بريطانيا العظمى كانت هي العدو اللدود لروسيا ولأن فرنسا ما زالت ضعيفة جدا ونظامها قبل كل شيء نظام جمهوري لا يؤهلها لأن تكون حليفا جديرا بالتصديق ، وافق القيصر على إعادة إحياء عصبة الأباطرة الثلاثة وهذه المرة عملا بالسياسة الواقعية .

ولم تكن فائدة عقد حلف مع عدوه الرئيسي واضحة في مبدأ الأمر لدى إمبراطور النمسا . فقد كان يفضل تنظيم مجموعة مع بريطانيا العظمى إذ كان بينهما اهتمام مشترك بوقف زحف روسيا نحو المضايق ؛ غير أن هزيمة دزرائيلي في عام ١٨٨٠ وتولي جلادستون السلطة قد وضعا حدا لتلك الإمكانية . ولم يعد هناك الآن احتمال لاشتراك بريطانيا العظمى، حتى بصفة غير مباشرة ، في حلف موال لتركيا ومضاد لروسيا .

ولم تزعم عصبة الأباطرة الثلاثة الثانية أن لها أية اهتمامات أخلاقية . ويكمن في الشروط الدقيقة للسياسة الواقعية التي أقيمت العصبة على أساسها ، التزام من جانب الموقعين عليها بأن يقفوا موقف الحياد الطيب في حالة ما إذا اشترك واحد منهم في حرب ما مع بلد رابع فعلى سبيل المثال لو حاربت بريطانيا روسيا أو حاربت فرنسا ألمانيا . وبذلك تتحقق حماية ألمانيا من حرب ذات جبهتين وحماية روسيا من عودة ائتلاف القرم (المكون من بريطانيا العظمى وفرنسا والنمسا) بينما يظل التزام ألمانيا بالدفاع عن النمسا ضد العدوان قائما كما هو . وانتقلت مسئولية مقاومة النزعة التوسعية الروسية في البلقان إلى بريطانيا العظمى وذلك بالحيلولة دون النمسا والانضمام إلى ائتلاف موجه ضد روسيا ـ على الأقل على الورق ـ وبتحقيق التوازن بين أحلاف متعارضة ، استطاع بسمارك أن يحقق نفس حرية الحركة تقريبا التي تمتع بها في مرحلة تحفظه وتباعده السابقة فقد أزاح الدوافع التي كان يمكن أن تتسبب في تحويل أزمة محلية إلى حرب شاملة .

وفي سنة ١٨٨٢ السنة التي أعقبت قيام عصبة الأباطرة الثلاثة الثانية ألقي بسمارك بشبكته مرة أخرى على مساحة أوسع، وذلك بأن حث إيطاليا على تحويل الحلف الثنائي بين النمسا وألمانيا إلى حلف ثلاثي يضم إيطاليا . وقد ظلت إيطاليا بصفة عامة تنأى بنفسها

عن دبلوماسية أوروبا الوسطى غير أنها الآن استاءت من غزو فرنسا لتونس الذي أفسد مقدما مخططاتها الخاصة بشمال أفريقيا وبالمثل فإن النظام الملكي المزعزع في إيطاليا اعتقد أن إظهار قدر ما من دبلوماسية الدول الكبرى قد يساعد بشكل أفضل على مقاومة المد المتصاعد للنزعة إلى النظام الجمهوري . وقد حاولت النمسا من جانبها الحصول على ضمان إضافي، في حالة إذا ما اتضح أن عصبة الأباطرة الثلاثة ليست قادرة على كبح جماح روسيا . وفي تشكيل الحلف الثلاثي تعهدت ألمانيا وإيطاليا أن تساعد كل منهما الأخرى في حالة التعرض لأي هجوم فرنسي بينما تعهدت إيطاليا للنمسا المجرية بالوقوف موقف الحياد في حالة نشوب حرب مع روسيا ، وبذلك قللت من مخاوف النمسا من نشوب حرب ذات جبهتين . وأخيرا في عام ١٨٨٧ شجع بسمارك حليفيه النمسا وإيطاليا على عقد ما سمي باتفاقيات البحر المتوسط مع بريطانيا العظمى والتي بموجبها وافقت أطراف تلك الاتفاقيات على القيام معا بالحفاظ على الوضع الراهن في البحر المتوسط .

وقد أسفرت دبلوماسية بسمارك عن سلسلة من الأحلاف المتشابكة التي كانت أحيانا تتداخل مع بعضها البعض وأحيانا تتنافس مع بعضها البعض، الأمر الذي طمأن النمسا وضمن لها عدم التعرض لهجوم روسي وضمن لروسيا عدم التعرض للمغامرات النمساوية وضمن لألمانيا عدم حصارها ، وجر بريطانيا إلى مقاومة التوسع الروسي في اتجاه البحر المتوسط . ولكي يقلل من التحديات التي قد تواجه نظامه المعقد بذل بسمارك أقصى ما في وسعه لإرضاء الطموح الفرنسي في كل مكان فيما عدا الإلزاس واللورين . وشجع التوسع الاستعماري الفرنسي ليحول من ناحية ، النشاط الفرنسي بعيدا عن أوروبا الوسطى، والأكثر من ذلك لتوريط فرنسا مع أنداد استعماريين ، وخاصة بريطانيا العظمى .

وطوال أكثر من عقد ثبت أن هذا الحساب كان دقيقا . فقد تصادمت بريطانيا وفرنسا بسبب مصر ، ونفرت فرنسا من إيطاليا بسبب تونس . واستمرت بريطانيا العظمى في مقاومة روسيا في آسيا الوسطى وعند مداخل القسطنطينية . ورغبة منه في تجنب النزاع مع إنجلترا تحاشى بسمارك التوسع الإقليمي حتى منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر وجعل سياسة ألمانيا الخارجية تقتصر على أوروبا حيث كانت أهدافه هي الإبقاء على الوضع الراهن كما هو . غير أنه في النهاية أصبحت متطلبات السياسة الواقعية معقدة جدا لدرجة أصبح من الصعب معها الاستمرار فيها . وبمرور الوقت استحالت السيطرة على النزاع بين النمسا وروسيا . ولو أن ميزان القوى استمر في أنقى صوره لقسمت البلقان إلى مناطق نفوذ روسية ومناطق نفوذ نمساوية . ولكن الرأي العام كان ثائرا جدا بسبب هذه السياسة حتى في أكثر الدول الأوتوقراطية (الاستبدادية). فروسيا لا توافق عل مناطق نفوذ تترك السكان السلافيين للنمسا ، والنمسا لن توافق على تعزيز ما اعتبرته المناطق السلافية التابعة لروسيا في البلقان .

لقد أصبحت الدبلوماسية الوزارية التي تسير على نمط القرن الثامن عشر لا تتناسب مع عصر أصبح للرأي العام فيه أهمية كبيرة . وكأمر طبيعي استجابت الحكومتان النيابيتان في بريطانيا العظمي وفرنسا للرأي العام في بلديهما . وكان معني هذا في فرنسا ظهور ضغوط متزايدة من أجل استعادة الألزاس واللورين . ولكن أكثر الأمثلة المذهلة للدور الحيوي الجديد للرأي العام كان في بريطانيا العظمى ، عندما هزم جلادستون دزرائيلى في عام ١٨٨٠ في الانتخابات البريطانية الوحيدة التي دارت حول قضايا السياسة الخارجية . وبعد ذلك انقلبت سياسة دزرائيلى إزاء البلقان رأسا على عقب.

وقد كانت نظرة جلادستون ، الذي ربما كان الشخصية المسيطرة على السياسة البريطانية في القرن التاسع عشر ؛ إلى السياسة الخارجية هي نفس نظرة الأمريكيين للسياسة الخارجية بعد ويلسون . وكان يحكم علي السياسة الخارجية من معيار أخلاقي بدلا من أن يحكم عليها من معيار الجغرافيا السياسية وقال في ذلك أن الآمال القومية للبلغاريين في الواقع آمال مشروعة وأن بريطانيا العظمي ، بوصفها أمة مسيحية شقيقة فهي مدينة بالتأييد لبلغاريا ضد المسلمين الأتراك . وقال أن الأتراك يجب أن يرغموا على تحسين سلوكهم وذلك عن طريق تشكيل ائتلاف للدول التي ستتولى عندئذ مسئولية إدارة بلغاريا . وقدم جلادستون نفس المفهوم الذي أصبح يعرف في أيام الرئيس ويلسون باسم الأمن الجماعي : إن أوروبا تحتاج لأن تعمل بالتعاون معا ، وإلا فإن بريطانيا العظمي ينبغي ألا تبذل من جانبها أي جهد على الإطلاق .

يجب أن يتحقق ذلك ، ولن يتحقق إلا بتوفر الأمان بالعمل المشترك لدول أوروبا . إن قوتكم عظيمة ، ولكن ما هو ضروري قبل كل شيء هو أن عقل وقلب أوروبا يجب في هذا الصدد أن يكون واحدا . ولا أحتاج الآن للكلام إلا عن الدول الستة التي نسميها الدول الكبرى، روسيا وألمانيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا . فإن الوحدة بينها ليست أمرا هاما فحسب بل هي أمر لا يمكن الاستغناء عنه من أجل النجاح والارتياح الكاملين.

وفي عام ١٨٨٠ قام جلادستون ، وكان غاضبا من اهتمام دزرائيلى بالجغرافيا السياسية ، بشن حملته التي كانت نقطة تحول في السياسة الخارجية التي سميت بالحملة الميدلوثية ، Midlothian Canpaign، وهي أول حملة تجرى فيها جولات انتخابية عرضت فيها قضايا السياسة الخارجية على الشعب مباشرة . وفي عمر متأخر ظهر جلادستون كخطيب شعبي مفوه . وقد أكد جلادستون أن الأخلاق هي الأساس الوحيد للسياسة الخارجية الصحيحة وأصر جلادستون على أن الأدب المسيحي واحترام حقوق الإنسان ينبغي أن يكونا منارة سياسة بريطانيا الخارجية ، وليس ميزان القوى والمصلحة القومية . وقال في إحدى جولاته الانتخابية :

تذكروا أن قدسية الحياة في قري التلال في أفغانستان لا يجب – كما هو الأمر في عيون

الله ذي القدرة العظيمة – أن تنتهك لأنها مثل قدسية الحياة عندكم . ولتذكروا أن الله الذي وحد بينكم كبشر بنفس الدم الواحد والجسد الواحد قد ربط بينكم بقانون الحب المتبادل ... وهو قانون لا تقيده حدود المدنية المسيحية . . .

لقد فتح جلادستون ممرا سار فيه ويلسون فيما بعد عندما أعلن أنه لا يمكن أن يكون هناك فارق بين أخلاق الفرد وأخلاق الدولة . ورأي جلادستون مثلما رأي ويلسون بجيل بعده أنه يعتقد أنه كشف عن تيار عالمي يتجه نحو التغيير السلمي ينظمه الرأي العام العالمي:

من المؤكد أن ثمة قانونا للأمم بدأ يسيطر بالتدريج علي العقل وسوف يؤثر على سلوكيات العالم: قانوناً يعترف بالاستقلال وينبذ العدوان ويفضل التسوية السلمية لا الدموية للمنازعات ويهدف إلى التسوية الدائمة لا المؤقتة للخلافات، وفوق كل شيء يعترف بالأحكام العامة للبشر المتمدين كسلطة قضائية سامية أسمى من أية سلطة أخرى.

كل كلمة في تلك الفقرة كان يمكن أن تصدر عن ويلسون ومن المؤكد أن المعنى الضمني لتلك الكلمات يشبه بلا شك المعنى الضمني لعصبة الأمم . وعندما أوضح جلادستون الفارق بين سياسته وسياسة دزرائيلي في عام ١٨٧٩ أكد أنه بدلا من العمل لتحقيق ميزان القوى سوف يكافح من أجل الحفاظ على الدول الأوروبية في اتحاد معا .. . ولكن لماذا ؟ لأنه باتحادها معا فإنك تبطل الأغراض الأنانية لكل منها وتقيدها ... فالعمل المشترك قاتل للأغراض الأنانية. . . وبالطبع فإن العجز عن جمع شمل الدول الأوروبية هو سبب زيادة التوترات . وليست هناك قضية يمكن التنبؤ بها – باستثناء مستقبل بلغاريا – يمكن أن ترأب الصدع بين فرنسا وألمانيا والصدع بين النمسا وروسيا .

ولم يحدث أن استخدم رئيس وزراء بريطاني قبل جلادستون تلك البلاغة اللغوية ، فقد عامل كاسلريج الحلف الأوروبي بوصفه أداة لفرض تسوية فيينا . واعتبره بالمرستون وسيلة للمحافظة على ميزان القوى . وبعيدا عن رؤية جلادستون للحلف الأوروبي كأداة لفرض الوضع الراهن كما هو فإنه وكل إلى الحلف الدور الثوري الذي يرمي إلى إيجاد نظام عالمي جديد تماما . وظلت هذه الأفكار ساكنة إلى أن ظهر ويلسون على المسرح العالمي بعد ذلك بجيل .

وبالنسبة لبسمارك كانت هذه الآراء هي اللعنة بذاتها . وليس من المثير للدهشة أن هاتين الشخصيتين الجبارتين، كان كل منهما يحتقر الآخر ويكن له في نفس الوقت شعورا بالمودة. كان موقف بسمارك من جلادستون هو نفس موقف تيودور روزفلت من ويلسون : فقد اعتبر أن الفيكتوري الكبير رجل من جزءين جزء دجال وجزء خطر . وقد كتب المستشار الحديدي في عام ١٨٨٣ إلى الإمبراطور الألماني يقول :

ستكون مهمتنا في إنجلترا أسهل لو أن هذا الجنس ، من سياسيي الأزمان السابقة العظام

الذين كان لديهم إدراك تام بالسياسة الأوروبية ، لم ينته تماما . فمن الصعب مع شخص غير كفء مثل جلادستون ،لا يزيد على كونه خطيبا جيدا ، انتهاج سياسة يمكن بها أن يعتمد الآخرون على موقف بريطانيا.

لقد كان رأي جلادستون في غريمه أكثر صراحة عندما قال عنه مثلا أنه تجسيد للشر بعينه.

لقد عانت آراء جلادستون في السياسة الخارجية نفس مصير آراء ويلسون ، وذلك لأنها دفعت أبناء بلده إلى الانسحاب من الشئون العالمية بدلا من زيادة المساهمة فيها بقدر أكبر.

وعلي مستوى الدبلوماسية اليومية ، فإن وصول جلادستون إلى السلطة في عام ١٨٨٠ لم يؤثر كثيرا علي سياسة إنجلترا الاستعمارية في مصر وشرق السويس . ولكنه حال دون أن تصبح إنجلترا عاملا له فعاليته في البلقان وفي التوازن الأوروبي بصفة عامة .

ولذلك كان لتولى جلادستون منصبه لفترة ثانية (١٨٨٠ – ١٨٨٥) أثر متناقض وهو سحب شبكة الأمان من تحت أقدام بسمارك أكثر القادة السياسيين اعتدالا في أوروبا ، تماما كما تسبب انسحاب كانينج من أوروبا في أن يتجه ميترنيخ إلى القيصر . وطالما أن آراء بالمرستون / دزرائيلى ظلت تسيطر على السياسة الخارجية البريطانية، فكان يمكن لبريطانيا العظمي أن تكون بمثابة الملجأ الأخير كلما ازداد توغل روسيا في البلقان أو في الطرق المؤدية إلى القسطنطينية . ومع جلادستون انتهى هذا الضمان ، الأمر الذي جعل بسمارك يعتمد بقدر أكبر على مثلثه مع النمسا وروسيا الذي راح يزداد تناقضا مع الزمن .

وقد ثبت بطريقة ما أن الملوك الثلاثة – والذين كانوا يمثلون في ذلك الوقت حصن النزعة المحافظة (نزعة مقاومة التغيير) – كانوا أكثر تأثرا بالرأي العام ذي النزعة القومية من الحكومات النيابية . وقد صمم بسمارك بناء ألمانيا الداخلي بحيث يتيح له أن يطبق قواعد دبلوماسيته الخاصة بميزان القوى ، ومع ذلك فقد كان في هذا البناء الداخلي ما يشجع الدهماوية (أساليب حكم الدهماء) و رغم أن الريشتاج (البرلمان) كان ينتخب بواسطة أكبر عدد من الناخبين في دولة أوروبية إلا أن الحكومات الألمانية كان يتم تعيينها بواسطة الإمبراطور وليس بواسطة الريشتاج .وكانت مسئولة أمام الإمبراطور وليس أمام الريشتاج .

وبذلك فإن نزع المسئولية عن أعضاء الريشتاج أطلق لهم حرية الانغماس في الخطابة المتطرفة . ولأن الميزانية العسكرية كانت تناقش وتعتمد كل خمس سنوات فقد أغري ذلك الحكومات على إثارة الأزمات في السنة التي يقترع فيها على ميزانية البرنامج الدفاعي . ولو أتيح لهذا النظام مزيدا من الوقت لأمكن أن يحيل البلد إلى ملكية دستورية بها حكومة مسئولة أمام البرلمان . غير أنه أثناء سنوات التكوين الحرجة لألمانيا الجديدة، كانت الحكومات تتأثر بشكل كبير بالدعاية القومية ومعرضة لاختلاق الأخطار الخارجية من أجل

حشد التأييد للدوائر الانتخابية.

وقد عانت السياسة الخارجية السوفيتية أيضا من الدعاية المسعورة لتأييد اتحاد السلافيين والتي كان موضوعها الأساسي هو الدعوة لانتهاج سياسة عدوانية في البلقان والدخول في معركة مع ألمانيا. وفي عام ١٨٧٩ قال مسئول روسي لسفير النمسا قرب نهاية حكم الكسندر الثاني :

إن الناس هنا ببساطة خائفون من الصحافة ذات النزعة القومية ... لقد رفعوا فوق رؤوسهم علم القومية الذي يحميهم ويضمن لهم تأييدا قويا. ومنذ أن أصبحت النزعة القومية في المقدمة وبالذات منذ نجحت في التفوق على جميع النزعات الأخرى، ففي مسألة دخول الحرب (ضد تركيا) أصبح ما يسمى بالحزب الوطني قوة حقيقية ولا سيما لأنه تسلل إلى الجيش بأكمله.

وكانت النمسا الإمبراطورية متعددة اللغات في موقف مماثل.

وفي ظل تلك الظروف كان من الصعب على بسمارك تنفيذ عملية التوازن الخطرة. وفي عام ١٨٨١ تولي العرش قيصر جديد في سان بيترسبيرج، ولم تكن تقيده الأيديولوجية المحافظة مثل جده نيكولاس الأول، أو يقيده العطف على المسنين مثل والده ألكسندر الثاني. وكان ألكسندر الثالث المستبد الكسول لا يثق في بسمارك لأن سياسة بسمارك كانت معقدة للغاية لدرجة أنه استعصى عليه فهمها. وقال في إحدى المناسبات أنه كلما رأى اسم بسمارك في رسالة ما وضع علامة خطأ إلى جانب الاسم. وقد ازدادت شكوك القيصر بسبب زوجته الدنمركية التي لم تكن لتغفر أبدا لبسمارك أنه استولى على شليسفيج هولشتاين من بلدها الدنمرك.

وقد تسببت الأزمة البلغارية التي نشبت في عام ١٨٨٥ في جمع كل تلك النزوات والوصول بها إلى الذروة. وثمة ثورة أخرى تسببت في وجود بلغاريا الكبرى التي سعت روسيا إلى خلقها بحماس شديد قبل عقد من الزمن، الأمر الذي كانت تخشاه كل من بريطانيا العظمى والنمسا. ولكي يتبين كيف يمكن للتاريخ أن يحبط أكثر التوقعات انتشارا فإن بلغاريا الجديدة - بغض النظر عن أنها كانت تسيطر عليها روسيا - قد توحدت على يد أمير ألماني. وقد وجه البلاط في سان بيترسبيرج اللوم إلى بسمارك على ما كان المستشار الألماني يفضل كثيرا أن يتجنبه. وقد استاء البلاط الروسي وأشاع المؤيدون للسلافيين الذين كانوا يرون مؤامرة في كل ركن من الأركان غرب نهر الفستولا أطول نهر في بولندا ومن أهم أنهار أوروبا الشرقية أن بسمارك وراء تدبير مؤامرة شيطانية ضد الروس. وفي ظل هذه الأجواء رفض الكسندر تجديد عصبة الأباطرة الثلاثة في عام ١٨٨٧.

ولم يكن بسمارك على أي حال على استعداد للتخلي عن خياره الروسي. وكان يعرف أنه لو تركت روسيا لحيلها فإنها سرعان - إن آجلا أم عاجلا - ما ستندفع إلى عقد حلف مع فرنسا.

ورغم ذلك ففي ظروف الثمانينيات من القرن التاسع عشر وروسيا وبريطانيا دائما على شفا الحرب، فإن هذا الطريق كان من شأنه أن يزيد من حدة الخطر الروسي في مواجهة ألمانيا دون أن يخفف من العداء البريطاني . وبالإضافة إلى ذلك كان مازال أمام ألمانيا اختيار بريطاني وخاصة الآن بعد أن ترك جلادستون منصبه . وكان لدى الكسندر في أي الأحوال سبب معقول يجعله يشك في أن فرنسا ستخاطر بدخول الحرب بسبب البلقان . وبمعنى آخر فإن الروابط بين روسيا وألمانيا مازالت تعكس وجود تقارب حقيقي – ولو كان يتضاءل – في المصالح القومية . ولم تكن تلك مجرد ميول بسمارك رغم أنه بدون مهارته الدبلوماسية لم تكن هذه المصالح المشتركة قد ظهرت على الصعيد الرسمي .

وببراعته الدائمة قدم بسمارك الآن آخر مبادرة كبرى له وهي ما سمي بمعاهدة إعادة التأمين . فقد وعدت ألمانيا وروسيا كل منهما الأخرى بالبقاء على الحياد في حالة نشوب حرب مع بلد ثالث إلا إذا شنت ألمانيا هجوما على فرنسا أو شنت روسيا هجوما على النمسا. ومن الناحية النظرية فإن روسيا وألمانيا أصبحتا الآن آمنتين من التعرض لحرب ذات جبهتين شريطة أن يلتزما موقف الدفاع. وعلى أي حال فإن الكثير كان يعتمد على كيفية تعريف المعتدي خاصة أن التعبئة العامة أصبحت بشكل متزايد تساوي إعلان الحرب . (انظر الفصل الثامن). وحيث إن هذا السؤال لم يطرح أبدا فقد كانت هناك حدود واضحة لمعاهدة إعادة التأمين ؛ التي تضاءلت فائدتها بسبب إصرار القيصر على أن تظل سرية .

وكانت سرية الاتفاقية هي أوضح صورة للنزاع بين متطلبات ما سمي بدبلوماسية الحكومة وبين ضرورات سياسة خارجية تزداد اكتسابا للطابع الديمقراطي . وقد تعقدت الأمور إلى حد أنه أصبح هناك مستويان من السرية في معاهدة إعادة التأمين السرية . وكان المستوى الثاني عبارة عن ملحق سري خاص وعد فيه بسمارك ألا يعترض محاولات روسيا للاستيلاء على القسطنطينية والمساعدة على زيادة النفوذ الروسي في بلغاريا . ولم يثر أي من هذين التأكيدين اغتباط النمسا حليفة ألمانيا ، ناهيك عن بريطانيا العظمي – رغم أن بسمارك لم يكن سيستاء لو أن بريطانيا العظمي وروسيا تورطتا في مشكلة مستقبل المضايق.

ورغم تعقيدات معاهدة إعادة التأمين فقد حافظت هذه المعاهدة على الرابطة التي لا مفر منها بين سان بيترسبيرج وبرلين . وطمأنت سان بيترسبيرج أنه رغم أن ألمانيا سوف تدافع عن وحدة أراضي الإمبراطورية النمساوية المجرية فإنها لن تساعد على توسعها على حساب روسيا . وبذلك تمكنت ألمانيا على الأقل من تأخير عقد الحلف الفرنسي الروسي . قد تبين أن بسمارك وضع سياسته الخارجية المعقدة في خدمة ضبط النفس والمحافظة على السلام وذلك من رد فعله للضغوط التي مارسها قادة ألمانيا العسكريون الذي حثوا علي شن حرب وقائية ضد روسيا عندما انتهت عصبة الأباطرة الثلاثة في عام ١٨٨٧ . وقد قضى بسمارك

على كل تلك الأفكار في كلمة ألقاها أمام الريشتاج حاول فيها أن يضفي على سان بيترسبيرج سمعة كبيرة تحتفظ بها كطريقة لإعاقة عقد حلف بين فرنسا وروسيا :

إن السلام مع روسيا لن يعكر صفوه من جانبنا ؛ وأنا لا أعتقد أن روسيا ستهاجمنا . كما أني لا أعتقد أن الروس يبحثون عن حلفاء لهم لكي يهاجمونا بصحبة آخرين أو أنهم نزاعون إلى استغلال الصعوبات التي قد نواجهها مع جانب آخر حتى يمكنهم أن يهاجمونا بسهولة.

ومع ذلك فرغم ما اتسمت به تصرفات بسمارك لتحقيق التوازن من مهارة واعتدال ، فقد كان مصيرها أن تنتهي حالا . وقد أصبحت المناورات بالغة التعقيد حتى بات من الصعب بمكان الاستمرار فيها حتى بالنسبة لأستاذ الدبلوماسية الماهر . فالأحلاف المتشابكة التي كانت تستهدف ضمان ضبط النفس أدت بدلا من ذلك إلى انتشار الشك والارتياب بينما أدى الاهتمام الزائد بالرأي العام إلى ضعف المرونة لدى الجميع .

ومهما كانت مهارة دبلوماسية بسمارك ، فإن الحاجة إلى تلك الدرجة الكبيرة من ممارسة التأثير بذكاء كانت دليلا على التوترات التي ألحقتها ألمانيا القوية الموحدة بميزان القوى الأوروبي. بينما كان بسمارك ما زال يوجه مقاليد الأمور فإن ألمانيا الإمبراطورية كانت تثير القلق . والواقع أن مخططات بسمارك التي كان هدفها تحقيق الطمأنينة ،أصبح لها بمرور الوقت تأثير مقلق بشكل غريب، ذلك لأن معاصريه وجدوا صعوبة كبيرة في فهم طبيعة هذه المخططات المعقدة . ولما خافوا من تغلب المناورين عليهم فقد لجأوا إلى عدم الالتزام برهانهم . غير أن هذه الطريقة قللت أيضا من المرونة التي هي المحرك الرئيسي للسياسة الواقعية التي تنتهج كبديل للنزاع .

ورغم أن أسلوب دبلوماسية بسمارك كان مصيره الإخفاق في نهاية خدمته إلا أنه لم يكن من الضروري على الإطلاق أن يستعاض عن هذا الأسلوب بسباق مجنون للتسلح وبأحلاف صلبة تشبه الحرب الباردة الأخيرة إلى حد كبير ولا علاقة لها بميزان القوى التقليدي . وقد تمكن بسمارك طوال عشرين عاما من أن يحافظ على السلام ويخفف من حدة التوتر الدولي بنزوعه إلى الاعتدال والمرونة . غير أنه دفع ثمن العظمة التي لم يفهمها أحد لأن خلفاءه والذين سيقلدونه فيما بعد على مستوى العالم لم يفهموا أكثر من مجرد مضاعفة السلاح وشن حرب يمكن أن تتسبب في انتحار المدنية الأوروبية .

وفي عام ١٨٩٠ كان مفهوم ميزان القوى قد وصل إلى نهاية إمكانياته . كان هذا المفهوم قد أضفت عليه صبغة الضرورة في المقام الأول بواسطة الدول الكثيرة، التي خرجت من رماد آمال العصور الوسطي وأصبحت إمبراطورية عالمية . وفي القرن الثامن عشر أدت سياسة مصلحة الدولة العليا التي كانت نتاجا طبيعيا لمفهوم ميزان القوى إلى العديد من الحروب التي كانت مهمتها الأساسية هي منع ظهور دولة مهيمنة وإعادة بعث الإمبراطورية الأوروبية . لقد حافظ ميزان القوى على حريات الدول وليس على السلام في أوروبا .



■ الجمعية العامة للأمم المتحدة

الفصل السابع

آلة يوم الحساب السياسى

الدبلوماسية الأوربية قبل الحرب العالمية الأولى

في نهاية العقد الأول من القرن التاسع كان الحلف الأوروبي الذي حافظ على السلام طيلة قرن من الزمن قد انتهى . فقد ألقت الدول الكبرى بنفسها باستهتار أعمي في صراع ثنائي الأقطاب أدى إلى تحجرها في كتلتين، وكأن ذلك كان توقعا لنمط الحرب الباردة التي نشبت بعد ذلك بخمسين عاما . وهناك على أية حال فارق واحد مهم . ففي عصر السلاح النووي يكون تجنب الحرب هو الهدف الرئيسي للسياسة الخارجية . وفي بداية القرن العشرين كان يمكن أن تشن الحروب ـ ولا تزال تشن ـ بنوع من الاستهتار . والواقع أن بعض المفكرين الأوروبيين رأوا أن إراقة الدماء من آن لآخر شيء مطهر وهذا افتراض ساذج انتهك بصورة وحشية بنشوب الحرب العالمية الأولى .

ولقد ظل المؤرخون عقودا يناقشون سؤالا هاما وهو: من الذي يتحمل مسئولية نشوب الحرب العالمية الأولى؟ ومع ذلك فلم يمكن تحديد دولة واحدة تتحمل المسئولية عن هذا الاندفاع الجنوني نحو الكارثة . فكل دولة من الدول الكبرى ساهمت بنصيبها من قصور النظر وانعدام المسئولية ، وفعلت ذلك بلا مبالاة لا يمكن أن تحدث مرة أخرى بعد أن استقرت الكارثة التي أحدثوها في الذاكرة الجماعية لأوروبا . لقد نسوا تحذير باسكال Pascal الذي قال: إننا نعدو بإهمال نحو الهاوية بعد أن وضعنا شيئا أمامنا ليمنعنا من أن نراها.

ولاشك أن اللوم وجه للجميع . لقد حولت أمم أوروبا ميزان القوى إلى سباق للتسلح دون أن تفهم أن التكنولوجيا الحديثة وعمليات التجنيد الواسعة النطاق جعلت من الحرب الشاملة أكبر خطر لأمنها وللمدنية الأوروبية كلها . ورغم أن كل الأمم الأوروبية ساهمت في الكارثة بسياستها فقد كانت ألمانيا وروسيا هما اللتان قوضتا أي إحساس بضبط النفس بسبب الطبيعة الخاصة لهاتين الدولتين .

فأثناء عملية توحيد ألمانيا لم يكن هناك اهتمام كبير بأثر هذه العملية على ميزان القوى

وقد ظلت ألمانيا طيلة ٢٠٠ عام هي الضحية لحروب أوروبا وليست المحرض عليها . ففي حرب الثلاثين عاما تكبدت ألمانيا خسائر في الأرواح قدرت بحوالى ثلاثين في المائة من مجموع سكانها ، وقد وقعت معظم المعارك الحاسمة في حروب الأسر الحاكمة في أوروبا في القرن الثامن عشر ، وحروب نابليون على الأراضي الألمانية .

ولهذا كان من المحتم تقريبا أن تهدف ألمانيا الموحدة إلى عدم تكرار تلك المآسي . ولكن لم يكن من المحتم أن تعامل الدولة الألمانية الجديدة هذا التحدي على أنه مشكلة عسكرية فقط، أو أن يمارس الدبلوماسيون الألمان بعد بسمارك السياسة الخارجية بمثل هذا التنمر الشديد. وبينما كانت بروسيا التي يحكمها فريدريك الأكبر أضعف دولة بين الدول الكبرى أصبحت ألمانيا بعد توحيدها على الفور أقوى دولة في أوروبا مما أقلق جيرانها . ومن أجل أن تشترك ألمانيا في الحلف الأوروبي كانت تحتاج إلى أن تبدي ضبطا للذات في سياستها الخارجيه. ولسوء الحظ أنه بعد رحيل بسمارك كان الاعتدال هو أكثر صفة افتقدتها ألمانيا .

والسبب في أن القادة الألمان كانوا مولعين بالقوة السافرة هو أن ألمانيا ، بالمقارنة بالدول القومية الأخرى ، لم يكن لديها إطار عمل فلسفي اندماجي . ولم يكن البناء الذي وضعه بسمارك ينطوي على أي من المثاليات التي شكلت الدول الحديثة في باقي أوروبا– فلم يكن هناك هذا الاهتمام الذي أولته بريطانيا للحريات التقليدية ولا الدعوة الفرنسية للحريات العالمية أو حتى النزوة الإمبريالية للنمسا . وباختصار فإن ألمانيا البسماركية لم تجسد آمال الدولة القومية على الإطلاق ، لأن بسمارك تعمد أن يستبعد الألمان النمساويين. وكان برلمان بسمارك حيلة رائعة، فقد كان يمثل أولا وقبل كل شيء بروسيا كبيرة هدفها الرئيسي زيادة قوتها الخاصة .

وكان غياب الجذور الفكرية سببا أساسيا في عدم وجود هدف للسياسة الخارجية الألمانية. لقد تسببت ذكرى قيام المعارك دائما في أوروبا على أراضي ألمانيا في خلق إحساس دفين بعدم الأمن لدى الشعب الألماني . فرغم أن إمبراطورية بسمارك أصبحت الآن أقوى إمبراطورية في أوروبا، فإن القادة الألمان شعروا دائما بأنهم مهددون بشكل غامض ، واتضح ذلك من تسلط فكرة الاستعداد العسكري عليهم مصحوبة بكلام بلاغي مشوب بلهجة ميالة للقتال . وكان المخططون العسكريون يفكرون بطريقة الدخول في قتال مع حشد من جيران ألمانيا كلهم في وقت واحد . وفي إعداد أنفسهم لسيناريو أسوأ الحالات ساعدوا على أن يجعلوا من هذا السيناريو حقيقة . فإذا كانت ألمانيا قوية إلى حد تستطيع معه التغلب وحدها على ائتلاف من جيرانها فهي لاشك أكثر من قادرة على التغلب على أي منهم وحده . وبرؤية الاستعدادات العسكرية على حدودهم فقد انضم جيران ألمانيا معا من أجل الاشتراك في حماية أنفسهم ، وحولوا بذلك محاولات ألمانيا من أجل توفير أمنها إلى عامل من عوامل عدم أمنها.

ولو كانت هناك سياسة حكيمة منضبطة لأجلت شبح الخطر الثاني أو ربما تجنبته . ولكن خلفاء بسمارك تخلوا عن ضبط النفس الذي كان يتبعه واعتمدوا بقدر أكبر على القوة المجردة كما عبروا عنها في أحد بياناتهم الأثيرة لديهم – إن ألمانيا يجب أن تكون هي مطرقة الدبلوماسية الأوروبية وليست السندان . ويبدو الأمر وكأن ألمانيا قد بذلت جهدا كبيرا لتحقيق قوميتها فلم يتوافر لديها الوقت لتفكر في الغرض الذي يجب أن تحققه الدولة الجديدة. ولم تتمكن ألمانيا الإمبراطورية أبدا من التوصل إلى وضع مفهوم لمصلحتها القومية الخاصة . لقد تأثر القادة الألمان بالعواطف السائدة والغالبة في ذلك الوقت وكان افتقارهم غير العادي للإحساس بالروح الأجنبية بمثابة عائق أمام طريقهم ، فمزجوا الوحشية بالتردد في اتخاذ القرار الحاسم فساقوا بلدهم إلى العزلة ثم دفعوا به إلى الحرب.

وقد بذل بسمارك جهودا مضنية للتخفيف من التفاخر بالقوة الألمانية والتأكيد عليها واستخدم نظام أحلافه المعقد لكبح جماح رفاقه الكثيرين ولمنع خلافاتهم من أن تتطور إلى حرب . أما خلفاء بسمارك فقد افتقروا إلى الصبر والبراعة اللازمين لهذا النظام المعقد. فعندما توفي الإمبراطور ويليام الأول في عام ١٨٨٨ تولي ابنه فريدريك (الذي أثارت نزعته الليبرالية قلق بسمارك الشديد) الحكم لمدة ثمانية وتسعين يوما قبل أن يصاب بسرطان الحلق. وقد خلفه ابنه ويليام الثاني الذي تسبب سلوكه المسرحي في شعور المراقبين بعدم الارتياح لأن حاكم أقوى دولة أوروبية شخص غير ناضج وغريب الأطوار. وقد فسر علماء النفس الطابع العدواني القلق لويليام الثاني بأنه محاولة تعويضية إذ أنه بذراع مشوهة – وكانت تلك ضربة قاصمة لعضو من الأسرة الملكية الروسية لما لها من تقاليد عسكرية مجيدة. وفي عام ١٨٩٠ قام الإمبراطور المتهور بعزل بسمارك عن منصبه رافضا أن يمارس حكمه في ظل مثل تلك الشخصية الكبيرة . ومن الآن فصاعدا فإن دبلوماسية القيصر هي التي أصبحت مهمة جدا بالنسبة للسلام في أوروبا . وقد صور ونستون تشرشل القيصر ويليام بطريقة ساخرة فقال :

إنه يتبختر ويتظاهر ويثير جلبة بسيف لم يشهره بعد . وكل ما كان يريده هو أن يشعر أنه نابليون ويكون مثله دون أن يضطر إلى خوض معاركة. فإذا فعل أقل من ذلك فلن يفلح، إذا كنت قمة بركان فأقل ما يمكن أن تفعله هو أن تطلق الدخان . ولذلك فقد أطلق عامودا من السحب بالنهار ووميضا من النار بالليل لكل من كانوا يحدقون من بعيد ، وببطء وثبات اجتمع هؤلاء المراقبون المضطربون وانضموا معا من أجل أن يشتركوا في حماية أنفسهم.. غير أن وراء كل تلك البخترة وهذا التظاهر يكمن رجل عادي جدا ومغرور ولكنه في النهاية صادق يأمل أن يتصور الناس فيما بعد أنه فريدريك أكبر آخر.

وأكثر ما كان القيصر يريده هو أن يعترف العالم بأهمية ألمانيا وقبل كل شيء بقوتها . وحاول أن ينتهج ما أسماه هو وحاشيته السياسة العالمية ، دون أن يضع أي تعريف لهذا

المصطلح أو علاقته بالمصلحة القومية لألمانيا . وفيما وراء الشعارات كان هناك فراغ فكري: لغة عنيفة تغطي تجويفا داخليا ، شعارات ضخمة تخفي وراءها جبنا وفقدانا تاما لحاسة الاتجاه . وكانت النزعة إلى التفاخر المصحوبة بالحيرة في التصرف تمثل تركة قرنين من التأثر بالصفات الريفية الألمانية . حتى لو كانت السياسة الألمانية سياسة حكيمة توحي بالثقة فيها ، لكانت عملية إدماج العملاق الألماني في الإطار الدولي القائم في ذلك الوقت عملية شاقة للغاية . ولكن مزيج الشخصيات والمؤسسات القومية المتفجرة حال دون ذلك ، وأفضى بدلا من ذلك إلى سياسة خارجية غبية تخصصت في أن تجلب على ألمانيا كل شيء كانت دائما تخشاه .

وفي العشرين عاما التي أعقبت إعفاء بسمارك من منصبه تمكنت ألمانيا من أن تتبنى عملية نقض الأحلاف بصورة غير مألوفة . ففي عام ١٨٩٨ كانت فرنسا وبريطانيا العظمى على شفا حرب بسبب مصر . وكانت العداوة بين بريطانيا العظمى وروسيا عاملا ثابتا في مسيرة العلاقات الدولية في معظم القرن التاسع عشر . وفي مختلف الأوقات كانت بريطانيا العظمى تبحث عن حلفاء لها ضد روسيا، وحاولت في ذلك أن تتحالف مع ألمانيا ثم استقرت أخيرا على التحالف مع اليابان . ولم يكن هناك أحد يعتقد أن بريطانيا العظمى وروسيا وفرنسا سينتهي بها الأمر إلى أن تقف معا في جانب واحد . ومع ذلك فبعد عشر سنوات كان هذا ما حدث على وجه التحديد تحت تأثير سياسة الإصرار والتهديد الألمانية.

ورغم التعقيد الشديد لمناوراته فلم يحاول بسمارك أبدا أن يتجاوز التقاليد المتبعة لتحقيق ميزان القوى . غير أن خلفاءه رغم ذلك لم يشجعوا مفهوم ميزان القوى ، ويبدو أنهم لم يفهموا أبدا أنهم كلما زادوا من قوتهم الخاصة كلما شجعوا تكوين الائتلافات المعادلة لهذه القوة وعمليات زيادة التسلح المتأصلة في نظام التوازن الأوروبي .

وقد استاء القادة الألمان من معارضة البلدان الأخرى للتحالف مع أمة كانت بالفعل أقوى الأمم في أوروبا وكانت قوتها تثير الرعب من الهيمنة الألمانية . ويبدو أن تكتيكات التهديد وإثارة مخاوف الآخرين كانت بالنسبة للقادة الألمان هي أفضل طريقة كي يفهم جيرانهم حدود قوتهم ومزايا الصداقة الألمانية . وقد أحدث هذا الاتجاه الساخر تأثيرا عكسيا . ففي محاولتهم لإقرار الأمن العام لدولتهم هدد القادة الألمان الذين جاءوا بعد بسمارك كل دولة أوروبية أخرى بعدم الأمان التام وتسببوا بذلك في أن قامت أوتوماتيكيا ائتلافات لمواجهة هذا التهديد . ليس هناك طريق دبلوماسي مختصر للسيطرة فالطريق الوحيد الذي يؤدي إليها هو الحرب وهو درس تعلمه القادة الألمان السذج الذين جاءوا بعد بسمارك عندما كان الأوان قد فات لتجنب كارثة عالمية .

ومن السخرية بالنسبة للجزء الأكبر من تاريخ ألمانيا الإمبراطورية أن روسيا وليست ألمانيا هي التي كانت تعتبر التهديد الأساسي للسلام . وكان بالمرستون أولا ودزرائيلي

ثانيا مقتنعين بأن روسيا تعتزم أن تنفذ إلى الهند ومصر . وفي عام ١٩١٣ كان مثل هذا الخوف لدى القادة الألمان من أنهم قد يتعرضون للهزيمة على أيدي الحشود الروسية قد بلغ درجة كبيرة حتى أنه أسهم إلى حد كبير في قرارهم الذي اتخذوه بإثارة المعركة المشئومة بعد ذلك بعام .

والواقع أنه لم يكن هناك دليل قاطع لتبرير الخوف من أن تقوم روسيا بمحاولات لإقامة إمبراطورية أوروبية ، وكانت مزاعم المخابرات الحربية الألمانية من أن لديها دليلا على أن روسيا تعد في الواقع لمثل هذه الحرب مزاعم حقيقية ولكن لم تكن لها أيضا صلة بالموضوع. فجميع البلدان المنضمة إلى الحلفين والتي أسكرتها التكنولوجيا الجديدة للسكك الحديدية وبرامج التعبئة العامة كانت منهمكة على الدوام في إعدادات عسكرية على درجة كبيرة من الضخامة بحيث إنها لم تكن تتناسب مع أي من الموضوعات التي كان الجدل يدور حولها . غير أنه لأن تلك الإعدادات التي تجرى بحماس شديد لم تكن لها صلة بأي موضوع بعينه، فقد كان تفسيرها الوحيد هو أنها بشير لطموحات واسعة النطاق رغم أن تلك الطموحات لم تكن واضحة . وقد أيد الأمير فون بيلو الذي كان مستشارا لألمانيا من سنة ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٠٩ وجهة نظر فريدريك الأكبر القائلة: من بين جميع جيران بروسيا فإن الإمبراطورية الروسية هي أخطرها من حيث قوتها ومن حيث وضعها.

وفي كل مكان كانت أوروبا تجد شيئا غريبا مؤكدا بشأن توسع روسيا ومثابرتها. فجميع الأمم الأوروبية كانت تسعى إلى التوسع عن طريق استخدام التهديد والتهديد المضاد. غير أنه يبدو أن روسيا كانت مضطرة للتوسع بإيقاع خاص بها لا يمكن احتواؤه إلا بنشر قوة هائلة وعادة ما كان ذلك عن طريق الحرب . وفي أزمات عديدة كان يبدو أن لدى روسيا تسوية معقولة أفضل بكثير في الواقع من التسويات التي تم التوصل لها في النهاية . ومع ذلك فإن روسيا فضلت دائما المخاطرة بالهزيمة على الحلول الوسط . وقد حدث هذا فعلا في حرب القرم في عام ١٨٥٤ وفي حروب البلقان ١٨٧٥-١٨٧٨ وقبل الحرب بين اليابان وروسيا عام ١٩٠٤ .

وأحد تفسيرات هذه الاتجاهات هو أن روسيا تنتمي من ناحية إلى أوروبا ومن ناحية أخرى إلى آسيا . وفي الغرب كانت روسيا جزءا من الحلف الأوروبي وشاركت في القواعد الموسعة لميزان القوى . ولكن حتى في ذلك كان القادة الروس لا يطيقون اللجوء إلى تحقيق التوازن وكانوا يميلون إلى اللجوء للحرب إذا لم تتحقق مطالبهم – فمثلا في بداية حرب القرم عام ١٨٥٤ ، وفي حروب البلقان ، ومرة أخرى في عام ١٨٨٥ عندما كادت روسيا أن تدخل الحرب ضد بلغاريا . وفي آسيا الوسطى كانت روسيا تتعامل مع إمارات ضعيفة لم يصلح التعامل معها على أساس ميزان القوى ، وفي سيبيريا – إلى أن وقفت ضد اليابان – استطاعت روسيا أن تتوسع بقدر ما توسعت أمريكا في قارة قليلة السكان .

وفي الاجتماعات الأوروبية ، كانت روسيا تستمع إلى مناقشات تؤيد ميزان القوى ولكنها لم تكن دائما تلتزم بقواعده . و بينما كانت الأمم الأوروبية دائما ترى أنه يجب أن يتقرر مصير تركيا والبلقان بواسطة الحلف الأوروبي . فإن روسيا من ناحية أخرى سعت إلى معالجة هذه المسألة من جانب واحد وبالقوة – وقد اتضح ذلك في معاهدة أدريانوبل Adrianopel عام ١٨٢٩ وفي معاهدة أنكيار سكيليسي Unkiar Skelessi عام ١٨٣٣ وفي النزاع مع تركيا في عام ١٨٥٣ وفي حروب البلقان التي استمرت من ١٨٧٥ حتى ٧٨ و في عام ١٨٨٥. وتوقعت روسيا من أوروبا أن تغض النظر عما يحدث واستاءت عندما لم تفعل أوروبا ذلك . وقد حدثت نفس المشكلة مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية حينما قرر الحلفاء الغربيون أن مصير أوروبا الشرقية يخص أوروبا بأجمعها ، بينما أصر ستالين على أن أوروبا الشرقية وخاصة بولندا توجدان في الفلك السوفيتي ولذلك فإن مصيرهما يجب أن يتحدد بدون الرجوع إلى الديمقراطيات الغربية . وكان ستالين مثل أسلافه القياصرة فقد راح يتصرف من جانب واحد . وكان من المحتم على أية حال ، أن يظهر ائتلاف من الدول الغربية ليقاوم هجمات روسيا العسكرية ويتخلص من الأعباء التي تفرضها روسيا على جيرانها . وفي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية كان لابد أن يستغرق الأمر جيلا بأكمله لكي يكرر التاريخ نفسه .

ونادرا ما أظهرت روسيا في زحفها إحساسا بالحدود . وعندما كانت مخططاتها تفشل كانت تكتم شكاواها وتنتظر الفرصة للانتقام – من بريطانيا العظمى طوال فترة كبيرة من القرن التاسع عشر ، ومن النمسا بعد حرب القرم ،ومن ألمانيا بعد مؤتمر برلين، ومن الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة . وسوف ينتظر العالم رد فعل روسيا الجديدة إزاء انهيار إمبراطوريتها التاريخية والدول الدائرة في فلكها وذلك بعد أن تمتص صدمة تفككها.

وفي آسيا لم يكن إحساس روسيا بأن عليها رسالة تؤديها حتى مقيدا بدرجة كبيرة بالعقبات السياسية والجغرافية . فطيلة القرن الثامن عشر كله وفي معظم القرن التاسع عشر وجدت روسيا نفسها وحيدة في الشرق الأقصى . وكانت أول دولة أوروبية تتعامل مع اليابان وأول دولة تعقد اتفاقية مع الصين ، وهذا التوسع الذي تحقق على أيدي عدد قليل نسبيا من المستوطنين والمغامرين العسكريين لم يسفر عن أي نزاع مع الدول الأوروبية . وكذلك لم تكن للمصادمات المتقطعة مع الصين أهمية تذكر . ففي مقابل مساعدة الروس للصين ضد القبائل المتحاربة تنازلت الصين لروسيا عن مساحات شاسعة من الأراضي ووضعتها تحت الإدارة الروسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مما كان بادرة لظهور سلسلة من المعاهدات غير المتعادلة استنكرتها كل الحكومات الصينية منذ ذلك الوقت ولا سيما الحكومة الشيوعية .

وحسب طبيعة الروس فإن الشهية السوفيتية للاستيلاء على الأراضي الآسيوية بدأت تزداد نهما بعد كل أرض جديدة يستحوذون عليها . ففي عام ١٩٠٣ كتب سيرجي ويت

Sirgi witt وزير مالية روسيا وأمين سر القيصر إلى نيكولاس الثاني يقول : نظرا لحدودنا الضخمة مع الصين وموقعنا الممتاز فإن امتصاص روسيا لجزء كبير من الإمبراطورية الصينية هو مسألة وقت ليس إلا. وكما كان الحال مع الإمبراطورية العثمانية فقد كان موقف القادة الروس هو أن الشرق الأقصى هو شأن من شئون روسيا وأن بقية العالم ليس له الحق في التدخل ، وكان تقدم روسيا على جميع الجبهات يتم أحيانا في وقت واحد ، وكثيرا ما كان الروس يتقدمون ثم يتراجعون اعتمادا على أي الجبهات سيكون فيها التوسع أقل خطورة .

وكان جهاز صنع السياسة في الإمبراطورية الروسية يعكس الطبيعة الازدواجية للإمبراطورية . وكانت وزارة الخارجية الروسية إدارة في مكتب رئيس الوزراء مزودة بموظفين مستقلين، كانت ميولهم أساسا موجهة نحو الغرب. كثيرون منهم كانوا من الألمان البلطيق. وكان هؤلاء الموظفون يعتبرون روسيا دولة أوروبية وسياساتها يجب أن تنفذ في سياق الحلف الأوروبي . وقد لاقي الدور الذي تقوم به الوزارة معارضة من الإدارة الآسيوية التي كانت مستقلة بالمثل ومسئولة عن السياسة الروسية نحو الإمبراطورية العثمانية والبلقان والشرق الأقصى – أي بمعنى آخر مسئولة عن كل جبهة تتقدم فيها روسيا فعلا .

وعلى عكس الوزارة فإن الإدارة الآسيوية لم تعتبر نفسها جزءا من الحلف الأوروبي . ولما كانت الإدارة الآسيوية تنظر إلى الدول الأوروبية على أنها عقبات أمام مخططاتها فقد عاملت الدول الأوروبية على أنها لا صلة لها بالموضوع . وحاولت كلما أمكن أن تحقق الأهداف الروسية عن طريق معاهدات من جانب واحد أو عن طريق حروب تشن دون الرجوع إلى أوروبا . ولما أصرت أوروبا على أن القضايا المتعلقة بالبلقان والإمبراطورية العثمانية يجب أن تسوى بالاتفاق فكان من المحتم أن تنشأ نزاعات كثيرة بينما ازداد الغضب الروسي لأن روسيا أعيقت بهذا الشكل بواسطة دول اعتبرتها دولا متطفلة.

كان التوسع الروسي دفاعيا أحيانا وهجوميا أحيانا أخرى، ولكنه كان دائما غامضا، وتولد عن هذا الغموض نقاش من جانب الغرب حول نوايا روسيا الحقيقية استمر حتى الفترة السوفيتية (فترة الاتحاد السوفيتي) وأحد أسباب الصعوبة الدائمة في فهم أغراض روسيا هو أن الحكومة الروسية ، حتى في الفترة الشيوعية كانت تشترك في كثير من المعالم مع الملكيات الاستبدادية في القرن الثامن عشر، ولم تكن تشبه دولة كبرى في القرن العشرين. ولم تنجب روسيا الإمبريالية ولا روسيا الشيوعية أحدا من وزراء الخارجية العظام. كان وزراء خارجيتها من أمثال نيسلرود Nesselrode وجورشاكوف Gorshakov وجيبرز Giers ولامسدورف Lamsdorf وحتى جروميكو ، وزراء لامعين ومتمكنين ولكن كانت تنقصهم الثقة في وضع سياسة بعيدة المدى .كانوا مجرد خدم لحاكم مستبد متقلب مخبول ، وكان عليهم من أجله أن يتباروا وسط كثير من الشئون الداخلية العويصة . فلم يكن لدى الإمبراطورية الروسية بسمارك ولا سالسبورى ولا روزفلت – وباختصار لم يكن هناك وزير لديه سلطات تنفيذية على جميع نواحي الشئون الخارجية .

حتى عندما كانت شخصية القيصر الحاكم شخصية مسيطرة فإن النظام الاستبدادي في رسم السياسة الروسية حال دون وضع سياسة خارجية متماسكة . فبمجرد أن كان القياصرة يجدون وزير خارجية يرتاحون إليه كانوا يحتفظون به حتى وهو كبير السن كما حدث مع نيسلرود ، وجورشاكوف وجيرز . فهؤلاء الوزراء الثلاثة خدموا في معظم القرن التاسع عشر حتى وهم كبار السن جدا ، كانت لهم قيمتهم الكبرى بالنسبة للقادة السياسيين الأجانب الذين كانوا يعتبرون أنهم الشخصيات الوحيدة التي تستحق أن يروها في سان بيترسبيرج لأنهم كانوا المسئولين الوحيدين الذين يستطيعون الاتصال بالقيصر . فقد كان البروتوكول فعلا يمنع أي شخص آخر من محاولة مقابلة القيصر رسميا .

ولزيادة تعقيد عملية صنع القرار ، كانت سلطة القيصر التنفيذية كثيرا ما تتصادم مع مفاهيمه الأرستقراطية عن أسلوب الحياة الملكي . فعلى سبيل المثال ، حدث مباشرة بعد توقيع معاهدة إعادة التأمين ، وهي فترة مهمة بالنسبة للشئون الخارجية الروسية ، أن غادر الكسندر الثالث سان بيترسبيرج لمدة أربعة شهور متتالية من شهر يوليو حتى شهر أكتوبر ١٨٨٧ كي يتنزه في قاربه ويشاهد المناورات ويزور أقاربه في الدانمرك . ومع بعد صانع القرار الفعلي الوحيد وبالتالي صعوبة الاتصال به انهارت السياسة الخارجية الروسية. وليس فقط أن سياسات القيصر كانت تتحدد وفقا لمشاعره في لحظات معينة بل إن هذه السياسة تأثرت كثيرا بالهياج القومي الذي أثاره العسكريون . فالمغامرون العسكريون من أمثال جنرال كوفمان في آسيا الوسطى لم يولوا أي اهتمام لوزراء الخارجية. وكان جورشاكوف يقول الحقيقة تقريبا عندما ذكر أنه لا يعرف إلا القليل عن آسيا الوسطى وذلك في أحاديثه مع السفير البريطاني التي ورد ذكرها في الفصل السابق .

وفي الفترة التي تولى فيها نيكولاس الثاني الحكم من ١٨٩٤ حتى ١٩١٧ ،كانت روسيا مضطرة لدفع ثمن مؤسساتها الاستبدادية . فقد زج نيكولاس بروسيا أولا في حرب مشئومة مع اليابان ثم سمح لبلده بعد ذلك أن تصبح أسيرة نظام أحلاف جعل الحرب مع ألمانيا أمرا لا مفر منه . وفي الوقت الذي كانت فيه طاقات روسيا توجه إلى التوسع وتستهلك بواسطة نزاعات أجنبية ضعفت هياكلها الاجتماعية والسياسية وأصبحت هشة للغاية .

وكان يجب أن تكون هزيمتها في الحرب مع اليابان عام ١٩٠٥ بمثابة تحذير لها بأن الوقت اللازم لدعم المرافق الداخلية ، كما طالب المصلح الكبير بيتر ستوليبين Peter Stolypin أوشك أن ينتهي . إن ما كانت روسيا في حاجة إليه هو فترة لالتقاط الأنفاس غير أن ما قدم إليها كان مشروعا أجنبيا آخر . وعندما أحبطت مغامرات روسيا عادت إلى حلم الاتحاد السلافي والاندفاع نحو القسطنطينية والذي أفلت زمامه هذه المرة .

ومما يدعو إلى السخرية أن النزعة التوسعية بعد نقطة معينة ، لم تعد تعزز من قوة روسيا بل تسببت في انهيارها . ففي عام ١٨٤٩ كانت روسيا تعتبر أقوى دولة في أوروبا . وبعد

ذلك بسبعين عاما انهارت أسرها الحاكمة واختفت روسيا من بين صفوف الدول الكبرى . وفي الفترة بين ١٨٤٨ و١٩١٤ اشتركت روسيا في أكثر من نصف دستة من الحروب (بالإضافة إلى الحروب الاستعمارية) ، أي أكثر بكثير من أية دولة أخرى . وفي كل تلك المنازعات فيما عدا التدخل في المجر عام ١٨٤٩ زادت التكاليف المالية والسياسية في روسيا على المكاسب التي يمكن أن تحققها ، ورغم أن كلا من تلك المنازعات كانت لها خسائرها، فقد استمرت روسيا في التمسك برؤيتها وهي أن الدولة الكبرى لا بد أن تعمل على التوسع الإقليمي، ولذلك كانت تتوق إلى الحصول علي مزيد من الأرض التي لم تكن فعلا في حاجة إليها ولا حتى تستطيع تحمل أعبائها . وقد تلقى القيصر نيكولاس وعدا من مستشاره سيرجي ويت قال فيه : إنه من شواطئ المحيط الهادئ ومرتفعات الهمالايا لن تسيطر روسيا على شئون آسيا فحسب بل على شئون أوروبا أيضا. كانت التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ستكون مفيدة في العصر الصناعي لدولة في مركز الدول الكبرى أكثر من فائدتها لدولة تابعة في بلغاريا أو محمية في كوريا .

قلة من القادة الروس مثل جورشاكوف كانوا حكماء فأدركوا أن التوسع في حيازة الأرض بالنسبة لروسيا هو توسع في الضعف. غير أن آراءهم هذه لم تخفف أبدا من الهوس الروسي لشن غزوات جديدة . وفي النهاية انهارت الإمبراطورية الشيوعية أساسا لنفس الأسباب التي كانت لدى القيصر . وكان من الأفضل للاتحاد السوفيتي لو أنه ظل في إطار حدوده بعد الحرب العالمية الثانية، وأقام علاقات مع الدول الدائرة في فلكه مثل العلاقات التي احتفظ بها مع فنلندا .

عندما يحتك عملاقان –مثل ألمانيا القوية العنيفة وروسيا الضخمة شديدة القسوة – في وسط أوروبا فسيكون هناك احتمال كبير بوقوع نزاع بينهما، حتى لو كانت ألمانيا لن تجني شيئا من الحرب مع روسيا، ولو كانت روسيا ستخسر كل شيء في حرب مع ألمانيا . إن السلام في أوروبا آنئذ كان يعتمد على الدولة الوحيدة التي لعبت دور المحافظة على التوازن بمهارة وباعتدال طوال القرن التاسع عشر.

وفي عام ١٨٩٠ كانت عبارة «العزلة الرائعة» ما زالت تنطبق بشدة على السياسة الخارجية البريطانية . وكان البريطانيون يشيرون بفخر إلى بلدهم على أنه عجلة التوازن فى أوروبا – ذلك الثقل الذي منع أيا من الائتلافات المختلفة بين دول أوروبا من أن تصبح لها يد السيطرة .

وكان التورط في مثل تلك الأحلاف كريها لرجال الدولة البريطانيين، كما كان كريها لمن فضلوا العزلة من الأمريكيين . ومع ذلك فبعد خمسة وعشرين عاما فقط كان الإنجليز يموتون بمئات الآلاف في حقول فلاندرز الموحلة عندما حاربوا إلى جانب حليف فرنسي ضد غريم ألماني .

وقد حدث تغيير ملحوظ في السياسة الخارجية البريطانية في الفترة بين عام ١٨٩٠ وعام ١٩١٤ . ومن السخرية أن الرجل الذي قاد بريطانيا في الجزء الأول من ذلك التحول كان يمثل كل شيء تقليدي في بريطانيا العظمى وفي سياسة بريطانيا الخارجية . كان ماركيز سالسبوري هو المطلع النهائي علي بواطن الأمور . فقد كان سليل أسرة سيسيل العريقة التي كان أسلافها كبار وزراء للملوك البريطانيين منذ عهد الملكة إليزابيث الأولى . وكان المعروف عن الملك إدوارد السابع الذي حكم في الفترة من ١٩٠١ –١٩١٠ والذي جاء من عائلة فقيرة بالمقارنة بأسرة سيسيل أنه كان يشكو كثيرا من اللهجة التي تتسم بالمهانة والتقليل من قيمته التي كان سالسبورى يخاطبه بها .

وكان صعود سالسبوري إلى السلطة صعودا بلا مجهود كما كان قضاء وقدرا . فبعد تعليمه في كنيسة المسيح في أوكسفورد طاف الشاب سالسبوري أنحاء الإمبراطورية وأتقن لغته الفرنسية وقابل رؤساء الدول . وعندما بلغ الثامنة والأربعين وبعد أن كان وزيرا لخارجية الهند أصبح وزير الخارجية في حكومة دزرائيلى، وقام بدور رئيسي في مؤتمر برلين حيث أجرى معظم المفاوضات التفصيلية اليومية . وبعد وفاة دزرائيلى تولى زعامة حزب المحافظين . وكان بعد حكومة جلادستون الأخيرة ١٨٩٢–١٨٩٤ الشخصية الرئيسية في السياسة البريطانية طوال السنوات الخمس عشرة الأخيرة في القرن التاسع عشر .

وفي بعض النواحي ، كان موقف سالسبورى شبيها بموقف الرئيس الأمريكي جورج بوش رغم أنه استمر مدة أطول في أكبر منصب في بلاده . فالرجلان كلاهما تخطيا عالما كان يتراجع في الوقت الذي توليا فيه السلطة رغم أن هذه الحقيقة كانت غائبة عن كل منهما . وقد ترك كلاهما تأثيرا بمعرفة كيفية إدارة ما ورثاه . وقد تكونت نظرة بوش إلى العالم من الحرب الباردة التي نال فيها شهرته والتي شهد نهايتها وهو في قمة مجده ، وقد حصل سالسبورى على تجاربه في عهد بالمرستون الذي كانت فيه القوة البريطانية فيما وراء البحار لا تقارن بأية قوة مثلها وكانت فيه منافسة عنيفة بين إنجلترا وروسيا وكانت نهاية كل هذا تقترب أثناء فترة زعامته .

وكان على حكومة سالسبورى أن تقاوم الانهيار في موقف بريطانيا . فقد أصبحت قوة ألمانيا مساوية لقوتها الاقتصادية الجبارة ، أما روسيا وفرنسا فقد توسعتا في جهودهما الاستعمارية وكانتا تتحديان الإمبراطورية البريطانية تقريبا في كل مكان . ورغم أن بريطانيا العظمى كانت لا تزال متفوقة إلا أن السيطرة التي تمتعت بها في أواسط القرن التاسع عشر كانت تتسرب من بين أصابعها . وكما أن بوش تأقلم بمهارة مع ما لم يكن يتوقعه ، فإن قادة بريطانيا العظمى في تسعينيات القرن التاسع عشر أدركوا الحاجة إلى الربط بين السياسة التقليدية والحقائق غير المتوقعة .

وقد عبرت شخصية لورد سالسبورى– هذا الرجل البدين غير المهندم –تعبيرا دقيقا عن

قناعة بريطانيا بالوضع الراهن أكثر مما عبرت عن التحول الذي طرأ على بريطانيا . ولما كان هو الذي وضع تعبير «العزلة الرائعة»، فقد وعد سالسبورى أولا بأن يستمر في العمل بالسياسة البريطانية التقليدية التي تتمسك بخط ثابت فيما وراء البحار ضد الدول الاستعمارية الأخرى، كما وعد بأن تشترك بريطانيا في الأحلاف الأوروبية فقط عندما يتطلب الأمر ذلك كملجأ أخير لمنع أي معتد من قلب الموازين .

وبالنسبة لسالسبورى فإن موقع بريطانيا المنعزل معناه أن سياستها المثالية هي أن تكون نشيطة في أعالي البحار وأن تظل غير متورطة في الأحلاف الأوروبية المعتادة . وقال بصراحة في إحدى المناسبات : نحن سمك.

وفي النهاية اضطر سالسبوري إلى الاعتراف بأن إمبراطورية بريطانيا العظمى التي بالغت في توسعاتها كانت تتوتر تحت ضغوط روسيا في الشرقين الأقصى والأدنى وتحت ضغوط فرنسا في أفريقيا . وحتى ألمانيا بدأت تدخل السباق الاستعماري . ورغم أن فرنسا وألمانيا وروسيا كانت دائما في صدام معا في أوروبا فقد كانت دائما تتصادم مع بريطانيا في أعالي البحار . ولم تستول بريطانيا العظمي فقط على الهند وكندا وجزء كبير من أفريقيا بل أصرت على السيطرة على مناطق شاسعة لأسباب استراتيجية، هي ألا تجعلها تسقط في أيادي دولة أخرى رغم أنها لم تحاول أن تسيطر عليها بصفة مباشرة . وقد سمي سالسبورى ذلك المطلب «نوع من تحديد أرض لا تريد بريطانيا في حالة انفصالها عنها أن تستولي عليها دولة أخرى. وقد شملت هذه المناطق الخليج الفارسي ، والصين ، وتركيا ، والمغرب . وفي تسعينيات القرن التاسع عشر شعرت بريطانيا أنها محاصرة بمعارك لا تنتهي مع روسيا وأفغانستان وحول المضايق وفي شمال الصين ومع فرنسا في مصر والمغرب .

وأصبحت بريطانيا بموجب اتفاقيات البحر المتوسط في عام ١٨٨٧ مرتبطة ارتباطا غير مباشر بالحلف الثلاثي مع ألمانيا والمجر والنمسا وإيطاليا، على أمل أن تعزز موقف إيطاليا والنمسا في التعامل مع فرنسا في شمال أفريقيا ومع روسيا في البلقان . ومع ذلك فقد ثبت أن اتفاقيات البحر المتوسط لم تكن سوى بديل مؤقت.

وبعد أن حرمت الإمبراطورية الألمانية من أستاذ الاستراتيجية العظيم لم تعرف ماذا تفعل بالفرصة المتاحة أمامها . فحقائق الجغرافيا السياسية كانت تخرج بريطانيا تدريجيا من عزلتها الرائعة ، رغم أن أنصار السياسة التقليدية أثاروا ضجة كافية حول هذا الموضوع. وقد تم أول تحرك نحو التورط بشكل كبير في أوروبا لصالح إقامة علاقات أقوى مع ألمانيا. ومع اقتناع واضعي السياسة الألمان بأن روسيا وبريطانيا العظمى تحتاجان إلى ألمانيا بشدة فقد اعتقدوا أنه يمكنهم عقد صفقة المغلوب مع كليهما في وقت واحد دون تحديد طبيعة الصفقة التي يسعون إليها أو حتى يتخيلون أنهم ربما يكونون بذلك يدفعون روسيا وبريطانيا العظمي إلى التقارب معا . وعندما ترفض اقتراحاتهم للحصول على كل شيء أو

لاشيء ينسحب القادة الألمان عابسين عبوسا سرعان ما يتحول إلى وحشية . وهذا الأسلوب كان يتعارض تعارضا تاما مع أسلوب فرنسا التي اختارت أن تتقدم ببطء خطوة بخطوة وانتظرت عشرين عاما حتى تقترح روسيا عقد اتفاق كما انتظرت عقدا ونصف عقد لكي تقترح بريطانيا العظمى نفس الشيء . ورغم كل الضجة التي أثارتها ألمانيا بعد بسمارك فقد كانت سياستها الخارجية سياسة هواة إلى حد كبير وكانت أيضا سياسة قصيرة النظر بل كانت حتى تتسم بالجبن عندما تواجه بتحديات هي نفسها التي تسببت فيها .

وقد جاء التحرك الدبلوماسي لويليام الثاني في اتجاه طريق محتوم في عام ١٨٩٠ بعد قليل من إقالة بسمارك من منصبه عندما رفض عرض القيصر بتجديد معاهدة إعادة التأمين لمدة ثلاث سنوات أخرى . وبرفضه اقتراحات روسيا في بداية حكمه فإن القيصر ومستشاريه نزعوا أهم خيط في نسيج نظام بسمارك الخاص بالأحلاف المتشابكة . وكانت لهم في تصرفهم هذا ثلاثة دوافع : أولا: كانوا يريدون أن يجعلوا سياستهم بسيطة ونقية إلى أقصي حد ممكن (وقد اعترف المستشار الجديد كابريفي Caprivi في إحدى المناسبات بأنه ليست لديه القدرة مثل بسمارك على اللعب بثماني كرات في الهواء مرة واحدة) ، ثانيا: كانوا يريدون أن يطمئنوا النمسا إلى أن تحالفهم معها أمر له الأولوية الأولي بالنسبة لهم وأخيرا اعتبروا معاهدة إعادة التأمين عقبة أمام طريقهم المفضل وهو عقد حلف مع بريطانيا العظمى .

وكل من تلك الاعتبارات بين بوضوح الافتقار إلى فهم الجغرافيا السياسية التي عزلت بها ألمانيا نفسها في عهد ويليام الثاني بالتدريج . وكان التعقيد كامنا في موقع ألمانيا وتاريخها نفسه : فليست هناك سياسة بسيطة يمكن أن تلم بكل جوانبها المتعددة . وعلى وجه التحديد كان غموض الاتفاقية التي عقدت في نفس وقت عقد الحلف مع النمسا هو الذي مكن بسمارك من أن يقوم بدور محقق التوازن بين مخاوف النمسا وطموحات روسيا طيلة عشرين عاما دون أن يضطر إلى قطع صلاته بأي منهما أو يعمل على تصعيد مشكلة البلقان المستوطنة . وقد أسفر إنهاء معاهدة إعادة التأمين عن ظهور الوضع المضاد تماما : فتحديد الخيارات أمام ألمانيا شجع نزعة المغامرة النمساوية . وقد فهم نيكولاي دي جيير Giers Nicolai de وزير خارجية روسيا هذا الأمر على الفور وقال : إنه من خلال تصفية معاهدتنا نهائيا (معاهدة إعادة التأمين) فقد تحررت فيينا من الحكيم الأمير بسمارك ذي النوايا الحسنة وكذلك من سيطرته الشديدة.

ولم يسفر التخلي عن معاهدة إعادة التأمين عن فقدان ألمانيا نفوذها في مواجهة النمسا بل تسبب في زيادة قلق روسيا . وفي سان بيترسبيرج فُسر اعتماد ألمانيا على النمسا على أنه نزعة جديدة لمساندة النمسا في البلقان . وبمجرد أن وضعت ألمانيا نفسها كعقبة أمام الأهداف الروسية في منطقة لم يسبق أن شكلت أبدا مصلحة ألمانية حيوية كان لا بد أن

تبحث روسيا عن ثقل مضاد ، وكانت فرنسا على استعداد لأن تكون هذا الثقل .

وقد ازداد الإغراء أمام روسيا بالتحرك في اتجاه فرنسا بسبب اتفاقية متعلقة بالمستعمرات عقدت على وجه السرعة بين ألمانيا وبريطانيا العظمى في أعقاب رفض القيصر تجديد معاهدة إعادة التأمين . وقد حصلت بريطانيا العظمى من ألمانيا على منابع نهر النيل وقطع من الأراضي في شرق أفريقيا بما فيها جزيرة زنزبار . وقد حصلت ألمانيا في مقابل ذلك على قطاع من الأرض ليست له أهمية كبيرة يربط جنوب غرب أفريقيا بنهر زمبيزى وهو ما يسمى قطاع كابريفي وجزيرة هيلجولا Helgoland في بحر الشمال التي كان يفترض أن لها أهمية استراتيجية من حيث حماية الساحل الألماني من الهجمات البحرية .

ولم تكن هذه صفقة رديئة بالنسبة لكلا الجانبين رغم أنها تحولت إلى أول حلقة في سلسلة من سوء الفهم . وقد اعتبرت لندن الاتفاقية وسيلة لتسوية قضايا الاستعمار الأفريقي ، واعتبرتها ألمانية مقدمة للحلف الألماني الإنجليزي : أما روسيا فقد تمادت أكثر وفسرت الاتفاقية على أنها أول خطوة من جانب إنجلترا نحو الحلف الثلاثي . وبالتالي قدم البارون ستال Baron Staal سفير روسيا في برلين تقريره عن الميثاق المعقود مع ألمانيا صديق بلده التاريخي وبريطانيا العظمي خصمها التقليدي فقال :

عندما يكون المرء متحدا مع الآخرين بواسطة مصالح عديدة وارتباطات إيجابية في نقطة ما في الكرة الأرضية فإن المرء غالبا ما يكون متأكدا من أنه سيمضي في الطريق بالاتفاق مع الآخرين حول كل المشاكل الكبرى التي قد تظهر في المجال الدولي ... وقد تحقق فعلا الوفاق مع ألمانيا . ولن يساعد ذلك إلا على التأثير على علاقات إنجلترا مع الدول الأخرى في الحلف الثلاثي.

لقد أصبح الآن كابوس بسمارك من الائتلافات حقيقة ، لأن نهاية معاهدة إعادة التأمين قد مهدت الطريق لحلف فرنسي روسي .

وكانت ألمانيا في حساباتها قد توصلت إلى أن فرنسا وروسيا لن تعقدا بينهما حلفا أبدا، ذلك لأن روسيا لا يهمها أن تحارب من أجل الألزاس واللورين ، وفرنسا لا يهمها أن تحارب من أجل السلافيين البلقان . وقد اتضح أن ما توصلت إليه ألمانيا هو واحد من كثير من الأفكار الخاطئة الرديئة لألمانيا بعد زعامة بسمارك . وفي وقت ما كانت ألمانيا ملتزمة التزاما نهائيا باتخاذ جانب النمسا ، أما فرنسا وروسيا فكانتا في الواقع تحتاج كل منهما للأخرى مهما اختلفت أهدافهما، لأنه لا يمكن لأي منهما أن يحقق أهدافه الاستراتيجية دون أن يهزم ألمانيا أولا أو على الأقل يضعفها . وكانت فرنسا تحتاج لأن تفعل ذلك لأن ألمانيا لن تتخلى عن الألزاس واللورين بدون حرب ، بينما روسيا تعلم أنها لن تستطيع أن ترث

الأجزاء السلافية في الإمبراطورية النمساوية بدون أن تهزم النمسا – الأمر الذي أوضحت ألمانيا أنها ستقاومه برفضها تجديد معاهدة إعادة التأمين . ولن تستطيع روسيا الوقوف أمام ألمانيا بدون مساعدة فرنسا .

وفي غضون عام من رفض ألمانيا تجديد معاهدة إعادة التأمين ، وقعت فرنسا وروسيا اتفاقهما الودي Entente Cordial الذي نص على تبادل المساندة الدبلوماسية . وقد حذر جيير وزير خارجية روسيا ، هذا الرجل المحترم من أن تلك الاتفاقية لن تحل المشكلة الأساسية وهي أن بريطانيا العظمى وليست ألمانيا هي خصم روسيا الأصلي . وليأسها من الهروب من العزلة التي فرضها عليها بسمارك ، وافقت فرنسا على إضافة فقرة إلى مواد الاتفاقية الفرنسية الروسية تلزم فرنسا بتقديم الدعم الدبلوماسي لروسيا في أي صراع استعماري مع بريطانيا العظمى .

وبالنسبة للقادة الفرنسيين كانت هذه الفقرة المعادية لبريطانيا ثمن دخول بسيط لإقامة ائتلاف كان من المحتم أن يتحول إلى ائتلاف معاد لألمانيا . ثم توجه الجهود الفرنسية بعد ذلك نحو توسيع نطاق الاتفاقية الفرنسية الروسية لتصبح حلفا عسكريا . ورغم أن الوطنيين الروس كانوا يحبذون مثل هذه الاتفاقية للتعجيل بانهيار الإمبراطورية النمساوية، فقد كان الروس من أنصار السياسة التقليدية غير مرتاحين إليها . وقد كتب فلاديمير لامسدورف خليفة جيير في منصبه كوزير للخارجية في مذكراته في بداية شهر فبراير سنة ١٨٩٢ يقول:

إنهم (أي الفرنسيين) يعدون العدة أيضا لحصارنا باقتراحات من أجل اتفاقية بشأن العمليات العسكرية المشتركة في حالة وقوع هجوم من طرف ثالث ... ولكن لماذا المبالغة في الأمور إذا كانت الحالة جيدة ؟ نحن في حاجة إلى السلام والسكينة لأننا نعاني من آلام المجاعة وسوء حالتنا المالية وعدم اكتمال برامجنا العسكرية والحالة الميئوس منها لوسائل مواصلاتنا ، وأخيرا من النشاط الذي تجدد لمعسكر المؤمنين بالعدمية .

وفي النهاية قهر القادة الفرنسيون شكوك لامسدورف Lamsaorf وكذلك عارضه القيصر. وفي عام ١٨٩٤ وقعت اتفاقية عسكرية وافقت فيها فرنسا على مساعدة روسيا إذا هاجمتها ألمانيا أو هاجمتها ألمانيا والنمسا معا . وبمقتضاها تقوم روسيا بمساعدة فرنسا في حالة وقوع عدوان عليها من جانب ألمانيا أو من جانب ألمانيا وإيطاليا معا . ورغم أن الاتفاقية الفرنسية الروسية لعام ١٨٩١ كانت أداة دبلوماسية، وكان يمكن أن يقال عنها عن حق أنها موجهة ضد بريطانيا العظمى وألمانيا أيضا ، فقد كان العدو الوحيد الذي تنبأت به تلك الاتفاقية هو ألمانيا . وما أطلق عليه جورج كانعان فيما بعد «الحلف المشئوم» (الاتفاق بين فرنسا وروسيا عام ١٨٩١ ، والذي عقدت في أعقابه الاتفاقية العسكرية لعام ١٨٩٤) كان بداية اندفاع أوروبا نحو الحرب .

وكانت تلك بداية النهاية للعمل بمفهوم ميزان القوى .

فميزان القوى يعمل في أفضل حالاته إذا توافر على الأقل شرط واحد من الشروط التالية : أولا: أن تشعر كل دولة أنها حرة في الانضمام إلى أية دولة أخرى على أن يعتمد ذلك على الظروف السائدة في وقت معين . وخلال معظم القرن الثامن عشر، كان التوازن يتحقق بتغير الانحياز بصفة دائمة . وكانت هذه أيضا هي الحالة في عهد بسمارك حتى عام ١٨٩٠. ثانيا: عندما تكون هناك أحلاف ثابتة ويكون القائم بتحقيق التوازن حريصا على ألا يكون هناك ائتلاف من الائتلافات القائمة له السيطرة على الآخرين – وقد كان هذا هو الموقف بعد المعاهدة الفرنسية الروسية ، عندما واصلت بريطانيا العظمي القيام بدور محقق التوازن وكان كل من الجانبين في الواقع يستجدي رضاها . ثالثا: عندما تكون هناك أحلاف متشددة متحجرة ولا يوجد من يقوم بتحقيق التوازن ولكن يكون تماسك الأحلاف ضعيفا نسبيا لدرجة أنه تكون هناك في أي موضوع معين إما حلول وسط أو تغيرات في الانحياز .

وعندما لا تتوافر أي من تلك الظروف فإن الدبلوماسية تتحجر . وتتحول المسألة إلى أن أي مكسب لجانب ما يعتبر خسارة للجانب الآخر . وتصبح سباقات التسلح وزيادة التوترات أمرا حتميا . وكان هذا هو الموقف أثناء الحرب الباردة ، وفي أوروبا بشكل ضمني بعد أن انضمت بريطانيا العظمى إلى الحلف الفرنسي الروسي فتكون بذلك الوفاق الثلاثي الذي بدأ عام ١٩٠٨.

وعلى عكس الحالة أثناء الحرب الباردة فإن النظام العالمي بعد عام ١٨٩١ لم يتحول إلى نظام متجمد بعد أن واجه مجرد تحد واحد . فقد استغرق الأمر خمسة عشر عاما قبل أن يدمر كل عنصر من عناصر المرونة على التوالى . فبعد عقد الوفاق الثلاثي لم يعد ميزان القوى يفلح . وأصبحت اختبارات القوة هي القاعدة وليست الاستثناء . وانتهت الدبلوماسية كفن للتسوية . وكانت المسألة مسألة وقت فقط قبل أن تتسبب أية أزمة في تحريك الأحداث بحيث لا يمكن السيطرة عليه .

غير أنه في عام ١٨٩١ عندما تجمعت فرنسا وروسيا ضد ألمانيا كانت ألمانيا ما زالت تأمل في تكوين الحلف المقابل لهذا التجمع مع بريطانيا العظمي، الأمر الذي كان ويليام الثاني يريده غير أن تهوره حال دون ذلك . ولم تؤد الاتفاقية الاستعمارية لعام ١٨٩٠ إلى تكوين الحلف الذي كان يخشاه السفير الروسي . وكان السبب في أن الحلف لم يعقد يرجع جزئيا إلى السياسات الداخلية لبريطانيا . فعندما عاد العجوز جلادستون إلى منصبه للمرة الأخيرة عام ١٨٩٢ جرح مشاعر القيصر الرقيقة برفضه أي شكل من الارتباطات مع ألمانيا الاستبدادية أو النمسا .

ومع ذلك فإن السبب الرئيسي للفشل في عقد حلف بين إنجلترا وألمانيا يرجع إلى عدم فهم

القادة الألمان للسياسة الخارجية البريطانية التقليدية، وكذلك إلى متطلبات ألمانيا الحقيقية اللازمة لأمنها . وطيلة قرن ونصف قرن ظلت بريطانيا العظمي ترفض الالتزام بحلف عسكري مفتوح العضوية . وكانت تعقد فقط نوعين من الارتباطات : اتفاقيات عسكرية محدودة للتعامل مع أخطار محددة وواضحة ، أو ترتيبات مثل ترتيبات الوفاق للتعاون دبلوماسيا في القضايا التي تكون فيها المصالح مع دولة أخرى متماثلة .

وبالطبع ،كان التعريف البريطاني للوفاق تعريفا مكررا لا جديد فيه : بريطانيا العظمى ستتعاون عندما تفضل أن تتعاون . غير أن أي وفاق أيضا له تأثير من حيث قيام روابط معنوية ونفسية، وكذلك من حيث إيجاد افتراض إن لم يمكن إيجاد التزام قانوني بالتعاون في أوقات الأزمات . وكان من شأنه أن يفصل بريطانيا العظمى عن فرنسا وروسيا أو على الأقل يعرقل التقارب بينها.

وقد رفضت ألمانيا مثل تلك الإجراءات غير الرسمية . وأصر ويليام الثاني على ما أسماه حلف على نمط أوروبا . وقال في عام ١٨٩٥ : إذا كانت إنجلترا تريد حلفاء أو مساعدة ، فعليها أن تتخلى عن سياسة عدم الالتزام التي تنتهجها وأن تقدم ضمانات أو معاهدات ذات نمط أوروبي . ولكن ما الذي كان يعنيه القيصر بضمانات ذات نمط أوروبي ؟ فبعد قرن تقريبا من «العزلة الرائعة» كان من الواضح أن بريطانيا لم تكن مستعدة للتعهد بالالتزام القاري الأوروبي الدائم الذي كانت قد أصرت على تجنبه طيلة ١٥٠ عاما، وخاصة إذا كان لصالح ألمانيا التي كانت في طريقها السريع لأن تصبح أقوى دولة في أوروبا .

والسبب الذي جعل هذا الضغط الألماني من أجل الحصول على ضمان رسمي أمرا لا جدوى منه هو أن ألمانيا لم تكن في الواقع في حاجة إليه، لأنها كانت من القوة بحيث تستطيع هزيمة أي عدو منتظر أو مجموعة من الأعداء من أوروبا ، مادامت بريطانيا العظمي لن تؤيدهم . وما كان يجب على ألمانيا أن تطلبه من بريطانيا هو الحياد الخير في حالة نشوب حرب في أوروبا وليس عقد حلف معها ، ولذلك كان يكفي في تلك الحالة وضع ترتيب على نمط ترتيبات الوفاق . ويطلبها ما ليست في حاجة إليه ويعرضها على بريطانيا العظمى ما لم تكن تريده (التزامات شاملة بالدفاع عن الإمبراطورية البريطانية) جعلت بريطانيا العظمى تشك في أنها تسعى في الواقع للسيطرة على العالم .

وقد تسبب تلهف ألمانيا هذا في زيادة تحفظ البريطانيين الذين بدأ ينتابهم شك كبير في رأي من يقدمون إليهم تلك الطلبات . وقد كتب سالسبيرى يقول : لا أحب أن أتجاهل القلق الواضح لأصدقائي الألمان . غير أنه ليس من الحكمة أن نسترشد كثيرا بنصائحهم الآن . لقد ذهب زعيمهم ، إنهم ألطف وأيسر من حيث التعامل معهم غير أننا نفتقد نفاذ بصيرة الرجل العجوز (بسمارك) .

وبينما كان القادة الألمان يتبعون الأحلاف بصورة مبالغ فيها كان الشعب الألماني يطالب بسياسة خارجية تحقق أهدافه بصورة أكثر حزما . ولم يصمد قليلا أمام مطالب الشعب سوى الديمقراطيين الاشتراكيين رغم أنهم في النهاية خضعوا للرأي العام وأيدوا قرار ألمانيا بإعلان الحرب في عام ١٩١٤ . لم تكن لدى الطبقات القيادية الألمانية أية خبرة بالدبلوماسية الأوروبية ولا حتى بالسياسة الواقعية التي كانوا يصرون عليها بشدة . وكان على اليونكرز (أعضاء الطبقة الإقطاعية البروسية) الذين قادوا بروسيا للسيطرة على ألمانيا أن يتحملوا وصمة العار بعد الحربين العالميتين وخاصة في الولايات المتحدة . والواقع أنهم كانوا الطبقة الاجتماعية التي كانت أقل جرما من حيث المبالغة في الشئون الخارجية، إذ أن توجههم أساسا كان نحو سياسة أوروبا ولم يكونوا يهتمون كثيرا بما يقع من أحداث خارج أوروبا . والواقع أن الجرم كان يقع على الطبقات الصناعية الإدارية الجديدة والطبقات المهنية المتزايدة التي سهلت ثورة القوميين، دون أن تواجه في النظام السياسي ذلك النوع من الحواجز البرلمانية الذي تطور في بريطانيا العظمي وفرنسا عبر عدة قرون . ففي الديمقراطيات الغربية كانت التيارات القومية القوية تمر عبر مؤسسات برلمانية ؛ وفي ألمانيا كانت تلك التيارات تعبر عن نفسها عن طريق جماعات ضغط خارج البرلمان .

ولما كانت ألمانيا دولة استبدادية فقد كان قادتها شديدي الحساسية للرأي العام وكانوا يتأثرون بشدة بجماعات الضغط القومية . وكانت هذه الجماعات تنظر إلى الدبلوماسية والعلاقات الدولية وكأنها مباريات رياضية، ودائما تدفع بالحكومة إلى اتخاذ سياسات متشددة ، وتطالب بالمزيد من التوسع الإقليمي ومزيد من المستعمرات وتكوين جيش أقوى أو سلاح بحري أكبر .

وقد عاملوا سياسة الأخذ والعطاء ، الأمر الطبيعي في المجال الدبلوماسي ، أو أقل إشارة إلى تنازلات دبلوماسية من جانب ألمانيا على أنها إهانة بشعة . وقد قال كيرت ريتزلر Kurt Rietzler السكرتير السياسي للمستشار الألماني ثيوبولد فون بيتمان هولويج Hollweg - theobald von Bethmane الذي كان يمارس مهام منصبه عندما أعلنت الحرب : إن خطر الحرب في وقتنا هذا يكمن في السياسات الداخلية لتلك البلدان التي تواجه فيها حكومة ضعيفة حركة وطنية قوية.

وقد نتج عن هذا المناخ العاطفي السياسي زلة دبلوماسية ألمانية كبيرة – وكانت تلك الزلة هي برقية عرفت باسم برقية كروجر – Kruger telegram قضى بها الإمبراطور على اختياره المتعلق بعقد حلف مع بريطانيا لمدة تستمر على الأقل حتى نهاية القرن . وفي عام ١٨٩٥ قام الكولونيل جيمسون Jameson تسانده المصالح الاستعمارية البريطانية وعلى الأخص سيسيل رودس Cecil Rhodes بشن غارة على ممالك البوير المستقلة في الترانسفال بجنوب أفريقيا . وقد فشلت الغارة فشلا ذريعا وتسببت في حرج شديد لحكومة

سالسبورى التي ادعت أنها لم تتورط فيها تورطا مباشرا . وقد أعربت الصحافة القومية الألمانية عن إعجابها بما حدث وحثت حتى على المزيد من امتهان البريطانيين .

وقد رأى فريدريك فون هولشتين Friedrich von Holstein المستشار الأول في وزارة الخارجية أن تلك الغارة المشئومة هي فرصة لكي يعرف البريطانيون مزايا ألمانيا الصديقة وذلك بأن يبين لهم كيف يمكن أن تكون ألمانيا خصما عنيفا . ومن ناحية القيصر فقد وجد أن تلك فرصة الزهو هذه لا يمكن أن تمر مرور الكرام وبعد قليل من بداية سنة ١٩٨٦ بعث برسالة إلى بول كريجر Paul Kruger رئيس الترنسفال يهنئه فيها على صد العدوان الذي تعرضت له بلاده من الخارج. Hollweg-Theobald Von Bethman وكانت تلك لطمة مباشرة لبريطانيا العظمي وزادت من احتمالات وجود محمية ألمانية في قلب ما كانت تعتبره بريطانيا منطقة مصالحها الخاصة . والواقع أن برقية كروجر لم تكن تمثل الطموحات الاستعمارية الألمانية ولا السياسة الخارجية الألمانية لأنها كانت مجرد حيلة في مجال العلاقات العامة . وقد حققت هذا الغرض .

وكتبت صحيفة الجماين زايتونج Allgemane Zeitung الليبرالية في ٥ يناير أنه لم يحدث أن فعلت الحكومة طيلة سنوات شيئا كانت نتيجته مثل هذا الارتياح التام .. لقد كتبت هذه البرقية من صميم روح الشعب الألماني.

وقد ساعد قصر نظر ألمانيا وتبلد حسها على زيادة سرعة هذا الاتجاه . فقد أقنع القيصر وحاشيته نفسها أنه ما دام التقرب إلى بريطانيا قد فشل في الوصول إلى حلف ما ، فربما ازداد اقتناع ألمانيا إذا تبين لها مدى ما ستتكلفه بسبب استياء ألمانيا . ولسوء حظ ألمانيا فإن هذا الاتجاه ناقض حقائق التاريخ الذي لم يرد فيه أي مثال على أن بريطانيا تأثرت بالمواقف المناوئة لها. وقد تحول بالتدريج ، ما بدأ على أنه نوع من المضايقة هدفه إظهار قيمة الصداقة الألمانية ، إلى تحد استراتيجي حقيقي . ولم يكن هناك موضوع يمكن أن يحول بريطانيا إلى عدو لدود مثل تهديد سيادتها على البحار . ومع ذلك فقد كان هذا ما فعلته ألمانيا على وجه التحديد ، ويبدو أنها لم تكن تدرك أنها دخلت في طور من التحدي لا رجعة عنه . وابتداء من منتصف القرن التاسع عشر بدأت حملات الضغط الداخلي التي تزعمتها جماعة البحريين تزداد لبناء أسطول ألماني ضخم ،وكانت هذه الجماعة تتكون من خليط من رجال الصناعة وضباط البحرية . ولما كان يهمها إثارة التوتر مع بريطانيا لكي يبرروا المخصصات المالية للأسطول فقد اعتبروا برقية كروجر مصادفة سعيدة كما فعلوا مع أي موضوع آخر من شأنه إثارة صراع مع بريطانيا العظمي في مواقع قصية في العالم تراوحت بين الحالة في ساموا إلى الوضع بالنسبة لحدود السودان ومستقبل المستعمرات البرتغالية .

وهكذا بدأت دائرة مفرغة بلغت ذروتها بالمواجهة . ومن أجل ميزة بناء أسطول لم يصطدم في الحرب العالمية التالية سوى معركة واحدة مع الأسطول البريطاني في معركة جوتلاند

Jutland ، عملت ألمانيا على إضافة بريطانيا إلى قائمة أعدائها المتزايدين ، لأنه كان من المؤكد أن بريطانيا العظمي سوف تقاوم أية محاولة من جانب الدولة الأوروبية التي تمتلك فعلا أقوى جيش في أوروبا بهدف التساوي معها في البحار .

ومع ذلك فكان يبدو أن القيصر كان غافلا عن تأثيرات سياساته . وفي البداية لم يغير سخط بريطانيا على التهديد الألماني وبناء الأسطول من الحقيقة شيئا، فالحقيقة أن فرنسا كانت تضغط علي بريطانيا في مصر ، وروسيا تتحداها في آسيا الوسطى . فماذا كان سيحدث لو أن روسيا وفرنسا قررتا التعاون معا ومارستا الضغط في وقت واحد في أفريقيا وأفغانستان والصين؟ وماذا كان سيحدث لو أن ألمانيا انضمت إليهما في هجوم على الإمبراطورية في جنوب أفريقيا ؟ وبدأ الشك ينتاب القادة البريطانيين فيما إذا كانت العزلة الرائعة ما زالت سياسة خارجية مناسبة.

وكان أهم متحدث اتسم بالصراحة هو جوزيف شامبرلين Joseph Chamberlin وزير المستعمرات البريطاني . شخصية جريئة ، كان أصغر من سالسبوري بجيل بأكمله . ويبدو أن شامبرلين كان يجسد القرن العشرين عندما دعا إلى عقد حلف ما – والأفضل أن يكون حلفا ألمانيا – بينما تمسك الأرستقراطي العجوز بشدة بالنزوع إلى العزلة، الأمر الذي كان ينتمي إلى القرن السابق . وفي خطاب هام له في شهر نوفمبر ١٨٩٩ دعا شامبرلين إلى عقد حلف تيوتوني (نسبة إلى الألمان القدماء) يضم بريطانيا العظمي وألمانيا والولايات المتحدة . وكان شامبرلين يؤيد بشدة هذا الحلف حتى إنه نقل هذا المشروع إلى ألمانيا بدون موافقة سالسبورى . ولكن القادة الألمان استمروا في التمسك بالضمانات الرسمية وتجاهلوا الحقيقة وهي أن الشروط لا صلة لها بالموضوع، وأن المهم هو التزام بريطانيا بالوقوف موقف الحياد في أي حرب تنشب في أوروبا .

وفي شهر أكتوبر عام ١٩٠٠ اضطر سالسبوري بسبب سوء حالته الصحية إلى التخلي عن منصبه كوزير للخارجية ولكنه احتفظ برئاسته للوزارة . وقد خلفه في وزارة الخارجية لورد لانسدون Lord Lansdown الذي وافق مع شامبرلين على أن سياسة العزلة الرائعة لم تعد توفر الأمن لبريطانيا العظمي . ورغم ذلك فلم يستطع لانسدون أن يتوصل إلى إجماع للآراء بشأن عقد حلف رسمي شامل مع ألمانيا ، لأن الوزارة لم تكن على استعداد إلا لاتخاذ ترتيبات لا تتجاوز نمط ترتيبات الوفاق؛ (تفاهم بشأن السياسة التي قد تنتهجها (الحكومتان البريطانية والألمانية) إزاء مسائل معينة أو في أجزاء معينة من العالم فيها مصلحة متماثلة لهما وكانت تلك فعلا نفس الصيغة التي أدت إلى الاتفاق الودي مع فرنسا بعد ذلك بعدة سنوات والتي ثبت أنها كانت صيغة كافية للزج ببريطانيا العظمي في الحرب العالمية إلى جانب فرنسا .

وعلى أي حال ، فمرة أخرى رفضت ألمانيا ما يمكن الحصول عليه لصالح ما كان يبدو

في الظاهر أنه لا يمكن إنجازه . فقد رفض المستشار الألماني الجديد «بولو» وضع ترتيبات مع بريطانيا العظمي على نمط ترتيبات الوفاق لأنه كان قلقا على الرأي العام أكثر من قلقه على آفاق الجغرافيا السياسية (الجيوبولوتيكية) وخاصة أنه كان يعطي الأولوية لإقناع البرلمان بالتصويت لصالح مسألة زيادة حجم الأسطول الألماني . ولم يكن يريد اختصار البرنامج البحري في مقابل أقل من التزام بريطانيا بحلف ثلاثي يضم ألمانيا والنمسا وإيطاليا . وقد رفض سالسبوري مناورة بولو للحصول على كل شيء أو لا شيء، ولثالث مرة في عقد من الزمان تجهض اتفاقية بين إنجلترا وألمانيا.

ويمكن رؤية التعارض بين مفهوم ألمانيا ومفهوم إنجلترا للسياسة الخارجية في الطريقة التي شرح بها الزعيمان فشلهما في الاتفاق . كان بولو عاطفيا جدا عندما اتهم بريطانيا العظمى بأنها دولة ذات نزعات ريفية متجاهلا أن بريطانيا كانت فعلا تنتهج سياسة خارجية عالمية حتى قبل أن تتوحد ألمانيا :

إن رجال السياسة البريطانيين لا يعرفون إلا قليلا عن أوروبا ومن وجهة نظر أوروبا فهم يعرفون قدر ما نعرف عن الأفكار السائدة في بيرو أو سيام.. إنهم سذج لأنهم واقعون بغرورهم في ثقة عمياء . وهم يجدون من الصعب أن ينسبوا إلى الآخرين سوء النية وهم قوم هادئون جدا يتمتعون بقدر كبير من اللامبالاة وفى غاية التفاؤل.

قد اتخذ رد سالسبورى على المتحدث المستاء الغامض إلى حد ما شكل درس في التحليل الاستراتيجي العميق . واستشهد بتعليق غير لبق صدر من السفير الألماني في لندن مؤداه أن بريطانيا العظمى في حاجة إلى عقد حلف مع ألمانيا حتى تفر من عزلتها الخطيرة فكتب يقول :

إن مسئولية الدفاع عن الحدود الألمانية والنمساوية ضد روسيا أثقل من مسئولية الدفاع عن الجزر البريطانية ضد فرنسا ... إن الكونت هاتزفيلت (Hatzfeldt السفير الألماني) يتكلم عن عزلتنا وكأنها تشكل خطرا كبيرا لنا . فهل حدث أن شعرنا بهذا الخطر عمليا ؟ ولو كنا قد استسلمنا في الحرب الثورية لما كان ذلك بسبب عزلتنا . ونحن لنا حلفاء كثيرون ولكنهم لن ينقذونا لو كان الإمبراطور الفرنسي قد استطاع أن يسيطر على بحر المانش. (القناة التي تفصل بين إنجلترا وفرنسا و يسميها الفرنسيون المانش وكلمة المانش بالفرنسية معناها الكم بالعربية، فباستثناء حكم نابليون – قالها نابليون – لم يحدث أن تعرضت بريطانيا أبدا للخطر ؛ ولذلك فمن المستحيل لنا أن نحكم إن كانت العزلة التي يفترضون أننا نعاني منها تنطوي أو لا تنطوي على أي عنصر للخطر . وليس من الحكمة أن نتحمل التزامات جديدة شاقة لكي نحمي أنفسنا من خطر ليس له وجود في التاريخ يدعونا إلى الحذر منه.

لم يكن لبريطانيا العظمى وألمانيا اهتمامات متماثلة تبرر الحلف الرسمي العالمي الذي

كانت ألمانيا الاستبدادية تتوق إليه بشدة . وقد خشي البريطانيون من أن تؤدي إضافة المزيد من القوة لألمانيا إلى تحويلها إلى نوع من الدول المسيطرة التي قاوموها تاريخيا. وفي الوقت نفسه فإن ألمانيا لم تكن تستمتع بالقيام بدور مساعد بريطانيا في قضايا اعتبرت تاريخيا هامشية بالنسبة للمصالح الألمانية مثل التهديد الذي تتعرض له الهند ، وكانت ألمانيا أيضا متغطرسة إلى حد كبير بحيث لا يمكنها فهم فوائد الحياد البريطاني.

وقد أظهر التحرك التالي لوزير الخارجية لانسدون ، أن اقتناع القادة الألمان بأن ألمانيا بلد أساسي بالنسبة لبريطانيا ، كان حالة من حالات المبالغة في تقدير الذات . وفي عام ١٩٠٨ أذهل لانسدون أوروبا بعقد حلف مع اليابان. وكانت تلك أول مرة– منذ ريشيليو وتعامله مع الأتراك العثمانيين – تلجأ فيها دولة أوروبية إلى طلب المساعدة من دولة خارج الحلف الأوروبي . وقد اتفقت بريطانيا العظمى واليابان على أنه إذا تورطت أي منهما في حرب ما مع دولة أخرى بسبب الصين أو كوريا فإن الدولة الأخرى ستلتزم الحياد . وإذا حدث مع ذلك أن تعرض أي طرف من الأطراف الموقعة على الحلف لهجوم من جانب دولتين فإن الطرف الآخر يلتزم بمساعدته .

ولأن الحلف لم يكن يوضع موضع التنفيذ إلا إذا كانت اليابان تحارب خصمين، فقد اكتشفت بريطانيا أخيرا حليفا كان على استعداد لاحتواء روسيا دون أن يسعى إلى توريطها –أي بريطانيا– في ترتيبات غير جوهرية – حليف ، بالإضافة إلى ذلك ، موقعه في الشرق الأقصى يضعه في منطقة ذات أهمية استراتيجية كبرى لبريطانيا العظمى أكثر من أهمية الحدود الروسية الألمانية . وكانت اليابان محمية من أي عدوان من جانب فرنسا التي ربما كانت ستسعى بدون الحلف إلى استخدام الحرب لتعزيز مطالبها بتأييد روسيا لها . ومنذ ذلك الوقت فقدت بريطانيا العظمي اهتمامها بألمانيا كشريك استراتيجي ؛ والواقع أنه بمرور الوقت أصبحت بريطانيا تعتبر ألمانيا تهديدا لها من الناحية الجغرافية السياسية .

وفي نهاية عام ١٩١٢ كانت الفرصة ما زالت سانحة لتسوية الصعوبات البريطانية الألمانية . وقد قام اللورد هالدين القائد الأول للسلاح البحري بزيارة برلين لبحث تهدئة حدة التوتر بين البلدين . وكانت لدى هالدين تعليمات بأن يسعى إلى تسوية الخلافات مع ألمانيا بعقد اتفاق بحري وتقديم تعهد بحياد بريطانيا : إذا تورط أي من الطرفين الكبيرين المتعاقدين (بريطانيا و ألمانيا مثلا) في حرب لا يمكن أن يتهم فيها أي طرف بأنه المعتدي، فإن الطرف الآخر سيقف على الأقل من الدولة المتورطة في الحرب موقف الحياد الخير وقد أصر القيصر مع ذلك على أن تتعهد إنجلترا بالحياد إذا أرغمت ألمانيا على دخول الحرب. الأمر الذي بدا بالنسبة للندن وكأنه طلب بأن تقف بريطانيا موقف المتفرج إذا قررت ألمانيا أن تشن حربا وقائية على روسيا أو فرنسا . وعندما رفضت بريطانيا صياغة القيصر هذه للاتفاق رفض القيصر بدوره صياغتهم ، ونفذ مشروع قانون زيادة اعتمادات البحرية

الألمانية. وعاد هالدين إلى لندن خاوي الوفاض. ولم يكن القيصر قد فهم بعد أن بريطانيا العظمى لن تتجاوز عقد صفقة ضمنية الأمر الذي كان حقا كل ما تحتاجه ألمانيا . وقد كتب القيصر يقول إذا كانت إنجلترا تعتزم فقط أن تمد يدها إلينا بشرط أن نحدد حجم أسطولنا، فتلك وقاحة لا حد لها تنطوي على إهانة شديدة للشعب الألماني وإمبراطوره ويجب رفض هذا العرض من الأصل.. وباقتناعه كما هي عادته بأنه يستطيع أن يبث الرعب في قلب إنجلترا بحيث تعقد مع ألمانيا حلفا رسميا قال القيصر متفاخرا : لقد بينت للإنجليز أنهم عندما يلمسون سلاحنا فكأنّهم يعضون في الصخر . ولعلي هكذا قد عملت على زيادة كراهيتهم ، ولكنني اكتسبت احترامهم، الأمر الذي سوف يقنعهم في الوقت المناسب أن يستأنفوا المفاوضات ، والأمل معقود على أن تستأنف تلك المفاوضات بلهجة أكثر تواضعا وأن تتوج بنتيجة أسعد.

ولم تنجح مطالب القيصر الملحة المتهورة لعقد هذا الحلف إلا في زيادة شكوك بريطانيا العظمى . وقد أفضى البرنامج البحري الألماني الذي جاء على قمة المضايقات الألمانية لبريطانيا أثناء حرب البوير فى الفترة من عام ١٨٩٩ حتى عام ١٩٠٢ إلى إعادة تقييم دقيقة للسياسة الخارجية البريطانية . وقد ظلت بريطانيا العظمى طيلة قرن ونصف قرن تعتبر فرنسا التهديد الأساسي للتوازن الأوروبي، وكانت ترى ضرورة مقاومة ذلك بمساعدة أى ولاية ألمانية ، عادة النمسا وأحيانا بروسيا . وكانت ترى أن روسيا هي أكبر خطر على إمبراطوريتها . غير أن بريطانيا بمجرد أن وجدت الحلف الياباني في متناول أيديها بدأت في إعادة النظر في أولياتها التاريخية . ففي عام ١٩٠٣ بدأت بريطانيا العظمي في بذل جهد منظم لتسوية القضايا الاستعمارية المهمة مع فرنسا، الأمر الذي بلغ ذروته بالاتفاق الودي عام ١٩٠٤ – وهو على وجه التحديد نوع من من ترتيبات التعاون غير الرسمي التي رفضته ألمانيا دائما– وبعد ذلك مباشرة تقريبا بدأت بريطانيا العظمي تستكشف عقد ترتيب مماثل مع روسيا .

وحيث إن الاتفاقية كانت من الناحية الرسمية اتفاقية استعمارية فلم تكن تعتبر انفصالا تقنيا عن سياسة «العزلة الرائعة» التقليدية التي اتبعتها بريطانيا . ومع ذلك فإن تأثيرها العملي كان هو أن بريطانيا تخلت عن موقف محقق التوازن وربطت نفسها بأحد الحلفين المتعارضين . وفي شهر يوليو عام ١٩٠٣ عندما كانت المفاوضات تجرى حول الاتفاق الودي قام ممثل فرنسي في لندن بإبلاغ لانسدون بأن فرنسا كتعويض ستبذل أقصى ما في وسعها لتحرير بريطانيا العظمي من الضغوط الروسية في مواقع أخرى :

... إن ألمانيا هي مكمن التهديد الخطير لأمن أوروبا . وإن التفاهم الجيد بين فرنسا وإنجلترا هو الوسيلة الوحيدة للوقوف في وجه المخططات الألمانية ، وإذا أمكن الوصول إلى التفاهم فسوف تجد إنجلترا أن فرنسا ستستطيع ممارسة نفوذ قوي على روسيا وبذلك تخلصنا من

كثير من مشاكلنا مع هذا البلد.

وفي غضون عقد من الزمان أصبحت روسيا، التي كانت مرتبطة من قبل بألمانيا بمعاهدة إعادة التأمين ، حليفا عسكريا لفرنسا بينما انضمت بريطانيا العظمي ، التي كانت بين آن وآخر تلتمس قبول ألمانيا لها ، إلى المعسكر الدبلوماسي الفرنسي . وقد أنجزت ألمانيا عملا شاذا بعزل نفسها ويجمع ثلاثة من أعدائها السابقين معا في ائتلاف معاد ضدها .

وكان على أي رجل دولة يدرك فداحة الخطر القادم أن يتخذ قرارا أساسيا . فإذا كان يعتقد أن التهديد سوف يزداد بمرور الوقت فيجب عليه أن يقضي علي ذلك الخطر في المهد ، ولكن إذا رأى أن الخطر الذي يلوح في الأفق يعكس مزيجا من الأحداث الطارئة العرضية فمن الأفضل له أن ينتظر ويدع الوقت نفسه هو الذي يزيل الخطر . وقبل مائتي سنة أدرك ريشيليو خطورة تطويق فرنسا العدواني، والواقع أن تجنبه لهذا التطويق كان هو لب سياسته، ولكنه فهم أيضا العناصر الأساسية لهذا الخطر الكامن . وقرر أن اتخاذ قرار قبل الأوان سيدفع الدول التي تحاصر فرنسا إلى التقارب معا، ولذلك جعل الوقت حليفا له وانتظر حتى تنشب الخلافات بين أعداء فرنسا .

وفقط بعد أن رسخت تلك الخلافات سمح لفرنسا أن تدخل المعركة .

ولم يتوفر للقيصر ومستشاريه الصبر ولا الفطنة لمثل تلك السياسة – رغم أن البلدان التي شعرت ألمانيا أنها تهددها لم يكونوا سوى حلفاء طبيعيين. وكان رد فعل ألمانيا للتطويق البادي في الأفق هو التعجيل بنفس الدبلوماسية التي كانت سببا في جلب الخطر في بادىء الأمر .وحاولت ألمانيا إحداث شق في الاتفاق الودي بأن تجد مبررا لمواجهة فرنسا بجسارة مبينة بذلك أن التأييد البريطاني لم يكن تأييدا خادعا أو عديم التأثير .

وقد أتيحت الفرصة لألمانيا لاختبار قوة الوفاق الودي في المغرب، حيث كانت المخططات الفرنسية تعتبر انتهاكا لمعاهدة تؤكد استقلال المغرب، وحيث كانت لألمانيا مصالح تجارية كبيرة. وقد اختار القيصر أن يبين وجهة نظره بينما كان في رحلة بحرية في شهر مارس عام ١٩٠٥فعندما رست سفينته في طنجة أعلن عن إصرار ألمانيا على دعم استقلال المغرب . وكان القادة الألمان يقامرون - أولا - على أن الولايات المتحدة وإيطاليا والنمسا سوف يؤيدون سياسة الباب المفتوح التي ينتهجها القادة الألمان؛ وثانيا. على أن روسيا ستتمكن في أعقاب الحرب بينها وبين اليابان من التدخل في تلك المشكلة ، وثالثا - على أن بريطانيا العظمي سوف تغتبط للغاية إذا تحررت من التزاماتها إزاء فرنسا في مؤتمر دولي .

وقد ثبت خطأ كل تلك الافتراضات لأن الخوف من ألمانيا تغلب على كل الاعتبارات الأخرى. وقد تمثل أول تحد للاتفاق الودي في أن بريطانيا العظمي أيدت فرنسا تأييدا تاما ولم توافق على طلب ألمانيا بعقد مؤتمر إلا بعد أن وافقت فرنسا على ذلك . وقد عارضت

النمسا وإيطاليا القيام بأي عمل يقربهما من حافة الحرب . ورغم ذلك فقد استغل القادة الألمان قدرا كبيرا من هيبتهم في هذا النزاع المتزايد على أساس أن أي شيء أقل من تحقيق نصر دبلوماسي يؤكد أن الاتفاق الودي ليست له علاقة بأي موضوع مثار الاهتمام سيكون نكبة.

وقد كان القيصر خلال حكمه يحسن إثارة الأزمات ولا يحسن حلها . وكان يجد أن المصادمات الكبيرة مثيرة غير أنه لم يؤت الجسارة على مواجهة المصادمات التي تستمر مددا طويلة . وكان ويليام الثاني ومستشاروه على حق عندما توصلوا إلى أن فرنسا ليست على استعداد لخوض الحرب . ولكن اتضح أنهم أنفسهم أيضا لم يكونوا على استعداد لخوض أي حرب . وكل ما حققوه فعلا هو طرد وزير الخارجية الفرنسي ديكلاسيه من منصبه، وكان هذا نصرا رمزيا لأن ديكلاسيه سرعان ما عاد وتولي منصبا آخر وقام بدور رئيسي في مجال السياسة الفرنسية . ومن حيث جوهر النزاع فإن القادة الألمان الذين كانوا يفتقرون إلى شجاعة ترقى إلى ما يبدونه من غلو وعظمة في كلامهم ، سمحوا لأنفسهم بأن يستهان بهم وذلك بالموافقة على حضور مؤتمر يعقد في غضون ستة شهور في مدينة الجيسيراس Algeciras الأسبانية . فعندما يهدد أي بلد بالحرب ثم يتراجع بعد ذلك من أجل مؤتمر يعقد في وقت ما فيما بعد، فإنه بذلك يقلل من مصداقية تهديداته. (وقد حدث هذا عندما نزعت الديمقراطيات الغربية الفتيل من تهديد خروشوف الخاص ببرلين بعد ذلك بنصف قرن)

وقد اتضح المدى الذي وصلت إليه ألمانيا في عزل نفسها عند افتتاح مؤتمر الجيسيراس في يناير عام ١٩٠٦ . فقد وجه إدوارد جراى Edward Grey وزير خارجية حكومة الأحرار البريطانية الجديدة تحذيرا إلى السفير الألماني في لندن بأنه في حالة نشوب الحرب فإن بريطانيا العظمي ستقف إلى جانب فرنسا :

في حالة وقوع هجوم على فرنسا من جانب ألمانيا بسبب اتفاقيتنا مع المغرب فإن المشاعر العامة في بريطانيا ستكون قوية جدا لدرجة لا تستطيع معها أية حكومة بريطانية أن تظل محايدة.

وقد تسببت النزعة العاطفية للقادة الألمان وعدم قدرتهم على تحديد أهداف بعيدة المدى في تحويل مؤتمر الجيسيراس إلى كارثة دبلوماسية مفاجئة لبلدهم . وقد رفضت الولايات المتحدة وإيطاليا وروسيا وبريطانيا العظمي الوقوف إلى جانب ألمانيا . وكانت نتائج تلك الأزمة المغربية الأولي عكس ما سعى القادة الألمان إلى تحقيقه . فبدلا من القضاء على الاتفاق الودي، أدى الأمر إلى التعاون العسكري بين فرنسا وبريطانيا وإعطاء قوة دافعة للاتفاق الودي بين إنجلترا وروسيا لعام ١٩٠٧ .

وبعد مؤتمر الجيسيراس وافقت بريطانيا العظمى على التعاون العسكري مع دولة أوروبية

ظلت تتجنبها طويلا . وبدأت المشاورات بين قادة السلاح البحري البريطاني وقادة السلاح البحري الفرنسي . ولم يكن مجلس الوزراء يشعر بالارتياح إزاء هذا الانحراف الجديد . وكتب جراي إلى بول جابون Paul Gabon السفير الفرنسي في لندن يقول:

لقد وافقنا على أن المشاورات بين الخبراء لا تعتبر ولا يجب أن تعتبر ارتباطا يلزم أيا من الحكومتين بالتصرف إزاء احتمالات حدوث حالة ما ، لم تظهر وقد لا تظهر أبدا. .

وكانت تلك هي فترة الهروب البريطاني التقليدي وهو ألا تلزم لندن نفسها قانونيا بأي ظروف معينة تكون فيها مضطرة إلى اتخاذ إجراءات عسكرية . وقبلت فرنسا التنازل لسيطرة البرلمان وهي مقتنعة أن المحادثات بين العسكريين أنفسهم سوف تسفر عن حقيقة ما يخططون مهما كانت الالتزامات القانونية . وقد ظل القادة الألمان طيلة عقد ونصف عقد يرفضون منح بريطانيا العظمى هذا النوع من حرية الحركة. وكان الفرنسيون يتمتعون بالفطنة السياسية ويستطيعون العيش مع الغموض البريطاني ويعتمدون على الاعتقاد بأن ثمة التزاما أخلاقيا بدأ يظهر وسوف ينتصر هذا الالتزام في وقت الأزمة .

وبظهور الكتلة البريطانية الفرنسية الروسية في عام ١٩٠٧ لم تبق من المؤثرات في مجال الدبلوماسية الأوروبية سوى قوتين هما : الاتفاق الثلاثي (مع روسيا عام ١٩٠٨) والحلف بين ألمانيا والنمسا .

واكتمل تطويق ألمانيا . ومثل الاتفاق الإنجليزي –الفرنسي بدأت الاتفاقية البريطانية مع روسيا كاتفاق استعماري . وقد راحت بريطانيا العظمي وروسيا ببطء تتجاهلان الخلاف بينهما لعدة سنوات . وقد تسبب انتصار اليابان على روسيا في عام ١٩٠٥ في القضاء على طموحات روسيا في الشرق الأقصى . وفي صيف عام ١٩٠٧ أصبح من المأمون لبريطانيا أن تعرض علي روسيا شروطا سخية في أفغانستان وإيران، وقسمت إيران إلى ثلاثة مجالات نفوذ : خضعت لروسيا المنطقة الشمالية وأعلنت المنطقة الوسطى منطقة محايدة، وسيطرت بريطانيا العظمي على المنطقة الجنوبية . وآلت أفغانستان إلى النفوذ البريطاني .وأخيرا حل الصفاء على العلاقات بين بريطانيا وروسيا بعد منازعات ظلت مشتعلة قبل عشر سنوات على ما يقرب من ثلث الكرة الأرضية من القسطنطينية حتى كوريا . وقد اتضحت درجة استغراق بريطانيا في الاهتمام بألمانيا من أن بريطانيا من أجل الحصول على تعاون روسيا كانت على استعداد للتخلي عن إصرارها علي إبقاء روسيا بعيدة عن مضايق الدردنيل . وكما قال وزير الخارجية «جراى»: إن العلاقات الطيبة مع روسيا معناها أننا يجب أن نتخلى عن سياستنا القديمة بإغلاق المضايق أمامها والوقوف بثقلنا ضدها في أي مؤتمر للدول.

وقد ادعى بعض المؤرخين أن الاتفاق الثلاثي الحقيقي هو عبارة عن اتفاقين يتعلقان بالمستعمرات مضيا في طريق خاطئ ، وأن بريطانيا العظمي أرادت أن تحمي إمبراطوريتها

ولم تكن تريد تطويق ألمانيا . وهناك على أي حال وثيقة قديمة تسمي مذكرة كراو ddum Crow memoran وهي مذكرة لم تترك مجالا للشك في أن بريطانيا العظمي انضمت إلى الاتفاق الثلاثي لكي تقضي على ما خشيت أن يكون حملة من ألمانيا للسيطرة على العالم . وفي ١ يناير ١٩٠٧ شرح سيرس إير كراوس Eyre crow ـ وهو محلل بارز بوزارة الخارجية البريطانية ـ لماذا يرى أن تسوية الأمور مع ألمانيا مستحيلة وأن الاتفاق مع فرنسا هو الخيار الوحيد . وكانت مذكرة كراو على درجة من التحليل لم ترد في أي وثيقة من الوثائق التي صدرت في ألمانيا بعد عهد بسمارك . لقد تحول الصراع وأصبح صراعا بين الاستراتيجية والقوة الغاشمة – وما لم يكن هناك تفاوت ضخم في القوة –ولم تكن هذه هي الحالة – تكون للاستراتيجي اليد العليا لأنه يستطيع أن يخطط لأعماله بينما خصمه يضطر للارتجال: أي العمل بدون خطة. واعترافا من كراو بوجود فوارق كبيرة بين بريطانيا العظمي وكل من فرنسا وروسيا فقد كان تقييمه لهذه الفوارق أنها قابلة لأن يسوى بينها لأنها عبارة عن أهداف ممكن توضيحها فهي بالتالي أهداف محدودة . وما جعل السياسة الخارجية الألمانية سياسة تهديدية خطيرة هو الافتقار إلى منطق واضح وراء تحديات عالمية امتدت عبر مناطق بعيدة جدا مثل جنوب أفريقيا والمغرب والشرق الأدنى. وبالإضافة إلى ذلك فإن مسعى ألمانيا من أجل القوة البحرية، كان لا يتمشى مع بقاء الإمبراطورية البريطانية .

وطبقا لرأى كراو فإن سلوك ألمانيا غير المقيد ضمن حدوث المواجهة : إن اتحاد الدولة العسكرية الكبرى والدول البحرية الكبرى في دولة واحدة سيرغم العالم على أن يتجمع للتخلص من مثل هذا الكابوس.

ولما كان كراو مؤيدا لمعتقدات السياسة الواقعية فقد قال أن الذي يحقق الاستقرار هو الهيكل وليس الدافع : فنوايا ألمانيا أصلا لا علاقة لها بالموضوع، فالأهم هو قدراتها، ثم تقدم بفرضين :

إما أن ألمانيا تهدف حتما إلى فرض سيطرتها السياسية العامة وتفوقها البحري مهددة بذلك استقلال جيرانها وفي النهاية وجود إنجلترا ذاته ; وإما أن تكون ألمانيا التي تحررت من مثل تلك الطموحات الواضحة، وتفكر في الوقت الراهن في أن تستغل وضعها الشرعي ونفوذها كدولة من الدول الكبرى في مجلس الأمم لتعزيز تجارتها الخارجية ونشر مزايا الثقافة الألمانية وتوسيع نطاق طاقاتها القومية وتحقيق مصالح ألمانية جديدة في العالم أجمع أينما وكلما سمحت بذلك فرصة سلمية...

وأصر كراو على أن تلك الامتيازات ليست لها أهمية لأنها في النهاية سيتغلب عليها الإغراء الكامن في قوة ألمانيا المتزايدة :

... من الواضح أن المشروع الثاني (الخاص بالنمو شبه المستقل الذي لا يساعده فن الحكم إلا قليلا) قد يندمج في أي مرحلة بالمشروع الأول أو المشروع الموضوع عن قصد . وبالإضافة إلى ذلك فإنه إذا حدث وأمكن تحقيق مشروع النمو فإن الوضع الذي ينشأ عن نمو ألمانيا نتيجة لذلك سوف يشكل بوضوح تهديدا خطيرا لبقية العالم.

ورغم أن مذكرة كراو لم تكن أكثر من مجرد اعتراض على تحقيق تفاهم مع ألمانيا فإن ما كان لها من ضغط قوي متواصل كان واضحا : فإذا لم تتخل ألمانيا عن مطالبها بتحقيق التفوق البحري وتجعل الاعتدال سمة سياستها العالمية فمن المؤكد أن بريطانيا العظمى سوف تنضم إلى روسيا وفرنسا في معارضتها . وسوف تفعل ذلك بنفس الإصرار العنيد الذي قضى على الطموحات الفرنسية والأسبانية في القرون الماضية .

وقد أوضحت بريطانيا العظمي أنها لن ترضى عن أي زيادة أخرى في قوة ألمانيا ، وفي عام ١٩٠٩ أوضح وزير الخارجية جراى هذه النقطة ردا على عرض ألماني بأن تتباطأ ألمانيا (لا توقف) في بناء قوتها البحرية إذا وافقت بريطانيا العظمى على أن تلتزم بموقف الحياد في حالة نشوب حرب ألمانية ضد فرنسا وروسيا . وقال جراى أن هذا الاتفاقية المقترحة: .. من شأنها أن تساعد على تحقيق الهيمنة الألمانية على أوروبا ولن تستمر الاتفاقية طويلا بعد أن تكون قد حققت هذا الغرض . إنها في الواقع دعوة لمساعدة ألمانيا على إقامة اتحاد أوروبي يوجه ضدنا عندما يعن لها أن تستخدمه ... فإذا ضحينا بالدول الأخرى وتركناها لألمانيا فلا شك أننا في النهاية سنتعرض للهجوم.

بعد عقد الاتفاق الثلاثي تفاقمت مباراة القط والفأر التي لعبتها ألمانيا وبريطانيا العظمي في تسعينيات القرن التاسع عشر وتحولت إلى صراع بين دولة تؤيد الوضع الراهن ودولة تطالب بتغيير التوازن . ولما لم تعد المرونة الدبلوماسية ممكنة فإن الطريقة الوحيدة لتغيير ميزان القوى كانت بإضافة المزيد من السلاح أو بالانتصار في الحرب .

وكان الحلفان يواجهان بعضهما عبر هاوية من سوء الثقة المتبادلة . وعلى عكس فترة الحرب الباردة فإن المجموعتين لم تخشيا الحرب ، بل كانت كل منهما في الواقع أكثر اهتماما بالحفاظ على تماسكها من اهتمامها بتجنب الدخول في حرب . لقد أصبحت المواجهة هي المعيار الأساسي للدبلوماسية .

ورغم ذلك فقد كانت الفرصة مازالت سانحة لتجنب وقوع كارثة لأنه لم تكن هناك سوي قضايا قليلة بين الحلفين تبرر قيام حرب، و لم يكن هناك عضو آخر من أعضاء الاتفاق الثلاثي على استعداد لأن يغامر بأن يخوض حربا لمساعدة فرنسا على استرداد الألزاس واللورين ؛ حتى ألمانيا وهي في قمة عظمتها لم تكن على استعداد لمساندة حرب نمساوية عدوانية في البلقان . ولو كانت هناك سياسة لضبط النفس لعملت على تأخير قيام الحرب

والقضاء على الأحلاف غير الطبيعية تدريجيا .. خاصة أن الاتفاق الثلاثي تمت صياغته خوفا من ألمانيا في المقام الأول .

وفي نهاية العقد الأول من القرن العشرين تدهور ميزان القوى وتحول إلى ائتلافات عدوانية جامدة . كانت روسيا مرتبطة بالصرب التى كانت تموج بوطنيين وحتى إرهابيين بل أحزاب ولم يكن لديها ما تخسره فلم تكن قلقة من خطر نشوب حرب شاملة . وقد أعطت فرنسا شيكا على بياض لروسيا التي كانت تتوق لاستعادة احترامها لذاتها بعد الحرب اليابانية الروسية . وقد فعلت نفس الشيء مع النمسا التي كانت مستميتة لحماية مقاطعاتها السلافية من الهياج الذي قد يثيره فيها الصرب التي كانت بدورها تلقى تأييدا من روسيا . لقد جعلت أمم أوروبا نفسها أسيرة لعملاء البلقان المتهورين . فبدلا من كبح جماح تلك الدول ذات العواطف المتأججة والإحساس المحدود بالمسئولية العالمية فقد سمحوا لأنفسهم بأن ينجرفوا وراء جنون الارتياب من أن يقوم شركاؤهم القلقون بتغيير تحالفاتهم إذا لم يسمح لهم بتحقيق ما يريدونه . واستمر الحال لسنوات حيث كان في الإمكان حل كل أزمة رغم أن كل أزمة جديدة كانت تجعل المعركة أكثر اقترابا . وقد أسفر رد فعل ألمانيا للاتفاق الثلاثي عن إصرار عنيد على تكرار نفس الخطأ مرات ومرات ؛ وتحولت كل مشكلة إلى اختبار شجاعة لإثبات أن ألمانيا كانت حاسمة وقوية بينما كان خصومها يفتقرون إلى الحزم والقوة ،

ومع ذلك فمع كل تحد جديد تواجهه ألمانيا كانت روابط الاتفاق الثلاثي تزداد قوة .

وفي عام ١٩٠٨ نشبت أزمة عالمية بسبب البوسنة والهرسك، تستحق أن يعاد سرد تفاصيلها لأنها تصور ميل التاريخ إلى تكرار نفسه . كانت البوسنة والهرسك هي الحدود الريفية لأوروبا وقد ترك مصيرها في حالة غامضة، لأن أحدا في مؤتمر برلين لم يعرف حقا ماذا يفعل بها . فهذه المنطقة التي ظلت منطقة عازلة بين الإمبراطورية العثمانية وإمبراطورية آل هابسبورج، والتي ضمت ديانات الكاثوليك الرومان والأرثوذكس والديانة الإسلامية، وسكان من الكروات والصرب والمسلمين، لم تكن أبدا ولاية أو حتى إقليما ذا حكم ذاتي . وكان يبدو أنه يمكن حكمها لو أن أحدا من تلك الجماعات لم يطلب منه الخضوع للجماعات الأخرى . وقد ظلت البوسنة والهرسك ثلاثين عاما خاضعة للسيادة التركية والإدارة النمساوية والحكومة المحلية دون أن تواجه تحديا جادا لهذا النظام المتعدد الجنسيات الذي ترك قضية السيادة النهائية للبلد دون حل . وقد انتظرت النمسا ثلاثين عاما لتبدأ عملية الضم المباشر لأن عواطف هذا المزيج من الناس متعدد اللغات كانت معقدة جدا حتى إنه كان من الصعب على النمساويين أن يضعوا تصورا محددا لها رغم تجربتهم الطويلة في الإدارة وسط ظروف تغلب عليها الفوضى . وفي النهاية عندما ضموا البوسنة والهرسك فعلوا ذلك على أكثر الوجوه لمجرد تسجيل نقطة انتصار على الصرب (وروسيا بصفة غير مباشرة) وليس لتحقيق أي غرض سياسي مترابط منطقيا . وكانت نتيجة ذلك أن النمسا قلبت

الميزان الذي كانت مشاعر الكراهية تتعادل فيه بدقة .

وبعد ذلك بثلاثة أجيال في عام ١٩٩٢ تفجرت نفس المشاعر الأولية بسبب قضايا مماثلة مما جعل اللعنة تحل على الجميع فيما عدا المتعصبين المتورطين في الأوضاع بصورة مباشرة وأولئك الذين ألفوا تاريخ المنطقة المتفجر. ومرة أخرى يتسبب تغيير مفاجئ في الحكومة في تحويل البوسنة والهرسك إلى مرجل يغلي . فبمجرد أن أعلنت الدولة المستقلة في البوسنة والهرسك دخلت جميع القوميات في نزاع بعضها مع بعض من أجل السيطرة على البلد وسوت الصرب حساباتها القديمة بصورة غاية في الوحشية .

استغلت النمسا ضعف روسيا في أعقاب الحرب الروسية اليابانية وقامت في طيش واضح بتنفيذ ملحق سري قديم عمره ثلاثون عاما من مؤتمر برلين، وافقت فيه دول المؤتمر على أن تسمح للنمسا بضم البوسنة والهرسك إليها، وقد ظلت النمسا حتى ذلك الوقت مكتفية بالسيطرة على الإقليم من حيث الأمر الواقع، لأنها لم تكن تريد المزيد من الرعايا السلاف . غير أنه في عام ١٩٠٨ أوقفت النمسا العمل بهذا القرار حيث كانت تخشى من أن إمبراطوريتها توشك أن تنهار بسبب أعمال الإثارة من جانب الصرب وكانت تفكر في أنها تحتاج لتحقيق بعض النجاح كي تثبت تفوق وضعها المستمر في البلقان . وفي العقود الثلاثة التي حدث فيها ذلك فقدت روسيا سيطرتها على بلغاريا وانقضى زمن عصبة الأباطرة الثلاثة . ولم تكن روسيا مخطئة عندما غضبت بسبب الرجوع إلى اتفاقية كانت قد طواها النسيان تماما من أجل أن يسمح للنمسا بحيازة إقليم كانت قد حررته الحرب الروسية . غير أن الغضب لا يضمن النجاح خاصة عندما يكون هدفه أن يمتلك الغنيمة بالفعل.

ولأول مرة تؤازر ألمانيا النمسا تماما مشيرة إلى أنها كانت على استعداد للمخاطرة بدخول حرب أوروبية إذا عارضت روسيا ضم الإقليم . ثم جعلت ألمانيا الأمور أسوأ إذ طلبت اعترافا رسميا من روسيا والصرب بالخطوة الخاصة بالنمسا . وكان على روسيا أن تبتلع تلك الإهانة لأن بريطانيا العظمى وفرنسا لم تكونا على استعداد بعد لدخول حرب بسبب قضية متعلقة بالبلقان ، ولأن روسيا لم تكن في موقف يسمح لها بدخول حرب وحدها مباشرة بعد هزيمتها في حربها مع اليابان.

وبذلك جعلت ألمانيا من نفسها عقبة في طريق روسيا وفي منطقة لم يحدث فعلا من قبل أن مثلت مصلحة حيوية لها، وحيث استطاعت روسيا حقا حتى ذلك الوقت أن تعتمد على ألمانيا في الحد من طموحات النمسا . ولم تظهر ألمانيا في الواقع تهورها فحسب بل أظهرت أيضا فقدانها الشديد لذاكرتها التاريخية . فقبل ذلك بنصف قرن فقط كان بسمارك قد تنبأ بدقة بأن روسيا لن تغفر أبدا للنمسا أنها أذلتها في حرب القرم . والآن فإن ألمانيا ترتكب نفس الخطأ إذ تضاعف من إقصاء روسيا تلك العملية التي بدأت في مؤتمر برلين .

إن إذلال دولة كبرى بدون إضعافها لعبة خطيرة . فرغم أن ألمانيا كانت تعتقد أنها تلقن روسيا درسا عن أهمية النوايا الألمانية الحسنة فقد صممت روسيا على ألا تفاجأ أبدا مرة أخرى وهي غير مستعدة . وبدأت الدولتان الكبيرتان تلعبان لعبة تسمى الجبان Chicken أو الدجاجة باللغة الدارجة الأمريكية، وهي لعبة خطيرة يقوم فيها قائدا سيارتين بقيادة كل منهما سيارته بسرعة في اتجاه مباشر نحو الآخر بحيث يحتمل أن يحدث تصادم بين السيارتين في نقطة الالتقاء في النهاية، وكل منهما يحاول أن يثبت شجاعته فلا ينحرف عن طريق الصدام وينتظر أن يبدأ غريمه بالانحراف في اللحظة الأخيرة بينما يعتمد هو على أعصابه الأكثر ثباتا . ولسوء الحظ أن هذه اللعبة كثيرا ما مورست في أوروبا في مناسبات عديدة مختلفة قبل الحرب العالمية الأولى . ولكن في كل مرة كان يمكن تجنب الصدام فازدادت الثقة الجماعية في سلامة اللعبة في النهاية مما جعل الكل ينسون أنه لو فشلت اللعبة مرة واحدة فسوف يسفر ذلك عن كارثة محققة .

وكأن ألمانيا كانت تريد أن تتأكد تماما من أنها لم تهمل إثارة مخاوف أي غريم محتمل أو تهمل تزويد أعدائها بكل المبررات التي تجعلهم يتآزرون للدفاع عن أنفسهم ، ثم بعد ذلك تحدت فرنسا . وقد ردت فرنسا في عام ١٩١١ -وكانت في ذلك الوقت المدير المدني للمغرب -على الاضطرابات المحلية بأن بعثت بقوات إلى مدينة فزان في انتهاك صارخ لاتفاق الجيسيراس . وقد كان رد فعل القيصر على ذلك الذي هللت له الصحف الألمانية هو إرسال السفينة الحربية بانثر Panther إلى ميناء أغادير المغربي ، فقد كتبت صحيفة رينيش ويستفاليش زايتونج Pheinish Westfalish Zeitung في ٢ يوليو ١٩١١: «ضربة معلم، تحركنا في النهاية ، إجراء تحرري لابد أن يقضي على سحب التشاؤم في كل مكان. وقالت صحيفة مونشينير نويست زاخريشتن أنه ينبغي على الحكومة أن تمضي قدما بكل همة حتى لو تولدت عن تلك السياسة ظروف لا يمكننا أن نتنبأ بها اليوم وحثت بعض صحف ألمانيا على المخاطرة بدخول حرب بسبب المغرب.

وقد آلت الحملة التي بولغ بتسميتها باسم قفزة النمر إلى نفس النهاية التي آلت إليها جهود ألمانيا السابقة لفك التطويق الذي تسببت في فرضه على نفسها . ومرة أخرى تبدو ألمانيا وفرنسا على وشك الدخول في حرب مع بقاء أهداف ألمانيا أهدافا غير محددة كما هي عادتها . ما هو التعويض الذي كانت تسعى للحصول عليه هذه المرة ؟ هل كان الحصول على ميناء مغربي ؟ أو جزء من ساحل المغرب المطل على المحيط الأطلنطي ؟ أو أية مكاسب استعمارية في مواقع أخرى ؟ لقد كانت في الواقع تريد أن تبث الرعب في قلب فرنسا ولكنها لم تجد تعبيرا عمليا لهذا الغرض في ذلك الحين.

وتمشيا مع علاقتهما المتطورة ، فقد أيدت بريطانيا العظمى فرنسا بصورة أكثر قوة عن تأييدها لها في الجيسيراس في عام ١٩٠٦ . وقد ظهر التحول في الرأي العام البريطاني من

موقف رئيس الخزانة في ذلك الوقت دافيد لويد جورج David Loya George الذي كان مشهورا بأنه رجل سلام وداعية للمحافظة على علاقات طيبة مع ألمانيا . ومع ذلك ففي تلك المناسبة ألقى خطابا هاما قال فيه محذرا :

..إذا فرض علينا موقف ما، لا تتحقق فيه المحافظة على السلام إلا بالتخلي عن موقفنا المفيد العظيم الذي توصلنا إليه بعد قرون من البطولة والإنجازات ... عندئذ أقول بكل تأكيد أن السلام بهذا الثمن يعتبر إهانة لا يحتملها بلد عظيم مثل بلدنا.

وحتى النمسا تجاهلت حليفها القوي ولم تر أية فائدة من المخاطرة بنفسها في مغامرة في شمال أفريقيا . وقد تراجعت ألمانيا وقبلت شريطا عريضا من الأرض في أفريقيا الوسطي لا قيمة له ، وكانت تلك صفقة لم تلق إلا الامتعاض من صحافة ألمانيا القومية.. فقد كتبت صحيفة برلينر تاجبلت Berliner Tagoblatt في ٣ نوفمبر ١٠١١ : لقد خاطرنا فعلا بدخول حرب عالمية من أجل بضعة مستنقعات في الكونغو. ورغم ذلك فما كان يجب انتقاده ليس هو قيمة ما حصلت عليه ألمانيا بل الحكمة من وراء تهديد بلد آخر بالحرب كل سنوات قلائل دون أن نكون قادرين على تحديد هدف له معني ، وفي كل مرة تزداد مخاوفنا التي كانت السبب قبل كل شيء في قيام الائتلافات العدوانية ضدنا .

إذا كانت التكتيكات الألمانية قد أصبحت عندئذ تسير على نمط واحد بدون تغيير، فقد أصبح الرد من جانب فرنسا على تلك التكتيكات يسيرأيضا على نمط واحد بدون تغيير . ففى عام ١٩١٢ بدأت بريطانيا العظمي وفرنسا وروسيا محادثات عسكرية بينها كانت أهميتها الرسمية محدودة بسبب الإنكار البريطاني المعهود أن تلك المحادثات لا تشكل أي تعهدات ملزمة قانونا لبريطانيا. وحتى ذلك الموقف كان يتناقض إلى حد ما مع المعاهدة البحرية الإنجليزية الفرنسية التي عقدت عام ١٩١٢ والتي بمقتضاها تحرك الأسطول الفرنسي إلى مياه البحر المتوسط وتحملت بريطانيا العظمي مسئولية الدفاع عن الساحل الأطلنطي الفرنسي . وبعد ذلك بسنتين قيل أنه تم اللجوء إلى تلك الاتفاقية على أنها التزام أدبي على بريطانيا العظمي بدخول الحرب العالمية الأولى، وقد تركت فرنسا ساحلها المطل علي بحر المانش بلا حماية اعتمادا على دعم بريطانيا لها. بعد ذلك بثمانية وعشرين عاما. في عام ١٩٤٠ عقدت اتفاقية مماثلة بين بريطانيا العظمي والولايات المتحدة جعلت في استطاعة بريطانيا العظمي أن تحرك أسطولها في المحيط الهادئ إلى المحيط الأطلنطي مما ينطوي بداهة على وجود التزام أدبي على الولايات المتحدة بأن تحمي الممتلكات البريطانية القريبة في آسيا التي كانت بلا دفاع ضد هجوم من جانب اليابان.

وفي عام ١٩١٣ استكمل القادة الألمان تحقيق عزلة روسيا بمناورات أخرى من مناوراتهم التشنجية التي ليس لها معني . وفي هذه المرة وافقت ألمانيا على إعادة تنظيم الجيش التركي وعلى أن توفد ضابطا ألمانيا كبيرا ليتولى القيادة في القسطنطينية . وقد صور ويليام الثاني

القضية بطريقة مسرحية عندما ودع البعثة التي ستقوم بتدريب الجيش التركي بخطاب طنان معربا فيه عن أمله بأن ترفرف الأعلام الألمانية قريبا فوق حصون البوسفور.

ولم تكن هناك سوى تصرفات قليلة يمكن أن تغضب روسيا أكثر من مطالبة ألمانيا بذلك الموقع على المضايق الذي ظلت أوروبا تنكره على روسيا طيلة قرن . وقد روضت روسيا نفسها بصعوبة على أن تقبل سيطرة دولة ضعيفة مثل تركيا العثمانية على المضايق، ولكنها لم تكن تقبل أبدا أن تسيطر على الدردنيل دولة كبيرة أخرى . وقد كتب سيرجي سازونوف Segrgei Sazonof وزير خارجية روسيا إلى القيصر في شهر ديسمبر ١٩١٣ يقول : إن التخلي عن المضايق لدولة قوية سيكون بمثابة إخضاع كل التنمية الاقتصادية لروسيا الجنوبية لتلك الدولة. وقال نيكولاس الثاني للسفير البريطاني: إن هدف ألمانيا هو الحصول على موقع في القسطنطينية يمكنها من حصر روسيا تماما في البحر الأسود . فإذا حاولت تنفيذ ذلك فسيكون عليه أن يقاومها بكل قوته حتى لو كانت الحرب هي البديل الوحيد.

ورغم أن ألمانيا وجدت صيغة لإنقاذ ماء الوجه بعد أن نقلت القائد الألماني من القسطنطينية (بأن رقته إلى رتبة لواء مما يعني طبقا للتقاليد العسكرية الألمانية أنه لا يمكنه بعد ذلك أن يتولى قيادة القوات في الميدان) إلا أن هذا التصرف كان قد أحدث ضررا تستحيل إزالته . لقد فهمت روسيا أن تأييد ألمانيا للنمسا في قضية البوسنة والهرسك لم يكن تصرفا شاذا . وقال القيصر –الذي كان يعتبر تلك التطورات اختبارا لرجولته وشجاعته – للمستشار في ٢٥ فبراير ١٩١٤ : إن العلاقات بين روسيا وبروسيا قد لفظت أنفاسها الأخيرة. وبعد ذلك بستة شهور نشبت الحرب العالمية الأولى .

وقد ظهر نظام دولي يشابه جموده وأسلوب المواجهة فيه أسلوب الحرب الباردة فيما بعد.

غير أن الواقع أن النظام الدولي الذي كان سائدا قبل الحرب العالمية الأولى كان أكثر قابلية للانفجار من عالم الحرب الباردة . وفي العصر النووي لم تتوافر لأي دولة سوى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي الوسائل التقنية لبدء حرب شاملة تكون فيها المخاطرة بالغة العنف لدرجة أن أيا من الدول العظمي لم تجرؤ على أن تزود أي حليف لها بهذه القوة المخيفة مهما كان وثيق الصلة بها . وعلى عكس ذلك فقبل الحرب العالمية الأولى كان كل عضو في الائتلافين الرئيسيين في وضع لا يمكنه فقط من بدء الحرب بل يمكنه من ابتزاز حلفائه لتأييده .

ولفترة من الوقت كان نظام الأحلاف ذاته يتضمن بعضا من السيطرة والتقيد بمواقف معينة . فقد أوقفت فرنسا جموح روسيا في نزاعات شملت أساسا النمسا ، وقامت ألمانيا بدور مماثل مع النمسا إزاء روسيا . وفي أزمة البوسنة سنة ١٩٠٨ أوضحت فرنسا أنها لن تدخل

حربا بسبب قضية بلقانية. وفي أزمة المغرب عام ١٩١١ قيل للرئيس الفرنسي كاليو Calliaux بحزم أن أية محاولة من جانب فرنسا لاستخدام القوة في حل أي أزمة لها علاقة بالمستعمرات لن تحصل على تأييد روسيا . وفي حرب البلقان عام ١٩١٢ وجهت ألمانيا تحذيرا للنمسا بأن هناك حدودا للمساعدة الألمانية ، وضغطت بريطانيا العظمي على روسيا كي تخفف من إجراءاتها التي تتخذها لصالح رابطة البلقان التي تتزعمها الصرب وكان لا يمكن التكهن بتصرفاتها . وفي مؤتمر لندن عام ١٩١٣ ساعدت بريطانيا العظمي على إعاقة محاولات الصرب لضم ألبانيا إليها وهو أمر، لو حدث ، لم تكن ستحتمله النمسا .

وكان مؤتمر لندن الذي عقد سنة ١٩١٣ هو المرة الأخيرة التي حدث فيها أن تمكن النظام الدولي الذي كان سائدا قبل الحرب العالمية الأولى من تهدئة المنازعات . وكانت الصرب مستاءة من فتور التأييد الروسي لها بينما كانت روسيا مستاءة من موقف بريطانيا العظمي كوسيط غير متحيز كما كانت مستاءة من اعتراض فرنسا الواضح على خوض الحرب . أما النمسا وكانت على وشك أن تتحطم تحت ضغط روسيا والسلافيين الجنوبيين فقد انزعجت لأن ألمانيا لم تعد تساندها بقوة أكثر. وكان الصرب وروسيا والنمسا يتوقعون مزيدا من المساندة من حلفائهم ، أما فرنسا وبريطانيا العظمي وألمانيا فقد كانوا يخشون أن يفقدوا رفاقهم إذا لم يؤيدوهم بقوة أكبر في الأزمة التالية.

وبعد ذلك انتاب الخوف كل دولة من الدول الكبرى من أن يؤدي أي موقف تحاول فيه استرضاء الآخرين إلى أن يجعلها تبدو دولة ضعيفة ولا يمكن الاعتماد عليها ويجعل شركاءها يتركونها تواجه ائتلافا عدوانيا وحدها . وبدأت البلاد تحدد لنفسها مستويات من المخاطرة تفترض مستويات من المخاطرة لا تتطلبها مصالحها التاريخية القومية ولا يتطلبها أي هدف استراتيجي منطقي بعيد المدى. وكانت المقولة المأثورة لريشيليو بأن الوسائل يجب أن تتفق مع الغايات تنتهك كل يوم تقريبا . وقد قبلت ألمانيا المخاطرة بالحرب العالمية من أجل أن ينظر إليها على أنها مؤيدة لسياسة فيينا الخاصة بالسلافيين الجنوبيين التي لم يكن لها فيها أي مصلحة وطنية . وكانت روسيا على استعداد للقتال حتى الموت ضد ألمانيا حتى يمكن أن ينظر إليها على أنها حليف الصرب القوي . ولم يكن بين ألمانيا وروسيا أي نزاع رئيسي، فقد كانت المواجهة بينهما بالتفويض أي أن كلا منهما مفوض من قبل طرف آخر .

وفي عام ١٩١٢، أبلغ الرئيس الفرنسي الجديد ريموند بوانكاريه Raymond Poincare السفير الروسي فيما يتعلق بموضوع البلقان: إنه إذا دخلت روسيا الحرب فإن فرنسا ستدخل الحرب أيضا لأننا نعلم أن ألمانيا في هذا الموضوع تساند النمسا. وتقدم السفير الروسي المرح بوجهة نظر فرنسية جديدة تماما وهي أن التوسع الإقليمي للنمسا وما استولت عليه من أقاليم يؤثر بصفة عامة على ميزان القوى الأوروبي عامة وبالتالي يؤثر على مصالح فرنسا. وفي نفس ذلك العام كتب سير آرثر نيكلسون Sir Arthur Nicholson وكيل وزارة

الخارجية البريطانية إلى السفير البريطاني في سان بيترسبيرج قائلا : لا أعرف إلى متى سنستطيع أن نتبع سياستنا الحالية بالرقص علي حبل مشدود ، وألا نضطر إلى السير وفقا لخط محدد أو غيره . أنا مثلك أيضا تنتابني نفس المخاوف – خشية أن يصيب روسيا الضجر منا وتعقد صفقة مع ألمانيا.

وحتى لا يفوقه أحد في التهور ، وعد القيصر النمسا سنة ١٩١٣ بأن ألمانيا في الأزمة التالية ستتبعها في دخول الحرب إذا اقتضت الضرورة ذلك . وفي ٧ يوليو ١٩١٤ شرح المستشار الألماني السياسة التي أدت بعد أقل من أربعة أسابيع بعد ذلك إلى نشوب الحرب الفعلية : إذا شجعناهم على الحرب (النمساويين) فسيقولون إذن أننا دفعناهم إليها دفعا؛ وإذا نصحناهم بالعدول فسيبدو الأمر وكأننا تركناهم للهزيمة المنكرة . وعندئذ سيتوجهون إلى الدول الغربية التي ستكون أذرعها مفتوحة للترحيب بهم وسنفقد آخر حلفائنا. وقد تركت الفائدة التي ستعود على النمسا من حلف مع الاتفاق الثلاثي دون تحديد . ولم يكن من المحتمل أن تنضم النمسا إلى مجموعة تضم روسيا التي حاولت تقويض موقف النمسا في البلقان . ومن الناحية التاريخية فإن الأحلاف كانت تعقد لزيادة قوة الدولة في حالة الحرب؛ فعندما اقترب نشوب الحرب العالمية الأولي كان الدافع الرئيسي للحرب هو أن تقوى الأحلاف.

ولم يتمكن قادة الدول الرئيسية من إدراك ما يمكن أن تورطهم فيه التكنولوجيا الموضوعة تحت تصرفهم أو الائتلافات التي كانوا يكونونها بانفعال شديد. ويبدو أنهم كانوا غافلين عن خسائر الأرواح التي تكبدتها أمريكا بسبب الحرب الأهلية الأمريكية التي وقعت منذ وقت قريب نسبيا، وتوقعوا صراعا يحسم بسرعة، ولم يخطر ببالهم أبدا أن الفشل في أن يجعلوا أحلافهم تتوافق مع أهدافهم السياسية المنطقية سوف يؤدي إلى دمار المدنية التي عرفوها. فكل حلف كان يواجه أخطارا كبيرة لا تسمح بممارسة دبلوماسية الحلف الأوروبي التقليدية. وبدلا من ذلك فقد تمكنت الدول الكبرى من صنع آلة يوم الحساب الدبلوماسي رغم أنهم كانوا غير مدركين لما فعلوه.



■ جيامس دزرائيلي

الفصل الثامن

إلى الدوامة

آلة يوم الحساب العسكرى

الجانب المذهل في نشوب الحرب العالمية الأولى ليس هو أن أزمة أبسط من أزمات كثيرة كان قد أمكن التغلب عليها بالفعل، قد فجرت كارثة عالمية في النهاية، بل هو أن الأزمة استغرقت لكي تنفجر وقتا طويلا للغاية. وبحلول عام ١٩١٤ كانت المواجهة بين ألمانيا وإمبراطورية المجر -والنمسا من ناحية ودول الاتفاق الثلاثي من ناحية أخرى قد أصبحت حادة للغاية . فقد ساعد القادة السياسيون في الدول الرئيسية على بناء آلة يوم الحساب العسكري التي جعلت كل أزمة جاءت بعد ذلك أكثر صعوبة تدريجيا في حلها . وكان قادتهم العسكريون قد ضاعفوا من الخطر بشكل ضخم بأن أضافوا إلى الموقف خططا استراتيجية كان من شأنها أن ضغطت الوقت المتاح لاتخاذ القرار . ولما كانت الخطط العسكرية تعتمد على السرعة، وكان الجهاز الدبلوماسي معتادا على خطوته التقليدية المتمهلة، فقد أصبح من المستحيل حل الأزمة تحت ضغط زمني شديد . ولكي يزداد الطين بلة فإن المخططين العسكريين لم يوضحوا بقدر كاف لرفاقهم العسكريين مغزى خططهم . وأصبح التخطيط العسكري بذلك مستقلا بذاته . وقد بدأت أول خطوة في هذا الاتجاه أثناء المفاوضات التي جرت لعقد حلف عسكري فرنسي روسي في عام ١٨٩٢ . وحتى ذلك الوقت كانت مفاوضات الأحلاف تدور حول الأسباب التي تؤدي للحرب cassus belli دواعي الحرب (عمل عدائي من جانب إحدى الدول ضد دولة أخرى يبرر اللجوء للحرب كما حدث في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦) . وتعريف هذا المصطلح (دواعي الحرب) يتوقف على من الذى رؤى أنه بدأ بالعدوان .

وفي شهر مايو عام ١٨٩٢ بعث المفاوض الروسي اللواء المساعد نيكولاي أوبروشيف Nikolai Obruchev برسالة إلى جيرز Giers وزير خارجيته شرح فيها لماذا قضت التكنولوجيا الحديثة بتعريف مصطلح الحرب. ورد أوبروشيف قائلا: إن ما يهم هو من الذى يعبيء قواته أولا وليس من يطلق الرصاصة الأولى «إن القيام بتعبئة القوات لم يعد يعتبر

عملا سلميا ، بل على العكس إنه عمل من الأعمال الحربية الجازمة» .

إن الجانب الذي يرجئ التعبئة سيفقد ميزة الحلف الذى ينتمى إليه ويمكّن عدوه من أن يهزم أعداءه على التعاقب. وقد أصبحت حاجة جميع الحلفاء للقيام بالتعبئة في نفس الوقت حاجة ملحة في أذهان القادة الأوروبيين حتى أنها أصبحت عماد العمل الدبلوماسي الحقيقي . ولم يعد الهدف من الأحلاف هو ضمان تأييد الدول الحليفة بعضها لبعض بعد أن تكون الحرب قد بدأت بل ضمان أن يقوم كل حليف بالتعبئة بمجرد أن يفعل العدو ذلك والأفضل أن يكون قبل أن يقوم العدو بالتعبئة . وعندما واجهت الأحلاف التي أقيمت على هذا النمط بعضها بعضا أصبح من المستحيل الرجوع في التهديدات المستندة إلى تعبئة القوات ذلك لأن التوقف عن التعبئة في منتصف الطريق يعد كارثة أكبر من بدء التعبئة أصلا، وإذا توقف أحد الأطراف عن تعبئة قواته بينما استمر فيها الجانب الآخر فسيخسر الجانب الذي توقف مع كل يوم يمر . وإذا حاول الجانبان التوقف في نفس الوقت فسيكون ذلك صعبا من الناحية العملية، ومن الأمور المؤكدة تقريبا أن التعبئة تتم قبل أن يتفق الدبلوماسيون على كيفية وقفها .

وعملية يوم الحساب الأخير هذه أخرجت إمكانية التحكم السياسى فى أسباب الحرب. فكل أزمة بها أصلا مصعد يصعد بها إلى الحرب – وهذا المصعد هو قرار التعبئة – وكل معركة لابد أن تتطور وتصبح حربا عامة .

ولم يستنكر أويروشيف إمكانية عملية التصعيد الأوتوماتيكية، بل رحب بها بحماس شديد. وكان آخر ما يريده هو أن يكون النزاع محليا . لأنه لو ظلت ألمانيا بعيدة عن الحرب بين روسيا والنمسا فسوف تخرج بعد ذلك وهي في موقف تستطيع منه إملاء شروط السلام. وكان أويروشيف يتصور أن هذا هو ما فعله بسمارك في مؤتمر برلين :

إن دبلوماسيتنا أقل من أية دبلوماسية أخرى من حيث إنها لا يمكنها أن تعتمد على نزاع منعزل لروسيا مثلا مع ألمانيا أو النمسا أو تركيا وحدها . لقد كان مؤتمر برلين درسا كافيا في هذا الصدد، وقد علمنا هذا المؤتمر من الذي يجب أن نعتبره غريما خطيرا لنا – هل هو الذي يحاربنا وجها لوجه أم الذي ينتظر حتى نضعف ثم يملى بعد ذلك علينا شروط السلام ؟

وفي رأي أويروشيف أنه من مصلحة روسيا أن تتأكد أن تكون كل حرب حربا عامة. والفائدة التي تجنيها روسيا من حلف سليم البناء هو أن تمنع احتمال نشوب حرب محلية:

هناك فى بداية كل حرب أوروبية دائما إغراء كبير للدبلوماسيين لجعل النزاع محليا ومحدودا وتحديد آثاره بقدر الإمكان. غير أنه فى ظروف التسلح والقلق الحالية التى تمر بها

أوروبا يجب على روسيا أن تنظر إلى أية محاولة لجعل الحرب محلية بشكل كبير لأن هذا من شأنه حدوث زيادة مفرطة ليس فقط في إمكانات أعدائنا المترددين الذين لم يخرجوا إلى العلن بل أيضا في إمكانات حلفائنا المذبذبين.

ويمعنى آخر فإن خوض حرب دفاعية محددة الأهداف لن يخدم المصلحة الوطنية لروسيا . فأية حرب يجب أن تكون حربا شاملة ، ولا يجب على المخططين العسكريين أن يوفروا للقادة السياسيين أي خيار آخر.

ما أن نساق إلى الحرب فلا يمكننا أن نخوضها إلا بكل قواتنا وضد جارتينا كلتيهما . ونظرا لاستعداد الشعوب المسلحة كلها للحرب ، فلا يمكن تصور أي نوع من الحروب إلا أكثر الحروب حسما – حرب تعمل على أن تتحدد لمدة طويلة في المستقبل المواقف السياسية النسبية للدول الأوروبية وخاصة روسيا وألمانيا .

ومهما كانت تفاهة السبب فيمكن أن تكون الحرب شاملة ؛ وإذا اشترك في بدايتها جار واحد فقط فيجب أن تعمل روسيا على أن يساق آخرون إليها . ومن دروب الخيال أن هيئة أركان الحرب الروسية فضلت أن تحارب ألمانيا والمجر النمساوية معا على أن تحارب واحدة منهما فقط . وقد وقع في ٤ يناير ١٨٩٤ اتفاق عسكرى يحمل أفكار أوبروشيف ، فوافقت فرنسا وروسيا على تعبئة قواتهما معا إذا قام أي عضو في الحلف الثلاثي بتعبئة قواته لأى سبب كان . واكتملت آلة يوم الحساب . فمثلا إذا عبأت إيطاليا ، حليفة ألمانيا قواتها ضد فرنسا بسبب سافوى فعلى روسيا أن تعبئ قواتها ضد ألمانيا ؛ وإذا عبأت النمسا قواتها ضد الصرب فعلى فرنسا الآن أن تعبئ قواتها ضد ألمانيا . ولما كان من المؤكد تماما أن أمة ما سوف تعبئ قواتها لسبب ما ، فلم تكن المسألة إلا مسألة وقت لكي تنشب حرب شاملة لأن الأمر لم يكن يتطلب إلا تعبئة واحدة من جانب دولة كبرى لكي تبدأ آلة يوم الحساب للجميع.

وعلى الأقل فقد فهم القيصر ألكسندر الثانى أن المقامرة الجارية الآن كانت تجرى حول أكبر رهانات، فعندما سأله جيرز: ماذا سنكسب إذا ساعدنا فرنسا على تدمير ألمانيا؟ رد قائلا: ما سنكسبه هو أن ألمانيا فى تلك الحالة سوف تختفى . وسوف تتحول إلى عدد من الولايات الصغيرة الضعيفة كما كانت من قبل.

لقد كانت أهداف الحرب الألمانية كاسحة وغامضة بالمثل . لقد تحول التوازن الأوروبي الذى يعتمد عليه بشدة إلى معركة لا طاقة لأحد بها ، رغم أنه لا أحد من القادة السياسيين المشتركين في المعركة كان يمكنه أن يوضح السبب وراء تلك العدمية أو الأغراض السياسية التي يمكن أن تتحقق من وراء ذلك الحريق الهائل .

وما كان المخططون الروس يقدمونه كنظرية ، ترجمته هيئة أركان الحرب الألمانية إلى

تخطيط عملي في نفس اللحظة تقريبا التي كان فيها أويروشيف يتفاوض بشأن الحلف الفرنسي الروسي . وبالدقة التي تتميز بها ألمانيا دفع الجنرالات الألمان بمفهوم التعبئة إلى أبعد مدى. وكان ألفريد فون شليفن Alfred von Achlieffen رئيس هيئة أركان الجيش الألماني في حالة قلق غير طبيعي بسبب جداول التعبئة مثل نظرائه الروس والفرنسيين . غير أنه بينما كان القادة العسكريون الفرنسيون والروس مهتمين بوضع تعريف مفهوم الالتزام بالتعبئة ركز شليفن على وضع هذا المفهوم موضع التنفيذ .

وقد رفض شليفن أن يترك أي شيء لتقلبات البيئة السياسية فحاول وضع خطة محكمة للفرار من تطويق ألمانيا الرهيب . وكما تخلي خلفاء بسمارك عن دبلوماسيته المعقدة كذلك تخلى شليفن عن المفاهيم الاستراتيجية لهيلموت فون مولتك Helmot von Moltke المهندس العسكري لانتصارات بسمارك السريعة في الفترة ما بين عام ١٨٦٤ وعام ١٨٧٠.

لقد وضع مولتك استراتيجية كان من شأنها أن تركت الخيار مفتوحا أمام الحل السياسي لكابوس بسمارك المتعلق بالائتلافات العدوانية . ففي حالة نشوب حرب ذات جبهتين اعتزم مولتك تقسيم الجيش الألماني بين الشرق والغرب بطريقة متساوية أو شبه متساوية وأن يقف موقف الدفاع على الجبهتين . ولما كان هدف فرنسا الأساسي هو استرداد الألزاس واللورين فكان من المؤكد أنها ستهاجم ألمانيا.

فإذا تصدت ألمانيا لهذا الهجوم فسوف تضطر فرنسا إلى النظر في عقد تسوية سلمية خطرة . وقد حذر مولتك بصفة خاصة من مد نطاق العمليات العسكرية بحيث تصل إلى باريس إذ كان قد تعلم من الحرب بين فرنسا وبروسيا أنه من الصعوبة بمكان عقد تسوية سلمية في الوقت الذي تحاصر فيه عاصمة العدو .

وقد اقترح مولتك نفس الاستراتيجية للجبهة الشرقية – أي دحر هجوم روسي ومتابعته بصد الجيش الروسي بحيث يتراجع إلى مسافة بعيدة بعدا له أهميته الاستراتيجية وبعد ذلك يتقدم بعرض عقد التسوية السلمية . وتصبح القوات التي تحقق النصر أولا في إحدى الجبهتين لمساعدة القوات على الجبهة الأخرى . وبهذه الطريقة يمكن تحقيق نوع من التوازن بين كفة الحرب والتضحيات والحل السياسى .

وكما أن خلفاء بسمارك كانوا غير مرتاحين لغموض أحلافه المتشابكة كذلك رفض شليفن خطة مولتك لأنها تركت المبادرة في يد أعداء ألمانيا . ولم يوافق شليفن أيضا على تفضيل مولتك للتسوية السياسية على النصر التام . ولما كان شليفن مصرا على فرض شروط كانت في الواقع استسلاما غير مشروط فقد وضع خطة لتحقيق نصر سريع حاسم على جبهة واحدة ثم بعد ذلك يلقي بكل قوات ألمانيا ضد الغريم الآخر ، وبذلك يحقق نتيجة حاسمة على

كلتا الجبهتين . ولما كان بطء التعبئة الروسية التي كان يتوقع أن تستغرق ستة أسابيع الاتساع الشاسع للأراضي الروسية – يحولان دون توجيه ضربة قاضية سريعة في الشرق، قرر شليفن تدمير الجيش الفرنسي أولا قبل أن يكون الجيش الروسي قد عبئ تعبئة كاملة . ولكي يدور حول التحصينات الفرنسية القوية عند الحدود الألمانية ، فكر شليفن في انتهاك حياد بلجيكا بأن يمر بالجيش الألماني بسرعة فائقة عبر أراضيها . ويستولي على باريس ويحاصر الجيش الفرنسي من المؤخرة في الحصون الواقعة على طول الحدود . وفي الوقت نفسه تقف ألمانيا موقف الدفاع في الشرق .

كانت الخطة في منتهى الذكاء والتهور في نفس الوقت . فقد اتضح من المعرفة البسيطة جدا بالتاريخ أن بريطانيا العظمي حتما سوف تخوض الحرب إذا وقع اعتداء على بلجيكا – وتلك حقيقة يبدو أنها غابت تماما عن القيصر وهيئة أركان الحرب الألمانية . وطيلة عشرين عاما بعد أن وضعت خطة شليفن في عام ١٨٩٢ قدم القادة الألمان اقتراحات عديدة لبريطانيا العظمى لكي يحصلوا على تأييدها – أو على الأقل حيادها – في حالة نشوب حرب أوروبية ، كلها تحولت إلى أوهام بالتخطيط العسكري الألماني . ليست هناك قضية حاربت من أجلها بريطانيا العظمي بإصرار وعناد مثل قضية استقلال بلدان الأراضي الواطئة. وتشهد سياسة بريطانيا العظمي في الحروب ضد لويس الرابع عشر ونابليون على مدى تصلبها وعنادها . فبمجرد أن تشترك في الحرب فسوف تحارب إلى النهاية حتى لو هزمت فرنسا . ولم تضع خطة شليفن في الاعتبار حتى احتمالات الفشل . فإذا لم تقض ألمانيا على الجيش الفرنسي – وهذا محتمل لأن الفرنسيين لديهم طرق داخلية وخطوط سكك حديدية تبدأ من باريس بينما الجيش الألماني عليه أن يسير على الأقدام في قوس يجتاز فيه مناطق ريفية مخربة – وسوف تضطر ألمانيا لذلك إلى اتباع استراتيجية مولتك باتخاذ موقف دفاعي على الجبهتين بعد أن تكون قد قضت على احتمال عقد تسوية سياسية باحتلال بلجيكا . وبينما كان الهدف الرئيسي لسياسة بسمارك الخارجية هو تجنب خوض حرب ذات جبهتين وكان هدف مولتك هو وضع حدود لتلك الحرب ، فقد أصر شليفن على حرب ذات جبهتين تشن بكل الطرق .

ومع تركز نشر القوات الألمانية ضد فرنسا بينما يكون الأصل المتحمل للنزاع كان في شرق أوروبا فإن السؤال الذي كان يمثل الكابوس لبسمارك وهو: ماذا لو أن الحرب كانت ذات جبهتين ؟ قد تحول إلى سؤال آخر يمثل كابوسا لشليفن وهو: ماذا لو لم تكن هناك حرب ذات جبهتين ؟ فلو أعلنت فرنسا الحياد في حرب في البلقان فقد تواجه ألمانيا خطر إعلان فرنسا الحرب بعد أن تكون روسيا قد أتمت تعبئة قواتها ، كما كان أويروشيف قد أوضح بالفعل من الجانب الآخر من الخط الفاصل الأوروبي . ولو حدث من ناحية أخرى إن تجاهلت ألمانيا

عرض فرنسا بالحياد ، فإن خطة شليفن سوف تضع ألمانيا في موقف حرج وهو أن تهاجم بلجيكا التى لا صلة لها بالحرب لكي تصل إلى فرنسا غير المشتركة في أي حرب . وكان على شليفن بالتالي أن يختلق سببا لمهاجمة فرنسا إذا وقفت فرنسا موقف المتفرج. فاختلق معيارا مستحيلا لقبول ألمانيا الحياد الفرنسي . فسوف تعتبر ألمانيا أن فرنسا محايدة فقط إذا وافقت على التنازل عن أحد حصونها لألمانيا – وبمعنى آخر إذا وضعت فرنسا نفسها تحت رحمة ألمانيا وتنازلت عن وضعها كدولة كبرى .

وقد كان هذا المزيج غير المقدس من الأحلاف السياسية العامة والاستراتيجيات العسكرية كفيلا بإراقة الدماء بشكل واسع النطاق . وقد فقد ميزان القوى أقل أثر للمرونة التي تمتع بها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فحينما تنشب الحرب (ولا شك أنها ستنشب في البلقان) راعت خطة شليفن أن يحدث القتال من المعارك الرئيسية في الغرب بين بلدان ليست لها مصلحة على الإطلاق في الأزمة في ذلك الوقت . لقد أفسحت السياسة الخارجية مكانها للاستراتيجية العسكرية ، التي تضمنت الآن الرهان على رمية واحدة للنرد . ومن الصعب تصور أي طريق نحو الحرب يكون أكثر غباء من ذلك .

ورغم أن القادة العسكريين على كلا الجانبين أصروا على خوض أكثر الحروب دمارا فقد التزموا الصمت على نحو منذر بالسوء إزاء النتائج السياسية لتلك الحروب وذلك بسبب التكنولوجيا العسكرية التي كانوا يستخدمونها . فماذا سيكون شكل أوروبا بعد خوض حرب بالضخامة التي يخططون لها ؟ وما هي التغيرات التي تبرر المذبحة التي يدبرون لها ؟ فلم تكن لروسيا أية مطالب محددة خاصة من ألمانيا وكذلك لم تكن لألمانيا مطالب من روسيا تستدعي خوض حرب محلية ناهيك عن حرب شاملة.

لقد التزم الدبلوماسيون على كلا الجانبين الصمت ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى أنهم لم يفهموا ما تنطوي عليه سياسيا القنبلة الموقوتة في كل من بلادهم ولأن السياسات الوطنية في كل بلد جعلتهم يخشون معارضة المؤسسات العسكرية . ومؤامرة الصمت هذه حالت دون القادة السياسيين في كل البلاد الكبرى والمطالبة بخطط عسكرية تقيم نوعا من التوافق بين الأهداف العسكرية والأهداف السياسية .

ونظرا للكارثة التي كانوا يعدون لها كان هناك شيء غريب بشأن استخفاف القادة الأوروبيين بالأمور وقد بدأوا السير في طريق الكارثة . ومن الغريب أن تحذيرات قليلة صدرت في ذلك الوقت باستثناء ما صدر عن بيتر ديرنوفو Peter Durnovo وزير داخلية روسيا الأسبق الذي أصبح عضوا في مجلس الدولة . ففي شهر فبراير عام ١٩١٤ – قبل الحرب بستة شهور – كتب مذكرة إلى القيصر قال فيها :

إن العبء الرئيسي للحرب سوف يقع على كاهلنا حيث إن إنجلترا لا تستطيع إلا بصعوبة أن نشترك اشتراكا كبيرا في حرب أوروبية ، بينما فرنسا، وطاقتها البشرية ضعيفة، سوف تلجأ إلى التمسك بشدة بتكتيكات دفاعية فقط وذلك نظرا للخسائر الفادحة التي ستنتج عن الحرب في ظروف التقنية العسكرية الحالية . وسيقع علينا دور المنجنيق الذي سيخترق الدفاعات الألمانية الكثيفة .

وكان من رأي ديرنوفو Durnovo أن تلك التضحيات ستتبدد لأن روسيا لن تقدر على تحقيق مكاسب إقليمية دائمة بالانضمام في القتال إلى جانب بريطانيا العظمى ، غريمها الجغرافي السياسي التقليدي . ورغم أن بريطانيا العظمي ستذعن لروسيا بمكاسبها في أوروبا الوسطي فإن شطرة إضافية من بولندا لن يكون لها أثر إلا تضخيم الاتجاهات المركزية القوية الطاردة في الإمبراطورية الروسية . وقال ديرنوفو: إن زيادة الشعب الأوكراني سوف تزيد من المطالبة باستقلال أوكرانيا . ولذلك فإن النصر قد تكون له نتيجة مضحكة وهي تشجيع المزيد من الاضطرابات العرقية لتحويل إمبراطورية القيصر إلى روسيا صغيرة .

وأشار ديرنوفو إلى أنه حتى لو حققت روسيا هدفها القديم الذى يبلغ عمره قرنا بالاستيلاء على الدردنيل فإن هذا الإنجاز سوف يتضح أنه إنجاز أجوف من الناحية الاستراتيجية.

إنها لن توفر لنا مخرجا إلى البحار المفتوحة إذ إنه في الجانب الآخر لهم هناك بحر كله تقريبا مياها إقليمية ، بحر منقط بالعديد من الجزر حيث لن يجد الأسطول البريطاني مثلا أية مشكلة في إغلاق كل المداخل والمخارج أمامنا بصرف النظر عن المضايق .

لماذا غابت تلك الحقيقة الجغرافية السياسية البسيطة عن ثلاثة أجيال من الروس كانوا يريدون غزو القسطنطينية – ومن الإنجليز الذين كانوا يريدون إحباط مخططات الروس – سوف يظل هذا سرا غامضا .

واستطرد ديرنوفو يقول: إن الحرب سوف تحقق فوائد اقتصادية أقل لروسيا . وبأية حسابات فسوف تتكلف الحرب أكثر مما سيتحقق منها من مكاسب ، فإن النصر الألماني سوف يدمر الاقتصاد الروسي والنصر الروسي سوف يستنزف الاقتصاد الألماني ، ولن يتبقى شيء للتعويضات بعد ذلك مهما كان الجانب المنتصر .

لا جدال أن الحرب سوف تتطلب نفقات تفوق الموارد المالية الروسية المحدودة . وسوف يتحتم علينا أن نقترض من البلدان الحليفة والبلدان المحايدة ولكنهم لن يمنحونا تلك القروض مجانا . أما فيما يتعلق بما سيحدث إذا لم تنته الحرب بكارثة لنا فهذا أمر لا أريد مناقشته الآن . فالنتائج المالية والاقتصادية للهزيمة لا يمكن حسابها أو التكهن بها مقدما

ولا شك أنها ستعني الدمار التام لاقتصادنا الوطني . ولكن حتى النصر يعدنا بتوقعات مالية لا تبشر بخير ؛ فألمانيا المدمرة تماما لن تكون في موقف تستطيع منه تعويضنا عن الخسائر التي سنتكبدها . وإذا وضعت اتفاقية السلام في صالح إنجلترا ، فإنها لن توفر لألمانيا فرصة لكي تسترد عافيتها الاقتصادية بحيث تغطي نفقاتنا الحربية حتى في الأمد البعيد .

ومع ذلك فمن أقوى الأسباب التي قدمها ديرنوفو لمعارضته الحرب هي ما تنبأ به من أن الحرب سوف تؤدي حتما إلى ثورة اجتماعية – أولا في البلد المهزوم – ثم تنتشر بعد ذلك إلى البلد المنتصر.

إننا نعتقد اعتقادا جازما ، على أساس دراسة طويلة دقيقة لكل الاتجاهات التخريبية المعاصرة أنه لا بد حتما أن تنشب في البلد المهزوم ثورة اجتماعية سوف تنتشر بطبيعة الأشياء إلى البلد المنتصر .

ليس هناك دليل على أن القيصر اطلع على المذكرة التي كان يمكن أن تنقذ أسرته الحاكمة. وليس هناك أيضا أي دليل على وجود تحليل مماثل في العواصم الأوروبية الأخرى. وأقرب ما اتفق مع آراء ديرنوفو تعليقات قصيرة معبرة صدرت عن المستشار الألماني بيتمان – هولويج Behman - Hollweg الذي قاد ألمانيا إلى الحرب . ففى عام ١٩١٢ وكان هذا الوقت متأخرا جدا، فسر بدقة بالغة لماذا كانت السياسة الخارجية لألمانيا مقلقة لبقية أوروبا.

تحدى الناس جميعا ، ضع نفسك في طريق كل شخص وبهذه الطريقة لن تعمل على إضعاف أحد . السبب : فقدان الهدف، الحاجة إلى قليل من النجاح الذي يحقق الهيبة والعناية المفرطة رأي عام حالي .

وفي نفس العام تقدم بيتمان – هولويج بمقولة حكيمة أخرى ، ربما كانت قد أنقذت بلده لو وضعت موضع التنفيذ قبل ذلك الوقت بعشرين عاما :

يجب أن نكبح جماح فرنسا عن طريق اتباع سياسة حذرة نحو روسيا وإنجلترا . ومن الطبيعي أن هذا لن يرضي وطنيينا المتطرفين وهو شيء لن يرحب به شعبنا . غير أني لا أرى لذلك بديلا في المستقبل القريب .

وفي الوقت الذي كتبت فيه تلك السطور كانت أوروبا بالفعل فى طريقها نحو الدوامة. والمكان الذي انطلقت منه شرارة الحرب العالمية الأولى لم تكن له صلة بميزان القوى الأوروبي، وكانت دواعي الحرب صدفة كما كانت الدبلوماسية التي سبقت ذلك دبلوماسية متهورة .

وفي ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ دفع فرانز فرديناند Franz Ferdinand وريث عرش

هابسبورج حياته بسبب تهور النمسا بضم إقليم البوسنة والهرتزج عام ١٩٠٨. وحتى طريقة اغتياله لا يمكن أن تختلف كثيرا عن المزيج الفريد بين المأساة والعبث الذي اتسم به انحلال النمسا .

لقد فشل الإرهابي الصربي الشاب في أول محاولَة له لاغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند فأصاب سائق عربته بجراح بدلا من أن يصيبه هو . وبعد أن وصل فرديناند إلى مقر الحاكم ووجه اللوم إلى المديرين النمساويين لإهمالهم قرر أن يصحب زوجته ليزورا السائق المصاب في المستشفي . وقد اتخذ السائق الجديد لعربة الأرشيدوق طريقا خطأ وعندما استدار ليتراجع عن الشارع توقف أمام الرجل الذى سبق أن فشل فى قتل الأرشيدوق والذى سيحاول اغتياله للمرة الثانية كان يغرق خيبته في احتساء الخمر في مقهى على رصيف الشارع وعندما وجد أن العناية الإلهية أرسلت إليه ضحيته من تلقاء نفسها للمرة الثانية فلم يفشل فى تلك المرة في عملية الاغتيال .

وما بدأ كحادثة تقريبا انقلب إلى حريق هائل له حتمية المأساة الإغريقية .

ولأن زوجة الأرشيدوق لم يكن يجرى فى عروقها الدم الملكي فلم يحضر الجنازة أي ملك من ملوك أوروبا . ولو كان رؤساء الدول المتوجين قد اجتمعوا في الجنازة وتوافرت لهم فرصة لتبادل الآراء فربما ترددوا في خوض الحرب بعد ذلك بأسابيع قلائل بسبب حادث لم يكن قبل كل شيء أكثر من مؤامرة إرهابية .

وعلى أقوى الاحتمالات ، لم يكن حتى في استطاعة مؤتمر قمة ملكي أن يمنع النمسا من إشعال فتيل الحرب الذي سلمها إياه القيصر الآن بتهور . وتذكر وعده الذي قدمه في العام السابق بأنه سيساند النمسا في الأزمة التالية ، فبادر القيصر بدعوة سفير النمسا إلى الغداء في ٥ يوليو وحث على اتخاذ إجراءات عاجلة ضد الصرب. وفي ٦ يوليو أكد بيتمان –هولويج ما وعد به القيصر : يجب على النمسا أن تقرر ما ستتخذه من إجراءات لإزالة سوء التفاهم في علاقتها مع الصرب غير أنه مهما كان القرار الذى تتخذه النمسا فلابد من أن تعتمد على ألمانيا التي ستقف وراءها كحليف لها .

وأخيرا حصلت النمسا على ذلك الشيك على بياض الذى طالما انتظرته وكانت لديها مظلمة بشكوى حصلت على الشيك بسببها. ولما كان ويليام الثاني كطبعه دائما لا يشعر بالآثار المترتبة على تظاهره بالشجاعة فقد اختفى في رحلة قام بها إلى مضايق النرويج البحرية (كان هذا قبل عصر ظهور الراديو) . لم يكن واضحا ما كان يدور في ذهنه على وجه التحديد غير أنه كان من الواضح أنه لم يكن يتوقع نشوب حرب أوروبية . ويبدو أن القيصر ومستشاره قدرا أن روسيا لم تكن مستعدة بعد للحرب وسوف تتنحى جانبا بينما الصرب

تمتهن كرامتها كما سبق أن فعلت في عام ١٩٠٨. وعلي أية حال فقد اعتقدا أنهما في موقف أفضل من أجل دخول معركة حاسمة مع روسيا عن موقفهما الذى أصبحا عليه بعد ذلك بأعوام قلائل .

أما القادة الألمان فبمحافظتهم على سجلهم الذي لم يتفوق فيه عليهم أحد في سوء الحكم علي نفسية من يحتمل أن يصبح عدوا لهم، فقد اقتنعوا بضخامة الفرصة المتاحة أمامهم، كما حدث عندما حاولوا إرغام بريطانيا العظمي على الانضمام إلى حلف عن طريق بناء أسطول ضخم ، أو عندما حاولوا عزل فرنسا بتهديدها بشن حرب عليها بسبب المغرب . ويتصرفهم انطلاقا من افتراضهم أن نجاح النمسا قد يحطم تطويقهم الشديد الذى يعانون منه، وذلك بأن تفيق روسيا من وهم الاتفاق الثلاثي ، فقد تجاهلوا فرنسا ، التي رأوا أنها لا يمكن استرضاؤها، وتجنبوا وساطة بريطانيا العظمي حتى لا يفسد ذلك انتصارهم. وأقنعوا أنفسهم بأنه إذا انهارت كل التوقعات ونشبت الحرب ، فإن بريطانيا العظمي إما ستظل محايدة أو تتدخل في مرحلة متأخرة جدا . ومع ذلك فقد أشار سيرجي سازونوف Sazonov Serge وزير خارجية روسيا عندما نشبت الحرب ، إلى سبب عدم تراجع روسيا هذه المرة فقال:

إننا منذ حرب القرم لم تنتبنا أية أوهام فيما يتعلق بمشاعر النمسا نحونا . ففي اليوم الذي بدأت فيه سياسة النهب في البلقان على أمل أن تصلح بذلك البناء المتهالك لدولتها ، أصبحت علاقاتها معنا أبعد ما تكون عن علاقات الود والصداقة . وقد استطعنا على أية حال أن نتأقلم مع تلك التطورات المزعجة إلى أن اتضح أن سياستها في البلقان حازت رضاء ألمانيا ولاقت تشجيعا من برلين .

وقد شعرت روسيا أنها يجب أن تقاوم ما فسرته على أنه مناورة ألمانية هدفها تدمير موقفها بين السلافيين عن طريق إهانة الصرب ، أكبر حليف لها موثوق به في المنطقة. وقد كتب سازونوف يقول : كان من الواضح أننا لا يجب أن نتعامل مع القرار المتهور الذي صدر عن وزير يتسم بقصر النظر، اتخذه علي حسابه الخاص ومسئوليته ، بل يجب أن نتعامل مع خطة جيدة الإعداد ، وضعت بمساعدة الحكومة الألمانية التي لم تكن تخاطر المجر النمساوية بتنفيذها بدون موافقة ودعم هذه الحكومة.

وقد كتب بعد ذلك دبلوماسي روسي آخر بلهجة فيها حنين للوطن عن الفرق بين ألمانيا فى ظل سياسة بسمارك وألمانيا في ظل سياسة القيصر :

كانت الحرب العظمى نتيجة حتمية لتشجيع ألمانيا للمجر النمساوية في سياستها للتغلغل فى البلقان، التى صاحبتها الفكرة المتكلفة الخاصة بألمانيا الكبرى وذلك عن طريق

إضفاء الصبغة الألمانية على «أوروبا الوسطى». وفي أيام بسمارك لم يكن هذا سيحدث أبدا. وما حدث فعلا هو نتيجة لطموح ألمانيا الجديد للقيام بعمل أكثر عظمة من أعمال بسمارك – بدون أن يكون هناك بسمارك(*).

لقد بالغ الدبلوماسيون الروس في الإشادة بالألمان وتكريمهم ، لأن القيصر ومستشاريه لم تكن لديهم خطة بعيدة المدى في عام ١٩١٤ أكثر مما كان لديهم خلال أية أزمة سابقة . وقد أفلت الزمام فى أزمة اغتيال الأرشيدوق لأنه لم يكن هناك قائد على استعداد للتراجع وكان كل بلد مهتما قبل كل شيء باحترام التزامات المعاهدات بدلا من الالتزام بمفهوم شامل عن تحقيق المصالح المشتركة في الأمد البعيد . وكان ما افتقرت إليه أوروبا هو نظام شامل للقيم يربط بين الدول ، مثل نظام ميترنيخ. أو المرونة الدبلوماسية الوحشية لسياسة بسمارك الواقعية . لقد نشبت الحرب العالمية الأولى لا لأن الدول انتهكت معاهداتها بل لأنها التزمت بها حرفيا .

ومن بين أغرب جوانب مقدمات الحرب العالمية الأولى هو أنه لم يحدث شيء في البداية . فقد سوفت النمسا في الموضوع وفقا لأسلوبها في العمل مما كان يرجع جزئيا إلى أنها كانت تحتاج إلى فترة من الوقت لتتغلب على اعتراض ستيفن تيزا Stephen Tisza رئيس وزراء المجر على تعريض الإمبراطورية للخطر . وعندما أذعن في النهاية أصدرت فيينا في ٢٣ يوليو إنذارا للصرب مهلته ٤٨ ساعة، تعمدت أن تضع فيه شروطا صعبة كانت متأكدة أنها سترفض . ومع ذلك فإن التأخير في التحرك أفقد النمسا مزايا انتشار الشعور المبدئي بالمهانة في أوروبا بسبب اغتيال الأرشيدوق .

ولم يكن هناك أدنى شك في أوروبا في أيام ميترنيخ بما اتسمت به من التزام مشترك بالشرعية، فإن روسيا كانت ستؤيد عقاب النمسا للصرب على اغتيال أمير من السلالة المباشرة لخلافة العرش النمساوي . غير أنه في عام ١٩١٤ لم تعد الشرعية رباطا مشتركا. وقد تغلب تعاطف روسيا مع الصرب حليفتها على غضبها بسبب اغتيال فرانز فيرديناند .

وطيلة الشهر الذى أعقب الاغتيال كان المقصود من دبلوماسية النمسا هو التعويق . ثم جاء الاندفاع المجنون نحو الطوفان في أقل من أسبوع . لقد دفع الإنذار النمساوي بالأحداث في طريق خرجت فيه عن سيطرة القادة السياسيين . فبمجرد أن صدر الإنذار كان أي بلد كبير في وضع يمكنه من بدء سباق تعبئة القوات الذى لا يمكن التراجع عنه. ومما يدعو إلى

(*) يجب أن تؤخذ المذكرات الروسية بقدر من الحذر لأنهم حاولوا إلقاء مسئولية الحرب على ألمانيا . ويجب أن يتحمل سازونوف بوجه خاص جزءا من اللوم لأنه من الواضح أنه كان ينتمي إلى حزب المناصرين للحرب الذين طالبوا بالتعبئة الكاملة – وذلك رغم أن تحليلاته بصفة عامة لها قيمتها إلى حد كبير .

السخرية أن القوة الهائلة للتعبئة جاءت من بلد كانت برامج التعبئة فيه أساسا لا علاقة لها بالأحداث. وقد كانت خطط النمسا العسكرية من بين كل الدول الكبرى خططا قديمة لأنها لم تكن تعتمد على السرعة . ولم يكن مهما بالنسبة للخطط الحربية في أي أسبوع بدأت الحرب مادامت جيوشها قادرة على محاربة الصرب إن عاجلا أم آجلا . لقد وجهت النمسا إنذارها إلى الصرب حتى تحبط عملية الوساطة وليس للتعجيل بالعمليات العسكرية . وحتى التعبئة العسكرية في النمسا لم تهدد أية دولة كبرى أخرى إذ إن استكمالها كان يلزمه شهر بأكمله.

وبذلك فإن برامج التعبئة التي جعلت الحرب أمرا لا مفر منه بدأت من جانب البلد الذي لم يبدأ جيشه حتى في المشاركة في القتال إلا بعد أن انتهت فعلا المعارك الكبرى في الغرب . ومن ناحية أخرى فمهما كانت حالة استعداد النمسا ، فإن روسيا إذا أرادت تهديدها لكان عليها أن تعبئ بعض القوات وهو إجراء كان سيطلق التعبئة التي لا يمكن التراجع عنها في ألمانيا (رغم أن أحدا من القادة العسكريين لم يدرك هذا الخطر). والمفارقة التي حدثت في شهر يوليو سنة ١٩١٤ هي أن البلدان التي كانت لديها أسباب سياسية لدخول الحرب لم تكن مقيدة ببرامج تعبئة صارمة بينما البلدان التي كانت لديها برامج تعبئة صارمة مثل ألمانيا وروسيا لم يكن لديها أسباب سياسية لدخول الحرب .

وقد ترددت بريطانيا العظمي وهى البلد الذي كان في أفضل موقع لوقف تطور تلك السلسلة من الأحداث . فلم يكن لديها أي اهتمام بأزمة البلقان ولكن كانت تهتم اهتماما كبيرا بالمحافظة على الاتفاق الثلاثي . ولما كانت تخشى الحرب فقد خافت أكثر من أى انتصار قد تحققه ألمانيا . ولو كانت بريطانيا العظمي قد أعلنت نواياها بوضوح وجعلت ألمانيا تفهم أنها قد تدخل حربا شاملة فربما كان القيصر الألمانى قد تجاهل المواجهة . وقد رأى سازونوف الوضع بعد ذلك كما يلي :

لا يمكنني أن أمتنع عن أن أعرب عن رأيي، إنه لو كان سير أدوارد جراى فى عام ١٩١٤ قد أدلى ببيان واضح في وقت مناسب عن تضامن بريطانيا العظمي مع فرنسا وروسيا ، كما كنت أطلب منه بإصرار ، لكان قد أنقذ البشرية من هذا الطوفان الرهيب ، الذي عرضت نتائجه للخطر وجود المدنية الأوروبية ذاته .

كان القادة البريطانيون ضد تعريض الاتفاق الثلاثي للخطر بالتلميح إلى أى تردد من جانبهم في مساندة حلفائهم ، وكانوا ، على نقيض ذلك، لا يريدون تهديد ألمانيا وذلك كي يظل مفتوحا أمامهم خيار الوساطة في التوقيت السليم. ونتيجة لذلك أضاعت بريطانيا العظمي فرصة سانحة بترددها في اختيار واحد من مسلكين . ولم يكن على بريطانيا العظمي أي التزام قانوني بدخول الحرب إلى جانب فرنسا وروسيا، كما أكد جراى لمجلس العموم

البريطاني في ١١ يونيو ١٩١٤ أي قبل أقل من أسبوعين من اغتيال الأرشيدوق :

«إذا نشبت الحرب بين الدول الأوروبية ، فليست هناك اتفاقيات غير معلنة من شأنها أن تقيد أو تمنع حرية الحكومة أو البرلمان من اتخاذ قرار بشأن اشتراك بريطانيا العظمي في الحرب أو عدم اشتراكها فيها» .

ولا شك أن هذا كان حقيقيا من الناحية القانونية . غير أن الموضوع كان ينطوى على بعد أخلاقى غير ملموس . لقد كان الأسطول الفرنسي في البحر الأبيض وفقا لاتفاقية فرنسا البحرية مع بريطانيا العظمي؛ ونتيجة لذلك فإن ساحل فرنسا الشمالي سيكون مفتوحا على مصراعيه أمام الأسطول الألماني إذا لم تدخل بريطانيا العظمي الحرب . وعندما تطورت الأزمة فإنه طبقا لميثاق بتمان – هولويج كان لا يجب أن يستخدم الأسطول الألماني ضد فرنسا إذا وعدت بريطانيا العظمي بأن تلتزم موقف الحياد ولكن جراى رفض هذه الصفقة لنفس السبب الذي رفض من أجله العرض الألماني عام ١٩٠٩ بالحد من سرعة بناء الأسطول البحري في مقابل التزام بريطانيا العظمى الوقوف موقف الحياد في حالة نشوب حرب أوروبية – وقد ارتاب فى أن بريطانيا ستصبح تحت رحمة ألمانيا بعد أن تهزم فرنسا.

يجب أن تبلغ المستشار الألماني أن اقتراحه بأن نقيد أنفسنا بموقف الحياد بمثل تلك الشروط أمر لا يمكن التفكير فيه للحظة...

وبالنسبة لنا فإننا إذا عقدنا تلك الصفقة مع ألمانيا على حساب فرنسا فسيكون ذلك عارا علينا لن يسترد هذا البلد بعده اسمه الطيب أبدا .

إن المستشار يطلب منا أيضا أن نتخلى عن أية التزامات أو مصالح لدينا فيما يتعلق بحياد بلجيكا . إننا لن نفكر في هذا أيضا .

وكانت مشكلة جراى هي أن بلده كان قد وقع في شرك من ضغوط الرأي العام وتقاليد سياسته الخارجية . فمن ناحية فإن الافتقار إلى التأييد الشعبي لدخول الحرب بسبب قضية البلقان كان يمكن أن يثير اقتراح الوساطة. ومن ناحية أخرى فإنه إذا هزمت فرنسا أو فقدت الثقة في الحلف البريطاني فإن ألمانيا ستصبح في موقف مسيطر، الأمر الذي كانت بريطانيا تقاومه دائما . ولذلك كان هناك احتمال كبير بأنه في النهاية سوف تخوض بريطانيا العظمي الحرب لكي تحول دون حدوث انهيار عسكري فرنسي حتى لو لم تكن ألمانيا قد هاجمت بلجيكا، رغم أن الأمر كان سيستغرق بعض الوقت كي يتبلور تأييد الشعب البريطاني للحرب . وفي تلك الأثناء كان يمكن لبريطانيا العظمي أن تحاول التوسط . ومع ذلك فإن قرار ألمانيا بتحدى أحد المبادئ الثابتة للسياسة الخارجية البريطانية – وهو أن بلدان الأراضى الواطئة لا يجب أن تسقط في أيدي دولة كبرى – ساعد على تبديد الشكوك البريطانية وضمن أن الحرب لن تنتهي بحل وسط .

ورأى جراى أنه بعدم الوقوف إلى أي جانب في المراحل المبكرة للأزمة ، فإن بريطانيا العظمي سوف تحتفظ بمناداتها بعدم التحيز لأى جانب، الأمر الذي قد يتيح لها التوسط من أجل إيجاد حل. وقد أيدت التجربة السابقة تلك الاستراتيجية .

وعلى أية حال فلم يحدث في أية أزمة سابقة أن قامت أي دولة بأية تعبئة لقواتها. فبينما كانت كل الدول الكبرى تستعد لتعبئة قواتها فإن الهامش الزمني المتاح للأساليب الدبلوماسية التقليدية كان يختفى . وهكذا فإنه في الساعات الست والتسعين الحرجة التي دمرت فيها برامج التعبئة الفرصة للمناورة السياسية وقفت الوزارة البريطانية موقف المتفرج .

لقد جعل إنذار النمسا ظهر روسيا يلتصق بالحائط في لحظة اعتقدت فيها بالفعل أنها أسيء استغلالها على نحو موجع . وكانت بلغاريا التي تم تحريرها من الحكم التركي علي أيدي روسيا عن طريق عدة حروب، متعاطفة مع ألمانيا . وكان يبدو أن النمسا التي استولت على البوسنة والهرتزج ، تسعى إلى تحويل الصرب – آخر حلفاء روسيا المهمين في البلقان – إلى محمية خاضعة لوصايتها. وأخيرا، وبينما كانت ألمانيا ترسخ أقدامها في القسطنطينية ، لم تكن روسيا تستطيع أن تفعل شيئا إلا أن تتساءل ما إذا كان عصر اتحاد السلافيين سينتهي بالسيطرة التيوتونية (نسبة إلى الألمان القدامى) على كل شيء تمنته طيلة قرن.

وعلى الرغم من ذلك فإن القيصر نيكولاس الثاني لم يكن يتوق إلى حسم المشاكل مع ألمانيا.

ففي اجتماع وزاري عقد في ٢٤ يوليو استعرض القيصر الخيارات المتاحة أمام روسيا . ونقل وزير المالية بيتر بارك Peter Bark عن القيصر قوله : «إن الحرب ستكون كارثة على العالم وأنها بمجرد أن تنشب فسيكون من الصعب إخمادها». وبالإضافة إلى ذلك قال بارك أن الإمبراطور الألماني أكد له مرارا رغبته الجادة في حماية السلام في أوروبا .

وذكر الوزراء «بموقف الإمبراطور الألماني المخلص أثناء الحرب الروسية اليابانية وأثناء المتاعب الداخلية التي شهدتها روسيا بعد ذلك».

وقد جاء الاعتراض على ذلك من ألكسندر كريفوشين Aleksandr Krivoshein وزير الزراعة القوي . فأثبت أن روسيا ترفض دائما وكأنها مصابة بمرض مستوطن ، أن تنسي أية إساءة لها ثم قال إنه رغم رسائل القيصر الرقيقة التى بعث بها إلى ابن عمه القيصر نيكولاس فإن الألمان قد انتهروا روسيا أثناء أزمة البوسنة عام ١٩٠٨ . وبالتالي «فإن الرأي العام ورأي البرلمان لن يتمكنا من فهم لماذا ، في اللحظة الحرجة التي تعرضت فيها مصلحة

روسيا الحيوية للخطر، امتنعت الحكومة الإمبراطورية عن التصرف بشجاعة ... إن اتجاهاتنا المبالغة في حذرها لم تنجح للأسف في استرضاء دول أوروبا الوسطى».

وقد ساندت رأي كريفوشين رسالة من السفير الروسي في صوفيا قال فيها إنه لو تراجعت روسيا «فإن هيبتنا في عالم السلافيين وفي البلقان سوف تنهار تماما ولن نستردها أبدا».

إن رؤساء الحكومات حساسون على نحو سيىء لما يتردد عن الشك في شجاعتهم . وأخيرا كبت القيصر هواجسه عن الكارثة واختار أن يساند الصرب مخاطرا حتى بنشوب الحرب رغم أنه لم يصل إلى مرحلة إصدار الأمر بتعبئة قواته.

وعندما ردت الصرب على إنذار النمسا في ٢٥ يوليو بصورة استرضائية غير متوقعة – وافقت فيها على كل طلبات النمسا فيما عدا طلب واحد – اعتقد القيصر الذي كان قد عاد لتوه من رحلته البحرية ـ أن الأزمة قد انتهت . ولكنه لم يعتمد على تصميم النمسا على استغلال تأييدي لها بصورة غير حذرة . لقد نسي قبل كل شيء – هذا إذا كان قد عرف أصلا – أنه مع اقتراب الدول الكبرى اقترابا شديدا من حافة الحرب ، فإن برامج تعبئة القوات من المحتمل أن تسبق الدبلوماسية .

وفي ٢٨ يوليو أعلنت النمسا الحرب على الصرب رغم أنها لم تكن مستعدة للعمليات العسكرية إلا في ١٢ أغسطس . وفي نفس اليوم أصدر القيصر أوامره بالتعبئة الجزئية لقواته ضد النمسا واكتشف لدهشته أن الخطة الوحيدة التي أتمت هيئة الأركان إعدادها هي خطة التعبئة العامة ضد ألمانيا والنمسا، وذلك رغم أنه طوال الخمسين عاما السالفة كانت النمسا تقف في طريق طموحات روسيا في البلقان وأن دروس الحرب النمساوية الروسية كانت مقررة على مدارس الهيئات العسكرية طوال تلك الفترة بأجمعها . وقد حاول وزير خارجية روسيا –الذي كان غافلا عن أنه يعيش سعيدا دون وعي بالأضرار حوله أي يعيش في جنة الحمقى – أن يطمئن برلين في ٢٨ يوليو : «إن الإجراءات العسكرية التي اتخذناها نتيجة لإعلان الحرب من جانب النمسا ... ليس منها إجراء واحد موجه ضد ألمانيا.

وقد ذهل القادة العسكريون الروس بلا استثناء وكلهم من تلاميذ نظريات أوبريشيف لضبط النفس الذي أبداه القيصر . فقد كانوا يريدون إعلان التعبئة العامة وبالتالي الحرب مع ألمانيا التي لم تكن قد اتخذت أية خطوات عسكرية بعد . وقد قال أحد كبار الجنرالات لسازونوف إن «الحرب أصبحت أمرا لا مفر منه وأننا معرضون لخطر أن نخسرها قبل أن يتاح لنا الوقت لنسحب سيفنا من غمده».

ورغم أن القيصر الروسي كان مترددا جدا مع كبار جنرالاته إلا أنه كان حاسما جدا بالنسبة لألمانيا . فكل الخطط الحربية الألمانية كانت موضوعة على أساس توجيه ضربة

قاضية لفرنسا وإخراجها من الحرب في غضون ستة أسابيع ثم الاستدارة بعد ذلك إلى روسيا التي كان يعتقد أنها لن تكون قد عبأت قواتها تعبئة كاملة بعد. فأية تعبئة للقوات الروسية – حتى لو كانت تعبئة جزئية – من شأنها أن تفسد هذا الجدول الزمني وتقلل من فوائد مقامرة ألمانيا الخطيرة أصلا . وطبقا لذلك ففي يوليو طالبت ألمانيا روسيا بوقف تعبئة قواتها وإلا فإن ألمانيا ستعبئ قواتها أيضا. وكان الكل يعلمون أن تعبئة القوات الألمانية معناها الحرب.

وكان القيصر الروسي ضعيفا جدا إلى حد أنه لم يكن يستطيع أن يستسلم . فالتوقف عن التعبئة الجزئية للقوات الروسية كان سيكشف المخططات الحربية الروسية كلها ، وقد أقنعته مقاومة جنرالاته له لأن السيف قد سبق العزل . وفي ٣٠ يوليو أصدر نيكولاس أوامره بالتعبئة العامة الكاملة . وفي ٣١ يوليو طالبت ألمانيا مرة أخرى بوقف التعبئة الروسية . وعندما قوبل هذا الطلب بالتجاهل أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا . وقد حدث هذا دون تبادل رسالة سياسية واحدة جادة بين سان بيترسبرج وبرلين حول جوهر الأزمة في غياب أي نزاع حقيقي بين ألمانيا وروسيا .

وقد أصبحت ألمانيا الآن تواجه مشكلة وهى أن خططها الحربية تتطلب شن هجوم فوري على فرنسا ، التي كانت مسترخية أثناء الأزمة فيما عدا تشجيعها لروسيا على ألا تقبل أية تسوية عن طريق التعهد بتأييد فرنسا تأييدا غير مشروط . وعندما فهم الامبراطور الألماني أخيرا أين أدت به عشرون عاما من تحركاته المسرحية حاول أن يحول اتجاه التعبئة العامة لقواته بعيدا عن فرنسا ونحو روسيا . وقد كانت محاولته لكبح جماح العسكريين عبثا مثل محاولة القيصر الروسي السابقة للحد من نطاق التعبئة الروسية . ولم تكن هيئة الأركان الألمانية أكثر استعدادا من نظيرتها الروسية للتخلي عن عشرين عاما من التخطيط ، والواقع أنها لم تكن لديها خطة بديلة، مثلها مثل هيئة الأركان الروسية . ورغم أن كلا من القيصر الروسي والإمبراطور الألماني كانا يريدان الانسحاب بعيدا عن حافة الحرب – ولم يكن أي منهما يعرف كيف يفعل ذلك – القيصر الروسي لأنه منع من القيام بالتعبئة الجزئية ، والإمبراطور الألماني لأنه منع من التعبئة ضد روسيا فقط. وكل منهما أعيقت جهوده بسبب الآلة العسكرية التي ساعد على بنائها بنفسه ، والتي ثبت أنها بمجرد أن تبدأ في الحركة يصبح في غير المقدور وقفها .

وفي أول أغسطس سألت ألمانيا فرنسا عما إذا كانت تعتزم مواصلة الالتزام بموقف الحياد . ولو كانت فرنسا قد ردت علي ذلك بالإيجاب لطالبت ألمانيا بحصني فيردون Verdun وتول Toul كعربون علي حسن النية ، غير أن فرنسا بدلا من ذلك ردت بشيء من الغموض قائلة أنها ستتصرف وفقا لمصلحتها الوطنية . ولم يكن لدى ألمانيا بالطبع أي

قضية محددة تبرر بها الحرب مع فرنسا، التي وقفت موقف المتفرج من أزمة البلقان. ومرة أخرى كانت برامج التعبئة هي القوة الدافعة للحرب. ولذلك لفقت ألمانيا لفرنسا حادثا من حوادث انتهاك الحدود وفي ٣ أغسطس أعلنت الحرب . وفي نفس اليوم قامت القوات الألمانية تنفيذا لخطة شليفن بغزو بلجيكا . وفي اليوم التالي ٤ أغسطس أعلنت بريطانيا العظمي الحرب على ألمانيا وهو حدث لم يدهش له أحد سوى القادة الألمان .

نجحت الدول الكبرى في تحويل أزمة بلقان ثانوية إلى حرب عالمية . وأدى نزاع حول البوسنة والهرسك إلى غزو بلجيكا في الطرف الآخر لأوروبا ، الأمر الذي بدوره جعل دخول بريطانيا العظمي الحرب أمرا لا مفر منه . ومن السخرية أنه في الوقت الذي كانت المعارك الحاسمة تجرى على الجبهة الغربية فإن القوات النمساوية لم تكن قد قامت بعد بالهجوم علي الصرب.

وقد علمت ألمانيا متأخرة أنه لا يمكن الوثوق في الحرب وأن مطلبها الذي يستحوذ عليها

بتحقيق نصر سريع حاسم وصل بها إلى حرب استنزاف باهظة التكاليف. وفي تنفيذها لخطة شليفن تخلت ألمانيا عن كل آمالها المتعلقة بالتزام بريطانيا بالوقوف موقف الحياد بدون النجاح في القضاء على الجيش الفرنسي ، الذي كان الغرض من الدخول في مخاطرات في المقام الأول ومن قبيل السخرية أن ألمانيا خسرت المعركة الهجومية في الغرب وانتصرت في المعركة الدفاعية في الشرق. وفي النهاية اضطرت ألمانيا إلى اتباع استراتيجية مولتك الدفاعية في الغرب أيضا بعد أن ألزمت نفسها بسياسة استبعدت تحقيق السلام السياسي بالتسوية التي وضعت على أساسها استراتيجية مولتك .

لقد فشل الحلف الأوروبي فشلا ذريعا لأن القيادة السياسية تخلت عن مواقعها. ونتيجة لذلك فلم تتم محاولة اللجوء إلى ذلك النوع من المؤتمر الأوروبي الذي وفر طوال القرن التاسع عشر فترة تهدئة أو أدى إلى حلول فعلية . لقد استعد القادة الأوروبيون لكل الطوارئ فيما عدا توفير الوقت اللازم للتوفيق الدبلوماسي . وقد نسوا حكمة بسمارك : «ويل للقائد الذي لا تكون حججه في نهاية الحرب برجاحة حججه في بدايتها».

وفي الوقت الذي تابعت فيه الأحداث مجراها كان ٢٠٠ مليون شخص قد قتلوا ؛ واختفت الإمبراطورية المجرية – النمساوية وأطيح بثلاث من الأسر الحاكمة التي دخلت الحرب – الأسرة الحاكمة الألمانية والنمساوية والروسية . ولم تبق إلا الأسرة المالكة البريطانية . وبعد ذلك كان من الصعب أن نذكر بالضبط ما الذي أشعل فتيل الحريق . وكل ما عرف هو أنه من الرماد الذي أحدثته الحماقة التاريخية كان لا بد من أن يولد نظام أوروبي جديد رغم أنه كان من الصعب معرفة طبيعته بين العواطف الجامحة والإرهاق الشديد الذي خلفته المذبحة .



■ الإمبراطور ويليام الثانى والقيصر الروسى نيكولاس الثانى

الفصل التاسع

وجه الدبلوماسية الجديد

ويلسون ومعاهدة فرساى

في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ أعلن دافيد لويد جورج David Lloyd George رئيس وزراء بريطانيا أن الهدنة بين ألمانيا ودول الحلفاء قد وقعت بالكلمات التالية : آمل أن يمكننا الآن أن نقول إنه في هذا الصباح الحاسم قد انتهت كل الحروب . «والواقع أن أوروبا كانت في ذلك الوقت على بعد عقدين فقط من حرب أكثر شراسة من الحرب السالفة .

ولما لم يكن شيء في الحرب العالمية الأولى قد سار علي حسب ما كان مخططا له، فكان من المحتم أن السعي من أجل تحقيق السلام سيكون بلا جدوى، وذلك على غرار التوقعات التي دفعت الأمم الأوروبية إلى الكارثة . فكل من اشترك في الحرب توقع حربا قصيرة الأجل وترك تحديد شروط الصلح إلى ذلك النوع من المؤتمرات الدبلوماسية التي أنهت النزاعات الأوروبية في القرن السالف . ولكن عندما ازدادت الخسائر في الأرواح ووصلت إلى معدلات رهيبة طمست النزاعات السياسية التي كانت مقدمة للصراع الذى تمثل فى التنافس من أجل النفوذ في البلقان ، والاستيلاء على الألزاس واللورين وسباق التسلح البحري . ولقد وجهت الأمم الأوروبية اللوم على ماعانته إلى روح الشر الكامنة في نفوس أعدائها ، وأقنعت نفسها بأن الحلول الوسط لا يمكن أن تجلب سلاما حقيقيا ، فالعدو يجب أن يهزم هزيمة تامة أو تستمر الحرب إلى حد الإنهاك التام .

ولو كان القادة الأوروبيون قد استمروا في ممارسات النظام العالمي الذى كان سائدا قبل الحرب لأمكن التوصل إلى تسوية سلمية في ربيع عام ١٩١٥ . لقد تسببت الأعمال الهجومية من كل جانب في أن سالت الدماء بحارا ووقعت الجبهات جميعا فى ورطة . ولكن بعد أن تسببت برامج التعبئة في عرقلة الجهود الدبلوماسية في الأسبوع الذي سبق اشتعال الحرب، فقد وقفت الآن ضخامة التضحيات في طريق التوصل إلى أية تسوية معقولة . وبدلا من ذلك فقد استمر قادة أوروبا في زيادة شروطهم ليس فقط ليضاعفوا من العجز وعدم المسئولية اللذين انزلقوا بهما إلى الحرب بل ليدمروا النظام العالمي الذي تعايشت فى ظله أممهم طيلة قرن تقريبا .

وفي شتاء ١٩١٤–١٩١٥ فقدت الإستراتيجية العسكرية الصلة بالسياسة الخارجية . فلم يجرؤ أي من الأطراف المتحاربة علي البحث عن تسوية سلمية . ففرنسا لم تكن لتستقر إلا بعد أن تسترد الألزاس واللورين ، وألمانيا لن تنظر في أي سلام يجعلها تتخلى عن الأقاليم التي استولت عليها . وبمجرد أن انغمس القادة الأوروبيون في الحرب سيطر عليهم هوس قتل الإخوة والأخوات وأصابهم جنون التدمير المستمر لجيل بأكمله من شبابهم . وقد حقق النصر ما هو مرجو منه بغض النظر عن الخراب الذي كان لابد أن يقوم عليه هذا النصر . وقد أكدت الهجمات العدوانية القاتلة أن هناك مأزقا عسكريا ، وأسفرت عن خسائر في الأرواح لا يمكن تصورها قبل قدوم التكنولوجيا الحديثة . وقد تسببت الجهود التي كانت تبذل للبحث عن حلفاء في زيادة عمق الورطة السياسية . ولأن كل حليف جديد– إيطاليا ورومانيا في جانب الحلفاء ، وبلغاريا في جانب الدول المركزية – طالب بنصيبه في الغنيمة المنتظرة، فقد قضوا على أية مرونة بقيت للدبلوماسية .

وقد أخذت شروط الصلح تكتسب بالتدريج طابعا عدميا . فقد ثبت أن الأسلوب الأرستقراطي لدبلوماسية القرن التاسع عشر والذي كان تآمريا بعض الشيء، لم تكن له صلة بالموضوع في عصر التعبئة الشاملة . فقد تخصص جانب الحلفاء في تغليف الحرب بشعارات أخلاقية مثل «الحرب التي ستنهي كل الحروب» أو «لنجعل العالم آمنا من أجل نشرالديمقراطية»– وخاصة بعد أن دخلت أمريكا الحرب . كان أول تلك الشعارات مفهوما ، ويرجى منه الكثير بالنسبة لأمم ظلت تحارب بعضها البعض آلاف السنين في مجموعات متباينة . وكان تفسيره العملي هو نزع السلاح الشامل من ألمانيا . أما الشعار الثاني المتعلق بنشر الديمقراطية فكان يتطلب الإطاحة بالنظم الداخلية في ألمانيا والنمسا . و كلا الشعارين على أية حال كان معناه الضمني هو القتال حتى النهاية .

أما بريطانيا العظمي– التي كانت قد قدمت في أيام نابليون صورة للتوازن الأوروبي عن طريق خطة بيت – فقد أيدت ممارسة الضغوط التي تمارس من أجل تحقيق النصر الشامل. ففي شهر ديسمبر عام ١٩١٤ رفض جراى وزير الخارجية البريطاني عرضا ألمانيا كان بمثابة جس نبض بأن تنسحب ألمانيا من بلجيكا في مقابل الكونغو البلجيكية وقال جراى في رفضه إن الحلفاء يجب أن يحصلوا على «ضمان أمن من أي هجوم في المستقبل من جانب ألمانيا ».

وكان تعليق جراى بمثابة تحول في الموقف البريطاني . فحتى وقت قريب قبل نشوب الحرب كانت بريطانيا العظمي تربط أمنها بميزان القوى ، الذي كانت تحميه بأن تساند الجانب الأضعف ضد الجانب الأقوى . وفي عام ١٩١٤ شعرت بريطانيا العظمى بأنها أقل ارتياحا لهذا الدور . وعندما أحست أن ألمانيا أصبحت أقوى من باقي دول أوروبا مجتمعة شعرت أنها لا يجب أن تستمر في القيام بدورها التقليدي الذي تحاول فيه أن تظل بعيدة عن المعمعة في أوروبا.

ولما رأت بريطانيا العظمي أن ألمانيا أصبحت تشكل تهديدا من حيث السيطرة على أوروبا فقد كانت العودة إلى الوضع السابق لاتحقق شيئا فيما يتعلق بالتخفيف من المشكلة الرئيسية. ولهذا فإن بريطانيا العظمي شعرت أنها لم يعد يمكنها أن تقبل الحلول الوسط وأصرت على «ضماناتها» الخاصة التي وصلت إلى حد إضعاف ألمانيا بشكل مستمر، وخاصة إجراء تخفيض ضخم للأسطول الألماني فيما وراء البحار – وهو شيء لم تكن ألمانيا تقبله أبدا إلا إذا هزمت هزيمة كاملة.

وقد كانت الشروط الألمانية محددة بقدر أكبر وأكثر التزاما باعتبارات الجغرافيا السياسية. ومع ذلك فبافتقار القادة الألمان الطبيعي إلى الإحساس بنسبية الأمور فقد طلبوا أيضا ما وصل إلى أنه تسليم بلا شروط. وفي الغرب طالبوا بضم مناجم الفحم في شمال فرنسا وبالسيطرة العسكرية علي بلجيكا بما فيها ميناء أنتويرب Antwerp، الأمر الذي ضمن عداوة بريطانيا العظمي الشديدة. وفي الشرق قدمت ألمانيا شروطا رسمية فيما يتعلق ببولندا حيث وعدت في ٥ نوفمبر ١٩١٦ بإقامة «ولاية مستقلة نظامها دستوري ملكي وراثي» – وبذلك قضت على أية احتمالات لعقد تسوية سلمية مع روسيا. (وكان أمل ألمانيا هو أن يسفر الوعد باستقلال بولندا عن تقدم متطوعين بولنديين لخمس فرق عسكرية : وقد تبين فيما بعد أنه لم يتقدم أكثر من ٣٠٠٠ متطوع). فبعد أن هزمت روسيا فرضت ألمانيا عليها معاهدة برست ليتوفسك Brest Litovesk في ٣ مارس ١٩١٨ التي ضمت إليها بموجبها ثلث روسيا الأوروبية ومحمية من أوكرانيا. وفي النهاية اتضح من تعريف ألمانيا لما كانت تعنيه بسياسة القوة أن أقل ما تريده هو السيطرة على أوروبا.

لقد بدأت الحرب العالمية الأولي كحرب وزارية نمطية، بمذكرات تسلم من سفارة إلى سفارة وبرقيات توزع بين الملوك في كل الخطوات الحاسمة في الطريق إلى الحرب الحقيقية. غير أنه بمجرد أن أعلنت الحرب، وبينما كانت شوارع العواصم الأوروبية تموج بحشود هاتفة مبتهجة لم يعد النزاع هو نزاع وزارات وسفارات بل أصبح نضال كتل جماهيرية. وبعد العامين الأولين من الحرب، كان كل جانب يضع شروطا لا تتفق مع أية فكرة عن التوازن.

وكان أبعد ما يكون عن تصور الجميع هو أن يفوز كلا الجانبين ويخسران في نفس الوقت: أن تهزم ألمانيا روسيا وتضعف بشكل خطير كلا من فرنسا وإنجلترا، وأن ينتصر في النهاية الحلفاء الغربيون بمساعدة أمريكا التي لم يكن هناك غنى عنها. وكانت نتيجة حروب نابليون قرنا من السلام بني على أساس التوازن وأبقت عليه القيم المشتركة. وكانت نتيجة الحرب العالمية الأولى ثورات اجتماعية وصراعات مذهبية وحربا عالمية أخرى.

اختفى الحماس الذي صاحب بداية الحرب بمجرد أن فهمت شعوب أوروبا أن قدرة حكوماتهم على إقامة المذبحة لم تقابلها قدرة مناسبة على تحقيق النصر أو السلام. وفي الاضطراب الكبير الذي أعقب ذلك كان الملوك الشرقيون الذين ساعدت الوحدة بينهم على

المحافظة على السلام في أوروبا في أيام الحلف المقدس قد أطيح بهم . واختفت الإمبراطورية المجرية – النمساوية تماما. واستولى البلاشفة في الحزب الشيوعي في روسيا على الإمبراطورية الروسية التى تراجعت خلال عقدين من الزمان إلى أطراف أوروبا . وأجهدت ألمانيا بالهزائم المتوالية ، والثورة ، والتضخم ، والكساد الاقتصادي والديكتاتورية . ولم تستفد فرنسا وبريطانيا العظمي من حالة ضعف أعدائهما . لقد ضحتا بأفضل شبابهما من أجل السلام الذي ترك العدو أكثر قوة من حيث الاعتبارات الجغرافية السياسية عما كان قبل الحرب .

وقبل أن تتضح الأبعاد الكاملة لهذه الكارثة التي جلبتها أوروبا على نفسها ، ظهر علي مسرح الأحداث لاعب جديد لكي ينهي إلى الأبد ما سمي حتى ذلك الوقت الحلف الأوروبي . فبين بقايا الدمار وزوال الوهم الذي صاحب ثلاث سنوات من المذابح ، دخلت أمريكا الساحة الدولية بثقة وقوة ومثالية لم يكن يتصورها حلفاؤها الأوروبيون المنهكون .

وكان دخول أمريكا الحرب قد جعل من الممكن أن يتحقق النصر التام تقنيا ، ولكنه كان لأهداف ليست لها صلة كبيرة بالنظام العالمي الذي عرفته أوروبا ثلاثة قرون والذي يعتقد أنها دخلت الحرب من أجله . لقد ازدرت أمريكا مفهوم ميزان القوى واعتبرت ممارسة السياسة الواقعية أمرا غير أخلاقي . وكان معيار أمريكا للنظام الدولي هو الديمقراطية ، والأمن الجماعي وحق تقرير المصير – ولم يكن أي منها قد تعرض لأي تحديد في أوروبا من قبل .

وبالنسبة للأمريكيين فإن عدم التوافق بين فلسفتهم وبين الفكر الأوروبي أوضح مزية معتقداتهم . إن فكرة ويلسون عن النظام العالمي التي نادى فيها بالابتعاد عن تعاليم ومفاهيم العالم القديم استقاها من إيمان الأمريكيين بالطبيعة المسالمة أصلا للإنسان ومن التناسق الذي ينطوي عليه العالم . وانطلاقا من ذلك فإن الأمم الديمقراطية تكون مسالمة بطبيعتها ، والناس الذين يمنحون حق تقرير المصير لا تكون لديهم أسباب للاشتراك في الحروب أو لاضطهاد الآخرين . وعندما تتذوق كل شعوب العالم بركات السلام والديمقراطية فسوف تهب جميعا كشخص واحد للدفاع عما كسبته .

لم يكن لدى القادة الأوروبيين درجات من الفكر تحيط بمثل تلك الآراء . ولم تكن حتى مؤسساتهم الداخلية ولا نظامهم الدولي قد قامت على أساس نظريات سياسية تفترض كأمر مسلم به أن الإنسان خير بطبعه . ولكنها وضعت لكي تجعل أنانية الإنسان في خدمة خير أسمى. لقد استندت الدبلوماسية لا على طبيعة حب السلام عند الدول بل على ميلها للحرب هذا الميل الذى كان لابد إما تثبيطه أو العمل على اعتداله . فقد أقيمت الأحلاف من أجل تحقيق أهداف محددة معينة وليس للدفاع عن السلام بشكل نظري .

لقد تسببت مبادئ ويلسون الخاصة بتقرير المصير والأمن الجماعي في وضع

الدبلوماسيين الغربيين على طريق غير مألوف لديهم كلية . فالفرض القائم وراء كل التسويات الأوروبية كان هو أن الحدود يمكن تعديلها من أجل تعزيز ميزان القوى . وقد وضعت متطلبات تنفيذ ذلك في الترتيب قبل أفضليات سكان البلاد التى تتأثر بتلك التعديلات. وكان هذا هو تصور «بيت» الكتل الجماهيرية الكبيرة لاحتواء فرنسا في نهاية حروب نابليون.

وطيلة القرن التاسع عشر مثلا قاومت بريطانيا العظمى والنمسا انهيار الإمبراطورية العثمانية لأنهما كانتا مقتنعتين بأن الأمم الأصغر التي سَتخرج من هذا الانهيار سوف تقوض النظام الدولي . وكان أسلوبهما فى التفكير هو أن الأمم الصغيرة بافتقارها إلى التجارب سوف تزيد من حدة المنافسات العرقية المستوطنة بينما سيغري ضعفها النسبي الدول الكبرى على التحرش بها. وكان من رأي بريطانيا والنمسا أن الدول الأصغر يجب أن تخضع طموحاتها الوطنية للمصلحة الأكبر المتعلقة بتحقيق السلام . وباسم التوازن منعت فرنسا من ضم الوالون Walloon وهو القطاع المتكلم بالفرنسية في بلجيكا ، وأثنيت ألمانيا عن الاتحاد مع النمسا (رغم أن بسمارك كانت لديه أسبابه الخاصة لعدم السعي للاتحاد مع النمسا) .

لقد رفض ويلسون تماما هذا الاتجاه ، كما فعلت الولايات المتحدة دائما منذ ذلك الوقت.

فمن رأي أمريكا أنه ليس تقرير المصير هو سبب الحرب لكن عدم وجود هذا الحق هو السبب ، وليس غياب ميزان القوى هو السبب في عدم الاستقرار، ولكن العمل على استتباب ميزان القوى هو السبب . واقترح ويلسون أن يقوم السلام على أساس مبدأ الأمن الجماعي. ففي رأيه وجميع تلاميذه أن أمن العالم يتطلب أن يتحقق السلام عن طريق أن يكون السلام مفهوما قانونيا وليس مفهوما للدفاع عن مصالح وطنية . وتحديد ما إذا كان قد ارتكب انتهاكا للسلام يلزمه مؤسسة دولية ، عرّفها ويلسون بأنها عصبة الأمم .

والغريب أن فكرة تلك المنظمة ظهرت أولا في لندن وكانت منذ ذلك الوقت هي معقل دبلوماسية ميزان القوى . ولم يكن الدافع لها هو محاولة خلق نظام عالمي جديد بل هو بحث بريطانيا عن سبب وجيه لدخول أمريكا حربا فى ظل النظام العالمى القديم . وفي شهر سبتمبر عام ١٩١٥ في ابتعاد ثوري عن الممارسات البريطانية كتب وزير الخارجية جراى إلى كولونيل هاوس House وهو رجل وثيق الصلة بويلسون عن اقتراح قال عنه أنه يعتقد أن رئيس أمريكا المثالي لا يمكن أن يرفضه.

وتساءل جراي إلى أي مدي يمكن أن يهتم الرئيس بعصبة للأمم تلزم نفسها بتنفيذ نزع السلاح وبالتسوية السلمية للمنازعات.

هل يقترح الرئيس أنه يجب أن تكون هناك عصبة للأمم تلزم نفسها بالوقوف ضد أي دولة تنتهك معاهدة ما.. أو ترفض في حالة النزاع ، أن تنتهج أسلوبا آخر لتسوية النزاع غير الحرب ؟

لم يكن من المحتمل أن تكون بريطانيا العظمي التي ظلت طيلة ٢٠٠ عام تبتعد عن الأحلاف مفتوحة العضوية ، قد غيرت موقفها فجأة وأصبحت تفضل التعهدات مفتوحة العضوية على نطاق عالمي . ومع ذلك فإن تصميم بريطانيا العظمى على أن تتغلب على التهديد الفوري لألمانيا كان تصميما قويا للغاية لدرجة أن وزير خارجيتها أقدم بنفسه على عرض مبدأ الأمن الجماعي وهو أكثر التعهدات مفتوحة العضوية تصورا . وسيكون على كل عضو في المنظمة العالمية المقترحة أن يلتزم بمقاومة العدوان في أي مكان ومن أية جهة وأن يعاقب الأمم التي ترفض التسوية السلمية للمنازعات .

كان جراى يعرف هذا الرجل. فمن أيام شبابه كان ويلسون يعتقد أن المؤسسات الفيدرالية الأمريكية يجب أن تكون نموذجا «لبرلمان للبشر» في النهاية. وفي بداية فترة رئاسته كان بالفعل يتحرى عن ميثاق خاص بجميع بلدان أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية أو جميع شعوبها حتى يكون لنصف الكرة الغربي . ولا يمكن أن يكون جراى قد دهش – رغم أنه بالتأكيد قد شعر بالرضاء – عندما تلقى ردا سريعا يتفق – لو تأمل ما مضى – مع تلميحه الصريح الواضح .

وربما كانت تلك الرسائل أول بادرة تشير إلى «العلاقة الخاصة» بين أمريكا وبريطانيا العظمي التي ستمكن بريطانيا العظمي من المحافظة على نفوذ فريد من نوعه في واشنطن بعد فترة طويلة من انهيار قوتها في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وثمة لغة مشتركة وتراث ثقافي امتزجا بحساسية عظيمة ساعدت القادة البريطانيين على الزج بأفكارهم في عملية صنع القرار الأمريكي بصورة جعلت الأمور تبدو وكأنهم جزء ينتمي إلى واشنطن . ولذلك فعندما قدم ويلسون في شهر مايو ١٩١٦ لأول مرة مشروعه الخاص بمنظمة عالمية كان بلا شك مقتنعا أنها كانت فكرته هو . وكانت فعلا فكرته إلى حد ما، حيث إن جراى كان قد اقترح فكرتها وهو يدرك تماما ما يمكن أن يقتنع به ويلسون .

وبغض النظر عن آباء عصبة الأمم الأصليين فقد كانت العصبة فكرة أمريكية محضة. فه تصوره ويلسون هو «اتحاد عالمي للأمم للمحافظة علي طرق أعالي البحار سليمة آمنة لك تستخدمها جميع دول العالم دون أن يعوقها شيء ولمنع بدء أي حرب تكون متناقضة م نصوص معاهدات أو تشن بدون إنذار وعرض الأسباب الكاملة لذلك على الرأي العالمي ويعتبر ذلك ضمانا فعليا لسيادة الدول علي أراضيها واستقلالها السياسي.

وفي البداية ، امتنع ويلسون عن عرض مساهمة أمريكا في هذا «الاتحاد العالمي» . وأخي في يناير ١٩١٧ اتخذ الخطوة وأيد عضوية أمريكا في العصبة ومن الغريب إلى حد مذهل أ استخدم في ذلك مبدأ مونرو كنموذج :

إني أقترح، أن تتبنى الأمم باتفاق واحد فيما بينها مبدأ الرئيس مونرو كمبدأ للعالم : ا المبدأ يتلخص فى ألا تسعي أي أمة إلى فرض حكمها على أي أمة أخرى أو شعب آخر ... و

تتجنب الأمم جميعا من الآن فصاعدا الأحلاف المعقدة التي قد تجرهم إلى منافسات القوة .

والأرجح أن المكسيك دهشت عندما علمت أن رئيس البلد الذي استولى على ثلث أراضيها في القرن التاسع عشر وأرسل قواته إلى المكسيك في السنة التالية يتقدم الآن بمبدأ مونرو كضمان لسيادة الدول الشقيقة على أراضيها وكمثال كلاسيكي على التعاون الدولي .

ولم تصل مثالية ويلسون إلى حد جعله يؤمن بأن آراءه سوف تنتشر في أوروبا بناء على المزايا التي تنطوي عليها . وقد بين أنه علي استعداد تام لأن يدعم الرأي بالضغط . فبعد قليل من دخول أمريكا الحرب في عام ١٩١٧ كتب إلى الكولونيل هاوس يقول : «عندما تنتهي الحرب يمكننا أن نرغمهم على أن يتبعوا أفكارنا لأنهم في ذلك الوقت ، سيكونون ماليا بين أيدينا وهذا من بين أمور أخرى». وفي ذلك الوقت تباطأ كثير من الحلفاء في ردهم على فكرة ويلسون . ورغم أنهم لم يتمكنوا من إقناع أنفسهم بالموافقة على آراء تتعارض مع تقاليدهم فقد كانوا أيضا يحتاجون أمريكا إلى حد كبير جدا فلا يمكنهم الإعلان عن تحفظاتهم .

وفي أواخر عام ١٩١٧ بعث ويلسون بهاوس كي يسأل الأوروبيين أن يصوغوا أهدافهم الحربية التي تعكس صورة هدفه المعلن لتحقيق السلام دون استيلاء على الأراضى أو المطالبة بتعويضات فى حماية سلطة عالمية . وظل ويلسون عدة شهور ممتنعا عن تقديم آرائه الخاصة لأنه كما أوضح لهاوس ، أن فرنسا وإيطاليا قد تعترضان إذا أعربت أمريكا عن شكوكها فى عدالة مطامحهم الإقليمية.

وأخيرا في ٨ يناير ١٩١٨، واصل ويلسون المضي فى الطريق بنفسه. بفصاحة غير عادية قدم أهدافه الحربية أمام جلسة مشتركة للكونجرس، في أربع عشرة نقطة مقسمة إلى جزءين. ووصف ثمانى عشرة نقطة منها بأنها نقط إلزامية بمعنى أنها لا بد أن تنفذ. وتضمنت تلك النقاط الدبلوماسية الصريحة ، حرية الملاحة في البحار ، نزع السلاح العام، إزالة الحواجز التجارية، التسوية غير المتحيزة للمطالب الاستعمارية ، إحياء بلجيكا ، الجلاء عن الأراضي الروسية، وإنشاء عصبة الأمم .

وقدم ويلسون النقاط الست الباقية والتي كانت محددة بقدر أكبر مع بيان قال فيه أنها يستحسن وليس من الضرورة الشديدة أن تتحقق لأنها وفقا لرأيه نقاط ليست أساسية إلى حد كبير . ومما يثير الدهشة أن استعادة فرنسا لإقليم الألزاس واللورين كانت من بين النقاط غير الملزمة رغم أن العزم على استعادة ذلك الإقليم سيطر علي السياسة الفرنسية طيلة نصف قرن وكان السبب في تضحيات غير مسبوقة في الحرب. وهناك أهداف «مرغوب فيها» وصفت بأنها الحكم الذاتي للأقليات في الإمبراطورية المجرية – النمساوية والإمبراطورية العثمانية، وتعديل حدود إيطاليا، والجلاء عن البلقان ، وتدويل الدردنيل ، وإنشاء دولة بولندا المستقلة ذات المنافذ علي البحر. هل كان ويلسون يعني ضمنا أن تلك الشروط الستة خاضعة للمساومة. فوصول بولندا إلى البحر وتعديل حدود إيطاليا أمور لا شك سيكون من الصعب التوفيق بينها

وبين مبدأ حق تقرير المصير ولذلك فهي أول المثالب في التناسق المعنوي لخطة ويلسون .

وقد اختتم ويلسون عرضه هذا بنداء وجهه إلى ألمانيا باسم روح التصالح التي ستستعين بها أمريكا في بناء نظام عالمي جديد – وهذا اتجاه يتعارض مع أهداف أمريكا من الحرب.

إننا لانحقد عليها بسبب أي إنجاز أو تميز في العلم أو مشاريع بعينها جعلت سجلها مشرفا للغاية وتحسد عليه. إننا لا نريد بأي حال أن نلحق بها أي أذى أو نعرقل نفوذها أو قوتها . ولا نريد كذلك أن نحاربها سواء بالسلاح أو بالترتيبات التجارية العدوانية إذا كانت على استعداد للاشتراك معنا ومع الأمم الأخرى المحبة للسلام في مواثيق للعدالة والقانون والتعامل المنصف. إننا نريد منها فقط أن تقبل مكانا تكون متساوية فيه مع شعوب العالم.

لم يحدث في العالم من قبل أن قدمت مثل تلك الأهداف الثورية بتلك القلة من الخطوط الإرشادية لتنفيذها . إن العالم الذي تصوره ويلسون عالم يقوم على أساس المبدأ وليس على أساس القوة ، على أساس القانون وليس المصلحة – لكل من المنتصر والمهزوم . ؛ وهذا بمعنى آخر انقلاب تام للتجربة التاريخية وأسلوب عمل الدول الكبرى . والرمز لهذا كان هو الطريقة التي وصف بها ويلسون دوره ودور أمريكا في الحرب . لقد انضمت أمريكا إلى – ما فضل ويلسون أن يسميه «جانب واحد» – بسبب بغضه لكلمة حليف – في حرب من أكثر الحروب ضراوة في التاريخ ، وكان ويلسون يتصرف وكأنه الوسيط الرئيسي في الموضوع. ويبدو مما كان ويلسون يقول أن الحرب لم تنشب لتحقيق أوضاع معينة بل لخلق اتجاه معين في ألمانيا . ولذلك فقد كانت الحرب حربا حول اعتناق مبادئ جديدة وليست حربا بسبب اعتبارات جغرافية سياسية .

وفى خطاب له في دار النقابات المهنية في ١٨ ديسمبر عام ١٩١٨ بعد الهدنة ، أدان ويلسون بصراحة ميزان القوى وقال أنه ميزان ليس فيه استقرار ويقوم على أرق سببه الغيرة وعلي عداوة سببها تضارب المصالح»:

لقد حاربوا (أى جنود الحلفاء) للتخلص من نظام قديم وإقامة نظام جديد . وكان مركز النظام القديم وخاصيته هو ما اعتدنا أن نسميه «ميزان القوى» – فقد كان الميزان يتحقق بالسيف الذي كان يوجد بكثرة في جانب أو آخر ، وهو ميزان كان يتحدد بالتوازن المتقلب للمصالح المتنافسة ... إن الرجال الذين شاركوا في هذه الحرب هم رجال من الأمم الحرة التي أصرت على أن ينتهي هذا التوازن الآن وإلى الأبد.

لاشك أن ويلسون كان محقا فيما يتعلق بالأمم الأوروبية التي عبثت بكل شيء . لم يكن الأمر يرجع إلى ميزان القوى بل كان يرجع بقدر أكبر إلى تخلى أوروبا عن العمل به مما تسبب في الكارثة التي لحقت بالعالم . لقد أهمل قادة أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى ميزان القوى التاريخي وتخلوا عن التعديلات الدورية الأمر الذي تسبب فى عدم الحسم النهائي للأمور .لقد جاءوا بعالم ذي قطبين أقل مرونة عن عالم الحرب الباردة التى نشبت فيما بعد،

لأنه افتقر إلى عناصر الخطر العنيفة التي تميز بها العصر النووي. ورغم أن القادة الأوروبيين كانوا يمتدحون التوازن شفويا إلا أنهم اهتموا بأكثر العناصر وطنية للرأي العام في بلادهم. ولم تسمح ترتيباتهم السياسية أو العسكرية بأية مرونة ؛ ولم يكن هناك صمام أمان بين الوضع الراهن وبين اشتعال الحريق . وقد أدى ذلك إلى نشوب الأزمة التي لم يمكن تسويتها كما أدى إلى أوضاع عامة لم تسمح في النهاية بأي تراجع .

وقد حدد ويلسون بدقة بعض التحديات الأساسية للقرن العشرين – وخاصة كيف توضع القوة في خدمة السلام . ولكن حلوله كثيرا ما عقدت المشاكل التي حددها . فقد أرجع التنافس بين الدول أساسا إلى غياب حق تقرير المصير وإلى دوافع اقتصادية . غير أن التاريخ بين أسبابا أخرى كثيرة للتنافس أبرزها المبالغة في النزعة الوطنية ، وتأليه الحاكم أو الزمرة الحاكمة. وكان ويلسون احتقارا منه لتلك الدوافع مقتنعا بأن انتشار الديمقراطية سوف يقتل هذه الدوافع وسوف يحول تقرير المصير دون التركيز عليها .

وقد افترض ويلسون مقدما من أجل علاج مسألة الأمن الجماعي أن تتحد أمم العالم ضد العدوان ، والظلم ، وعلى الأرجح الأنانية المبالغ فيها . وفي خطاب له أمام مجلس الشيوخ الأمريكي في عام ١٩١٧ أكد ويلسون أن إقرار الحقوق المتساوية بين الدول سوف يكون بمثابة الشرط الأساسي المسبق للمحافظة علي السلم عن طريق الأمن الجماعي بغض النظر عن القوة التي تمتلكها كل أمة .

الحق يجب أن يقوم على القوة العامة للدول التي سيعتمد عليها سلمها العام وليس على القوة الفردية. ولا يمكن أن تكون هناك مساواة في الأرض أو الموارد، أو أي نوع آخر من المساواة لا يكتسب عن طريق التطور العادي السلمي الشرعي للشعوب نفسها . غير أنه ليس هناك من يطلب أكثر من المساواة في الحقوق. إن الجنس البشري ينظر قدما الآن إلى الحرية فى الحياة وليس إلى توازن القوة.

كان ويلسون يقترح نظاما عالميا تكون فيه مقاومة العدوان على أساس اعتبارات أخلاقية وليس على أساس اعتبارات جغرافية سياسية. إن الأمم سوف تسأل نفسها ما إذا كان العمل يوصم بأنه ظالم ولن تسأل نفسها ما إذا كان العمل مصدرا للتهديد. ورغم أن حلفاء أمريكا كانوا لا يثقون كثيرا في تلك التفسيرات الجديدة فقد شعروا بأنهم ضعفاء بحيث لا يقدرون على الاعتراض عليها. فقد كان حلفاء أمريكا يعرفون أو تصوروا أنهم يعرفون حساب التوازن المبني على القوة ، وكانوا لا يثقون في أنهم أو أي آخرين غيرهم يعرفون كيف يقيّمون التوازن على أساس تعاليم أخلاقية .

وقبل دخول أمريكا الحرب لم تكن الديمقراطيات الأوروبية تجرؤ على أن تعرب علنا عن شكوكها في أفكار ويلسون وقد بذلت تلك الديمقراطيات كل المحاولات لجذب ويلسون إليها بمسايرته. وفي الوقت الذي انضمت فيه أمريكا فعلا إلى الحلفاء كانوا يائسين. ولم تكن قوات

الحلفاء، بريطانيا العظمي وفرنسا وروسيا كافية للتغلب على ألمانيا ، وفي أعقاب الثورة الروسية خاف الحلفاء من ألا يؤدي دخول أمريكا الحرب إلى أكثر من التعويض عن الانهيار الروسي . وقد أوضحت معاهدة بريست – ليتوفيسك Brest - Litovsk مع روسيا ما كان فى ذهن الألمان من مصير للمهزومين. فالخوف من انتصار ألمانيا منع بريطانيا العظمي وفرنسا من بحث أهداف الحرب مع شريكهم الأمريكي المثالي .

وبعد الهدنة وجد الحلفاء أنفسهم في موقف أفضل لكي يعربوا عن تحفظاتهم . ولم تكن تلك هي المرة الأولي التي يتقيد فيها حلف أوروبي أو يتحطم في أعقاب النصر (فعلي سبيل المثال ، دخل مؤتمر فيينا وهو المؤتمر الذي وضع أسس الدبلوماسية الحديثة ، مرحلة هدد فيها المنتصرون بعضهم بالحرب). ومع ذلك فإن المنتصرين في الحرب العالمية الأولى كانوا قد استنزفوا بسبب تضحياتهم وكانوا مازالوا معتمدين على العملاق الأمريكي لدرجة أنهم لم يتمكنوا من المخاطرة بإجراء حوار معه أو بانسحابه من التسوية السلمية .

وكان هذا صحيحا بصفة خاصة بالنسبة لفرنسا التي وجدت نفسها في ذلك الوقت في موقف مأساوي حقيقي . لقد ظلت طيلة قرنين تكافح من أجل السيطرة على أوروبا ، ولكنها في أعقاب الحرب لم يعد لديها الثقة في قدرتها على حماية حتى حدودها الخاصة ضد عدو منهزم . وقد شعر القادة الفرنسيون غريزيا أن احتواء ألمانيا كان بعيدا عن قدرة مجتمعهم المخرب . لقد أنهكت الحرب فرنسا وكان يبدو أن السلام يثير هواجس تنبئ بمزيد من الكوارث. إن فرنسا التي كافحت من أجل بقائها تصارع الآن من أجل استعادة هويتها . وفرنسا لم تجرؤ على الوقوف وحدها ورغم ذلك فإن أقوى حلفائها يقترح أن يقوم السلام على أساس مبادئ حولت الأمن إلى عملية قضائية .

وقد جعل النصر فرنسا تدرك أن الانتقام كلفها كثيرا . وقد علمت فرنسا وحدها كم أصبحت ضعيفة مقارنة بألمانيا رغم أنه لم يكن هناك آخرون وخاصة أمريكا، على استعداد لأن يصدقوا ذلك. ولهذا ففي عشية النصر بدأ حوار أمريكي فرنسي عمل على التعجيل بإضعاف معنويات فرنسا . ومثل إسرائيل في العصر الحديث ، أخفت فرنسا قلة حصانتها بالغضب السريع وأخفت رعبها الأولي بالعناد . ومثل إسرائيل في العصر الحديث وقفت معرضة لخطر العزلة الدائم .

ورغم أن حلفاء فرنسا أصروا على أن خوفها مبالغ فيه إلا أن القادة الفرنسيين كانوا يعرفون الحقيقة. ففي عام ١٨٨٠ كان الفرنسيون يمثلون ١٥,٧ في المائة من سكان أوروبا. وفي عام ١٩٠٠ انخفض هذا الرقم إلى ٩,٧ في المائة . وفي عام ١٩٢٠ وصل تعداد فرنسا إلى ٤١ مليون نسمة بينما كان تعداد ألمانيا ٦٥ مليون نسمة مما دعا السياسي الفرنسي برايناد Briand إلى الرد على الناقدين لسياسة الاسترضاء التي انتهجها مع ألمانيا قائلا إنه ينتهج السياسة الخارجية التي يمليها معدل مواليد فرنسا .

لقد كان معدل الانهيار النسبي لاقتصاد فرنسا أكثر من ذلك بكثير. ففي عام ١٨٥٠ كانت فرنسا أكبر دولة صناعية في أوروبا. وفي عام ١٨٨٠ زاد إنتاج ألمانيا من الصلب والفحم والحديد عن إنتاج فرنسا. وفي عام ١٩١٣ أنتجت فرنسا ٤١ مليون طن من الفحم بينما وصل إنتاج ألمانيا من الفحم إلى ٢٧٩ مليون طن وفي أواخر الثلاثينيات ازداد الفارق إلى ٤٧ مليون طن تنتجها فرنسا و٣٥١ مليون طن تنتجها ألمانيا.

وكانت القوة الباقية للعدو المهزوم علامة على الفارق الرئيسي بين النظام الدولي في ما بعد فيينا والنظام الدولي فيما بعد فرساى، والسبب وراء ذلك هو عدم وحدة المنتصرين بعد فرساى. والذى هزم نابليون ائتلاف من الدول وكان الأمر يحتاج إلى ائتلاف من الدول للتغلب على ألمانيا. وحتى بعد الهزيمة فإن كلا من المنهزمين – فرنسا في ١٨١٥ وألمانيا في ١٩١٨ ظلا أقوياء بدرجة تكفي للتغلب على أى من أعضاء الائتلاف بمفرده وربما كان يستطيع أى منهما التغلب على اثنين من أعضاء التحالف معا. وكان الفارق هو أنه في عام ١٨١٥ ظل صانعو السلام في مؤتمر فيينا متحدين وشكلوا الحلف الرباعي – وهو حلف كبير مكون من أربع دول يمكنه أن يسحق أية أحلام تعديلية (التعديليون أعضاء حركات تطالب بتعديل المعاهدات والمذاهب). وفي الفترة التي أعقبت معاهدة فرساى لم يظل المنتصرون متحالفين، وقد انسحبت أمريكا والاتحاد السوفيتي تماما وكان موقف بريطانيا العظمى غامضا فيما يتعلق بفرنسا.

ولم تدرك فرنسا إلا بعد في الفترة التي أعقبت فرساى أن هزيمتها على يد ألمانيا في عام ١٨٧١ لم تكن أمرا شاذا. وكانت الطريقة الوحيدة التي يمكن لفرنسا بها أن تحافظ وحدها على التوازن مع ألمانيا هي تقسيم ألمانيا إلى الولايات المكونة لها ربما بإعادة إنشاء الاتحاد الفيدرالي الألماني الذي كان موجودا في القرن التاسع عشر. والواقع أن فرنسا تابعت تماما تحقيق هذا الهدف بأن شجعت النزعة الانفصالية في إقليم الراين وباحتلال مناجم سار Saar للفحم.

وكانت هناك عقبتان على أية حال تقفان في طريق تجزئ ألمانيا. وبالنسبة لواحدة من هاتين العقبتين كان بسمارك قد بني ألمانيا بناء عظيما. فقد حافظت ألمانيا، التي ساعد بسمارك علي قيامها على إحساسها بالوحدة خلال هزائم لحقت بها في حربين عالميتين، كما حافظت على هذا الإحساس أثناء الاحتلال الفرنسي لمنطقة الروهر Ruhr عام ١٩٢٣ وأثناء احتلال الاتحاد السوفيتي لألمانيا الشرقية وتحويلها إلى دولة دائرة في فلكه طيلة جيل بعد الحرب العالمية الثانية. وعندما سقط حائط برلين في عام ١٩٨٩ داعبت الرئيس الفرنسي ميتران Miterrand لفترة قصيرة فكرة تعاون فرنسا مع جورباتشوف لعرقلة الوحدة الألمانية. غير أن جورباتشوف كان مشغولا للغاية بمشاكله الداخلية فلم يكن يستطيع القيام بمثل تلك المغامرة ولم تكن فرنسا قوية بدرجة تمكنها من القيام بها وحدها.

وثمة ضعف فرنسي مماثل كان قد حال دون تقسيم ألمانيا في عام ١٩١٨. وحتى لو كانت فرنسا قادرة على القيام بتلك المهمة فإن حلفاءها وخاصة أمريكا لن يسمحوا بمثل هذا الاعتداء السافر على مبدأ تقرير المصير. ولم يكن ويلسون أيضا على استعداد لأن يصر على تحقيق سلام بالمصالحة. وفي النهاية وافق علي شروط عقابية تتعارض مع المعاملة العادلة التي وعد بها في النقاط الأربع عشرة.

لقد اتضح أن محاولة التوفيق بين النزعة المثالية الأمريكية وكوابيس فرنسا تفوق براعة الإنسان.

وقد تبادل ويلسون تعديل النقاط الأربع عشرة بإنشاء عصبة الأمم التي كان ينظر إليها لعلاج أي شكوى شرعية تبقت بعد معاهدة الصلح. ووافقت فرنسا علي عدد أقل بكثير من الإجراءات العقابية عندما رأت أنه يتفق مع تضحياتها على أمل أن تتوصل إلى الحصول على التزام أمريكي طويل الأجل لضمان الأمن الفرنسي. وفي النهاية لم يتمكن أي بلد من تحقيق ما كان يرمي إليه. فلم تصبح فرنسا آمنة وانسحبت الولايات المتحدة من التسوية.

وقد كان ويلسون نجم مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس في الفترة ما بين يناير ويونيو عام ١٩١٩ وفي الأيام التي كان فيها السفر إلى أوروبا يستغرق أسبوعا بالسفن، حذر كثيرون من مستشاري ويلسون من أن الرئيس الأمريكي لا يمكنه أن يظل بعيدا عن واشنطن لعدة شهور متصلة. والواقع أنه في فترة غياب ويلسون تضاءلت قوته في الكونجرس وكان لذلك ثمن كبير عندما بدأ الاستعداد للتوقيع على معاهدة الصلح. وبغض النظر عن تغيب ويلسون عن واشنطن فإنه من الخطأ دائما بالنسبة لرؤساء الدول أن يتولوا بأنفسهم التفاوض حول تفاصيل أي اتفاق. إذ أنهم عندئذ يكونون مضطرين لمعرفة دقائق وتفاصيل عادة ما تكون علي علم بها وزارة الخارجية التابعين لها ويواجهون موضوعات تناسب مرءوسيهم بينما تحجب عنهم موضوعات لايسويها إلا رؤساء الدول. ولما كان أعلى المناصب لايصل إليها أحد بدون أن يكون ذا نفسية متطورة فإن التسويات تكون صعبة والمأزق خطيرة. ولما كانت وظائف المتحدثين بأسماء الدول تعتمد فى أقل تقدير على المظهر الخارجي للنجاح فالمفاوضات كثيرا ما تتركز حول إضفاء صفة باهتة على الخلافات وعدم معالجة لب المشكلات.

وقد ثبت أن هذا كان مصير ويلسون في باريس. فبمرور كل شهر كان ينغمس بعمق أكثر في مساومات حول تفاصيل لم تكن تهمه أبدا من قبل. وكلما طال بقاؤه كلما تغلب الإحساس بأهمية تسوية الأمور على الرغبة في إقامة نظام دولي جديد. وأصبحت النتيجة النهائية أمرا حتميا بسبب الإجراء الذي اتبع في التفاوض حول معاهدة الصلح. لأن وقتا غير مناسب أنفق في تسوية مسائل إقليمية وقد ظهرت عصبة الأمم كآلة من عند الآلهة لكي تسوي فيما بعد الفجوة الآخذة في الاتساع بين مطالب ويلسون الأخلاقية والشروط الفعلية للتسوية.

وكان دافيد لويد جورج David Lloyd George الوزير الزئبقي الذي مثل بريطانيا العظمى في الحملة الانتخابية التي دارت فورا قبل المؤتمر، قد وعد أن ألمانيا سترغم على دفع كل تكاليف الحرب كاملة و«أننا سنفتش جيوبهم من أجل هذا»، غير أنه عندما واجه ألمانيا المتفجرة وفرنسا المضطربة ركز على المناورة بين كليمنسو Clemenceau وويلسون . وفي النهاية وافق علي الشروط العقابية ولجأ إلى عصبة الأمم بوصفها الآلة التى يمكن بها فيما بعد حسم المظالم .

وقد دافع عن وجهة نظر فرنسا الرجل المرتعب العجوز الذي يخشى المعارك كل خشية جورج كليمنسو الذي سمي «بالنمر» وكان محاربا قديما مر بعقود من المعارك الداخلية ابتداء من الإطاحة بنابليون حتى تبرئة كابتن درايفوس . ومع ذلك ففي مؤتمر باريس حدد لنفسه مهمة أكبر من قدراته الضارية . فحاول التوصل إلى صلح من شأنه أن يقضي بطريقة ما على ما أنجزه بسمارك ويؤكد دبلوماسية ريشيليو الأنيقة في أوروبا غير أنه تجاوز ما يمكن أن يتحمله النظام الدولي والواقع أنه تجاوز ما يتحمله مجتمعه هو . وببساطة فإنه لا يمكن إعادة الساعة إلى الوراء ١٥٠ عاما . فلم تكن هناك أمة أخرى شاركت فرنسا أهدافها أو حتي فهمتها فهما كاملا . وقد ثبت أن خيبة الأمل هي قدر ريشيليو وتدمير الحالة المعنوية هو مستقبل فرنسا .

لقد مثل فيتوريو أورلاندو Vitorio Orlando رئيس وزراء إيطاليا آخر «الأربعة الكبار» ورغم أنه ظهر بمظهر رائع إلا أن سيدنى سونينو Sidney Sonnino وزير خارجيته النشيط كثيرا ما كان يطغى عليه . وقد اتضح أن المفاوضين الإيطاليين ذهبوا إلى باريس لجمع غنائمهم وليس لوضع تصميم لنظام عالمي جديد . وكان الحلفاء قد أقنعوا إيطاليا بدخول الحرب بأن وعدوها في معاهدة لندن عام ١٩١٥ بالحصول على التيرول الجنوبي South Tyrol وساحل دالماتيا. Dalmatian Coast ولما كان التيرول الجنوبي ألمانيا نمساويا وكان ساحل دالماتيا سلافيا ، فإن مطالب إيطاليا كانت تتعارض تعارضا تاما مع مبدأ تقرير المصير . ومع ذلك فإن أورلاندو وسينونو وضعا المؤتمر في ورطة حتى أنه وافق في غضب تام على أن يؤول التيرول الجنوبي (وليس ساحل دالماتيا) إلى إيطاليا. وقد بينت هذه «التسوية» أن النقاط الأربع عشرة لم تكن منقوشة على الحجر وفتحت بوابات الأنهار علي كثير من التسويات الأخرى التي كانت جميعها ضد المبدأ السائد لتقرير المصير بدون أن تحسن من ميزان القوى القديم أو تستحدث ميزانا جديدا .

وعلى عكس مؤتمر فيينا فإن مؤتمر الصلح في باريس لم تحضره الدول المهزومة . ونتيجة لذلك فإن شهور المفاوضات ألقت بالألمان وراء حجاب قاتم من عدم اليقين شجع على الأوهام الخادعة . وكان الألمان كأنهم حفظوا نقاط ويلسون الأربع عشرة عن ظهر قلب ورغم أن برنامجهم للسلام كان يمكن أن يكون برنامجا قاسيا إلا أنهم خدعوا أنفسهم بأن

اعتقدوا أن تسوية الحلفاء النهائية ستكون معتدلة نسبيا. لذلك فعندما أفصح صانعو السلام عن مخططاتهم في شهر يونيو سنة ١٩١٩ صدم الألمان وعملوا طوال عقدين من الزمان بصفة مستمرة على تقويض تلك التسوية .

وقد هاجمت روسيا في أيام لينين – وهي دولة لم تدع أيضا لحضور المؤتمر – المشروع كله علي أساس أنه حفل رأسمالي ماجن نظمته بلدان هدفها النهائي هو التدخل في الحرب الأهلية في روسيا . وهكذا حدث أن الصلح الذي أنهي الحرب التي تعتبر نهاية لكل الحروب لم يشمل أقوى دولتين في أوروبا – ألمانيا وروسيا – اللتين تضمان أكثر من نصف تعداد سكان أوروبا وهما أيضا أقوى الدول الأوروبية عسكريا . وهذه الحقيقة وحدها كان يمكن أن تتسبب في إخفاق تسوية فرساي.

وحتى إجراءات المؤتمر لم تشجع الاتجاه نحو التوصل إلى تسوية . كان الأربعة الكبار – ويلسون وكليمنسو ولويد جورج وأورلاندو – هي الشخصيات المسيطرة في المؤتمر غير أنهم لم يتمكنوا من التحكم في الإجراءات بنفس الطريقة التي سيطر فيها وزراء الدول الكبرى على مؤتمر فيينا منذ مائة سنة قبل ذلك . لقد ركز المتفاوضون في فيينا اهتمامهم قبل كل شيء على إقامة ميزان جديد للقوى التي شكلت خطة بيت تصميما عاما له .

لقد تحول انتباه القادة في باريس دائما إلى سلسلة لاتنتهي من المسائل الثانوية .

دعيت إلى حضور المؤتمر سبع وعشرون دولة . وكانت النظرة إلى المؤتمر هي أنه منبر لكافة شعوب العالم غير أنه تحول في النهاية إلى حفل مجاني للجميع . وكان المجلس الأعلى المكون من رؤساء حكومات بريطانيا العظمي وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة هو أعلى مرتبة بين اللجان والأقسام العديدة التي تكون منها المؤتمر . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك مجلس الخمسة وهو مكون من المجلس الأعلى علاوة علي رئيس حكومة اليابان ، ومجلس العشرة الذي كان يضم مجلس الخمسة ووزراء خارجيتهم . وكان لمندوبي البلدان الأصغر حرية الكلام أمام المجموعات الأكثر امتيازا عن مشاكلهم المختلفة . وقد بين ذلك الطبيعة الديمقراطية للمؤتمر غير أن ذلك الأمر كان يبدد وقتا طويلا للغاية .

ولما لم يكن جدول أعمال قد ووفق عليه قبل انعقاده فكانت الوفود تصل إلى مكان انعقاد المؤتمر وهي لا تعلم الترتيب الذي ستناقش به الموضوعات . ولذلك انتهي مؤتمر باريس بأن تشكلت فيه أكثر من ثمان وخمسين لجنة مختلفة . معظمها كان يعالج مشكلات إقليمية . وأنشئت لجنة منفصلة لكل بلد . وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك لجان تبحث مسائل آثام الحرب ومجرمي الحرب كما تبحث تعويضات الحرب والموانئ والطرق البحرية والسكك الحديدية والعمال وأخيرا مسألة عصبة الأمم . وبلغ عدد الجلسات التي عقدها أعضاء لجان المؤتمر ١٦٤٦ جلسة .

وقد أخفت المناقشات التي لا تنتهي حول القضايا الخارجية الحقيقة الأساسية وهي أنه لكي يستقر السلام فإن التسوية يجب أن يكون لها مفهوم يسيطر على كل المفاهيم الأخرى

– وتكون هناك بصفة خاصة رؤية بعيدة الأمد بشأن دور ألمانيا في المستقبل . ومن الناحية النظرية فإن المبادئ الأمريكية للأمن الجماعي وتقرير المصير هي التي يجب أن تلعب هذا الدور . ومن الناحية العملية فإن الموضوع الحقيقي في المؤتمر ، وهو موضوع ثبت أنه لا يمكن حله، هو الفوارق بين المفهوم الأمريكي للنظام الدولي ومفهوم الأوروبيين وخاصة الفرنسيين . وقد رفض ويلسون الفكرة القائلة إن النزاعات الدولية لها أسباب تتعلق بالبنية السياسية أو الاقتصادية . وانطلاقا من تصور ويلسون بأن التوافق أمر طبيعي فقد كافح من أجل قيام مؤسسات من شأنها أن تقضي على وهم تصادم المصالح وتتيح للإحساس الكامن لدى المجتمع العالمي أن يؤكد نفسه .

ولم يمكن إقناع فرنسا التي كانت مسرحا لكثير من الحروب الأوروبية وكانت هي ذاتها مشاركا في تلك الحروب ، بأن المصالح الوطنية المتضاربة مسألة وهمية ، أو بأن هناك توافقا مبهما خفيا عن الجنس البشري . إن الاحتلال الألماني مرتين خلال خمسين عاما جعل فرنسا تخاف خوفا شديداً من احتمال تعرضها لجولة من الاعتداءات . إنها تريد الحصول على ضمانات ملموسة لأمنها وتترك مسألة تحسين أخلاق البشر ليقوم بها آخرون . غير أن الضمانات الملموسة تشمل ضمنا إما أن تضعف ألمانيا أو أن يكون هناك ضمان بأنه في حالة نشوب حرب أخرى فإن دولا أخرى خاصة بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ستقف إلى جانب فرنسا .

ولما كانت أمريكا تعارض تمزيق ألمانيا ، وكان الأمن الجماعي أمرا غامضا جدا على فرنسا فإن الحل الوحيد المتبقي لمشكلتها هو تعهد بريطاني أمريكي بالدفاع عنها . وهذا هو على وجه التحديد ما كانت البلدان الأنجلو سكسونية ترفض بشدة تقديمه . ولما لم تكن هناك تلك الضمانات فإن فرنسا تحولت إلى دولة تبحث عن الحيل . لقد تولت الجغرافيا حماية أمريكا وأدى استسلام الأسطول الألماني إلى إزالة قلق بريطانيا فيما يتعلق بالسيطرة على البحار . وكانت فرنسا هي الوحيدة بين المنتصرين التي طلب منها أن يكون أمنها متوقفا على الرأي العالمي . قال أندريه تارديو Andre Tardieu أحد المفاوضين الفرنسيين الرئيسيين في المؤتمر:

إنه من الضروري بالنسبة فرنسا ، كما هو بالنسبة أيضا لبريطانيا العظمى والولايات المتحدة أن تكون هناك منطقة أمان ... وهذه المنطقة تقيمها الدول البحرية بأساطيلها وبالقضاء على الأسطول الألماني ، وهذه المنطقة يجب على فرنسا التي لا تحميها المحيطات ولا تستطيع القضاء على ملايين الألمان الذين دربوا للحرب ، أن تقيمها إلى جانب نهر الراين باحتلال مشترك بين الحلفاء لهذا النهر .

ومع ذلك فإن مطالب فرنسا بفصل إقليم الراين عن ألمانيا كانت ضد اعتقاد أمريكا بأن «مثل هذا السلام سوف يتم بطريقة تتعارض تماما مع كل شيء أيدناه ». وقال الوفد

الأمريكي إن فصل إقليم الراين عن ألمانيا ووضع قوات الحلفاء هناك سوف يسفر عن شكوى دائمة من جانب ألمانيا . وقال فيليب كير Philip Kerr وهو مندوب بريطاني لترادير إن بريطانيا العظمى تعتقد أن ولاية مستقلة في الراين ستكون مصدر تعقيدات وضعف ... فإذا وقعت منازعات محلية فإلى أين سيؤدى ذلك ؟ وإذا نشبت حرب بسبب تلك المنازعات فلا إنجلترا ولا المناطق التابعة لها سيكون لديها هذا الشعور العميق بالتضامن مع فرنسا التي شجعتهم في الحرب الأخيرة .

وكان قلق القادة الفرنسيين إزاء الشكوى الألمانية في المستقبل أقل من قلقهم من قوة ألمانيا القصوى وقال ترادير متمسكا برأيه:

أنت تقول إن إنجلترا لا تحب أن تستخدم القوات البريطانية في مناطق بعيدة عن وطنها . إنها قضية تتعلق بالحقيقة . لقد كان لانجلترا دائما قوات في الهند ومصر . لماذا؟ لأنها تعرف أن حدودها لاتنتهي عند دوفر ... أن تطلب منا أن نتخلى عن الاحتلال كأنك تطلب من إنجلترا والولايات المتحدة أن يغرقا سفنهما الحربية في المحيط.

لو حرمت فرنسا من أن تكون لها منطقة عازلة تحميها ، فإنها ستحتاج إلى ضمان آخر. ويستحسن في هذا الصدد أن يكون هذا الضمان حلفا مع بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، وإذا احتاج الأمر فقد كانت فرنسا على استعداد لقبول تفسير لمفهوم الأمن الجماعي يحقق نفس النتيجة التي يحققها حلف تقليدي .

وكان ويلسون يتوق بشدة لإنشاء عصبة الأمم حتى إنه كان أحيانا يتقدم بنظريات يشجع فيها آمال فرنسا . وفي كثير من المناسبات وصف ويلسون عصبة الأمم بأنها محكمة دولية للحكم في المنازعات وتعديل الحدود ، وتحقن العلاقات الدولية بالمرونة التي هي في أشد الحاجة إليها . وقد لخص واحد من مستشاري ويلسون وهو الدكتور إيسايا بومان Isaiah Bowman أفكار ويلسون، فقال في مذكرة كتبها وهو على ظهر السفينة التي كانت تقلهم إلى مؤتمر الصلح في ديسمبر ١٩١٨: إن العصبة سوف تقوم بتحقيق ما يلي:

.. سيادة الدول على أراضيها بالإضافة إلى تغيير الشروط بعد ذلك وتغيير الحدود إذا ثبت أن ظلما وقع أو أن الظروف قد تغيرت . يكون من الأسهل القيام بهذا التغيير في الوقت الذي تهدأ فيه النفوس ويمكن رؤية الأمور في ضوء العدالة وليس في مؤتمر للصلح يعقد في نهاية حرب طويلة ... وعكس هذا الطريق هو الإبقاء على فكرة الدول الكبرى وميزان القوى وكانت نتيجة هذه الفكرة دائما العدوان والأنانية والحرب .

وبعد الجلسة الكاملة التي عقدت في ١٤ فبراير ١٩١٩ التي أعلن فيها ويلسون ميثاق عصبة الأمم تكلم مع زوجته بنفس الطريقة فقال : «هذه أول خطوة حقيقية لنا فى المسيرة إلى الأمام لأني أدرك الآن أكثر من أي وقت مضى أن عصبة الأمم بمجرد أن تنشأ فسيمكنها أن تحكم في الأخطاء وتصويبها، وهو أمر لا مفر منه في المعاهدة التي نحاول عقدها هذه المرة».

وعصبة الأمم كما تصورها ويلسون ولاية مزدوجة بإقرار السلم وإزالة الظلم . ومع هذا فقد كان ويلسون غامضا غموضا شديدا . وكان من المستحيل العثور علي نموذج تاريخي واحد لحدود أوروبية تتغير باللجوء إلى مبدأ العدالة أو الإجراءات القانونية المحض – ففي كل الحالات كانت الحدود تتغير – أو تحمي – باسم المصلحة الوطنية ، ومع ذلك فقد كان ويلسون يدرك تماما أن الشعب الأمريكي ليس حتى مستعدا استعدادا بسيطا لتحمل أى التزام عسكري دفاعا عن شروط معاهدة فرساى . ومن حيث الجوهر فإن أفكار ويلسون ترجمت إلى مؤسسات مساوية لحكومة عالمية، كان استعداد الشعب الأمريكي لقبولها أقل من استعداده لقبول فكرة تكوين قوة شرطة عالمية . وقد حاول ويلسون أن يتجنب تلك المشكلة باستشارة من الرأي العام العالمي بدلا من اللجوء إلى حكومة عالمية أو قوة عسكرية كعقاب نهائي على العدوان . وفيما يلي وصفه لهذا الموضوع الذى قدمه لمؤتمر الصلح في فبراير ١٩١٩ :

... نحن من خلال تلك الأداة (عصبة الأمم) نعتمد أساسا وفي المقام الأول على قوة عظيمة كبرى وتلك هي القوة المعنوية للرأي العام العالمي ...

وما لا يستطيع الرأي العام حله فمن المؤكد أن الضغوط الاقتصادية يمكن أن تحله . وطبقا لمذكرة بومان :

الحالات التي يلزم فيها فرض النظام كانت بديلا للحرب، وبمعنى آخر المقاطعة؛ فالتجارة ؛ بما في ذلك التسهيلات البريدية والسلكية يمكن أن تحرم منها دولة أجرمت وأدينت بارتكاب خطأ ما.

ولم يحدث أن كانت هناك دولة أوروبية شهدت هذه الآلية أو يمكن أن تقنع نفسها بأن هناك إمكانية لتنفيذها وبجدواها. وعلى أية حال فقد كان من المبالغ فيه أن يتوقع من فرنسا التي أهدرت كثيرا من الدماء والمال لمجرد أن تحافظ على حياتها أن تجد نفسها في النهاية تواجه فراغا في أوروبا الشرقية وتواجه بألمانيا الدولة التي بلغت قوتها الفعلية ما يفوق القوة الفرنسية بكثير.

ولذلك فعصبة الأمم بالنسبة لفرنسا لم يكن لها سوى غرض واحد وهو تنشيط المساعدة العسكرية لمقاومة ألمانيا إذا احتاج الأمر ذلك . ولما كانت فرنسا في ذلك الوقت بلدا قديما مستنزفا فلم يكن في الإمكان أن تقنع نفسها بأن تثق في المنطق الأساسي للأمن الجماعي ، وهو أن يكون تقييم الدول جميعا للتهديد تقييما واحدا أو أنهم إذا فعلوا ذلك فسوف يصلون إلى نتائج واحدة بشأن كيفية مقاومة التهديد . وإذا فشل الأمن الجماعي – فإن أمريكا وربما بريطانيا العظمي يمكنهما دائما الدفاع عن أنفسهما بأنفسهما كملجأ أخير لهم . غير أنه بالنسبة لفرنسا ليس هناك ملجأ أخير ، فحكمها يجب أن يكون صائبا من البداية . فإذا ثبت أن الفرض الأساسي من الأمن الجماعي كان خطأ فإن فرنسا عكس أمريكا لن يمكنها أن تخوض حربا تقليدية أخرى، لأنها سوف تختفي من الوجود . ولذلك فإن فرنسا لا تحاول

الحصول على تأمين عام بل ضمان يناسب ظروفها الخاصة . وقد رفض الوفد الأمريكي بإصرار أن تعطي فرنسا مثل هذا الضمان .

ورغم أن رفض ويلسون أن تلتزم أمريكا بأكثر من إعلان مبادئ ،كان أمرا مفهوما في ضوء الضغوط الداخلية التي يتعرض لها إلا أن هذا الرفض زاد من إحساس فرنسا بنذر الشر. فالولايات المتحدة لم تتردد أبدا في استخدام القوة لمساندة مبدأ مونرو الذي استند إليه ويلسون بصفة مستمرة كنموذج لنظامه الدولي الجديد . ورغم ذلك فقد تصرفت أمريكا بنوع من الخجل عندما ظهرت مسألة التهديدات الألمانية لميزان القوى . ألم يكن هذا دليلا على أن التوازن الأوروبي كان مصلحة أمنية ذات أهمية أقل لدى الولايات المتحدة من الظروف التي كانت سائدة في نصف الكرة الغربي ؟ ولإزالة هذا الفارق في الأهمية ، راح ليون بورجوا Leon Bourgeois الممثل الفرنسي في اللجنة ذات الصلة يمارس الضغط من أجل تكوين جيش دولي أو أية آلية أخرى تضع تحت تصرف عصبة الأمم جهازا تنفيذيا في حالة ما إذا قامت ألمانيا بإلغاء تسوية فرساى – وكان هذا الإلغاء هو السبب الوحيد للحرب الذى كانت تهتم به فرنسا.

وبدا أن ويلسون في لحظة عابرة أيد هذا المفهوم بأن أشار إلى الميثاق المقترح وقال إنه ضمان «لصكوك ملكية الأرض في العالم». ولكن حاشية ويلسون شعرت برهبة. فقد كان أعضاؤها يعلمون أن مجلس الشيوخ الأمريكي لن يصدق أبدا على أي شيء يقر وجود جيش دولي دائم أو التزام عسكري دائم. وقد قال واحد من مستشاري ويلسون أن أى بند يشترط استخدام القوة لمقاومة العدوان سيكون غير دستوري:

هناك اعتراض جوهري على مثل هذا البند الشرطي وهو أنه سيكون باطلا إذا ورد في معاهدة للولايات المتحدة ، لأن الكونجرس طبقا للدستور لديه سلطة إعلان الحرب . والحرب التي تنشب أوتوماتيكيا بسبب حالة لاحقة طبقا لما تنص عليه بنود معاهدة ما ، ليست حربا معلنة من جانب الكونجرس .

ومعني هذا حرفيا أنه لن تكون لأي حلف يعقد مع الولايات المتحدة أية قوة ملزمة .

غير ويلسون بسرعة اتجاه سياسته وعاد إلى مبدأ الأمن الجماعي الخالص . وفي رفضه للاقتراح الفرنسى وصف جهاز التنفيذ الجاهز للاستخدام عند الضرورة بأنه غير ضروري، ذلك لأن العصبة نفسها ستعمل على دعم الثقة الكبيرة في العالم . وقال «إن الطريقة الوحيدة... تكمن في أن نثق في النوايا الطيبة للأمم التي تنتمي إلى العصبة ... عندما يأتي الخطر فسنكون كلنا حاضرين ولكن يجب أن تثقوا فينا».

الثقة ليست سلعة متوافرة بكثرة بين الدبلوماسيين . وعندما تكون حياة الأمم وبقاؤها في خطر يبحث القادة السياسيون عن ضمانات ملموسة – خاصة إذا كان البلد موقعه حرج مثل فرنسا .

وقدرة الحجة الأمريكية فى الإقناع تكمن في غياب بديل لها؛ ومهما كان غموض التزامات العصبة، فمازالت هذه الالتزامات أفضل من لا شيء. وكان لورد سيسيل Lord Cecil أحد المندوبين البريطانيين يقول ذلك على وجه التحديد عندما وجه اللوم إلى ليون بورجوا بسبب تهديداته بأنه لن ينضم إلى عصبة الأمم ما لم يزود الميثاق بجهاز تنفيذى . وقال سيسيل لبورجوا « إن أمريكا ليس لديها ما تكسبه من عصبة الأمم ... وعليها أن تدع الشئون الأوروبية وتهتم بشئونها هي؛ إن العرض الذي قدمته أمريكا بمساندة فرنسا يعتبر من الناحية العملية هدية لها». ورغم أن فرنسا انتابتها شكوك وهواجس كثيرة إلا أنها استسلمت أخيرا للمنطق المؤلم لرأي البريطانيين ووافقت على ما ورد في المادة ١٠ من ميثاق العصبة من كلام كثير لا يوضح شيئا: (سوف يعلن المجلس عن الوسائل التي يتحقق بها هذا الالتزام [المحافظة على سيادة الدول على أراضيها] أي بمعني أنه في حالة الطوارئ يكون على عصبة الأمم أن توافق على ما يمكنها أن توافق عليه . وهذا بالطبع ما كانت أمم العالم ستفعله على وجه التحديد إذا لم يكن هناك ميثاق لعصبة الأمم ، وكانت هذه أيضا الحالة على وجه التحديد التي حاولت الأحلاف التقليدية علاجها باللجوء إلى الالتزام الرسمي بتبادل المساعدة في ظروف محددة بصورة دقيقة .

وهناك مذكرة فرنسية أكدت بصراحة عدم كفاية ترتيبات العصبة المقترحة :

لو فرضنا أنه بدلا من التفاهم العسكري الدفاعي – وهو محدود للغاية فعلا – والذي نفذ بين بريطانيا العظمي وفرنسا في عام ١٩١٤، لم يكن هناك أي التزام بين البلدين أكثر من الاتفاقيات العامة الواردة في ميثاق عصبة الأمم ، لكان التدخل البريطاني أقل سرعة ولتأكد النصر لألمانيا .ولهذا فنحن نعتقد أنه في الظروف الحالية ، فإن المساعدة التي ينص عليها ميثاق العصبة سوف تصل متأخرة جدا .

وعندما اتضح أن أمريكا ترفض أن تدمج أية شروط أمنية ملموسة في الميثاق ، استأنفت فرنسا مزاولة ضغطها لتمزيق ألمانيا . فاقترحت إنشاء جمهورية مستقلة في إقليم الراين كمنطقة عازلة منزوعة السلاح وحاولت إيجاد حافز لإنشاء تلك الجمهورية وهو إعفاء ألمانيا من التعويضات . وعندما اعترضت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى اقترحت فرنسا أنه على الأقل يجب أن يفصل إقليم الراين عن ألمانيا إلى أن تتهيأ الفرصة لمؤسسات عصبة الأمم لكي تتطور ويمكن تجربة جهازها التنفيذي الذي يفرض الحلول التي يتم التوصل إليها بالقوة .

وفي محاولة لإرضاء فرنسا عرض ويلسون والقادة البريطانيون كبديل عن تمزيق ألمانيا معاهدة تضمن تنفيذ التسوية الجديدة وسوف توافق أمريكا وبريطانيا العظمى على دخول الحرب إذا انتهكت ألمانيا التسوية . وكان ذلك يشبه كثيرا الاتفاق الذي وضعه الحلفاء في مؤتمر فيينا ليؤمنوا أنفسهم ضد ألمانيا . ولكن هناك فارقا واحدا مهما : فبعد حروب

نابليون اعتقد الحلفاء حقا أن هناك تهديدا من جانب فرنسا وحاولوا توفير الأمن ضد هذا التهديد ؛ وبعد الحرب العالمية الأولى لم تكن الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى تعتقدان أن هناك حقا تهديدا من جانب ألمانيا ، وعرضا ضماناتهما دون اقتناع بأن تلك الضمانات ضرورية ولم تكونا عقدتا العزم بصفة خاصة على تنفيذها .

كان المفاوض الفرنسي الرئيسي سعيدا ووصف الضمانات البريطانية بأنها «ضمانات لم يسبق لها مثيل» وقال إن بريطانيا العظمى كانت تنضم من آن لآخر إلى اتفاقيات مؤقتة ولكنها لم يسبق لها أبداً أن وافقت على التزام دائم: «كانت أحيانا تقدم مساعداتها ولكنها لم تلزم نفسها أبدا مقدما بتقديم تلك المساعدات». وكذلك رأى تارديو أن التزام أمريكا المقترح يعد تحولا هائلا عن نمط العزلة الأمريكية التاريخي .

ولرغبتهم الشديدة في الحصول على ضمانات رسمية تجاهل القادة الفرنسيون حقيقة مهمة وهي أن القرارات الأنجلو ساكسونية غير المسبوقة كانت في المقام الأول تكتيكا لإقناع فرنسا بالتخلي عن طلبها بتمزيق ألمانيا. إن تعبير «غير مسبوق»، تعبير مشكوك فيه في مجال السياسة الخارجية ذلك لأن النطاق الفعلي للابتكار مقيد بأحداث التاريخ ، والمؤسسات الداخلية والاعتبارات الجغرافية .

ولو علم تارديو برد فعل الوفد الأمريكي لفهم كيف أن الضمانات كانت ضعيفة إلى حد كبير حقا . وكان مستشارو ويلسون مجمعين على معارضة رئيسهم . ألم توضع الدبلوماسية الحديثة بوجه خاص للتخلص من هذا النمط من الالتزام الوطني؟ وهل خاضت أمريكا الحرب فقط لينتهي بها الأمر إلى حلف تقليدي؟ وقد كتب هاوس في مذكراته يقول :

فكرت أني يجب أن ألفت اهتمام الرئيس إلى أخطار مثل تلك المعاهدة . فسوف ينظر إليها من بين أمور أخرى على أنها ضربة مباشرة لعصبة الأمم . فمن المفروض أن تفعل العصبة بالضبط ما اقترحته تلك المعاهدة ، ولو كان من الضروري للأمم أن تعقد مثل تلك المعاهدات فما جدوى عصبة الأمم إذن ؟

كان هذا سؤالا عادلا صريحا ، لأنه إذا كانت عصبة الأمم ستتصرف طبقا لما أعلن عنه فالضمان إذن لا ضرورة له ؛ ولو كان الضمان ضروريا فإن العصبة إذن لا تؤدى ما هي مصممة من أجله وسوف تكون كل مفاهيم ما بعد الحرب مشكوكا فيها . وكان للانعزاليين في مجلس الشيوخ الأمريكي شكوكهم . فلم يقلقهم كثيرا أن الضمان يتعارض مع عصبة الأمم بقدر ما كان يقلقهم أن الأوروبيين الملتوين يسوقون أمريكا إلى شراك تورطاتهم القديمة . ولم يستمر الضمان طويلا . فقد جعله رفض مجلس الشيوخ الأمريكي التصديق على معاهدة فرساى موضع شك ، وتمسكت بريطانيا بذلك لكي تعفي نفسها من التزامها أيضا . وثبت أن تخلي فرنسا عن مطلبها كان تخليا دائما كما ثبت أن الضمان كان سريع الزوال .

وانبثقت عن كل تلك الأحداث أخيرا معاهدة فرساى ، والتي سميت باسم قاعة المرايا في

قصر فرساى الذي وقعت فيه المعاهدة . وكان هذا الموقع يثير مشاعر إذلال لا داعي لها.

فقبل ذلك بخمسين عاما أعلن بسمارك هناك بدون لف أو دوران قيام ألمانيا الموحدة والآن فإن المنتصرين ابتلوا أنفسهم بإهانة من صنعهم . ولم يكن من الممكن لعملهم أن يهدئ المحيط الدولي . وكانت معاهدة فرساى معاهدة عقابية لا يصلح معها التوفيق بين أطرافها ، وكانت أيضا معاهدة متساهلة جدا بحيث لا يمكنها أن تحول دون استرداد ألمانيا لقوتها. وقد فرضت علي الديمقراطيات المستنزفة اليقظة الدائمة والحاجة إلى تطبيق كل العقوبات بالقوة على ألمانيا التي لا يمكن إرضاؤها والتي تطالب دائما بتعديل المذاهب والمعاهدات .

وعلى الرغم من النقاط الأربعة عشرة فقد كانت المعاهدة معاهدة عقابية في مجالات إقليمية واقتصادية وعسكرية . فكان على ألمانيا أن تسلم ١٣ في المائة من أراضيها التي كانت لديها قبل الحرب . وقد سلمت سيليسيا العليا ذات الأهمية الاقتصادية إلى بولندا حديثة التكوين والتي حصلت أيضا على منفذ على بحر البلطيق وكذلك المنطقة الواقعة حول بوزين Posen وبذلك تكون «الرواق البولندي» الذي يفصل بروسيا الشرقية عن بقية ألمانيا وقد حصلت بلجيكا على منطقة أوبين إيه ملمادى Eupen-et-Malmady الصغيرة وأعيد إقليم الألزاس واللورين إلى فرنسا .

وفقدت ألمانيا مستعمراتها ، التي تسبب وضعها القانوني في نزاع بين ويلسون في جانب وفرنسا وبريطانيا واليابان في الجانب الآخر، وكان ثلاثتهم يريدون ضم نصيبهم من الغنيمة إليهم . وأصر ويلسون على أن هذا الانتقال المباشر من شأنه أن ينتهك مبدأ تقرير المصير. وأخيرا توصل الحلفاء إلى ما سمي بمبدأ الانتداب Mandate Principle وكان مبدأ بارعا ومنافقا في نفس الوقت . فقد أوكلت المستعمرات الألمانية إلى شتى المنتصرين بتفويض (انتداب) تحت إشراف عصبة الأمم لتسهيل استقلال تلك المستعمرات . ومعنى ذلك لم يتحدد بصورة دقيقة ولم تؤد الانتدابات في النهاية إلى استغلال البلدان التى فرض عليها الانتداب بسرعة أكثر من أية مناطق مستعمرة أخرى .

أما القيود العسكرية التي فرضتها المعاهدة فقد خفضت الجيش الألماني إلى ١٠٠٠٠٠ متطوع وخفضت أسطولها البحري إلى ستة طرادات وعدد قليل من السفن الصغيرة وقد منعت ألمانيا من حيازة الأسلحة الهجومية مثل الغواصات والطائرات والدبابات والمدفعية الثقيلة وتم حل هيئة الأركان الألمانية. وللإشراف على نزع سلاح ألمانيا ، شكلت «لجنة الحلفاء للإشراف العسكري» ومنحت سلطة اتضح فيما بعد أنها سلطة غامضة للغاية وغير فعالة .

ورغم وعد لويد جورج في الانتخابات بأنه «سيعصر» ألمانيا ، بدأ الحلفاء يدركون أن ألمانيا العاجزة اقتصاديا قد تتسبب في أزمة اقتصادية عالمية تؤثر على مجتمعاتهم . ولكن الشعوب المنتصرة لم تول اهتماما كبيرا إلى تحذيرات الخبراء الاقتصاديين . فقد طالب

بريطانيا وفرنسا أن تعوض ألمانيا سكانهما المدنيين عن كل الأضرار التي لحقت بهم . وعلى عكس ما كان ويلسون يراه فقد وافق في النهاية على مادة في المعاهدة جعلت ألمانيا تدفع معاشات لضحايا الحرب وبعض التعويضات لأسرهم . وتلك مادة في المعاهدات لم يسمع عنها من قبل ؛ فلم تكن هناك أية معاهدة صلح أوروبية سابقة تتضمن مادة مثل هذه . ولم يتحدد أي رقم لتلك التعويضات إذ كانت ستتقرر في موعد لاحق مما جعلها مصدرا لجدل لا ينتهي.

وقد تضمنت العقوبات الاقتصادية الأخرى أن تدفع ألمانيا ٥ بلايين دولار نقدا أو عينا. وتقرر أن تتلقى فرنسا كميات كبيرة من الفحم كتعويض عن تدمير ألمانيا لمناجمها أثناء احتلالها شرق فرنسا. وللتعويض عن السفن البريطانية التي أغرقتها الغواصات الألمانية تسلمت بريطانيا العظمى جزءا كبيرا من الأسطول التجاري الألماني . وتم الاستيلاء على أصول ألمانيا الأجنبية التي بلغت قيمتها ٧ بلايين دولار إلى جانب كثير من براءات الاختراع (بفضل معاهدة فرساى ، اسبرين باير منتج أمريكي وليس ألمانيا). وتم تدويل أنهار ألمانيا الرئيسية وفرضت قيود على إمكاناتها لفرض التعريفة الجمركية.

وقد تسببت تلك الشروط في رهن النظام العالمي بدلا من أن تساعد على قيامه . وعندما اجتمع المنتصرون في باريس أعلنوا عن عهد جديد في التاريخ . وكان الوفد البريطاني يتوق بشدة إلى تجنب ما اعتبره أخطاء ارتكبت في مؤتمر فيينا إلى حد أنه كلف المؤرخ المشهور سير تشارلز ويستر Charles Webster بكتابة بحث عن هذا الموضوع . ومع ذلك فما أنتجوه في النهاية كان تسوية هشة بين المثاليين الأمريكيين والأوروبيين المصابين بجنون العظمة – وكانت تسوية بها كثير من الشروط لا تصلح لتحقيق أحلام المثاليين الأمريكيين وتجريبية إلى حد لا يمكن معه أن تزيل مخاوف الأوروبيين الشاعرين بجنون العظمة . فالنظام الدولي الذي لا يمكن المحافظة عليه إلا بالقوة يكون نظاما قلقا، ويكون قلقا بقدر أكبر عندما تكون البلدان التي ستتحمل العبء الأساسي عن التنفيذ بالقوة – وفي تلك الحالة هى بريطانيا العظمي وفرنسا – في خلاف معا .

وسرعان ما اتضح أن مبدأ تقرير المصير لا يمكن أن يطبق عمليا ، بالصورة القاطعة المتصورة من النقاط الأربعة عشرة ولا سيما بين الدول الخليفة للإمبراطورية المجرية – النمساوية . وقد انتهت تشيكوسلوفاكيا بأن أصبح لديها ٣ ملايين ألماني ، ومليون مجري ، ونصف مليون بولندى من مجموع شعبها البالغ عدده حوالي ١٥ مليون نسمة . وثلث هذا العدد تقريبا لم يكونوا تشيكيين أو سلوفاكيين . ولم تكن سلوفاكيا جزءا متحمسا في الدولة التي يسيطر عليها التشيك كما اتضح من انفصالها في عام ١٩٣٩ ومرة أخرى في عام ١٩٩٢.

لقد حققت يوجوسلافيا الجديدة آمال المفكرين السلافيين الجنوبيين . غير أنه لإقامة تلك الدولة كان من الضروري عبور خط الصدع في التاريخ الأوروبي الذي فصل بين

الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية، وفصل بين الديانتين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، والكتابات اللاتينية والسيريلية (المتعلقة بالأبجدية السلافية القديمة) – خط يمتد تقريبا بين كرواتيا والصرب اللتين لم تنتميا في تاريخهما المعقد إلى نفس الوحدة السياسية . وقد جاءت فاتورة ذلك بعد عام ١٩٤١ في حرب أهلية شرسة نشبت من جديد مرة أخرى في عام ١٩٩١.

وقد آل إلى رومانيا ملايين من المجريين وإلى بولندا ملايين من الألمان كما آلت إليها حماية ممر يفصل بين شرق بروسيا وبقية ألمانيا . وفي نهاية تلك العملية التي أجريت باسم تقرير المصير عاش كثير من الناس تحت حكم أجنبي كما كانت الحال في أيام الإمبراطورية المجرية –النمساوية إلا أنهم الآن توزعوا بين عدد أكبر وأضعف من الدول القومية والتي كانت في نزاعات معا كان من شأنها أن زادت من زعزعة الاستقرار .

وعندما فات الأوان فهم لويد جورج متأخرا المعضلة التي ساق الحلفاء المنتصرون أنفسهم إليها . وفي ٢٥ مارس ١٩١٩ كتب في مذكرة إلى ويلسون يقول :

لا أستطيع أن أتصور أي سبب أكبر للحرب في المستقبل من أن الألمان الذين أثبتوا بلا جدال أنهم من أنشط وأقوى الأجناس في العالم سيحاطون بعدد من الدول الصغيرة ، كثير منها يتكون من أناس لم يسبق لهم أن أقاموا حكومة مستقرة لأنفسهم ، ولكن كلا منها يضم أعدادا كبيرة من الألمان يصرخون مطالبين بالانضمام إلى وطنهم .

غير أنه في ذلك الوقت كان المؤتمر قد تقدم كثيرا مقتربا من نهايته في شهر يونيو . ولم يكن قد ظهر أي مبدأ بديل ينظم النظام العالمي بعد أن استبعد العمل بميزان القوى.

وبعد ذلك بفترة ، أعلن كثير من القادة الألمان أن بلدهم خُدِعَ وسِيقَ إلى الهدنة بنقاط ويلسون الأربعة عشر ، التي كانت عندئذ قد انتهكت بطريقة منتظمة . وكان هذا كلاما فارغا من باب الشفقة على الذات . فألمانيا تجاهلت النقاط الأربعة عشر عندما كانت تعتقد أن لديها فرصة لكسب الحرب ، وكانت بعد إعلان النقاط الأربعة عشر قد فرضت سلاما قرطاجيا (نسبة إلى انتصار القائد القرطاجي هانيبال في الحرب البونية [القرطاجية] على روما ٢١٨–٢٠١ قبل الميلاد) على روسيا في برست ليتوفسك انتهكت فيها كل مبدأ من مبادئ ويلسون . والسبب الوحيد الذي دفع بألمانيا إلى إنهاء الحرب هو حسابات القوة المحضة – فمع دخول الجيش الأمريكي كانت هزيمة ألمانيا مسألة وقت . وعندما طلبت ألمانيا الهدنة كانت قد أنهكت تماما وبدأت دفاعاتها تنهار وكانت جيوش الحلفاء على وشك دخول الأراضي الألمانية . والواقع أن مبادئ ويلسون أنقذت ألمانيا من كثير من العقاب .

وقد قال المؤرخون إن رفض الولايات المتحدة الانضمام إلى عصبة الأمم هو الذي قضى على معاهدة فرساي . فعدم تصديق أمريكا على المعاهدة أو عملية ضمان الحدود الفرنسية المتصلة بالمعاهدة، كل ذلك أسهم بلا جدال في إضعاف معنويات فرنسا . غير أنه نظرا

للنزعة الانعزالية للولايات المتحدة فإن عضوية أمريكا في العصبة أو التصديق على الضمانات لم تكن ستتسبب فى حدوث فوارق كبيرة . ففي أي من الحالتين فإن الولايات المتحدة لم تكن ستستخدم القوة لمقاومة العدوان وإلا لكانت قد وضعت تعريفا للعدوان بصيغ لا تنطبق على أوروبا الشرقية – كما فعلت بريطانيا بعد ذلك في ثلاثينيات القرن العشرين ١٩٣٠ .

كانت كارثة معاهدة فرساى كارثة بناءة . فالقرن الذي تمتع العالم فيه بالسلام كنتيجة لمؤتمر فيينا دعمته ثلاث دعائم كل منها كان ضروريا : صلح توفيقي مع فرنسا؛ توازن القوى ؛و إحساس مشترك بالشرعية . ولم يكن صلح التوفيق النسبي مع فرنسا وحده قادرا على أن يمنع نفوذ النزعة التعديلية الفرنسية (الميل إلى تعديل المذاهب والمعاهدات). ولكن فرنسا كانت تعلم أن الحلف الرباعي والحلف المقدس يمكنهما أن يشكلا قوة عظيمة وبذلك يصبح التوسع الفرنسي محفوفا بأخطار كبيرة . وفي الوقت نفسه فإن المؤتمرات الأوروبية الدورية هيأت لفرنسا فرصة الاشتراك في الحلف الأوروبي كعضو مساو للأعضاء الآخرين . وأهم شيء أن البلدان الكبرى كانت بينها قيم مشتركة لدرجة أن المظالم القائمة لم تندمج وتتطور إلى محاولة للإطاحة بالنظام الدولي .

ومعاهدة فرساى لم تهيئ أية ظروف للتسوية . فشروطها كانت شاقة للغاية لا تساعد على التوصل إلى التسوية ولكنها لم تكن شروطا صارمة بدرجة تكفي للاستسلام لها بصفة دائمة. والحقيقة أنه لم يكن من السهل السير في طريق يحقق إخضاع ألمانيا وإرضاءها في نفس الوقت . ولما كانت ألمانيا قد رأت أن النظام العالمي قبل الحرب اتسم بالكثير من التقيد فلم يكن من المحتمل أن ترضي عن أية شروط كانت بعد الهزيمة .

وكان أمام فرنسا ثلاثة خيارات استراتيجية : فيمكنها أن تحاول تشكيل ائتلاف معاد لألمانيا؛ ويمكنها أن تسعى لتقسيم ألمانيا أو يمكنها أن تحاول تسوية الأمور مع ألمانيا . وقد فشلت كل محاولات تشكيل الائتلاف لأن بريطانيا العظمى وأمريكا رفضتا ذلك ، وروسيا لم تعد جزءا من التوازن . وقد قاومت تقسيم ألمانيا نفس البلدان التي رفضت تشكيل ائتلاف غير أن فرنسا كانت تعتمد على تأييدهم لها في أية حالات طارئة. وكان الوقت مبكرا ومتأخرا أيضا لإعادة العلاقات الطيبة مع ألمانيا– كان الوقت متأخرا لأن إعادة العلاقات الطيبة مع ألمانيا لا تتماشى مع معاهدة فرساى وكان الوقت مبكرا لأن الرأي العام الفرنسي لم يكن مستعدا بعد لقبول ذلك .

ومن المفارقة أن ضعف فرنسا ومميزات ألمانيا الاستراتيجية كليهما قد ضخمته معاهدة فرساى وذلك رغم بنودها العقابية . فألمانيا قبل الحرب واجهت جيرانا أقوياء في كل من الشرق والغرب . ولم يكن يمكنها التوسع في أي من الاتجاهين دون أن تواجه بدولة كبرى – فرنسا والإمبراطورية المجرية – النمساوية أو روسيا . ولكن بعد معاهدة فرساى لم يعد هناك

ثقل مضاد لألمانيا في الشرق . وبعد أن أضعفت فرنسا وانهارت الإمبراطورية المجرية – النمساوية وخرجت روسيا من الصورة بعض الوقت ولم تكن هناك ببساطة أية طريقة لإعادة بناء ميزان القوى خاصة لأن الدول الأنجلو ساكسونية رفضت أن تضمن تسوية فرساى .

وفي عام ١٩١٦ ، توقع لورد بلفور Lord Belfour وكان وقتها وزيرا الخارجية بريطانيا ، على الأقل جزءا من الخطر القادم على أوروبا، وذلك عندما حذر من أن بولندا المستقلة قد تجعل فرنسا عاجزة عن الدفاع عن نفسها في حرب أخرى: وإذا جعلنا من بولندا مملكة ، مستقلة وتصبح بذلك دولة عازلة بين روسيا وألمانيا ، فسوف تصبح فرنسا تحت رحمة ألمانيا في الحرب التالية، ولهذا السبب فإن روسيا لن تتمكن من مساعدتها دون انتهاك حياد بولندا وتلك على وجه التحديد هي معضلة عام ١٩٣٩. ولاحتواء ألمانيا كانت فرنسا تحتاج إلى حليف لها في الشرق يمكنه أن يرغم ألمانيا على خوض حرب ذات جبهتين. وروسيا هي الدولة الوحيدة التي لديها القوة الكافية للقيام بهذا الدور . ولكن إذا كانت بولندا ستفصل بين روسيا وألمانيا فلا يمكن لروسيا أن تمارس الضغط على ألمانيا إلا بالتعدى على بولندا ، وكانت بولندا من الضعف لدرجة لا تستطيع معها أن تقوم بدور روسيا . وما فعلته معاهدة فرساى هو أنها زودت روسيا وألمانيا بحافز لتقسيم بولندا وهو ما حدث بالتحديد بعد ذلك بعشرين عاما .

ولما كانت فرنسا تفتقر إلى دولة كبرى في الشرق كي تتحالف معها ، فقد حاولت تقوية الدول الجديدة وذلك كي تخلق الوهم بأن هناك تحديا ذا جبهتين يواجه ألمانيا . وقد ساندت فرنسا دول شرق أوروبا الجديدة في جهودها لانتزاع مزيد من الأراضي من ألمانيا أو مما بقي من المجر . وكان من الواضح أن الدول الجديدة كان لديها حافز لتشجيع الوهم الفرنسي بأنها يمكن أن تصبح ثقلا مضادا لألمانيا . ومع ذلك فإن تلك الدول الوليدة لم يكن في إمكانها أن تقوم بالدور الذي قامت به النمسا وبروسيا حتى ذلك الوقت . فقد كانت هذه الدول ضعيفة جدا وتمزقها الصراعات الداخلية والمنافسات المتبادلة بينها. وفي الشرق منها كانت روسيا بنيت من جديد والتى تغلى غضباً بسبب خسائرها الإقليمية . بمجرد أن تسترد روسيا قوتها سوف تشكل تهديدا كبيرا لاستقلال دول ضعيفة مثل ألمانيا .

ولذلك أصبح استقرار أوروبا يتوقف على فرنسا . وقد تطلب الأمر استخدام قوات بريطانيا وأمريكا وفرنسا وروسيا معا لإخضاع ألمانيا . ومن بين تلك الدول كانت هناك أمريكا التى أصبحت انعزالية مرة أخرى وكانت هناك وروسيا التي فصلت عن أوروبا بمأساة ثورية وبما سمي بالنطاق الصحي Cordon Sanitaire لدول أوروبا الشرقية الصغيرة التي تقف في طريق المساعدة الروسية المباشرة لفرنسا . وللمحافظة على السلام كان على فرنسا أن تقوم بدور رجل الشرطة في جميع أنحاء أوروبا . ولم تكن فرنسا قد فقدت فقط القوة والعزيمة على سياسة التدخل تلك ولكنها لو حاولت تنفيذ تلك السياسة لكانت قد وجدت نفسها وحدها وقد

تخلت عنها أمريكا الشمالية وبريطانيا العظمى .

وكانت أخطر نقاط الضعف في تسوية فرساى نقطة سيكولوجية (نفسية). فلقد قوى النظام العالمي الذي أوجده مؤتمر فيينا ، بمبدأ وحدة المحافظين الذي اقترح متطلبات ميزان القوى ، والواقع أن الدول التي كانت الحالة تحتاج إليها بقدر أكبر للمحافظة على تسوية فرساى اعتبرت التسوية عادلة أيضا . لقد ولدت تسوية فرساى ميتة لأن القيم التي أشادت بها تصادمت مع الحوافز المطلوبة لتعزيز هذه التسوية : فأغلبية الدول اللازمة للدفاع عن الاتفاقية اعتبروها عادلة بطريقة أو بأخرى.

وكانت المفارقة في الحرب العالمية الأولى أن الحرب قامت لكبح جماح قوة ألمانيا التى كانت تلوح في الأفق وأن الحرب أثارت الرأي العام إلى درجة منعت التوصل إلى سلام توفيقى . ومع ذلك ففي النهاية عملت مبادئ ويلسون على الحيلولة دون التوصل إلى صلح يكبح جماح القوة الألمانية ولم يكن هناك أيضا إحساس مشترك بالعدالة . وكان ثمن تسيير السياسة الخارجية على أساس مبادئ مجردة هو استحالة التمييز بين فرادى القضايا . ولما كان القادة في فرساى غير مستعدين للحد من القوة الألمانية سواء عن طريق حقوق النصر المطلقة أو عن طريق حسابات ميزان القوى ، فكانوا مضطرين إلى تبرير نزع سلاح ألمانيا على أنه الدفعة الأولى لخطة شاملة لنزع السلاح وإلزامها بالتعويضات كتكفير عن ذنب نشوب الحرب ذاتها .

وبتبريرهم نزع سلاح ألمانيا بهذه الطريقة فإن الحلفاء قضوا على الاستعداد النفسي الذي كان لازما لدعم اتفاقهم . ومنذ البداية تمكنت ألمانيا من أن تدعي أنها تعرضت لعملية تمييز ضدها، وطالبت إما أن يسمح لها بإعادة تسليح نفسها أو أن تنزع الدول الأخرى سلاحها بحيث يصبح فى مستوي سلاح ألمانيا ، وفي تلك العملية انتهت شروط نزع السلاح الواردة في معاهدة فرساى بتعويض نفسية المنتصرين . وكانت ألمانيا في كل مؤتمر لنزع السلاح تستغل موقفها الأدبى السامى الذى عادة ما كانت بريطانيا العظمى تؤيدها فيه . غير أنه لو كانت فرنسا قد وافقت على التساوي مع ألمانيا في إعادة التسلح لكان احتمال حماية استقلال دول شرق أوروبا قد تلاشى . وبالتالي كان من المحتم أن تؤدي بنود نزع السلاح إما إلى نزع سلاح فرنسا أو إعادة تسليح ألمانيا . وفي أي من الحالتين لن تكون فرنسا قوية لدرجة الدفاع عن أوروبا الشرقية أو حتى الدفاع عن نفسها في المدى البعيد .

وكذلك فإن الشرط الخاص بمنع الوحدة بين النمسا وألمانيا يعتبر انتهاكا لمبدأ تقرير المصير ، كما حدث بالنسبة لوجود أقلية ألمانية كبيرة في تشيكوسلوفاكيا ووجود أقلية أقل نسبيا للألمان في بولندا . وبذلك أيد المبدأ التنظيمي في معاهدة فرساى النزعة التحررية الوحدوية الألمانية (مبدأ سياسي ينادي بتحرير المقاطعات المتصلة تاريخيا أو عرقيا بوحدة سياسية ما –والخاضعة حاليا لوحدة أخرى – وجمعها حاليا في نطاق هذه الوحدة

الطبيعية) وساعد هذا المبدأ التنظيمى على زيادة إحساس الديمقراطيات بالذنب .

وكانت الآفة المهلكة في المعاهدة هي المادة ٢٣١ المسماة بند معصية الحرب أو الذنب الواقع علي من أثاروا الحرب وجاء فيها أن ألمانيا مسئولة وحدها عن نشوب الحرب العالمية الأولى ووجه إليها لوم أدبي شديد اللهجة . وقد استندت معظم التدابير العقابية ضد ألمانيا في المعاهدة ، اقتصادية وعسكرية وسياسية على الإصرار على أن الحرب برمتها كانت غلطة ألمانيا تماما .

وكان صانعو السلام في القرن الثامن عشر سيعتبرون البنود الخاصة بالذنب الواقع على من شن الحرب بنودا سخيفة . فالحروب بالنسبة لهم هي حتميات لا أخلاقية سببها تصادم بين المصالح . وفي المعاهدات التي أنهت الحروب في القرن الثامن عشر دفع المهزومون الثمن دون أن يبرر ذلك بادعاءات أخلاقية . غير أنه بالنسبة لويلسون وصانعي السلام في فرساي كان سبب حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ شراً ينبغي أن يعاقب مرتكبوه .

وعلي أية حال فعندما هدأت الأحقاد ، بدأ المراقبون الأذكياء يرون أن المسئولية عن نشوب الحرب أكثر تعقيدا من ذلك . ولاشك أن ألمانيا كان عليها مسئولية ثقيلة في هذا الشأن، ولكن هل كان من العدل أن يقع الاختيار على ألمانيا وحدها لفرض التدابير العقابية عليها؟ وهل المادة ٢٣١ صحيحة فعلا ؟ وبمجرد أن بدأ هذا السؤال يتردد خاصة في بريطانيا العظمى في العشرينيات من القرن الذي نشبت فيه الحرب بدأت الرغبة في فرض العقوبات على ألمانيا المنصوص عليها في المعاهدة تتهاوى . وتساءل صانعو السلام الذين كانت تؤرقهم ضمائرهم ما إذا كان عدلا ما صنعوه ، وتولد عن ذلك غياب الإصرار على الحفاظ على المعاهدة . وكانت ألمانيا بالطبع غير مسئولة في هذا الشأن . وفي المناقشات العامة التي كانت تدور في ألمانيا في ذلك الوقت أصبح يشار إلى المادة ٢٣١ على أنها «أكذوبة المذنب في جريمة الحرب» وأصبحت الصعوبة المادية لإقرار ميزان القوى تقابلها الصعوبة النفسية في إيجاد التوازن الأخلاقي .

وهكذا فإن صانعي تسوية فرساي حققوا بالضبط عكس ما كانوا يقصدون . لقد حاولوا إضعاف ألمانيا ماديا ولكنهم على العكس قووها من الناحية الجغرافية والسياسية . ومن وجهة نظر بعيدة المدى كانت ألمانيا في موقف أفضل بكثير للسيطرة على أوروبا بعد فرساي عما كانت عليه قبل الحرب . وبمجرد أن تخلصت ألمانيا من قيود عدم التسلح، الأمر الذى كان مسألة وقت كان من المحتم أن تعود أقوى مما كانت عليه في أي وقت مضى . وقد لخص هارولد ويلسون ذلك قائلا: «لقد جئنا إلى باريس ونحن واثقون أن النظام الجديد على وشك أن ينشأ وتركنا باريس ونحن مقتنعون أنه لم يحدث شيء أكثر من أن النظام الجديد شوه النظام القديم» .



■ بول فون هندنبرج ، الامبراطور السابق ويليام الثاني ، وإيريك لودندورف

الفصل العاشر

مأزق المنتصرين

إن تنظيم تنفيذ اتفاقية فرساى قام أساسا على مفهومين كل منهما مضاد للآخر. وقد فشل المفهوم الأول لأنه كان مفهوما شاملا عاما أكثر من اللازم وفشل الثاني لأنه كان مفهوما ينطوي على كثير من الحقد والضغينة . فمفهوم الأمن الجماعي كان مفهوما عاما بدرجة كبيرة مما جعله غير صالح للتطبيق في ظروف من شأنها أن تزعزع السلام ؛ فالتعاون غير الرسمي بين فرنسا وبريطانيا الذي حل محل الأمن الجماعي كان تعاونا ضعيفا وغامضا لا يمكنه أن يقاوم التحديات الألمانية الكبيرة . وقبل أن تمر خمس سنوات تآلفت الدولتان اللتان هزمتا في الحرب في راباللو ، Rapallo وكان التعاون المتزايد بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي ضربة قاصمة لنظام فرساى ، إذ كانت معنويات الديمقراطيات قد تدهورت إلى حد كبير فلم تدركه في وقته بسرعة .

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى ، كان يبدو أن الجدل الذي ظل دائرا منذ زمن طويل حول الأدوار النسبية للأخلاق والمصالح في الشئون الدولية قد سوي لصالح سيادة القانون والأخلاق . ومن أثر صدمة التغير العنيف أصبح أمل الكثير فى أن يعيشوا في عالم أفضل تخلص بأكبر قدر ممكن من ذلك النوع من السياسات الواقعية التي كان من رأيهم أنها أهلكت شباب جيل بأكمله . وظهرت أمريكا كأنها العامل الحافز لتلك العملية حتى بينما كانت تنسحب فى طريقها إلى العزلة . وكانت تركة ويلسون هى أن أوروبا بدأت السير في طريق الويلسونية بمحاولتها المحافظة على الاستقرار من خلال الأمن الجماعي بدلا من اتباع الطريق الأوروبي التقليدي وهو الأحلاف وميزان القوى رغم غياب أمريكا .

وفي المعاملات التي تلت ذلك ، وصفت الأحلاف التي اشتركت فيها الولايات المتحدة (مثل حلف الأطلنطي) بأنها أدوات للأمن الجماعي . وعلى أي حال لم يكن اصطلاح الأمن الجماعي قد فهم أصلا بهذا الشكل، فمفهوم الأمن الجماعي والأحلاف تتعارض فى جوهرها مع بعضها تعارضا مباشرا . فالأحلاف التقليدية كانت توجه ضد تهديدات معينة وتحدد التزامات دقيقة

لمجموعات بعينها من البلدان ترتبط بعضها مع بعض بمصالح وطنية مشتركة أو باهتمامات أمنية متبادلة . والأمن الجماعي لا يحدد أي تهديد بعينه ولا يضمن أي أمة بشكل محدد ولا يميز بين الدول . والأمن الجماعي مصمم نظريا لمقاومة أي تهديد للسلام من أي جانب يكون مبعث هذا التهديد، وحماية أي جانب يتعرض له . والأحلاف دائما تفترض وجود غريم ممكن محدد ؛ أما الأمن الجماعي فيحمي القانون الدولي بمعناه المطلق ويسعى إلى المحافظة عليه بنفس الطريقة التي يحافظ بها النظام القضائي على القانون الجنائي المحلي . والأمن الجماعي كالقانون المحلي، لا يفترض أي مجرم بعينه. وفي الأحلاف يكون سبب الحرب هو هجوم على مصالح أعضاء الحلف أو أمنهم . أما سبب الحرب في نظام الأمن الجماعي فهو انتهاك مبدأ التسوية «السلمية» للمنازعات وهو المبدأ الذى يفترض أن تكون لكل شعوب العالم فيه مصلحة مشتركة . وبالتالي فإن القوة يجب حشدها على أساس كل حالة على حدة من مجموعة متغيرة من الأمم لها مصلحة مشتركة في «حفظ السلام».

والغرض من الحلف هو أن يحقق التزاما أكثر قابلية للتنبؤ به وأكثر دقة من تحليل للمصلحة الوطنية. أما الأمن الجماعي فهو يعمل بطريقة عكس ذلك تماما . فهو يترك تطبيق مبادئه لتفسير أحداث معينة عندما تقع تلك الأحداث، وهو بلا قصد يولي اهتماما كبيرا للحالة المزاجية في لحظات وقوع الحادث وبالتالي يهتم بالإرادة الذاتية الوطنية.

والأمن الجماعي يسهم في تحقيق الأمن فقط عندما تشارك جميع الدول – أو على الأقل جميع الدول ذات الصلة بالدفاع الجماعي – في وجهات نظر متشابهة بشأن طبيعة التحدي الذي تواجهه وتكون على استعداد لاستخدام القوة أو تطبيق العقوبات على حسب «وقائع الحالة الموضوعية» بغض النظر عن المصلحة الوطنية المعينة التي تكون لهم في القضايا التي يتعرضون لها . وفقط عندما تتحقق تلك الشروط يمكن للمنظمة الدولية أن تضع العقوبات أو تتصرف كحكم في الشئون الدولية . كان هذا هو تصور ويلسون لدور الأمن الجماعي عندما كانت الحرب تقترب من نهايتها في شهر سبتمبر عام ١٩١٨ .

لقد ازداد تراجع الأهداف الوطنية إلى المؤخرة وحل محلها الهدف العام للبشرية المستنيرة. إن مشاورات الرجال العاديين أصبحت تدور بين الجميع بسيطة وصريحة وأكثر تقاربا من مشاورات الرجال المحنكين في شئون الدنيا الذين ما زالوا يشعرون أنهم يلعبون مباراة للقوة ويلعبونها برهان كبير .

إن الفارق الرئيسي بين تفسيرات ويلسون والتفسيرات الأوروبية لأسباب النزاع الدولي يتبين مما يلي.. إن الدبلوماسية التي تمارس على النمط الأوروبي تفترض أن المصالح الوطنية تميل للتصادم وتنظر إلى الدبلوماسية على أنها وسيلة التوفيق بين تلك المصالح ؛ أما ويلسون من الناحية الأخرى فقد اعتبر أن الخلاف الدولي هو نتيجة «لتفكير ضبابي معتم» وليس تعبيراً عن تصادم حقيقي للمصالح . والقادة السياسيون عندما يمارسون السياسة الواقعية يتحملون عبء

إيجاد صلة بين مصالح معينة ومصالح عامة عن طريق توازن بين الحوافز والعقوبات . أما ويلسون فيرى أنه من المطلوب من القادة السياسيين أن يطبقوا المبادئ العالمية على قضايا محددة . بالإضافة إلى ذلك فإن القادة السياسيين يعاملون عموما على أنهم أسباب المنازعات لأنه يعتقد أنهم يشوهون ميل الإنسان الطبيعي للتوافق بحسابات مبهمة وأنانية .

وقد كذبت تصرفات معظم القادة السياسيين في فرساى التوقعات الويلسونية . فبدون استثناء أكد هؤلاء القادة على مصالحهم الوطنية وتركوا الدفاع عن الأهداف المشتركة لويلسون الذي لم تكن لبلده في الواقع مصالح وطنية (بالمعنى الأوروبي) في قضايا التسوية الإقليمية . إن من طبيعة الأنبياء أن يضاعفوا جهودهم ولا يتخلوا عنها ، في مواجهة الحقيقة الصعبة . ولم تترك العقبات التي واجهها ويلسون في فرساى أي شك لديه بشأن إمكانية تنفيذ تدابيره الجديدة . وعلى العكس فإن تلك العقبات قوت من إيمانه بضرورة تنفيذ تلك التدابير . وكان واثقا أن عصبة الأمم وقوة الرأي العالمي سوف تعملان على تصحيح الكثير من بنود المعاهدة التي شردت عن مبادئه .

والحقيقة أن قوة أفكار ويلسون ظهرت من أثرها على بريطانيا العظمى موطن سياسة ميزان القوى . وقد جاء في التعليق الرسمي البريطاني على ميثاق العصبة «إن الموافقة النهائية الفعالة يجب أن تكون من الرأي العام للعالم المتدين». أو كما قال لورد سيسيل أمام مجلس العموم البريطاني «إننا نعتمد على الرأي العام ... وإذا كنا مخطئين في ذلك فإن كل شيء خطأ».

ولا يبدو أنه من المحتمل أن يكون اتباع سياسة بيت وكاننج وبالمرستون ودزرائيلى قد وصلوا إلى تلك النتائج من تلقاء أنفسهم . ففي البداية تماشوا مع سياسة ويلسون حتى يضمنوا الدعم الأمريكي في الحرب . وبمضي الوقت نجحت سياسات ويلسون في جذب انتباه الرأي العام البريطاني . وفي العشرينيات والثلاثينيات لم يعد دفاع بريطانيا عن الأمن الجماعي إجراء تكتيكيا . لقد أحدثت الويلسونية تغييرا حقيقيا .

وفي النهاية سقط الأمن الجماعي فريسة لضعف منطقه الأساسي.. وهو أن جميع الدول لديها نفس المصلحة في مقاومة عمل عدوانى معين وأنها على استعداد للمجازفة بمخاطر متماثلة لمقاومة هذا العدوان . وقد أثبتت التجربة أن تلك الافتراضات كلها خاطئة . فلم يحدث أن هزم عمل عدوانى اشتركت فيه دولة كبرى عن طريق تطبيق مبدأ الأمن الجماعي . إما أن يكون المجتمع العالمي قد رفض أن يقيم العمل على أنه عمل عدواني أو أنه اختلف على العقوبات المناسبة التي تفرض على مرتكب العمل العدواني . وعندما طبقت العقوبات فقد كانت انعكاسا لصورة أقل اتفاقا في الرأي، وثبت كثيرا أنها غير فعالة وأنها حققت نتائج ضارة أكثر مما حققت نتائج طيبة .

وفي الوقت الذي تم فيه غزو اليابان لمنشوريا في عام ١٩٣٢ لم تكن لدى عصبة الأمم آلية لفرض العقوبات . وقد عالجت العصبة هذا القصور ولكنها عندما ووجهت باعتداء إيطاليا على

الحبشة صوتت من أجل فرض العقوبات بينما لم تتمكن من فرض قطع للبترول تحت شعار «كل العقوبات ماعدا الحرب». وعندما تم توحيد النمسا بالقوة مع ألمانيا وقضي على حرية تشيكوسلوفاكيا لم يكن هناك رد فعل من جانب عصبة الأمم على الإطلاق . وآخر عمل قامت به عصبة الأمم التي لم تعد تضم ألمانيا أو اليابان أو إيطاليا هو طرد الاتحاد السوفيتي بعد أن هاجم فنلندا عام ١٩٣٩ . ولم يكن لذلك أثر على تصرفات الاتحاد السوفيتي.

وأثناء الحرب الباردة كانت الأمم المتحدة غير ذات فعالية أيضا مثل عصبة الأمم، وذلك في كل حالة يقع فيها الاعتداء من جانب دولة كبرى ، وذلك يرجع إما إلى الفيتو الشيوعي في مجلس الأمن أو إلى رفض البلدان الصغرى تعريض نفسها لمخاطر بسبب قضايا شعرت أنها لا تهمها إطلاقا . كانت الأمم المتحدة بلا فعالية أو وقفت موقف المتفرج أثناء أزمة برلين ، وأثناء التدخل السوفيتي في المجر وتشيكوسلوفاكيا وأفغانستان . ولم تكن لها صلة بأزمة صواريخ كوبا إلى أن اتفقت الدولتان العظميان على تسوية الأزمة بينهما . وقد استطاعت أمريكا اللجوء إلى سلطة الأمم المتحدة ضد عدوان كوريا الشمالية عام ١٩٥٠ فقط لأن المندوب السوفيتي كان يقاطع مجلس الأمن، وكانت تسيطر على الجمعية العامة بلدان تتوق إلى تجنيد أمريكا ضد تهديد العدوان السوفيتي في أوروبا . وقد كانت الأمم المتحدة مكانا مريحا لاجتماعات الدبلوماسيين ومنبرا مفيدا لتبادل الآراء . وقامت كذلك بوظائف فنية مهمة . ولكنها لم تتمكن من تحقيق الغرض الأساسي من الأمن الجماعي، وهو منع نشوب الحرب والمقاومة الجماعية للعدوان .

وكان هذا صحيحا بالنسبة للأمم المتحدة حتى في فترة ما بعد الحرب الباردة . ففي حرب الخليج عام ١٩٩١ صدقت الأمم المتحدة فعلا على الإجراءات الأمريكية ، ولكن مقاومة العدوان العراقي لم تكن تطبيقا لمبدأ الأمن الجماعي . ولم تنتظر الولايات المتحدة الحصول على إجماع دولي في الرأي بل قامت من جانبها وحدها بإرسال قوة ضخمة إلى منطقة الخليج . ولم تكن الدول الأخرى تستطيع أن يكون لها تأثير على التحركات الأمريكية إلا بالانضمام إلى ما كان في الواقع مشروعا أمريكيا ؛ فلم يمكنها تجنب مخاطر النزاع بالاعتراض عليه . وبالإضافة إلى ذلك فإن الاضطرابات الداخلية في الاتحاد السوفيتي والصين أعطت الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة حافزا للمحافظة على النوايا الحسنة لأمريكا . وفي حرب الخليج تم الاستناد إلى الأمن الجماعي كمبرر للقيادة الأمريكية وليس كبديل لها .

وبالطبع هذه الدروس لم تكن قد عرفت في الأيام البريئة عندما دخل مفهوم الأمن الجماعي في البداية إلى المجال الدبلوماسي . وقد أقنع القادة السياسيون بعد فرساي أنفسهم نصف إقناع بأن التسلح هو سبب التوتر وليس نتيجة للتوتر، وكذلك اعتقدوا نصف اعتقاد أنه إذا حلت النوايا الحسنة محل الشكوك التي تتعامل بها الدبلوماسية التقليدية فربما أمكن أن تستأصل المنازعات الدولية . ورغم أن الحرب كانت قد استنزفت القادة السياسيين الأوروبيين عاطفيا إلا أنه كان يجب عليهم أن يدركوا أن المبدأ العام للأمن الجماعي لن يفلح أبدا حتى لو أمكن التغلب

على كل العقبات الأخرى التي يواجهها مادام استبعد ثلاثا من أقوى دول العالم: الولايات المتحدة وألمانيا والاتحاد السوفيتي . ولأن الولايات المتحدة رفضت الانضمام إلى عصبة الأمم، فقد مُنعت ألمانيا من عضويتها واحتقرها الاتحاد السوفيتي الذي عومل كأنه دولة منبوذة .

وكان البلد الذي عاني أكثر معاناة في فترة نظام ما بعد الحرب هو فرنسا «المنتصرة»... لقد أدرك القادة الفرنسيون أن شروط معاهدة فرساى لا يمكن أن تبقي ألمانيا ضعيفة إلى الأبد. فبعد الحرب الأوروبية الأخيرة – حرب القرم ١٨٥٤/١٨٥٦ – فإن البلدين المنتصرين بريطانيا العظمي وفرنسا تمكنتا من تنفيذ الشروط العسكرية على المهزومين أقل من سنتين. وفي أعقاب الحروب النابليونية أصبحت فرنسا عضوا كامل العضوية في الحلف الأوروبي بعد ثلاث سنوات فقط من قيام الحلف . وبعد فرساى أصبح انهيار فرنسا في مواجهة ألمانيا يتضح بصفة مستمرة رغم ما كان يبدو من أنها تسيطر على أوروبا عسكريا . وكان القائد الأعلى للقوات المسلحة الفرنسية على حق عندما قال عن معاهدة فرساى : « هذا ليس سلاما.. إنها هدنة لمدة عشرين عاما».

وفي عام ١٩٢٤ توصلت هيئة أركان القوات البرية البريطانية إلى نفس النتيجة عندما تنبأت بأن «ألمانيا ستخوض الحرب مرة أخرى مع بريطانيا العظمي بسبب قضايا ستكون ببساطة تكرارا للأحوال التي ساقتنا إلى الحرب السابقة». وقالت «إن القيود التي فرضتها اتفاقية فرساى على ألمانيا ستؤخر إعادة تسليح ألمانيا تسعة شهور على الأكثر و إذا شعرت ألمانيا بأنها قوية سياسيا فسوف تتخلص من قيود فرساى».. الأمر الذي قدرت هيئة الأركان أنه سيحدث في غضون عشر سنوات . وفي نفس الوقت الذى ظهرت فيه تحليلات الفرنسيين تنبأت هيئة الأركان البريطانية أيضا أن «فرنسا سوف تكون عاجزة ما لم تعمل في الوقت نفسه على عقد حلف عسكري مع دول من الدرجة الأولي» .

وكان الدولة المتاحة من الدرجة الأولى مع ذلك هي بريطانيا العظمى التي لم يقبل قادتها العسكريون آراء مستشاريهم العسكريين . وبدلا من ذلك كانت سياستهم تقوم على أساس الاعتقاد الخاطئ بأن فرنسا قوية جدا بالفعل وأن آخر شيء تحتاجه هو حلف بريطاني، واعتبر قادة بريطانيا العظمي أن فرنسا المنهارة معنويا هي التي لديها إمكانية أن تكون دولة مسيطرة وتحتاج إلى التوازن بينما اعتبرت أن ألمانيا التعديلية (التي تنادي بتعديل المعاهدة) هي الطرف المظلوم الذي يحتاج إلى إرضاء . وقد كان كلا الفرضين– أن فرنسا مسيطرة عسكريا ، وأن ألمانيا قد عوملت بقسوة – صحيحين على المدى القريب ؛ غير أنها كانت باعتبارها مقدمات منطقية للسياسة البريطانية نكبة على المدى البعيد . والقادة السياسيون ينجحون أو يفشلون حسب إدراكهم لاتجاهات الأمور من حولهم . وقد فشل القادة السياسيون البريطانيون في فترة ما بعد الحرب في إدراك الأخطار بعيدة المدى التي تواجههم.

كانت فرنسا في أشد الحاجة إلى حلف عسكري مع بريطانيا لكي يحل محل الضمان الذي

انتهي عندما رفض مجلس الشيوخ الأمريكي التصديق على معاهدة فرساى . ولما كان القادة البريطانيون لم يعقدوا أبدا حلفا عسكريا مع البلد الذي اعتبروه أقوى بلد في أوروبا ، فقد بدأوا يرون أن فرنسا أخذت تشعل من جديد نيران تهديداتها بالسيطرة على أوروبا . وفي عام ١٩٢٤ وصفت الإدارة المركزية في وزارة الخارجية البريطانية احتلال فرنسا لإقليم الراين بأنه «نقطة انطلاق لغزو أوروبا الوسطى» . وكان هذا رأيا يختلف تماما مع حالة فرنسا النفسية في ذلك الوقت . بل الأكثر تفاهة أن مذكرة وزارة الخارجية البريطانية عاملت احتلال إقليم الراين على أنه تطويق لبلجيكا ويشكل تهديدا مباشرا لإقليمي شيلت وزويدر زى and Zuider Zee Scheldt وبالتالي تهديدا غير مباشر لهذا البلد . وحتى لا يبزها أحد في إثارة الشكوك المعادية لفرنسا خرجت البحرية البريطانية بمقولة جاءت بها من حروب الخلافة الإسبانية أو من حروب نابليون: «إن إقليم الراين يطل على موانئ هولندية وبلجيكية سوف تفضي السيطرة عليها إلى إفساد مخططات الأسطول البحري البريطاني في حالة نشوب حرب مع فرنسا».

ولم يكن هناك أمل على الإطلاق في المحافظة على ميزان القوى في أوروبا مادامت بريطانيا العظمي تعتبر أن التهديد الأساسي هو بلد سياسته الخارجية المذعورة موجهة إلى

صد هجوم ألماني آخر . والحقيقة أن كثيرين في بريطانيا العظمي ، تكرارا للتاريخ ، بدأوا ينظرون إلى ألمانيا على أنها الجانب الذي سيوازن فرنسا . فمثلا قال السفير البريطاني في برلين فيسكونت دابرنون Dabernon Viscount إنه من صالح إنجلترا أن تظل ألمانيا ثقلا مضادا لفرنسا . وكتب في عام ١٩٢٣ يقول «مادامت ألمانيا ستظل كلا متماسكا فسيكون هناك تقريبا توازن للقوى في أوروبا . وإذا انهارت ألمانيا فسوف تتمتع فرنسا بسيطرة عسكرية وسياسية كاملتين استنادا إلى جيشها وأحلافها العسكرية». وكان هذا صحيحا ولكنه كان بالكاد السيناريو المحتمل الذي ستواجهه الدبلوماسية البريطانية في عقود قادمة.

وكانت بريطانيا العظمي على حق في أن تقول – كما فعلت دائما – أنه بعد النصر فإن إعادة بناء النظام الدولي تتطلب عودة العدو السابق إلى مجموعة الأمم . غير أن استرضاء ألمانيا لن يعيد الاستقرار مادام ميزان القوي سيستمر في أن يميل بإصرار نحو ألمانيا . وكانت فرنسا وبريطانيا العظمي التي كانت الوحدة بينهما أساسية للمحافظة على آخر ميزان مشترك للقوى تحملق كل منهما في الأخرى في غضب وخيبة أمل وسوء فهم ، بينما كان مصدر التهديد الحقيقي لميزان القوى – ألمانيا والاتحاد السوفيتي – يقفان ويتفرجان في استياء عابس . وقد بالغت بريطانيا العظمي كثيرا في تقديرها لقوة فرنسا، وبالغت فرنسا كثيرا في تقدير قدرتها على استخدام معاهدة فرساى في التعويض عن شعورها بالنقص المتزايد أمام ألمانيا . لقد كانت مخاوف بريطانيا العظمي من احتمالات سيطرة فرنسا على أوروبا سخفا ، وكان اعتقاد فرنسا بأنها تستطيع ممارسة سياستها الخارجية على أساس إبقاء ألمانيا مقهورة ، وهما ممزوجا باليأس .

ولعل أهم سبب لرفض بريطانيا العظمي عقد حلف مع فرنسا هو أن قادتها لم يروا عن حق أن معاهدة فرساي عادلة ، والأقل من ذلك التسوية في أوروبا الشرقية، وقد خشوا أن يجرهم حلف مع فرنسا ، التي لديها مواثيق مع بلدان أوروبا الشرقية ، إلى منازعات حول قضايا باطلة والدفاع عن بلدان غير التي ينبغي الدفاع عنها . وقد أعرب لويد جورج عن الحكمة التقليدية في ذلك الوقت عندما قال:

إن الشعب البريطاني ... لن يكون على استعداد للتورط في منازعات قد تنشأ بشأن بولندا أو دانزج Danzig في سيليسيا العليا ... إن البريطانيين يشعرون أن سكان تلك المنطقة في أوروبا غير مستقرين ومنزعجين ، وقد يبدءون القتال في أي وقت وقد يكون من الصعوبة للغاية الفصل بين الخطأ والصواب في هذا النزاع .

وباتخاذهم تلك الاتجاهات لجأ القادة البريطانيون إلى إجراء المناقشات حول احتمال عقد حلف فرنسي وذلك كوسيلة تكتيكية للتخفيف من الضغوط الفرنسية على ألمانيا وليس كإسهام جدي منهم في تحقيق الأمن الدولي . وهكذا واصلت فرنسا محاولاتها اليائسة لكى تظل ألمانيا ضعيفة. وحاولت بريطانيا تدبير ترتيبات أمنية لتهدئة المخاوف الفرنسية دون أن تتحمل بريطانيا أي التزامات . وكانت تلك مشكلة لا يمكن علاجها بهذا الشكل، ذلك لأن بريطانيا العظمي لا يمكن أن تقنع نفسها بأن تقدم إلى فرنسا الضمان الوحيد الذي كان يمكن أن يسفر عن سياسة خارجية فرنسية تحقق مزيدا من الهدوء مع ألمانيا وتساعد على التوفيق بين البلدين. وكان هذا الضمان هو حلف عسكري كامل .

وفي عام ١٩٢٢ عندما أدرك برياند Briand رئيس وزراء فرنسا ، أن البرلمان البريطاني لا يمكن أن يؤيد تحمل بريطانيا أي التزام عسكري رسمي، رجع إلى سابقة الاتفاق الودي لعام ١٩٠٤ – أي التعاون الدبلوماسي البريطاني الفرنسي بدون شروط عسكرية – غير أنه في عام ١٩٠٤ كانت بريطانيا قد شعرت أنها مهددة ببرنامج زيادة الأسطول البحري الألماني وبمضايقة ألمانيا المستمرة لمن هم أضعف منها . وفي عام ١٩٢٠ كانت بريطانيا تخشى ألمانيا أقل مما كانت تخشى فرنسا التي أرجعت سوء سلوكها خطأ إلى العجرفة بدلا من الذعر . ورغم أن بريطانيا العظمي وافقت كارهة على اقتراح برياند فقد تبين دافعها الحقيقي من ذلك في مذكرة ساخرة صدرت عن الوزارة دافعت عن الحلف الفرنسي من حيث إنه وسيلة لتعزيز علاقات بريطانيا مع ألمانيا :

ألمانيا بالنسبة لنا هي أهم بلد في أوروبا ليس فقط بسبب تجارتنا معها بل لأنها مفتاح الموقف في روسيا . وبمساعدتنا لألمانيا قد نعرض أنفسنا في ظل الظروف الحالية إلى تهمة التخلي عن فرنسا ؛ غير أنه إذا كانت فرنسا حليفتنا فلن يوجه إلينا مثل ذلك الاتهام . وسواء كان السبب أن الرئيس الفرنسي الكسندر ميللران Alexander Millerand شعر بالتهرب البريطاني أو لأنه وجد تلك الترتيبات غير منظمة ولا شكل لها فقد رفض مشروع بريان وقد أدى

ذلك إلى استقالة رئيس الوزراء (بريان) .

ولما خاب أمل فرنسا في محاولتها التوصل إلى عقد حلف تقليدي مع بريطانيا العظمى حاولت بعد ذلك أن تحقق نفس النتيجة عن طريق عصبة الأمم بأن وضعت تعريفا دقيقا للعدوان. وتحول هذا بعد ذلك إلى التزام دقيق بإطار عمل عصبة الأمم وبذلك تحولت العصبة إلى حلف عالمي . وفي شهر سبتمبر عام ١٩٢٣ وضع مجلس العصبة معاهدة عالمية لتبادل المساعدات وذلك بناء على طلب بريطانيا وفرنسا . ففي حالة نشوب أي نزاع يخول للمجلس أن يحدد من هو البلد المعتدي ومن هو البلد المعتدى عليه . ويكون كل عضو في العصبة عندئذ ملزما بأن يساعد الضحية بالقوة إذا لزم الأمر من البلد الذي يوجد به هذا العضو الموقع على المعاهدة (وقد أضيف هذا التوضيح لتجنب أن تجلب العصبة على نفسها التزاما بتقديم المساعدة في حالة المنازعات الاستعمارية). ولما كان المقصود أن تشتق التزامات مبدأ الأمن الجماعي من القضايا العامة وليس من المصالح الوطنية فقد نصت المعاهدة على أنه من أجل أن يكون للضحية أهلية الحصول على المساعدة فلابد أن يكون قد وقع علي اتفاقية لنزع السلاح صدقت عليها عصبة الأمم وأن يكون قد خفض قواته المسلحة طبقا لجدول متفق عليه.

وحيث إن الضحية هو دائما الجانب الأضعف ، فإن معاهدة العصبة لتبادل المساعدات كانت فى الواقع توفر حوافز للعدوان وذلك لأنها تطلب من الجانب الأكثر عرضة للهجوم أن يسوى المصاعب التي يواجهها . وكان هناك شيء سخيف في الاقتراح القائل أن النظام الدولي ستتم حمايته بعد ذلك لصالح أحسن من ينزع سلاحه بدلا من أن تكون هذه الحماية للمحافظة على المصالح الوطنية . وبالإضافة إلى ذلك ، فلما كان وضع جداول تخفيض السلاح في اتفاقية عامة لنزع السلاح سيستغرق أعواما من المفاوضات ، فإن المعاهدة العالمية لتبادل المساعدات تسببت فى إيجاد فراغ كبير. ولما كان التزام العصبة بمقاومة العدوان قد حدد له أن يبدأ تنفيذه في مستقبل بعيد غامض فكان علي فرنسا وأي بلد مهدد أن يواجه الخطر الذي يتعرض له وحده .

ورغم ما بها من بنود لتجنب الالتزامات أو المطالب لم تفلح المعاهدة في الحصول على تأييد كبير . فقد رفضت الولايات المتحدة كما رفض الاتحاد السوفيتي دراستها . ولم يطلب أحد رأي ألمانيا فيها . فبمجرد أن اتضح من مسودة المعاهدة أنها ستلزم بريطانيا العظمي التي لها مستعمرات في كل قارة بمساعدة أي ضحية من ضحايا العدوان في أي مكان ، شعر وزير العمل البريطاني رمزى ماكدونالد Ramsy Macdonald بأنه مضطر أن يقول إن بريطانيا لا يمكنها أن تقبل المعاهدة رغم أنها ساعدت علي صياغتها .

وفي ذلك الوقت تحول طلب فرنسا للأمن إلى هوس مفرط . وتماديا في قبولها لعبث جهودها رفضت فرنسا أن تتخلى عن بحثها عن معيار يتمشى مع الأمن الجماعي، خاصة بعد أن أيدت الحكومة البريطانية برئاسة رمزي مكدونالد تأييدا شديدا للأمن الجماعي ونزع السلاح. أي ما

يسمى بالقضايا التقدمية التي قدمتها العصبة . وأخيرا تقدم ماكدونالد ورئيس وزراء فرنسا الجديد إدوارد هيريو Edouard Herriot بنسخة مختلفة للاقتراح السابق. واتفاقية جنيف لعام ١٩٢٤ تطلب أن تقوم العصبة بالتحكيم في جميع المنازعات الدولية ووضعت ثلاثة معايير للالتزام الرسمي العالمي بمساعدة ضحايا العدوان هي: رفض المعتدي السماح للمجلس بتسوية النزاع بالتراضي ؛ وامتناع المعتدى عن عرض القضية للتسوية القضائية أو التحكيم وبالطبع عضوية المعتدي في نظام لنزع السلاح العام. وكل من الأعضاء الموقعين ملزم بمساعدة الضحية بكل الوسائل المتاحة ضد المعتدي الموصوف بهذا الشكل .

وقد فشلت اتفاقية جنيف كذلك لنفس سبب فشل معاهدة تبادل المساعدات كما فشلت كل المشاريع الأخرى للأمن الجماعي في عشرينات القرن العشرين ١٩٢٠ . لقد اقترحت بريطانيا العظمي المعاهدة لكي تجر فرنسا إلى نزع السلاح ، وليس لخلق التزام دفاعي جديد . وقد وافقت فرنسا على الاتفاقية أساسا بوصفها التزاما بتبادل المساعدة ، ولم يكن اهتمامها بنزع السلاح سوى اهتمام ثانوي فقط . ولكي تؤكد الولايات المتحدة عدم جدوى كل ذلك أعلنت أنها لن تنفذ شروط اتفاقية جنيف أو تسمح بأي عرقلة للتجارة الأمريكية بموجبها . وعندما حذر رئيس هيئة الدفاع البريطاني من أن الاتفاقية سوف تتسبب في فرض التزامات على القوات البريطانية بشكل خطير سحبتها الوزارة البريطانية في بداية عام ١٩٢٥.

كانت كل هذه الأمور منافية للعقل . فقد أصبحت مقاومة العدوان تعتمد على نزع السلاح المسبق للضحية . وقد انتزعت الشرعية من الاعتبارات الجغرافية السياسية والأهمية الاستراتيجية للمنطقة وهي أسباب كانت تدفع الدول إلى خوض الحروب طيلة قرون مضت ووفقا لتلك الاتجاهات سيكون على بريطانيا العظمي أن تدافع عن بلجيكا ليس لما لها من أهمية استراتيجية حيوية بل لأنها نزعت سلاحها . وبعد شهور من المفاوضات لم تحقق الديمقراطيات تقدما لا في مجال نزع السلاح ولا في مجال الأمن . وكان لنزعة الأمن الجماعي نحو تحويل العدوان إلى مشكلة قانونية مجردة، ورفضها النظر في أي التزام أو تهديد بعينه تأثير مدمر للمعنويات وليس تأثيرا مطمئنا .

ورغم الثناء الشفوي التي أسبغته بريطانيا على هذا المفهوم ، فقد اعتبرت التزامات الأمن الجماعي أقل من الأحلاف التقليدية من حيث تقييد الأطراف المشاركة فيه. وقد أثبتت الوزارة أنها خصيبة في ابتداع صيغ مختلفة للأمن الجماعي بينما رفضت في إصرار عقد أي حلف رسمي مع فرنسا حتى عشية الحرب ، أي بعد ذلك بعقد ونصف عقد . ولا جدال في أنها لم تكن تميز بين الاتجاهين لو أنها لم تر أن احتمالات تنفيذ التزامات الأمن الجماعي أقل وأسهل في تجنبها من التزامات الأحلاف .

وكان أعقل طريق يتبعه الحلفاء هو إعفاء ألمانيا طوعا من أكثر بنود معاهدة فرساى تشددا وتشكيل حلف فرنسي بريطاني قوي . وكان كل هذا في ذهن ونستون تشرشل عندما طالب بعقد

حلف مع فرنسا «إذا (وفقط إذا) غيرت من معاملتها لألمانيا ووافقت بنية مخلصة على سياسة بريطانية هدفها مساعدة ألمانيا وصداقتها». وعلى أي حال فمثل تلك السياسة لم تنتهج أبدا بشكل متماسك . فقد كان القادة الفرنسيون خائفين جدا من كل من ألمانيا ومن الرأي العام في بلدهم، الذي كان معاديا لألمانيا بشدة ، وكان القادة البريطانيون نزاعين إلى الشك في مخططات فرنسا .

وكان من أثر بنود نزع السلاح في معاهدة فرساي أن اتسعت هوة الخلاف بين إنجلترا وفرنسا . ومن السخرية الكبيرة أنها سهلت الطريق لألمانيا لكي تحقق المساواة العسكرية الأمر الذي من شأنه نظرا لضعف أوروبا الشرقية أن يتسبب في التفوق الجغرافي السياسي في المدى البعيد . لقد مزج الحلفاء المحاباة بعدم الكفاءة وذلك بأن أهملوا إنشاء أية آلية للتحقق من تنفيذ بنود نزع السلاح . وقد تنبأ أندريه تراديو المفاوض الفرنسى الرئيسي في فرساى في خطاب له إلى كولونيل هاوس عام ١٩١٩ بأن عدم إنشاء آلية التحقق سوف يعطل بنود نزع السلاح في المعاهدة :

لقد وضع صك ضعيف ، وخطير وسخيف.. هل ستقول عصبة الأمم لألمانيا «عليك أن تثبتي أن معلوماتي خاطئة».. أو تقول لها، إننا نريد أن نتحقق .. ولكنها في هذه الحالة تدعي لنفسها حق الإشراف. وسوف ترد ألمانيا قائلة .. وبأي حق هذا ؟

سيكون هذا هو رد ألمانيا وسوف يكون لها الحق في هذا الرد إذا لم تكن المعاهدة ترغمها على قبول حق التحقق.

في الأيام البريئة قبل أن تصبح دراسة مراقبة التسلح موضوعا أكاديميا لم يكن أحد يرى أنه من الغريب أن يطلب من ألمانيا أن تثبت نزع سلاحها . ولا مراء في أن لجنة إشراف عسكرية مشتركة بين الحلفاء قد أنشأت . غير أنها لم يكن لها حق التفتيش المستقل؛ وكان يمكنها فقط أن تطلب من الحكومة الألمانية معلومات عن الانتهاكات الألمانية لنزع السلاح _ وهذا ليس إجراء مضمونا ضمانا أكيدا. وقد تم حل اللجنة فى عام ١٩٢٦ وتركت عملية التحقق من نزع السلاح إلى مخابرات الحلفاء . وليس من الغريب والأمر كذلك أن تنتهك بنود نزع السلاح لفترة طويلة قبل أن يعلن هتلر رفضه تنفيذها .

وعلى المستوى السياسي أصر القادة الألمان بمهارة على نزع السلاح العام الذي نصت عليه معاهدة فرساى والذي كان نزع سلاحهم أول مرحلة فيه . وبمرور الوقت تمكنوا من الحصول على تأييد بريطانيا لهذه المسألة واستخدموها لتبرير عدم تمكنهم من تنفيذ بنود أخرى في المعاهدة . ولكي تضغط بريطانيا علي فرنسا أعلنت عن تخفيضات ضخمة في قواتها البرية (التي لم يحدث أن اعتمدت عليها إطلاقا لتوفير أمنها) ولكنها لم تعلن عن تخفيض قواتها البحرية (التي تعتمد عليها دائما في أمنها) . ومن ناحية أخرى فإن أمن فرنسا يعتمد كلية على أن يكون جيشها دائم الاستعداد أكثر من جيش ألمانيا وذلك لأن إمكانيات ألمانيا الصناعية

وشعبها أكثر تفوقا من فرنسا . وكان للضغط لتغيير هذا الميزان – إما عن طريق إعادة تسليح ألمانيا أو نزع سلاح فرنسا – نتيجة وهي تغير نتائج الحرب إلى العكس . ففى الوقت الذي تولى فيه هتلر الحكم في ألمانيا كان من الواضح فعلا أن شروط نزع السلاح في المعاهدة سرعان ما ستبلي وتظهر ميزة ألمانيا الجغرافية السياسية .

وكانت التعويضات عنصرا آخر من عناصر الفرقة بين بريطانيا وفرنسا . فقبل معاهدة فرساي كان من البديهي أن الجانب المهزوم هو الذي يدفع التعويضات . فبعد الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ لم تشعر ألمانيا بأنها تريد اللجوء إلى أي مبدأ سوى انتصارها للحصول على التعويضات التي فرضتها على فرنسا ، وحدث نفس الشيء في عام ١٩١٨ عندما قدمت ألمانيا فاتورة التعويضات الصاعقة إلى روسيا في معاهدة برست – ليتوفسك.

ومع ذلك ففي ظل نظام العالم الجديد الذي وضعته معاهدة فرساى ، بدأ الحلفاء يعتقدون أن التعويضات تتطلب تبريرا أخلاقيا . وقد عثروا على هذا التبرير في المادة ٢٣١ أو البند المتعلق بذنب المسئول عن إشعال الحرب الذي ورد وصفه في الفصل السابق . وقد هوجم هذا البند بعنف في ألمانيا وقضى على الحافز الذي كان ضعيفا بالفعل هناك للتعاون مع التسوية السلمية .

وأحد الجوانب المذهلة في معاهدة فرساى هو أن من صاغوها أدرجوا فيها بندا دقيقا مثيرا للاستياء عن المذنب في جريمة الحرب دون أن يحددوا قيمة المبالغ التي يجب أن تدفع كتعويضات . وقد ترك تحديد قيمة التعويضات للجان من الخبراء تشكل في المستقبل وذلك لأن المبالغ التي حددها الحلفاء وجعلوا شعوبهم تتوقعها كانت باهظة للغاية إلى حد أنه لم يكن من الممكن أن تفوت ضخامة هذه المبالغ على دقة ويلسون ولا تحليلات الخبراء الماليين الجدية .

وبهذه الطريقة أصبح موضوع التعويضات مثل موضوع نزع السلاح، سلاحا في أيدى التعديليين الألمان ؛ فكان الخبراء يزداد شكهم ليس فقط في الطابع الأخلاقي للتعويضات بل في إمكانية دفعها . وكان ما كتبه جون ماينارد كينز John Maynard Keynes «بحث في النتائج الاقتصادية للصلح Treaties on the Economic Consequnces of Peace مثالا حيا لذلك». وفي النهاية فإن موقف المنتصر في المساومة أخذ دائما يتضاءل بمرور الوقت . وما لا ينفذ أثناء صدمة الهزيمة يصبح من الصعوبة المتزايدة تنفيذه بعد ذلك – وكان هذا درسا كان على أمريكا أن تتعلمه فيما يتعلق بالعراق في نهاية عام ١٩٩١ في حرب الخليج .

ولم يحدث إلا في عام ١٩٢١ – بعد سنتين من معاهدة فرساى – أن تحدد في النهاية رقم للتعويضات . كان الرقم مرتفعا إلى حد سخيف : ١٣٢ بليون مارك ذهبي (حوالي ٤٠ بليون دولار قيمتهم الحالية ٣٢٣ بليون دولار) وهو مبلغ كان سيتطلب من ألمانيا أن توالى دفعه حتى نهاية القرن . وكان المتوقع أن تعلن ألمانيا إفلاسها ، حتى لو تمكن النظام المالي الدولي من استيعاب تلك الموارد الضخمة فلم يكن من الممكن أن تستمر أية حكومة ألمانية توافق علي

ذلك في الحكم في ألمانيا.

وفي صيف عام ١٩٢١ دفعت ألمانيا القسط الأول من فاتورة التعويضات وحولت بليون مارك (٢٥٠ مليون دولار) . ولكنها فعلت ذلك بأن طبعت أوراق بنكنوت وباعتها مقابل عملة أجنبية في الأسواق إلى حد أنه لم يحدث بالفعل أي تحويل للموارد من ألمانيا . وفي نهاية عام ١٩٢٢ اقترحت ألمانيا تأجيل دفع أقساط التعويضات لمدة أربع سنوات .

لقد ازداد الآن بشدة هبوط معنويات النظام الدولي الذي جاء بسبب فرساي وهبوط معنويات فرنسا وهي دعامة هذا النظام في أوروبا . ولم تنشأ آلية لتنفيذ دفع التعويضات ولم تنشأ آلية للتحقق من نزع السلاح . وحيث إن فرنسا وبريطانيا العظمي كانتا مختلفتين حول كلتا المسألتين ، وكانت ألمانيا تشعر باستياء شديد ، وكانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي خارج الصورة ، فقد أدت فرساي في الواقع إلى نوع من حرب العصابات الدولية ولم تؤد إلى إيجاد نظام عالمي. وبعد أربع سنوات من انتصار الحلفاء أصبح موقف ألمانيا في المساومة أكثر قوة من موقف فرنسا . وفي هذا الجو ، دعا لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا إلى عقد مؤتمر دولي في جينوا في أبريل ١٩٢٢ وذلك في محاولة عاقلة لبحث مسألة التعويضات وديون الحرب وانتعاش أوروبا في رزمة واحدة – وذلك على غرار ما فعل مشروع مارشال بعد ذلك بجيل – وحيث إنه كان من المستحيل التفكير في انتعاش أوروبا اقتصاديا بدون أن تشترك في ذلك أكبر دولتين أوروبيتين (اللتين تصادف أيضا أنهما الدولتان المدينتان الرئيسيتان) ألمانيا والاتحاد السوفييتي فقد دعي المنبوذان من السياسة الخارجية إلى حضور مؤتمر دولي لأول مرة في فترة ما بعد الحرب . ولم تكن النتيجة هي إسهام آمال لويد جورج في إقامة نظام دولي بل كانت النتيجة أن المؤتمر هيأ الفرصة للدولتين المنبوذتين لكي تقتربا من بعضهما .

لم يظهر شيء يشبه الاتحاد السوفيتي من بعيد في أفق الدبلوماسية الأوروبية منذ الثورة الفرنسية، فلأول مرة منذ أكثر من قرن يكرس بلد نفسه للقضاء رسميا على النظام الرسمي الراسخ. لقد حاول الثوار الفرنسيون تغيير شخصية الدولة وتمادي البلاشفة (الأغلبية في الحزب الشيوعي السوفيتي) خطوة واقترحوا إلغاء الدولة برمتها . وكما قال لينين «مجرد أن تذبل الدولة لن تكون هناك حاجة للدبلوماسية أو السياسة الخارجية».

وفي البداية أزعج هذا الموقف البلاشفة أنفسهم والذين كانوا مضطرين أن يتعاملوا معهم. لقد وضع البلاشفة الأوائل نظريات عن صراع الطبقات والاستعمار كأسباب للحرب. ومع ذلك فهم لم يتناولوا أبدا مسألة كيفية تسيير السياسة الخارجية بين الدول ذات السيادة . وكانوا واثقين من أن الثورة العالمية سوف تتبعهم وتحقق مثل انتصارهم في روسيا في غضون شهور قلائل واعتقد المبالغون في التشاؤم أن ذلك قد يستغرق سنوات قلائل . وقد رأى ليون تروتسكي Leon Trotsky أول وزير خارجية سوفيتي أن مهمته أكثر بقليل من مهمة كاتب يعمل لكي يسيء إلى سمعة الرأسماليين بالكشف عن المعاهدات السرية التي اقترحوا بها تقسيم غنائم

الحرب فيما بينهم . وقال إن دوره هو «أن يصدر عدة بيانات ثورية إلى شعوب العالم ثم يكف عن العمل بعد ذلك». ولم يفكر أي من القادة الشيوعيين الأوائل أنه من الممكن أن تتعايش دولة شيوعية مع دول رأسمالية عقودا طويلة . وحيث إنه كان من المتوقع بعد شهور أو سنوات قليلة أن تختفي الدولة كلية فكان من المعتقد أن المهمة الرئيسية للسياسة الخارجية في المبدأ هي تشجيع الثورة العالمية وليس إدارة العلاقات بين الدول .

وفي مثل تلك الظروف فإن استبعاد الاتحاد السوفييتي من عملية صنع السلام في فرساى كان مفهوما . فلم يكن لدى الحلفاء أي حافز لكي يشركوا معهم في مداولاتهم بلد قد عقد بالفعل سلاما منفصلا مع ألمانيا ويحاول عملاؤه الإطاحة بحكوماتهم . وحتى لينين ورفاقه لم تكن لديهم أي رغبة في الاشتراك في النظام الدولي الذي يحاولون القضاء عليه .

ولم يكن هناك في مناقشات البلاشفة الداخلية المبهمة التي لا تنتهي ما هيأهم لحالة الحرب التي كانوا في الحقيقة قد ورثوها . ولم يكن لديهم أي برنامج محدد للسلام ذلك لأنهم لم يفكروا في بلدهم كدولة بل فكروا فيها كقضية فقط . ولذلك كانوا يتصرفون وكأن إنهاء الحرب وتشجيع الثورة الأوروبية هما نفس العملية . والواقع أن أول مرسوم لهم عن السياسة الخارجية الذي نشر بعد إعلان ثورة عام ١٩١٧ بيوم واحد وسموه مرسوم السلام هو نداء لحكومات وشعوب العالم لتحقيق ما وصفوه بالسلام الديمقراطي .

وقد تهاوت أوهام البلاشفة على وجه السرعة . فقد وافقت القيادة العليا الألمانية على الدخول في مفاوضات من أجل عقد معاهدة صلح في برست – ليتوفسك ولعقد هدنة بينما تكون المحادثات جارية . وفي البداية تصور تروتسكي أنه يستطيع أن يستخدم التهديد بالثورة العالمية كسلاح في المساومة وأن يتصرف كمحام عن البروليتاريا (الطبقة العاملة). ولسوء حظ تروتسكي أن المفاوض الألماني كان جنرالا منتصرا ولم يكن فيلسوفا . وقد فهم ماكس هوفمان Max Hofman رئيس هيئة أركان الجبهة الشرقية مسألة توازن القوات وقدم شروطا في غاية القسوة في يناير عام ١٩١٨ . فطالب بضم منطقة البلطيق بأكملها وشريحة من بيلوروسيا ومحمية من حيث الأمر الواقع في أوكرانيا المستقلة كما طالب بتعويض ضخم . وعندما تعب من مماطلة تروتسكي أخرج خريطة عليها خطوطا زرقاء عريضة تبين المطالب الألمانية وأوضح أن ألمانيا لن تتراجع وراء ذلك الخط الذي حدده باللون الأزرق حتى تتوقف روسيا عن تعبئتها لقواتها.. وبمعنى آخر حتى تصبح بلا دفاع عن نفسها .

كانت نتيجة إنذار هوفمان أن بدأت أولى مناقشات جادة حول السياسة الخارجية في شهر يناير عام ١٩١٨ . وحث لينين يؤيده ستالين على تهدئة الأوضاع ؛ ودعا بوخارين Bukharin إلى حرب ثورية . وقال لينين إنه إذا لم تقم ثورة ألمانية أو قامت وفشلت فإن روسيا سوف تعاني من هزيمة ساحقة ، ستؤدي إلى سلام في غير صالحها إطلاقا . سلام سوف يعقد ليس بواسطة حكومة اشتراكية ، بل بحكومة أخرى ...ولما كانت تلك هي الحالة فلن يكون من التكتيك

المناسب المراهنة بمصير الثورة الاشتراكية التي بدأت في روسيا على احتمال أن تبدأ الثورة الألمانية في المستقبل القريب .

وفي تأييده لانتهاج سياسة خارجية تقوم على أساس مذهبي دعا تروتسكي إلى سياسة «لا سلام ولا حرب». ومع ذلك فإن ا لجانب الأضعف لديه اختيار واحد وهو محاولة كسب الوقت ضد غريم يعتبر المفاوضات تعمل فى خدمة منطقه الداخلي – وهو وهم تعرضت له الولايات المتحدة بصفة خاصة – ولم يحمل الألمان مثل تلك الآراء . فعندما عاد تروتسكي حاملا تعليمات تعلن سياسة اللاسلم واللاحرب وأعلن من جانب واحد – جانبه هو – أن الحرب قد انتهت، استأنف الألمان عملياتهم الحربية . وعندما ووجه بالهزيمة الكاملة وافق لينين ورفاقه على شروط هوفمان ووقع على معاهدة برست – ليتوفسك ووافق بذلك على التعايش مع الإمبراطورية الألمانية .

وفي خلال السنوات الستين التالية لذلك لجأ السوفييت مرارا إلى مبدأ التعايش مع بقاء رد فعل زعماء القضية ثابتا كما هو : فكانت الديمقراطيات ترحب في كل مرة بإعلان السوفييت عن التعايش السلمي على أنه علامة على التحول إلى سياسة سلام دائمة . ومع ذلك فإن السوفييت من جانبهم برروا دائما فترات التعايش السلمي على أن العلاقات بين القوى ليس من شأنها أن تؤدي إلى المواجهة . والنتيجة الطبيعية الواضحة لذلك هي أنه إذا تغيرت تلك العلاقات فسوف يتغير تمسك البلاشفة بالتعايش السلمي . وطبقا لما قاله لينين فإن الواقع هو الذي فرض التعايش مع الغريم الرأسمالي:

إننا بعقد سلام منفرد ، نحرر أنفسنا بأكبر قدر ممكن في اللحظة الراهنة ، من كلا الجانبين الاستعماريين المتحاربين؛ فباستغلال كراهيتهما المتبادلة فإننا نستغل الحرب التي تجعل عقد صفقة بينهما ضدنا أمرا صعبا.

وذروة تلك السياسة بالطبع كانت اتفاقية هتلر وستالين التي عقدت عام ١٩٣٩ . فقد تم بسهولة تفسير التناقضات تفسيرا منطقيا . وجاء في بيان شيوعي، «إننا مقتنعون بأن أكثر السياسات الاشتراكية ثباتا يمكن التوفيق بينها وبين الواقعية الصارمة والنزعة العملية المتزنة.

وفي عام ١٩٢٠ خطت السياسة الخارجية السوفيتية الخطوة النهائية في الاعتراف بالحاجة إلى انتهاج سياسة تقليدية بقدر أكبر مع الغرب عندما قال وزير الخارجية السوفيتي جورجي شيشيرين : Georgi Chicherin

قد يكون هناك اختلاف في الآراء فيما يتعلق بمدة بقاء النظام الرأسمالي غير أن النظام الرأسمالي موجود حاليا ولذلك يجب أن توجد طريقة للحياة ...ورغم الكلام الثوري ، فقد برزت في النهاية المصلحة الوطنية كهدف سوفيتي له الأهمية الكبرى ، وارتفع هذا الهدف وأصبح حقيقة اشتراكية مثلما كان لفترة طويلة لب سياسات الدول الرأسمالية . لقد أصبح البقاء الآن هو الهدف المباشر والتعايش هو الوسيلة .

ومع ذلك فسرعان ما واجهت الدولة الاشتراكية تهديدا عسكريا آخر عندما هاجمتها بولندا في شهر إبريل سنة ١٩٢٠ . فقد وصلت القوات البولندية إلى ضواحي مدينة كييف Kiev قبل أن تهزم . وعندما اقترب الجيش الأحمر في هجوم مضاد من العاصمة البولندية وارسو ، تدخل الحلفاء الغربيون وطالبوا بإنهاء هذا الهجوم وبتحقيق السلام . واقترح وزير الخارجية البريطاني لورد كيرزون Lord Curzon خطا فاصلا بين بولندا وروسيا كان السوفييت على استعداد لقبوله . غير أن بولندا رفضت ولهذا وضعت التسوية النهائية علي طول الخطوط العسكرية التي كانت موجودة قبل الحرب ناحية الشرق بمسافة أكبر من التي حددها كيرزون.

وقد عملت بولندا بذلك على زيادة حدة الكراهية مع عدويها التاريخيين: ألمانيا التي استولت منها على سيليسيا العليا والرواق البولندي؛ والاتحاد السوفيتي الذي استولت منه على المنطقة الواقعة شرق ما عرف بخط كيرزون. وعندما تبخر الدخان وجد الاتحاد السوفيتي نفسه أخيرا وقد تحرر من الحروب والثورة، ومع ذلك فقد خسر في المقابل كل ما استولى عليه القياصرة في البلطيق وفنلندا وبولندا وبيسيربيا والمناطق الواقعة على طول الحدود التركية . وفي عام ١٩٢٣ كانت موسكو قد استعادت السيطرة على أوكرانيا وجورجيا اللتين كانتا قد انفصلتا عن الإمبراطورية الروسية أثناء فترة الاضطرابات.. وتلك واقعة لا ينساها كثيرون من القادة الروس المعاصرين .

وكان على الاتحاد السوفيتي لاستعادة السيطرة الداخلية أن يقوم بتسوية عملية بين الحملات الثورية والسياسة الواقعية ، بين إعلان الثورة العالمية وممارسة التعايش السلمي . ورغم أن الاتحاد السوفيتي اختار تأجيل الثورة العالمية فقد كان أبعد ما يكون عن تأييد النظام العالمي القائم . فقد رأي في السلام فرصة لتصارع الرأسماليين معا . وكان هدفه المحدد هو ألمانيا ، التي لعبت دائما دورا كبيرا في الفكر السوفيتي وفي المشاعر الروسية . وفي شهر ديسمبر سنة ١٩٢٠ وصف لينين الاستراتيجية السوفيتية قائلا :

إن وجودنا يتوقف أولا علي وجود شق جذري في معسكر الدول الاستعمارية ، وثانيا على حقيقة أن انتصار الاتفاق Entente وصلح فرساى قد دفعا بالأغلبية العظمي من الشعب الألماني إلى موقف جعل ألمانيا لا تستطيع الحياة ... إن حكومة ألمانيا البورجوازية تكره البلاشفة بجنون، ولكن مصالح الموقف الدولي تدفعها إلى الصلح مع روسيا السوفيتية ضد إرادتها.

وتوصلت ألمانيا إلى نفس النتيجة . فأثناء الحرب بين روسيا وبولندا كتب الجنرال هانز فون سيكت Hans von Seeket واضع خطط الجيش الألماني بعد الحرب يقول :

إن الدولة البولندية الحالية هي خليقة الاتفاق. Entente وهي تحل محل الضغط الذي مارسته روسيا من قبل علي الحدود الشرقية لألمانيا . إن الحرب بين الاتحاد السوفيتي وبولندا لا تؤثر فقط على بولندا بل تؤثر أيضا على دولتى الاتفاق – فرنسا وبريطانيا – فإذا انهارت بولندا فإن صرح معاهدة فرساى بأكمله سيترنح . ويتضح من ذلك أن ألمانيا ليست لديها

مصلحة في تقديم أية مساعدة لبولندا في صراعها مع روسيا .

وقد أكد رأي فون سيكيت المخاوف التي أعرب عنها لورد بيلفور قبل ذلك بسنوات قليلة (وردت في الفصل السابق).. أن بولندا أعطت روسيا وألمانيا عدوا مشتركا وتجنبت أن يوازن أحدهما الآخر كما حدث في القرن التاسع عشر . وفي نظام فرساى لم تواجه ألمانيا اتفاقا ثلاثيا بل عددا وافرا من الدول في مراحل مختلفة من الخلافات بينها وكلهم يعارضهم بالمثل اتحاد سوفيتي بشكاوى إقليمية شبيهة تماما بشكاوى ألمانيا . وكانت فقط مسألة وقت قبل أن تتمكن الدولتان المنبوذتان من جمع مشاعرهما بالاستياء معا .

وجاءت الفرصة في عام ١٩٢٢ في رابالو Rappallo مدينة ساحلية بالقرب من جنوة والمكان الذي عقد فيه مؤتمر لويد جورج الدولي . ومن دواعي السخرية أن تلك الفرصة تهيأت بسبب الفصال المستمر حول التعويضات الذي استمر منذ معاهدة فرساي والذي اشتدت حدته بعد تقديم فاتورة تعويضات الحلفاء ومزاعم ألمانيا بأنها ليس في إمكانها دفع تلك التعويضات

وكانت هناك عقبة كبرى أمام نجاح المؤتمر وهي أن لويد جورج لم تكن لديه لا القوة ولا الحكمة اللتان جعلتا وزير الخارجية جورج مارشال فيما بعد يحقق النجاح لبرنامجه الخاص بإعادة التعمير . وفي اللحظة الأخيرة رفضت فرنسا أن يدرج موضوع التعويضات في جدول أعمال المؤتمر ، وكانت تخشى ، وكانت محقة في ذلك ، من أنه قد يطلب منها قبول تخفيض القيمة الإجمالية للتعويضات . ويبدو أن فرنسا كانت تقدر تقديرا كبيرا طلبها ،الذي لا يمكن تحقيقه رغم الاعتراف به دوليا ، بتسوية يمكن تحقيقها . وكانت ألمانيا تنظر قدما إلى الموافقة علي قرار بتأجيل دفع التعويضات . وكان السوفييت يرتابون في أن الحلفاء قد يحاولون حل المأزق بربط ديون القيصر الروسي بالتعويضات الألمانية وبالتالي سيطلب من الاتحاد السوفيتي إقرار ديون القيصر على أن ترد إليه من التعويضات الألمانية . وقد تركت المادة ١١٦ من معاهدة فرساى تلك الإمكانية بالتحديد مفتوحة .

ولم تكن لدى الحكومة السوفيتية أية نوايا للاعتراف بديون القيصر الروسى مثلما فعلت ولم تعترف بالمطالب المالية لفرنسا وبريطانيا ، ولم تكن حتى تريد إضافة ألمانيا إلى قائمة أعدائها الطويلة بأن تنضم إلى دوامة التعويضات التى تطالب ألمانيا بدفعها . ولكي تحول دون مؤتمر جينوا وتسوية هذه القضية لغير صالح السوفييت اقترحت موسكو مقدما أن تقيم الدولتان المنبوذتان علاقات دبلوماسية بينهما ويعلنا معا التخلى عن مطالب كل منهما من الأخرى . وحيث إن ألمانيا لم تكن تريد أن تكون أول بلد أوروبي يقيم علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي، وتعرض بذلك فرصها للحصول علي نجدة من فاتورة التعويضات ، فقد تلافت الاقتراح . وظل الاقتراح على المائدة إلى أن فرضت الأحداث في جينوا تغيرا في المواقف .

وقد تمني جورجي شيشيرين وزير الخارجية السوفيتى الأرستقراطي المولد الذي أصبح

ولوعا بالقضية البلشفية هذه الفرصة التي هيأتها جينوا لوضع المعتقدات الثورية في خدمة السياسة الواقعية . ونادي بـ«التعايش السلمي» بطريقة وضعت التعامل العملي فى وضع أسمى متطلبات الأيديولوجية :

إن الوفد الروسي يدرك في الفترة الراهنة من التاريخ التي تتيح التواجد المتوازي للنظام الاجتماعي القديم والنظام الجديد الذي يولد الآن أن التعاون الاقتصادي بين الدول التي تمثل نظامي الملكية هذين ضروري للغاية من أجل إعادة البناء الاقتصادي .

وفي الوقت نفسه أرفق شيشرين بندائه من أجل التعاون اقتراحا وضع بدقة لزيادة ارتباك الديمقراطيات . فقد تقدم بجدول أعمال على درجة كبيرة من الشمول إلى حد أنه لا يمكن تنفيذه ولا يمكن كذلك أن تتجاهله الحكومات الديمقراطية – وتلك وسيلة ظلت دائما تستخدمها الدبلوماسية السوفيتية. وقد تضمن جدول الأعمال هذا إلغاء أسلحة الدمار الشامل، وعقد مؤتمر اقتصادي عالمي ، وفرض سيطرة دولية على جميع الممرات المائية. والهدف من ذلك الجدول هو تعبئة الرأي العام في العالم الغربي ولإعطاء موسكو صفة الدولة التي تدعو إلى السلام العالمي الأمر الذي سيجعل من الصعب على الديمقراطيات أن تنظم حملات ضد الشيوعية ، الكابوس الذي كان يقض مضجع الكرملين .

وقد وجد شيشرين نفسه غريبا في جينوا رغم أنه لم يكن في حالته هذه يختلف كثيرا عن أعضاء الوفد الألماني. وظل الحلفاء الغربيون غافلين عن الإغراء الذي يصنعونه لكل من ألمانيا والاتحاد السوفيتي وذلك بأن تظاهروا أن هذين البلدين القويين في القارة يمكن ببساطة ألا يلتفت إليهما . وقد رفضت ثلاثة طلبات من المستشار الألماني ومن وزير خارجيته لمقابلة لويد جورج . وفي الوقت نفسه ، اقترحت فرنسا عقد مشاورات خاصة مع بريطانيا العظمي والاتحاد السوفييتي تستبعد منها ألمانيا . والغرض من تلك الاجتماعات هو إعادة إحياء المشروع القديم «استبدال ديون القيصر بالتعويضات الألمانية» وهو اقتراح رغم أنه كان حتى الدبلوماسيون الأقل ريبة من السوفييت سيفسرونه على أنه فخ لتقويض احتمالات تحسين العلاقات الألمانية السوفيتية.

وعند نهاية الأسبوع الأول من المؤتمر انتاب ألمانيا والاتحاد السوفيتي كلتيهما القلق من أنهما قد يوضعان كل ضد الآخر . وعندما قام واحد من مساعدى شيشرين بالاتصال تليفونيا بالوفد الألماني في الساعة الواحدة والنصف من صباح ١٦ أبريل عام ١٩٢٢ واقترح عقد اجتماع في ساعة متأخرة من ذلك اليوم في رابالو ، هب الألمان إلى الاجتماع فورا . كانوا تواقين لإنهاء عزلتهم بقدر ما كان السوفييت يريدون أن يتجنبوا الحصول على الميزة المشكوك فيها بأن يصبحوا دائني ألمانيا . ولم يضيع وزيرا الخارجية وقتا كبيرا في وضع اتفاق أقامت بموجبه ألمانيا والاتحاد السوفيتي علاقات دبلوماسية كاملة بينهما وتخليا عن مطالب كل منهما من الأخرى ومنحت كل منهما الأخرى حق معاملة الدولة الأفضل . وعندما تلقي لويد

جورج أنباء متأخرة عن ذلك الاجتماع حاول مسعورا الاتصال بالوفد الألماني لكي يدعوه إلى الاجتماع الذي كان قد رفضه مرارا من قبل. وقد وصلت رسالة لويد جورج إلى راثينو Rathenau المفاوض الألماني بينما كان يستعد للذهاب إلى مكان الاجتماع لتوقيع الاتفاقية الألمانية الروسية . وتردد قليلا ثم قال: «لقد صنع النبيذ ويجب أن نحتسيه».

وفي غضون عام كانت ألمانيا والاتحاد السوفييتي يتفاوضان حول اتفاقيات سرية للتعاون العسكري والاقتصادي . ورغم أن رابالو أصبحت فيما بعد رمزا للأخطار التي يتعرض لها التقارب الألماني السوفيتي ، فقد كان ما حدث واحدا من الحوادث العرضية الفاجعة الذي كان يبدو محتما إذا نظر إليه استعراضا لما حدث في وقت مضى وكان حادثا عرضيا لأن أحدا لم يخطط له عندما وقع ، وكان محتما لأن المسرح الذي وقع فيه أعده الحلفاء الغربيون وقد سيطرت عليهم مشاعر نبذ أكبر دولتين أوروبيتين ، وذلك بصنع حزام من الدول الضعيفة المعادية للدولتين الكبيرتين وبتمزيقهم كلا من ألمانيا والاتحاد السوفيتي . وقد ساهم كل ذلك في خلق أكبر حافز لدي ألمانيا والاتحاد السوفيتي للتغلب علي العداوة المذهبية بينهما والتعاون من أجل القضاء على معاهدة فرساي .

ولم يكن لرابالو نفسها تلك العاقبة ، فقد كانت مع ذلك رمزا لرغبة جامحة استمرت في التقريب بين القادة الألمان والقادة السوفييت طيلة بقية فترة ما بين الحربين . وقد أرجع جورج كينان هذا الاتفاق من ناحية إلى الإصرار السوفيتي ومن ناحية أخرى إلى الشقاق بين الغرب وشعورهم بالاستكانة. ومن الواضح أن الديمقراطيات الغربية كانت قصيرة النظر وبلهاء . ولكنهم بمجرد أن ارتكبوا خطأ وضع مسودة معاهدة فرساى لم تترك لهم سوى خيارات تنذر بشر عظيم . وفي المدى البعيد كان يمكن منع التعاون السوفييتي الألماني بعقد اتفاق فرنسي مع واحد منهما. غير أن أقل ثمن لمثل تلك الصفقة كان إعادة تصحيح الحدود البولندية وكذلك بلا شك إلغاء الرواق البولندي . وفي أوروبا التي كانت على هذه الصورة ، لم يكن في إمكان فرنسا أن تتلافى السيطرة الألمانية إلا بعقد حلف قوي مع بريطانيا العظمي الأمر بالطبع الذي رفض البريطانيون النظر فيه . وبالمثل فإن التأثير العملي لأية صفقة مع الاتحاد السوفيتي كان هو إعادة خط كيرزون ، الأمر الذي كانت سترفضه بولندا ولا تنظر فيه فرنسا . ولم تكن الديمقراطيات على استعداد لدفع أي من الثمنين، أو حتى الاعتراف بوجود مشكلة الدفاع عن معاهدة فرساى، دون السماح لألمانيا أو الاتحاد السوفيتي بأن يكون لهما دور مهم في ذلك .

وكان هناك دائما ، والحالة هكذا ، احتمال أن يقع اختيار العملاقين الأوروبيين على تقسيم أوروبا الشرقية بينهما بدلا من انضمام أحدهما إلى حلف موجه ضد الآخر . وهكذا ترك الأمر لهتلر وستالين اللذين لم يكونا مقيدين بأحداث الماضي ومدفوعين بشهوة القوة ، للقضاء على البيت الذي أقامه القادة السياسيون من ورق في فترة ما بين الحربين وكانوا حسنى النية هلعين محبين للسلام .

الدبلوماسية

إن الدبلوماسية ليست فنا من فنون الاستعراض أو اعتلاء مسرح السلطة لكنها علم وفن وخبرة وقدرة على التكيف والمرونة والمناورة.... إلخ، وذلك لإدارة العلاقات الدولية، وبشكل أساسى عن طريق المفاوضات والحوار.. وهذا أمر بالغ الصعوبة، لأنه يعتمد على قدرة إنسان ما على تغيير مسرح الأحداث، بما يتناسب مع رؤيته ومصالح وطنه.. حيث يقوم الدبلوماسيون بتحديد الأهداف والاستراتيجيات التى يجب اتباعها -لتحقيق هذه الأهداف والحفاظ على مصالح الدولة فى علاقاتها بالدول الأخرى، وهم - أي الدبلوماسيين - فى ذلك ينفردون فى وقت السلم بالحفاظ على المصالح العليا للدولة وفى حالة نجاحهم فى تحقيق هذا الهدف بكفاءة يظل العسكريون فى منأى عن الحرب التى بلغت الآن - بسبب الابتكارات الحديثة - أبعادا مخيفة، أما عندما يتحدث الدبلوماسيون أو يلجأون إلى خيار القتال والعمليات العسكرية فمعنى ذلك أنهم فشلوا تماما فى أداء مهامهم الأساسية، وبالتالى قاموا بإلقاء الكرة الملتهبة فى ملعب العسكريين.

محمد عبدالمنعم

